د. محمد عمارة

العرب والتحدي

دار الشروق

العَرَب والتحدي

طبعة دار الشروق الأولى
١٤١١ هـ - ١٩٩١ م

القاهرة ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤
برقيا شروق - تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص ب ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
برقيا داشروق - تلكس SHOROK 20175 LE

د. محمد عمارة

العرب والتحدي

دار الشروق

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

نادرة هي تلك الحالات التي تشبه حال الأمة العربية في صراعها الطويل والحضاري والدائم مع التحديات التي فرضت عليها . . وأندر من ذلك وجود حالة خرجت فيها أمة أخرى ، غير هذه الأمة ، من مثل صراعها هذا مع تلك التحديات دون ان تفنى او تمسخ هويتها الحضارية وتنطمس معالمها القومية فتصبح امتداداً هامشيا او ذيليا لأعدائها الذين فرضوا عليها ما فرضوا من تحديات . .

فعندما ينظر المرء ، اليوم ، الى خريطة الكوكب الذي نعيش فيه ، ويتجاوز عن خطوط الحدود السياسية التي تمثل الدول ـ وهي تقترب من المائتين ـ ثم يبحث عن الأمم ذات الحضارات المتميزة ، فان الرقم ، ولا شك ، لن يبلغ عدد اصابع اليدين بحال من الأحوال ! . . فاذا ما ذهب المرء ليعيد النظر في أمم هذه الحضارات ذات القسمات المتميزة ، باحثا عن تلك الأمم التي امتلكت حضارتها المتميزة هذه منذ زمن طويل ووقت موغل في التاريخ ؟ . . فان العدد سيهبط كثيرا ، مرة اخرى ! . . فاذا ما أرجع البصر والبصيرة ، كرّةً اخرى ، فتساءل : مَنْ مِنْ هذه الأمم ، ذات الحضارة المتميزة ، والعمق التاريخي المتحضر ، قد امتازت حضارتها ، تاريخيا ، بتعدي الحدود الجغرافية لدول هذه الأمة وامبراطوريتها ؟ . . فان العدد سيهبط مرة ثالثة !! . . فاذا ما

تساءل ، مرة رابعة ، وأخيرة : وأية أمة من بين هذه الأمم العريقة في التحضر ، وصاحبة الحضارة المتميزة ، وذات العطاء العالمي ، تملك اليوم ، وغداً ، أن تعود الى ساحة الحياة الانسانية فتعطي عطاءها الحضاري الانساني من جديد ؟ . . هبط العدد ، واقترب من الحد الأدنى للأعداد !! . . وأيضاً . . فاننا لا بد واجدون الأمة العربية واحدة من أمم هذا العدد القليل ! . .

فحضارة هذه الأمة وهي الحضارة العربية الإسلامية ، قد تبلورت واكتسبت طابعها المتميز وسماتها الخاصة ، بعد سنين غير قليلة من ظهور الإسلام وما أنجزته الفتوحات العربية على الجبهة السياسية، وما تم للمنطقة من توحد ، او تقارب ، عقلي وفكري تم انجازه بعد أن اكتمل لأهلها التعريب . . لكن ذلك الميلاد لم يكن نقطة البدء ، وانما كان طورا جديداً ومتميزاً في تطور حضاري قديم . فشعوب هذه المنطقة جميعاً ، بعقائدها الدينية المختلفة ، واصولها الحضارية المتمايزة ، قد أسهمت اسهاما خلاقا في صياغة هذه الحضارة العربية الاسلامية ، ولم يكن نصيب الذين هاجروا من شبه الجزيرة الى المواطن التي تعربت ، لم يكن نصيبهم في هذه الحضارة بأكبر من نصيب الآخرين . بل لقد اتاح الفاتحون العرب بتمييزهم بين ماهو « دولة » أقامها جيش فاتح في وقت قصير ، على نحو قياسي غير مسبوق في التاريخ . . وبين ما هو « تعريب » وامتزج مع اهل البلاد المفتوحة ، فكرياً وحضارياً ، وهو الأمر الذي استغرق عدة قرون . . أتاح ذلك ان يتم الانجاز الثاني بشكل بطيء ، أي طبيعي . . ومن هنا كانت الثمرة الجديدة ، وهي الحضارة العربية الاسلامية ، محصلة للفكر العربي الشاب والمجدد الذي تمثل في الاسلام ، وللقيم والأفكار والعلوم التي ظلت صالحة للنفع والعطاء والاستلهام من مواريث الأمم والشعوب التي دخلت في الدولة التي صنعتها الفتوحات . . الأمر الذي جعل هذه الحضارة الجديدة حلقة في سلسلة قديمة وعريقة ، هي سلسلة التطور الحضاري لهذه المنطقة ، وجعلها ، كذلك الوارثة لما سبقها من حضارات أبدعتها شعوب هذه المنطقة ، والامتداد المتطور لها . . ومن ثم فلم يكن تبلورها ميلاد حضارة جديدة ، بقدر ما كان طورا جديداً في مسار حضاري قديم وعريق ، سبقت

بداياته أية نشأة لأية حضارة أخرى على هذا الكوكب الذي نعيش فيه .

واذا كانت أمم قليلة جدا تماثل أمتنا في عراقة الحضارة واكتسابها طابعا يميزها عن غيرها من الحضارات ، مثل الحضارة الصينية والهندية واليونانية ، فان من هذه الحضارات من تخلت عنها أمتها ، مثل الحضارة اليونانية ، فقسماتها المتميزة لم تعد ملحوظة اليوم ، بل ومنذ أن لعبت دورها في البعث الاوروبي الحديث ، لقد غدت تراثا لعب دوره في عصر الاحياء وتجاوزته الحضارة الأوروبية المعاصرة . . أما الحضارتان الصينية والهندية ، فهما وان شاركتا الحضارة العربية في العراقة ، وفي احتفاظهما بما يميزهما من قسمات ، وفي وجود أمة عظيمة ،لكل واحدة منهما ، تنطبع بطابعها ، وتمنحها المحبة والولاء الا أن الحضارة العربية تتميز عنهما بطابعها العاملي وعطائها الانساني اللذين تمثلا في الدور الذي قامت به عندما كانت لأمتها كلمة مسموعة ودور بارز في الساحة الدولية ، وهو اختبار ، نجحت فيه ، يترجم عن خصائص ومميزات قد لا تكون في حضارات أخرى ويقوم شاهدا على أن ما حدث بالأمس ليس بعزيز ان يحدث في الغد ، اذا ما توافرت الشروط ولاءمت الظروف واعانت الملابسات !. .

والأمر الذي يجعل عودة هذه الحضارة الى الساحة الدولية والانسانية ، مرة أخرى ، امرا ممكنا ، لتسهم بعطائها الحضاري المتميز في تجديد حضارة الانسان وتطويرها ، رغم الكاهل العربي المثقل بمواريث التخلف والقصور ، ورغم التحديات التي فرضتها على العرب صراعات العصر الذي نعيشه ، ان تلك التحديات ، والصور المؤسية والمأساوية التي صنعتها وتصنعها بواقعنا الراهن ، ليست جديدة على هذه الأمة ، فلها معها تاريخ ، ولها في تراثها تراث ؟! ومع ذلك ، وبالرغم منه صنعت هذه الأمة ما صنعت ، واعطت ما أعطت ، وتحدت من وما تحدت . . وظلت قائمة ومستمرة ، بل وحية !. . بل لعل في تداعي الأعداء عليها ، واستمرارهم في التداعي والاعتداء ، ولعل في عنف التحديات وكثرتها : السبب والشاهد والدليل على الأصالة ، والصلاحية الدائمة والمتجددة للعطاء الدائم والمتجدد . . فقط علينا أن نعي انه اذا كان أعداء هذه الأمة ، بما

فرضوا ويفرضون عليها من تحديات يريدون مسخ هويتها الحضارية المتميزة ، والحيلولة دون امتلاكها شروط العودة مرة أخرى الى الساحة الدولية والانسانية قوة حضارية ذات عطاء حضاري متميز . . اذا كان هذا هو أمر الأعداء ، فان علينا أن نعي قانون صراع هذه الأمة ، تاريخيا ، مع التحديات التي فرضها على اسلافنا اسلاف هؤلاء الأعداء ، فلقد نجد في هذا القانون ما يعين عرب اليوم والغد على الافلات من القيد وكسر عنق الزجاجة وتجاوز الطريق المسدود ، كما أعان هذا القانون عرب الأمس على ذلك . . ومن ثم نفتح الطريق لأمتنا كي تصنع اليوم وغداً ما يجعلنا ، بحق ، خير خلف لهؤلاء الأسلاف العظام .

* * *

ولقد يكون مفيدا ، بل وضروريا ، ان نضع امام العقل العربي المعاصر إجابة موضوعية على هذا السؤال :

* لماذا كانت : قديمة ، وشديدة ، ومتنوعة ، ودائمة تلك التحديات التي فرضها أعداء كثيرون على هذه الأمة عبر تاريخها الطويل ؟!

فالفرس، منذ ما قبل الاسلام ، بل ومنذ ما قبل الميلاد، عاثت جيوشهم في المنطقة ، وعبث أكاسرتهم بمقدراتها وامكاناتها وخصائصها . . وبلغوا بذلك قلب مصر حينا ، وأرض اليمن احيانا ، وسواد العراق في اغلب الأحايين .

والاغريق والروم البيزنطيون صنعوا ذلك أيضاً ، فشملت سيطرتهم سواد المنطقة حينا ، واستقرت بمصر والشام في أغلب الأحيان .

وحتى الأحباش ، من بني يكسوم ، صنعوا ذلك مع اليمن ، بل وكادوا أن ينجحوا حتى في احتواء القلب الصحراوي المقفر ـ وسط شبه الجزيرة ـ وهو الذي ظل بمعزل عن احتواء الغزاة وسيطرة المحتلين . . كادوا أن ينجحوا في ذلك في غزوة الفيل ! . .

ولقد أتى على اسلاف هذه الأمة حين من الدهر فرض فيه الفرس نفوذهم على بوابتها الشرقية : العراق والخليج ، واتخذوا قطاعا من ابنائها ، وهم اللخميون ، سكان الحيرة ، أتباعا وجندا جعلوا منهم وقودا في صراعهم الطويل

ضد الإغريق والرومان البيزنطيين (٤٩٠ ق . م - ٦٢٧ م) ! . . وفي نفس هذا الحين من الدهر فرض الإغريق ، فالروم البيزنطيون سلطانهم على وسط هذه الأمة وقلبها : مصر ، والشام ، واتخذوا من عرب الشام الغساسنة أتباعا وجندا جعلوا منهم وقودا في صراعهم مع الفرس ، حتى لقد قتل العرب بعضهم بعضا قرب اثينا ، وعلى الدردنيل ، وفي مصر والقدس ودمشق وانطاكية ونينوى ، لحساب كل من الفرس والروم ! . . وفي ذات الحين من الدهر فرض الأحباش سلطانهم على عرب اليمن الحميريين في الجنوب ! . . هكذا من الشرق والغرب والشمال والجنوب ، ولم يبق بمنجى من الغزو والاحتواء سوى ذلك القلب القفر الموحش : وسط شبه الجزيرة ، الذي استعصى على الغزو حينا ، وصرف فقره الغزاة عنه حينا آخر . . وصدق الله العظيم عندما يصور العرب يومئذ بالفريسة المرتعدة المرتجفة من المنقضين عليها كالطيور الجارحة التي تناوشها فتنهشها ، وتهجم عليها فتخطفها وتتخاطفها : ﴿ واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون ان يتخطفكم الناس فآواكم وايدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون﴾[1] . . . واصاب المفسرون عندما قالوا ان الاشارة هنا الى فارس والروم ، الذين افترسوا العرب وفرضوا عليهم ما يفرض المستبد على التابع من مظالم وتحديات ![2]

هكذا كانت التحديات قديمة . . وهكذا بلغت . . لكن ، مرة أخرى : لماذا ؟؟ . . .

* هل هو الموقع الحاكم لوطن هذه الأمة ؟ . .

صحيح ان هذه المنطقة هي قلب العالم ، وملتقى عدد من قاراته ، ومعبر طرقه ومواصلاته ومن ثم فهي ليست كغيرها من المواطن التي بالوسع تركها في الظل والهدوء . . وأهم من ذلك أنها كانت دائما طريق تجارة العالم القديم كله . . فمن الصين التجارة تأتي على طريق بري يمر بسمرقند وبخارى ومرو

(١) الأنفال : ٢٦ .

(٢) انظر القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) ج٧ص٣٩٤ . طبعة دار الكتب المصرية . و(تفسير البيضاوي) ص ٢٦٥ . طبعة القاهرة سنة ١٩٢٦ م .

ونيسابور والري - بفارس - ثم يعبر شمال العراق الى آسيا الصغرى فأوربا . . . ومن الهند وجزرها كانت تأتي التجارة بحرا الى الخليج العربي ، ثم تتخذ لها عنده طريقين ، يصعد احدهما في الخليج ثم يدخل أرض العراق عند الأبلة فالبصرة ، فشمالا الى ديار بكر ، فآسيا الصغرى ، فأوربا . . . أما الثاني فيتجه بحرا في المحيط الى عدن فمكة ، فدمشق فحمص فحلب ، فآسيا الصغرى ، فأوربا . . أي ان تجارة العالم القديم ما كان لها ان تقوم ولا لأمرها أن ينتظم الا بموطن هذه الأمة ووطنها . . ومن هنا طمحت ، بل وطمعت كل القوى الراغبة في السيطرة بالاستيلاء على هذا الوطن ، فكان أن فرضت على اهله التحديات . . .

لكن هذا السبب لم يكن الوحيد . . . فعندما تقدمت أوربا في الاستكشافات الجغرافية ، وطاف البرتغاليون سنة ١٤٩٨ م بقيادة ڤاسكو دي جاما Vasco -De Jama (١٤٦٩ - ١٥٢٤ م) حول افريقيا ، ومروا برأس الرجاء الصالح ، الى الهند وجزرها ، وحولوا طريق التجارة العالمية عن ارض الوطن العربي . . عندما حدث ذلك ، ولم يعد للموقع ما كان له من خطر في التجارة والاقتصاد ، لم يكن ذلك ايذانا بانصراف الطامعين عن هذا الوطن ، بل كان ذلك بدء المرحلة جديدة من الطمع الأكثر شراسة ، وموجة جديدة من التحديات ! . .

* وهل هي ثروة هذا الوطن ؟ . . .

صحيح أن مصر كانت بالنسبة لروما : سلة الخبز ومخزن الغلال . . وصحيح أن لعاب نظم كثيرة وحضارات عديدة يسيل اليوم لما تفجر وما لم يتفجر بعد بهذا الوطن من ثروات . . .

لكن هذا السبب لم يكن هو الوحيد . . . فقبل تفجر ثروات اليوم ، وقبل التنبؤ بما هو كامن في ارضنا من ثروات . . وخلال فترات غير قصيرة من تاريخنا لم تكن ثروات هذا الوطن ملحوظة ولا مغرية بتجشم مصاعب الغزو ومعاناة السيطرة والاستعمار . . ومع ذلك ظلت هذه المنطقة مطمح الطامحين ومطمع الطامعين ! .

* وهل هو ما تمثله هذه المنطقة من دور « الضمير » ؟!..

لكن .. قبل الأجابة على هذا السؤال ، ماذا نعني بـ « الضمير » ؟....

لقد كانت هذه الأمة مهبط وحتى الديانات السماوية الكبرى الثلاث .. وبمعنى أدق موطن الشرائع الالهية الكبرى للدين الالهي الواحد ، الموسوية - (اليهودية) - ، والعيسوية - (المسيحية)- ، والمحمدية - (الاسلام) - .. ولقد عبرت هذه الشرائع حدود الوطن العربي ، واعتنقتها شعوب أخرى ، ذات حضارات غير عربية ، وطبعت هذه الشرائع بطابعها الحضاري المتميز .. وعلى سبيل المثال ، فان أوربا لم يغير من طمعها في هذا الوطن تدينها بالمسيحية التي جاءتها من هذا الوطن ، فظل عداؤها للعرب ، وهي وثنية ، هو عداؤها لهم وهي مسيحية !.. ذلك أن أوربا ، ذات الحضارة المتميزة بطابعها المادي في الأساس ، قد طوَّعت المسيحية - ديانة السلام المتصوف والصوفية المسالمة - لطابع حضارتها المادي المتميز ، وكما يقول امام المعتزلة قاضي القضاة عبد الجبار بن أحمد (٤١٥ هـ ١٠٢٤ م) فان النصرانية عندما دخلت روما لم تنصِّر روما ، ولكن النصرانية هي التي تروَّمت ؟!!! فالقيصر الوثني الذي كان يحكم بسلطان الحق الالهي ، أصبح رأس الكنيسة ، يحكم أيضا بالحق الالهي !.. وبعد أن كان يبيد المسيحيين ، بالحرب الدينية ، اصبح يبيد غير المسيحيين ، أو من لا يتمذهب بمذهبه المسيحي بالحرب الدينية كذلك !.. وكما يقول البيروني (٣٦٢ - ٤٤٠ هـ ٩٧٣ - ١٠٤٨ م) فان القيصر « قسطنطينوس » (٢٧٤ - ٣٣٧ م) المظَّفر ، منذ تنصَّر ، لم يجعل كلًّا من السيف او السوط يستريح من الحركة !.. على حين وافق طبع النصرانية طبع الحضارة الهندية ، لما بينهما من شبه في الجوهر والحال ..[1] لقد ظلَّت مسيحية الشرق والعرب نمطا آخر غير الذي تدينت به أوربا ، بل رأتها أوربا كفرا وهرطقة ، فكان عداؤها

---

(١) آدم متز (الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري) ج١ص ١٠٥ ترجمة د . محمد عبد الهادي أبو ريدة . طبعة بيروت سنة ١٩٦٧ م . وهو ينقل عن كتاب البيروني (تحقيق ما للهند من مقولة) . طبعة سخاو - ص ٢٨٠ .

المستمر لهذه المنطقة ، وكان اضطهادها للقبط اليعاقبة قبل الفتح العربي ، التعبير عن عداء « الانحراف » لـ « الضمير » ! . . . واستوى في ذلك حال « المنحرف » وموقفه قبل التدين بالمسيحية وبعدها .

وايضاً . . فالأتراك العثمانيون ـ (والعرب يسمونهم : الأروام !)(١) اعتنقوا الاسلام . . ومن قبلهم صنع ذلك المغول والتتار . . وهم جميعاً قد طوعوا الاسلام لما لحضاراتهم من مميزات ، فرأيناهم يقفون من هذا الدين ، أساسا وغالبا ، عند الشكل والشعائر ، وخاصة الطقوس . . ومن ثم فلقد كانوا جندا سريع الفتح ، وسيفا شديد البتر ، وجحفلا واسع التدمير ، سيان في ذلك حالهم قبل الاسلام في مواجهة اهله ، وبعد الاسلام ، باسمه وتحت بيارقه وأعلامه . . ومن هنا كان الود المفقود غالبا ، ان لم يكن دائما ، بين هذه الامم وبين هذه الأمة التي تمثلت في حضارتها المتميزة خصائص دين الاسلام . . .

إذن . . فنحن أمام سبب آخر ، أساسي وجوهري ، وعندما تضاف اليه أسباب : الموقع ، والثروة ، وما ماثلها . . نضع يدنا على مجموع العوامل التي جعلت من هذا الوطن وهذه الامة مطمع الغزاة دائما وأبدا ، وموضع التحديات الكثيرة المتنوعة والشديدة التي فرضها الأعداء على أمتنا طوال تاريخها الطويل . . وهذا السبب هو الذي يعطي لصراع هذه الأمة مع اعدائها طابعا حضاريا ، رغم تعدد الأعداء ، وتغاير الظروف ، وتبدل الحضارات ، لأنه متمثل في ذلك الطابع المتميز لحضارتنا العربية الاسلامية عن حضارات القوى والأمم التي ناصبتنا العداء .

إن أعداء هذه الأمة ، الذين فرضوا ويفرضون عليها تحديات الأمس واليوم ، لا ينظرون اليها فقط ، نظرتهم الى شعب مستعمر يستغلونه ، ويجاهدون للحيلولة دون تحرره كي لا تفلت من قبضتهم ما لديه من ثروات ، وإنما هم يرون فيه كذلك ، بل وقبل ذلك ، أمة تمتلك مقومات حضارة متميزة

---

(١) عبد الرحمن الكواكبي (الأعمال الكاملة) ص ٢٣٨ . دراسة وتحقيق د . محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٥ م .

وذات امكانيات للعطاء على المستوى الانساني ، ومن ثم فان انعتاقها من الأسر الاستعماري سيعني، مهما طال الزمن: الوحدة، والنهضة والعودة مرة أخرى طرفا مشاركا ، بل ومزاحما في نادي الأمم ذات الحضارة والعراقة والنفوذ ! . . ومن ثم فان على ابناء هذه الأمة ان يدركوا ، بوعي وعمق ، ان أمتنا لا تنشد حريتها وتقدمها ووحدتها لتضيف ، فقط إلى معسكر الأحرار أمة جديدة تقف في « طابور » الأمم الكثيرة المتحررة ، وانما لتعود من جديد إلى مواصلة العطاء الحضاري ، بل ولتقفز الى صدارة الأمم التي مارست هذا اللون من العطاء عبر تاريخ الانسانية الطويل ! . . فالهدف ليس فقط ، تحرير الأرض واستخلاص الثروة وامتلاك سبل العصرية ومناهج التقدم . . وانما الهدف هو ، ايضا ، توظيف كل ذلك في سبيل بلورة الشخصية الحضارية العصرية لهذه الأمة ، تمكينا لها من العودة ثانية كي تعطي حضاريا ، على نحو أكثر استنارة وفاعلية وغنى مما كانت عليه في عصور ازدهارها التي شهدت عطاءها القديم . . .

* * *

لكن . . هل حقا لهذه الأمة ، في الحضارة ، ما يميزها عن غيرها من الحضارات ؟! . .

إن الاجابة السريعة ـ التي لا تدخل بهذه الصفحات إلى بحوث الحضارة ـ تكفي فيها اشارات إلى عدد من القضايا في عدد من النقاط :

١ ـ ففي بعض الحضارات يغلب الطابع المادي ، حتى ليصبغ الروحانيات بصبغته ، كما نلحظ في الحضارة الأوربية ، قديما وحديثاً . . وفي البعض الآخر اغراق في الروحانية ، كما هو ملحوظ في تراث الهند الحضاري . . أما في الحضارة العربية الاسلامية فان الموقف المتوازن ، الذي يوازن بين القطبين ويوائم بين النقيضين ، هو جوهر ما يميزها ، حضاريا ، عن غيرها من الحضارات في هذا الميدان . . وهذه القسمة المميزة لحضارتنا هي اضافة اسلامية اكتسبتها في عصر تبلورها العربي ، بعد أن كانت مواريث المنطقة الحضارية موزعة بين المغرق في الروحانية ، مثل المسيحية ، والمغرق في المادية ، مثل

اليهودية . . فهذه اضافة اسلامية نرى فيها ، بوضوح ، موقف القرآن الذي يوازن دائما بين الماديات والروحانيات . . اضافة طبعت الحضارة العربية الإسلامية بهذا الطابع المميز والخاص .

٢ ـ ونفس الموقف المتوازن نجده هو طابع حضارتنا حيال قطبي « العقل » و « النقل » . .

فعلى حين لا نجد « للنقل » مكانا مع « العقل » في الحضارة اليونانية ، ولا نجد « للعقل » مكانا مع النقل في الجانب الديني بالحضارات التي انطبعت بالمسيحية ، نجد الحضارة العربية الاسلامية ، انطلاقاً من الجوهر الأصيل والنقي للفكر الاسلامي ، تقيم توازنا دائما بين هذين السبيلين من سبل الاستدلال والهدية والإرشاد. . فالذين وقفوا عند ظواهر النصوص ، دون اعطاء العقل مجالا ، بالتأويل ، هم قلة في الحضارة والتراث . . والذين رفضوا النقل كلية لا نلحظ لهم مكانا في حضارتنا ، وان وجد لهم أثر فهو ، ولا شك ، أثر يوناني ، لا عربي . . على حين نجد التيار الغالب والطابع المميز في هذه الحضارة هو ذلك الذي وازن ما بين « العقل » و« النقل » و « الحكمة » و « الشريعة » على نحو جيد وجديد ! . .

٣ ـ ونفس الطابع المتوازن يطبع حضارتنا العربية الاسلامية في الموقف من « الدين » و « الدنيا » . .

ففي الحضارات ذات الطابع المادي تحول « الدين » الى « دنيا » ، والعكس نجده في الحضارات التي أغرقت في الروحانيات . . أما في الحضارة العربية الاسلامية فان الموقف المتوازن ربط بين « الدين » و « الدنيا » . . بين « عالم الغيب » و « عالم الشهادة » . . بين « النفس » و « البدن » ، على نحو قد لا يكون مسبوقاً في غيرها من الحضارات . . فالربط بين وجوب « الشعائر » الدينية ، وصحتها ، وبين اشباع « الاحتياجات المادية » وتوافر الظروف « الصحية » للانسان ، هو موازنة وتوازن . . وتقديم صحة الأبدان على صحة الأديان ، بمعنى ترتيب هذه على تلك ، لا بمعنى الاقتصار على تلك دون هذه ،

هو موازنة وتوازن . . وربط فرائض ، مثل الصوم والصلاة والحج . . الخ . . بظروف الانسان الدنيوية ، من اقامة وسفر ، وقدرة وحاجة . . الخ . . هو موازنة وتوازن . . وهذه الاضافة الاسلامية التي طبعت حضارتنا بالطابع المتوازن نجدها في الكثير من صفحات تراثنا ، من مثل تلك التي يقول فيها الامام الغزالي (٤٥٠ ـ ٥٠٥ هـ ١٠٥٨ ـ ١١١١ م) : « إن نظام الدين لا يحصل الا بنظام الدنيا . . فنظام الدين ، بالمعرفة والعبادة ، لا يتوصل اليهما الا بصحة البدن ، وبقاء الحياة ، وسلامة قدر الحاجات ، من الكسوة والمسكن والأقوات والأمن . . . فلا ينتظم الدين الا بتحقيق الأمن على هذه المهمات الضرورية . والا فمن كان جميع اوقاته مستغرقا بحراسة نفسه من سيوف الظلمة وطلب قوته من وجوه الغلبة ، متى يفرغ للعلم والعمل ؟ وهما وسيلتاه الى سعادة الآخرة ؟ فاذن : **إن نظام الدنيا ، أعني مقادير الحاجة ، شرط لنظام الدين !** »[1] .

٤ ـ وكذلك توازن حضارتنا العربية الإسلامية بين « الفرد » و « المجموع » . . فلا تغرق في الميل لأحد القطبين على النحو الذي يضر فيعطل ملكاته ، أو يتيح الطغيان للنقيض . . بل لقد ربطت مصلحة « الفرد » ومصلحة « المجموع » وعلقت كلا منهما على الاخرى . . وعن هذه القسمة التي طبعت حضارتنا وميزتها نجد حديثا كثيراً في الكثير من صفحات التراث ، من مثل قول الماوردي (٣٦٤ ـ ٤٥٠ هـ ٩٧٤ ـ ١٠٥٨ م) : « . . واعلم إن صلاح الدنيا معتبر من وجهين :

اولهما : ما ينتظم به أمور جملتها . . . . .

والثاني : ما يصلح به حال كل واحد من اهلها .

فهما شيئان لا صلاح لأحدهما إلا بصاحبه، لأن من صلحت حاله، مع فساد الدنيا واختلال أمورها ، لن يعدم ان يتعدى اليه فسادها ، ويقدح فيه اختلالها ، لأنه منها يستمد ، ولها يستعد . ومن فسدت حاله ، مع صلاح الدنيا ، وانتظام أمورها ، لم يجد لصلاحها لذة ، ولا لاستقامتها أثرا ، لأن

(١) (الاقتصاد في الاعتقاد) ص ١٣٥ طبعة القاهرة ـ محمود على صبيح .

الانسان دنيا نفسه ، فليس يرى الصلاح الا اذا صلحت له ، ولا يجد الفساد الا اذا فسدت عليه ، لأن نفسه أخصّ ، وحاله أمَسّ . فصار نظره الى ما يخصه مصروفا ، وفكره على ما يمسه موقوفا ! »[1]

٥ ـ وكذلك وازنت هذه الحضارة بين « السلم » و « الحرب » . . ففتوحات امتها كانت ، في الجوهر والحقيقة ، تحريرا وازاحة لموجات غازية عن ديارها ، ولم تكن ، في الجوهر والاغلب ، عدوانا . . وحتى ما كان قهرا من سلطانها وسلاطينها نزل بأقوام آخرين فان تاريخ القهر يصنفه بين أخف ألوانه وأقصدها في الغلو والمغالاة ! . . وهي صانعة حضارة تنشد « السلم » مناخا ضروريا لنموها . . هي تعد العدة حتى تنفي القتل والقتال بالاستعداد . . وهي تجنح للسلم اذا كان السلم هو العدل والحق لأصحابه . . وحضارتها ، عندما توازن بين هذين القطبين ، فانها تترجم عن شخصيتها ، فهي ليست أمة جبلية متوحشة وشرسة ، وهي ليست بالتي تستسلم للقهر وتفرط في الحق وتستكين للغزاة . . . ولعل النهايات التي انتهت اليها المناظرات الكثيرة في تراثنا بين « السيف » و « القلم » ، والتي مالت لتزكيتهما معا ، وربط الأولوية لكل واحد منهما بالظروف والملابسات ، لعلها من الشواهد على هذا الموقف المتوازن . . وهل ينكر منصف أن المتنبي (٣٠٣ ـ ٣٥٤ هـ ٩١٥ ـ ٩٦٥ م) قد أوجز هذا الطابع الحضاري عندما قال :

أعز مكان في الدنى سرج سابح وخير صديق في الزمان كتاب ؟!

٦ ـ وهي كذلك قد وازنت ما بين العمل « الذهني » والعمل « اليدوي » ، على نحو باعد بين موقفها هذا وبين موقف حضارة اليونان . . فعلى حين قدست الأخيرة العمل « الذهني » واحتقرت العمل « اليدوي » ، الذي قصرته على الرقيق ، نجد الحضارة العربية الاسلامية توازن بينهما ، حتى لتكاد تمزجهما مزجا . . وليس ذلك بالغريب على حضارة أمة ربط اسلامها بين الايمان والعمل ، وكان المبدعون لعلومها وفنونها : « علماء ـ تجاراً »

(١) (أدب الدنيا والدين) ص ١٣٤ تحقيق : مصطفى السقا . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٣ م .

و « فلاسفة ـ أطباء » ، و « فلكيين ـ ملاحين » ، و « جغرافيين ـ رحالة » ، و « كيمائيين ـ يجرون التجارب » . . الخ . . . بل من الذي ينكر دلالة اشتغال نفر من ائمة التيار العقلاني من المعتزلة باجراء الملاحظات والتجارب على الحيوانات ، حتى ليستنكر الجاحظ (١٦٣ ـ ٢٥٥ هـ ٧٨٠ ـ ٨٦٩ م) انكار من يستغرب ذلك فيقول : « إن علوم الحيوان هذه يتفرغ للجدال فيها الشيوخ الجلّة والكهول العلية ، حتى ليختارون النظر فيها على التسبيح والتهليل ، وقراءة القرآن ، وطول الانتصاب في الصلاة ، وحتى ليزعمون أنها فوق الحج والجهاد ، وفوق كل بر واجتهاد !. »[1] ولعله يريد ان يقول : إنها ، هي الأخرى ، عبادة وجهاد واجتهاد ! . .

وهذه الحضارة ، في موازنتها بين العمل « الذهني » والعمل « اليدوي » وعندما مزجهما معا ، وساوت بينهما في الشرف قد ذهبت الى الحد الذي جعلت فيه « العمل » ـ عموما ـ المعيار الذي يعطي الأشياء قيمتها ، وذلك على حد قول ابن خلدون (٧٣٢ ـ ٨٠٨ هـ ١٣٣٢ ـ ١٤٠٦ م) : « إن ما يفيده الانسان ويقتنيه انما هو قيمة الأعمال الانسانية في هذه المقتنيات . . . »[2]

على هذا النحو ـ ومثله كثير ـ استطاعت الحضارة العربية الاسلامية ان توازن مواقف وقضايا وقيم ظلت في حضارات اخرى « متناقضات » لاسبيل الى التوفيق بينها . . ومن ثم فلقد اكتسبت طابعها المتميز هذا بين كثير من الحضارات . .

ولقد اسهم في ذلك وأعان عليه أنها قد تبلورت كوارث لمواريث حضارية متعددة ، وأيضاً متميزة . . فهي قد استفادت استفادة كبرى من المنابع الحضارية التي عاشت في المواطن التي كونت اجزاؤها امبراطورية العرب المسلمين . . والاسلام ، الذي كشف عن مميزات العرب ، قد استلهمت موجته الحضارية الشابة خير ما في علوم مصر وحكمة الصين وفلسفة الهنود وسياسة الفرس ، وتراث اليونان ، ثم أخذ يضيف اليها ، اخيراً ، ما دلته عليه الكشوف الحديثة

(١) (الحيوان) ج ١ ص ٢١٦، ٢١٧ تحقيق : عبد السلام هارون . طبعة القاهرة ، الثانية .

(٢) (المقدمة) ص ٣٠٣ . طبعة القاهرة سنة ١٣٢٢ هـ .

من نواحي عبقرية المصريين القدماء . .

وهــذه الميـزة التي امتــازت بهـا حضــارتنـا ليس مـبعـثهـا المـوقـف « الانتقـائي ـ التلفيقي » ، وانما مـردها الى الـطابع التحـرري الـذي حكم بنـاء الدولة العربية منذ الفتوحات العربيـة الاسلاميـة الأولى ، وهو طـابع جعـل من هذه الدولة الوارث الشرعي للمواريث الحضارية لأمم المنطقة ، ولم يجعلها ، كما كانت بيزنـطة ، مثلا ، القـوة القاهـرة التي تفرض طـابعها الحضـاري ومذهبهـا الـديني على الآخـرين . . ومرد هـذه الميـزة كـذلـك مـوقف « العـدل ـ القسط ـ الوسط ـ » الذي غلب على نهج العرب المسلمين في التفكير ، وهو الموقف الـذي رفض التطرف المغالي ، واختار « الحق » الذي يتوسط ، دائما بـاطلين ، ولذلـك رأيناه وهو يختار « التوسط » يأخذ من قطبي الظاهرة وطرفيهـا « النقيضين » ـ مـا يمكن أن يمازج ويمتزج « بالوسط ـ العدل ـ القسط » فيكون معـه الاختيار المتميـز ذا الطابع المتـوازن . . ولقد اتـاح هذا النهـج لأصحابـه الاستفادة من العنـاصر المتعـددة والقيم المتنوعـة ، وهيأ لهـا مناخ التفـاعل والائتـلاف حتى صارت بنـاء حضاريا متميزا إلى حد كبير .

إذن . . . فنحن امام حضارة عريقة . . . وذات طابع متميز . . وسبق أن تخطت الحدود السياسية والقـومية لأمتهـا فنهضت بدور رائـد وملحوظ في العـطاء الحضاري الانساني . . ولهذه الحضارة أمـة كبرى ، تؤلف بينهـا قسمات خـاصة لقومية واحدة، ولهذه الأمة، غير هذه الحضارة، امكانيات كثيرة، الأمر الذي ينبىء ، عـلى نحو صـادق ومحقق ، ان تحقق شروط معينـة سيجعل هـذه الامـة تنهض من مرقدها ،لا لتتحرر وتتحضّر فقط ، بل ولتسهم حضـاريا في السـاحة الانسانية من جديد ، ولتمارس في هذه الساحة ، حضاريا أيضاً ، دورا هو أشبه بدور « الضمير » ! . .

ومن هنـا كان الحـرص ، الـرقيق والعنيف ، الخفي والمعلن ، من أعـداء كثيرين يخشون المزاحمة ، وينفـرون من « الضمير » ! . . حـرصهم على ان تـظل هـذه الامـة اسيـرة في مـرقـدهـا ، تشـدهـا الى الخلف مـا فـرضــوه عليهـا من تحديات . . .

ومن هنا ، ايضاً ، كانت أهمية اكتشاف هذه الأمة للقانون الذي حكم صراعها التاريخي ضد التحديات التي فرضها على اسلافها أسلاف هؤلاء الأعداء . . ذلك أن تغير الصراع ، وتطور أسبابه وملابساته ، وتبدل بعض الفرقاء والأطراف فيه ، لا ينفي الوحدة والعموم في القانون الذي حكم أدواره وسيطر على أحداث حلقاته على مر التاريخ . .

وبالطبع ، فان الوصول إلى اكتشاف هذا القانون مرهون بالوقوف امام اهم وأخطر ما واجهته هذه الأمة ، عبر تاريخها ، من تحديات . . .

الفصل الأول

بالفتوحات واجهوا محاولات الاحتواء

لنتأمل رقم هذا العام : سنة ٥٧١ م .

. . . .

. . . .

إنه عام الفيل . . زحفت فيه جيوش الحبشة بقيادة أبرهة من جنوب شبه الجزيرة ـ اليمن ـ الذي كانت قد أحتلته سنة ٥٣٠ م ، زحفت ، بتحريض من بيزنطة ، الى وسط شبه الجزيرة العربية لتحتله وتحتويه ، فهذا الوسط هو كل مابقي للعرب بعيدا عن الاحتواء من الغزاة . . فالفرس كانوا يسيطرون ويهيمنون على مشرق شبه الجزيرة ، والروم البيزنطيون على شمالها وغربها ، والحبشة قد احتلت الجنوب ، ثم ها هي ، ومن ورائها بيزنطة ، قد نهضت لاحتلال القلب ، وذلك حتى يخمد هذا الجسد تماما أو ، على الأقل ، يستغرق في سبات عميق وطويل ، وحتى يتم للحبشة وبيزنطة السيطرة على جميع مراحل التجارة العالمية : (عدن ـ صنعاء ـ مكة ـ الشام ـ آسيا الصغرى ـ فالقسطنطينية) فيحققون بذلك ميزة كبرى في الصراع التاريخي ضد الفرس الذين كانوا يتحكمون في الطريق الثاني لهذه التجارة بسيطرتهم على العراق ! . . .

وكما كان الجنوب ـ بعربه الحميريين ـ رازحا تحت النير الحبشي ومكبلا

وعـاجزا عن حمـاية القلب . . كـذلك كـان الجناحـان ، في الشـرق والغـرب ، فالتبعية للروم والفرس تستنزف طاقتهما ، بل وتستنزفها في صراع اصبح عربهما ، الغسـاسنة واللخميـون ، بعض وقوده . . فـالحارث بن جبلة (٥٢٩ ـ ٥٦٩ م) يقود قومه الغساسنة في الحرب ضـد المنذر الثـالث اللخمي ملك الحيرة لحسـاب الـرومان . . وبعـد أعوام ـ في سنـة ٥٤٤ م ـ يـأسـر المنـذر اللخمي أحـد أبنـاء الحارث الغساني فيقـدمه قـربانـا للإلّهـة « العزى » ! . . ثم يعـود المنذر الغسـاني ـ ابن الحـارث بن جبلة ـ فيدمـر عاصمـة اللخميـين ويحـرقهـا ، ايضـا لحسـاب الرومان ، الذين يكافئونه فيضعون على رأسه تاجـا ! . . و « يوم حليمـة » الذي فاضت الأحاديث بذكره في « ايام العرب » وملاحمهم ، وذهب مثلا يقول : (ما يوم حليمة بسر !) هو واحد من أيام تلك الحرب التي اقتتل فيها العرب لحساب كل من فارس والروم ، « فحليمة » هذه ، هي بنت الحارث الغسـاني ، جلست تستعـرض ، في زينتهـا وبهـائهـا ، جيـوش ابيهـا ، وطيبتهـا بـالـطيب بيـديهـا الجميلتين ، وهي زاحفة إلى ميدان القتال كي تحارب العرب اللخميين؟! . .

هكـذا كان حـال العرب في ذلـك التاريـخ . . مستضعفـون يخـافـون ان يتخطفهم الناس ، كـما وصفهم القرآن الكـريم . . لكن عنف الخطر وشـدته ، وجدية التحدي الذي طرح في الساحة العربية سؤال: نكون؟ او لا نكون ؟! قد أحدث في جسد هذه الجماعة الانسانية اختلاجات اخرجت من الاعماق ما هو كامن وأصيل ، فكانت هزة الجسم واختلاجته ورعشته اذا مسه الخطر الشديد ، فنفض بهزته هذه عن كاهله اخطر السلبيات وأثقل القيود ، وبدأ المسير في اتجـاه حركة التاريخ ، واضعا قدمه على أول الطريق . .

* فالطريق أمام جيش ابرهة لم يكن معبدا ولا مفتوحا ، بل قاومته قبائـل عربية كثيرة وهو صـاعد نحـو مكة ، وكـان أعراب البـادية يغيـرون على جيشـه ياسرون منه الجند فيستـرقونهم ، وينهبـون منه المؤن والمعـدات . . صنع ذلـك العرب اليمنيون بقيادة « ذو نفر » . . وبعد هزيمتهم قاد المقاومـة للجيش الغازي « نفيـل بـن حبيب الخثـعـمي » ومـن خلفـه قـبـائـل خثـعم « نـاهس »

و « شهران »[1] . . . والعربي الوحيد الذي خان قومه ، وقام بمهمة الدليل لجيش أبرهة ، وهو « أبو رغال » ، خلد العرب خيانته ، وجعلوا من رجم قبره بالحجارة سنّة قاربت شعائر الدين ، حتى لقد ضرب بها الشاعر جرير المثل في هجائه للفرزدق فقال :

اذا مات الفرزدق فارجموه كما ترمون قبر ابي رغال !

* ولم يكد الفشل يصيب حملة ابرهة على وسط شبه الجزيرة ، حتى هبت ضده وضد الاحتلال الحبشي مقاومة عرب اليمن في الجنوب ، فلقد نهض القائد العربي سيف بن ذي يزن (١١٠ ـ ٥٠ ق . هـ ٥١٦ ـ ٥٧٤ م) لتحرير اليمن واجلاء الأحباش ، واستعان على ذلك بما بينهم هم وبيزنطة وبين الفرس من صراعات وتناقضات . . ونجحت ثورته في تحرير الجنوب .

* وكانت رئاسة حكومة مكة في ذلك التاريخ ـ ومنذ سنة ٥٢٠ م ـ لعبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف (١٢٧ ـ ٤٥ ق . هـ ٥٠٠ ـ ٥٧٩ م) ، فانتهز فرصة الانتصار الذي احرزته اليمن ضد الاحباش ، بعد الفشل الذي أصاب حملة ابرهة على مكة ، ورأس وفدا من حكومتها ومن أشراف قبائل وسط شبه الجزيرة ، وذهبوا الى سيف بن ذي يزن ، الذي استضافهم لأكثر من شهر ، دارت بين الفريقين فيه محادثات عن تضامن عرب الجنوب والوسط لحماية طريق التجارة ، ولإحكام القبضة العربية الخالصة عليه ، وللتصاعد بما تم من انتصارات نحو مزيد من الانتصارات التي تحول اتجاه الريح في شبه الجزيرة وتحول بين العرب وبين التمزق والشتات الذي جعلهم فرائس للغزاة ، وتدفعهم الى التضامن والتآلف والتآزر الذي ينقذهم من التحديات التي تكاد **تطبق عليهم القبضة وتحكم حول عنقهم الخناق ! . . .**

* وحول هذا التاريخ شهدت ظاهرة التمزق العربي ، الذي جسدته المنازعات والحروب القبلية ، تطورا في اتجاه جديد . . فلقد اتفقوا على هدنة سنوية مقدسة ، هي الأشهر الحرم (رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم)

---

(١) د . محمد عمارة (فجر اليقظة القومية) ص ٤٠ طبعة القاهرة ، الثانية سنة ١٩٧٥ م .

يسود فيها السلم شبه الجزيرة ، وتنمو فيهـا الروابط وتنعقـد فيها الأواصـر ويعلو صوت العقل والحكمة وتداوى الجراح . . .

وفي هذه الأشهر الحـرم كانت تقـام أسواق العـرب ، التجاريـة والأدبية ، الأمر الذي تصاعد بسلطان اللغـه الأدبية المشتـركة عـلى حساب اللهجـات التي اخذت في الضمور حتى في الربوع والنجوع ومضارب الخيام . .

وفي هذه الأشهر الحرم أيضا كان يتم الحج الى مكـة . . ولقد أدى انتـظام هذه الشعيرة العربية وتمكن كل القبائل ، في ظل السـلام ، من ممارستهـا إلى أن أقامت كل قبيلة لمعبودها تمثـالا حول الكعبـة بالمسجـد الحرام ، وذلـك حتى يجد كل طائف نسخة من معبوده عند الكعبة ساعة الطواف ، فتحولت الكعبة بذلك الى « معبد موحد » للعرب ، جسد بداية توحيد هوية تلك الجماعة البشرية التي كان تعدد آلهتها رمزا لتمزق هويتها والشتات المستشري في بنائها القومي . . لقد بدأت ظاهـرة التمزق في الانحسـار ، واخذت المؤشـرات تتجه نحـو المزيـد من التآلف في الشخصية العـامة ، ونحـو المزيـد من الخيوط التي تـوحد وتنسـج كلا واحدا من ذلك الشتات الذي مزقته الحروب والصراعات . .

* ومـرة أخـرى لنتـأمـل رقم ذلـك العـام ، عـام غـزوة الفيـل ، سنـة ٥٧١ م . . ففي هذا العام الذي شهد بـداية هـذا التحول في الـظاهرة العـربية من : خضوع الفريسة للتحدي إلى انتفـاض جسدهـا وروحها بعـوامل المقـاومة لذلك التحدي . . في هذا العام ولد محمـد بن عبد الله بن عبـد المطلب ، عليـه الصلاة والسلام ؟! . .

* وحول التاريخ ، ايضا ، تصـاعدت حـركاتُ الـرفض للديانـة الوثنيـة العربية ، تلك التي كانت تجسد بآلهتها المتعددة الشتات والتمزق في هوية هذه الجماعة من الناحية القومية . . وتطلعت الأبصار واشـرأبت البصائـر من الحكماء الذين صنعت نفوسهم واحتـوت قلوبهم وقولهم همـوم الجماعـة التي أحدقت بهـا المخاطر واحاطتها التحـديات ، تـطلعت أبصارهم واشـرأبت بصائـرهم إلى دين جديد ، توحد عقيدته ولا تفرق ، وتؤلـف شريعتـه ولا تمزق . ولقـد أرادوه دينا

عربيا ، يحمل ، مع جوهره الإلّهي وحقيقته الربانية ، هالات المجد القومي للعرب الأقدمين . . فكان أن جد البحث والتنقيب عن بقايا ديانة التوحيد لابراهيم الخليل ، عليه السلام ، فهو جد العرب العدنانيين ، ووالد أبيهم اسماعيل ، عليه السلام ، وهما اللذان رفعا القواعد من البيت ، بمكة ، فأقاما للعرب أول بيت وضع للناس. . . ومن هنا بدأ هؤلاء الحكماء ، والمتأملون ، وأصحاب النفوس الصافية ، والحاملون هموم أمتهم ، بدأوا يصبأون أي ينحرفون عن الشرك والتعدد الى التوحيد ، وينصرفون ، رافضين ، عن إجلال الاصنام وتقديسها وعبادتها إلى عبادة الله الواحد ، كل وفق ما تيسر له بتأمله الذاتي ، مستعينين على ذلك بما تيسر لهم جمعه من بقايا ديانة ابراهيم عليه السلام . .

كان العرب يريدون دينا حقا ويتطلعون الى شريعة إلّهية . . ولكنهم كانوا ينشدون في الدين الذي يريدونه وفي الشريعة التي يتطلعون اليها ، العون القومي على اعادة مجدهم وتأليف وحدتهم كي ينهضوا ويصمدوا في مواجهة التحديات . . ومن هنا كان تطلع « الحنفاء ـ الصابئة » ، إلى شريعة ابيهم اسماعيل وجدهم ابراهيم . . وكان رفضهم لكل من المسيحية واليهودية ، على الرغم من اكتمال بنائهما الفكري والديني أكثر بكثير من تلك البقايا التي جمعها « الحنفاء » من ديانة ابراهيم .

لم يجد العرب الحل الذي ينشدونه ويتطلعون اليه في اليهودية ، على الرغم من اعتناق قطاعات من قبائلهم لها وتدينهم بها ، وخاصة في يثرب . . لأن اليهودية بالنسبة لهم كانت دينا اجنبيا . . فهي قد تحولت ، على يد العبرانيين ، الى دين خاص بأبناء إسحق ، والتوحيد فيها شابته شائبة وثنية عندما استأثر العبرانيون بالله ، فجعلوه إلّه بني اسرائيل ، لا إلّه العالمين ! . . ثم انها قد تحولت ، على يدهم ، إلى « جيتو » فكري ، ففقدت القسمات العالمية والانسانية التي هي ابرز القسمات في الدين الإلّهي الواحد ، كما بشر به الرسل والأنبياء . . بل أن اليهود في شبه الجزيرة ، قد جعلوا من دينهم سلاحا ضد العرب ، وطالما استعرضوا به خيلاءهم وكبرياءهم ، كأهل كتاب ، مستهدفين اخضاع العرب وإذلالهم وتعميق الشتات والتمزق في نفوسهم . . حتى ليكاد المرء أن يجزم بأن

العرب قد رأوا في هذه اليهودية واحدا من التحديات التي فرضها عليهم الأعداء في ذلك التاريخ !..

ولم يجد العرب ، كذلك ، الحل الذي ينشدون واليه يتطلعون في المسيحية ، وذلك على الرغم من أنهم عرفوها في رحلات التجارة شتاء إلى الجنوب ، وصيفا الى الشمال .. وعلى الرغم من تناثر صوامع للأحبار والرهبان على مشارف مدن لهم وحول الطرق التي تشق الصحراء .. بل وعلى الرغم من تدين قبائل وقطاعات من قبائل بهذا الدين .. ذلك إن المسيحية ، كانت بالنسبة لعرب ذلك التاريخ ، هي ديانة الروم البيزنطيين واحباش بني يكسوم .. إنها الديانة والفكر و « النظرية » للغزاة الذين يفرضون عليهم التحديات !.. ومن هنا لم يجد فيها العرب الحل الذي ينشدون ، بل لعلهم قد رأوا فيها عكس الذي يريدون !..

وفي هذا المناخ ، وتلك الملابسات جدّ نفر من طلائع هذه الجماعة العربية في البحث عن « الهدى » و « الرشاد » في دين إلهي ، وشريعة ذات طابع قومي عربي ، ينهض بها العرب وتنهض بهم في مواجهة ما فرض عليهم من تحديات . فكان ان اتسعت بوسط شبه الجزيرة ، وهو الذي احتفظ بهويته العربية الأكثر نقاء ، اتسعت حركة « الحنفاء » ..

فخالد بن سنان العبسي : يظهر بنجد ، ويدعو قومه إلى دين جديد .. واذا كانت مصادر التاريخ لا تسعفنا بما يحدد ملامح شريعته ، إلا أنها تذكر لنا أن ابنته قد عاشت حتى أدركت، وهي عجوز ، ظهور الإسلام ، فوفدت مع وفد قومها الى المدينة مسلمين يبايعون الرسول عليه الصلاة والسلام ، وتضيف هذه المصادر إن الرسول عندما قالوا له : هذه ابنة خالد العبسي ، نهض ، فاستقبلها ، وفرش لها عباءته واجلسها عليها ، قائلا لها : « مرحبا بابنة نبيّ ضيعه اهله !(١) » ـ فهو ـ ان صحت رواية الرواة ـ « نبي » وليس « بمتنبىء » .. نبي عربي جاء ليبشر قومه بشريعة جديدة ، غير اليهودية

(١) الزركلي (الاعلام) طبعة بيروت ، الثالثة .

والنصرانية . . وصدق الله العظيم حيث يقول ﴿ ولقد ارسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك ﴾(1)

وزيد بن عمرو بن نفيل (١٧ق . هـ ٦٠٦ م) : رفض ، هو الآخر ، عبادة الأصنام ، ولقي رهبان النصرانية فحاورهم ، ثم رفض النصرانية ، والتقى بأحبار اليهودية فجادلهم وعزف عن يهوديتهم . . وحرم الخمر على نفسه ، ودعا قومه إلى تحريمها ، ونهاهم عن عبادة الأوثان ، وكان يتأمل ، معتكفا ، ويتعبد في كل عام شهرا ، هو شهر رمضان بغار حراء . . ولقد مات زيد هذا ، وهو في طريقه إلى الشام ، طائفا يبحث عن الحق ، ويتأمل السبيل إلى دين جديد . . . مات قبل نزول الوحي على محمد ، صلى الله عليه وسلم ، بأربع سنوات . . وعندما تحدث عنه الرسول قال : « انه يبعث يوم القيامة أمة وحده » ! . .(2)

وأبو ذر الغفاري (٣٢ هـ ٦٥٢ م) : يسلك ، بالتأمل ، درب « الحنفاء » ، فيصل إلى عقيدة التوحيد ، فيعبد الله الواحد ، بل ويصلي له قبل ظهور الإسلام بسنوات ثلاث . . . وعندما سمع بدعوة محمد ، في مكة ، وهي لا تزال في طور السرية ، ذهب اليه مؤمنا ، ومسلما عليه بتحية الاسلام ، قبل أن يخاطبه الرسول او يدعوه ! . . (3) لقد كان ينتظره ، ويتطلع لقدومه منذ سنوات ، وكان بذلك يجسد تطلع هذه الأمة إلى شريعتها التي تمثل بالنسبة لها طوق النجاة من تحديات الأعداء الذين جعلوا حتى من ديانات السماء قيودا أرادوا بها ازهاق الروح العربية واحتواء هذه المنطقة ، مجوسا فرسا كان هؤلاء الأعداء ، أم نصارى من الروم والأحباش . .

لقد كانت شبه الجزيرة العربية ، وخاصة وسطها ، تشهد في ذلك التاريخ سباقا مع الزمن ، وصراعا مع التحديات . . ومن هنا كان تطلع أبصار

---

(1) غافر : ٧٨ .

(2) الأصفهاني (الأغاني) ج٣ص ٩٧٣ . طبعة دار الشعب . القاهرة .

(3) (صحيح مسلم) بشرح النووي ج١٦ص٢٧ . طبعة محمود توفيق القاهرة . وانظر كتابنا (مسلمون ثوار) ص ٢١ . طبعة بيروت ، الثانية ، سنة ١٩٧٤ م .

حكمائها وبصائرهم إلى امر جديد ، وبالتحديد الى بعثة نبي جديد . . كانت آلام المخاض تنبىء بحتمية التغيير ، ومن هنا كان التطلع ، من الجميع ، لهذا الرسول القادم . . نعم ، من الجميع . . وان اختلفوا : أعربيا يكونْ ؟ أم من العبرانيين ؟ . . وان كان عربيا ، فمن أي القبائل والعصبيات ؟ أعظيم مكة : الوليد بن المغيرة ؟ أم عظيم الطائف : عروة بن مسعود الثقفي ؟ . . أم شريفا من قريش ، لكنه من البسطاء والفقراء ؟ . . ومن الذي يسبق إلى دعوته مستجيبا لها ، فتكون له الحظوة ويكون له السبق والنفوذ ؟ العرب الذين يتطلعون لجديد يعتقهم من الوثنية والتمزق وينجيهم من خطر التحديات ؟ أو أولئك الذين اتخذوا اليهودية دينا ؟ . .

كان هناك ، اذن ، هذا التطلع ، وهذا السباق مع الزمن ومع التحديات . . ولنتأمل رواية ابن اسحاق (١٥١ هـ ٧٦٨ م) لأحداث بيعة العقبة التي كانت بمثابة « العقد السياسي على تأسيس الدولة العربية الاسلامية الأولى » بين عرب يثرب ، من الأوس والخزرج ، وبين الرسول ، صلى الله عليه وسلم . . « فبينما الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، عند العقبة ، لقي رهطا من الخزرج . . فقال لهم :

ـ من انتم . . ؟

ـ نفر من الخزرج . . .

ـ أمن موالي يهود ؟! . . .

ـ نعم ! . . »

وتمضي الرواية : « وكان يهود معهم في بلادهم . . . **وكانوا قد غزوا بلادهم** ،فكانوا اذا كان بينهم شيء قالوا لهم : **إن نبيا مبعوث الآن ، قد أظل زمانه ، نتبعه ، فنقتلكم معه قتل عاد وإرم** ! . . فلما كلم رسول الله أولئك النفر ، ودعاهم إلى الله ، قال بعضهم لبعض : **يا قوم ، تعلموا** ، والله ، **أنه**

النبي الـذي توعـدكم به يهـود ، فلا تسبقنكم اليـه ! . . فأجـابـوه فيـما دعـاهم اليه؟! »[1] .

فالعرب كانوا يتطلعون إلى نبي . . وكـذلك اليهـود الذين كـانوا يمثلون ، هم الآخـرون وضـع الغـزاة في تلك البـلاد ، حيث حـولـوا عـرب المـدينـة إلى « مـوالي » ! . . وكان هؤلاء الغـزاة ، الذين يمثلون واحـدا من التحـديـات التي فرضت على العرب ، يريدون الاستئثار بالنبوة المنتظرة لتكون ، هي الأخـرى ، تحديا جديدا ضد الجماعة العربيـة ، لكن المعانـاة والعبقريـة والالهام قـد دفعت عرب يثرب إلى السبق ، فسبقوا إلى الايمان بـالنبي الجديـد ، (إنه النبي الـذي توعدكم به يهود ، فلا تسبقنكم اليه !) ـ وعقـدوا بيعة العقبـة ، مع الـرسول ، عليـه الصلاة والسـلام ، فكانت الـدولة العـربية الاسـلاميـة الأولى ، التي بـدأ بظهورها طور جديد تماما ، وحاسم تمامـا ، في تاريـخ العرب ، بـل والانسانيـة جمعاء ! . . .

وبالطبع ، فان الذي يعني هذا البحث من ذلك الحدث الـذي اهتزت لـه أرض شبه الجزيرة وجاوبتها في ذلك سماؤ ها ، ليس جانبه الديني ، وانما الـذي يعنينا هنا ما كان له من طابع قومي جـاء في اطار المـوقف الايجابي الـذي اتخذتـه الجماعة العربية تجاه ما كان مفروضا عليها من تحديات . .

فهـا هي القيادة العـربية ، التي كـان العرب ، الحنفـاء والحكـماء والـذين تقض الأخطار والتحديات مضاجعهم ، يتطلعون اليهـا قد ظهـرت تبشر بـدعوة الاسـلام ، دين الحنيفيـة المسلمـة ، دين ابـراهيم واسمـاعيـل . . وهي قيـادة قرشية ، لهـا كل مـا لقريش من شـرف ونفوذ ، وهي ، من ثم مكيـة ، لها وزن مكة ، ام القرى في شبه الجزيرة ، ووسطها بالذات . .

حقـا إن محمـدا ، صـلى الله عليـه وسلم ، كـان في الأسـاس وقبـل كـل شيء ، نبي الله ورسوله . بعثه الله الى الناس كـافة ، وليس للعـرب وحدهم ، والدين الذي دعـا الناس اليـه هو دين الله الـواحد ، الـذي بشّر بـه كل الـرسل

(۱) النويري (نهاية الأرب) ج١٦ ص ٣١٠ و ٣١١ . طبعة القاهرة .

والانبياء من قبل، وهو في هذا قد جاء مصدقاً لما بين يديه من الكتاب توراة وانجيل، والـذي أوحاه الله اليـه، في هذا الجـانب، هـو الـذي أوحى إلى من سبقـه من المرسلين والأنبياء ﴿والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصدقاً لما بين يديه﴾[1] ﴿ شرع لكم من الدين مـا وصى به نـوحا والـذي أوحينا اليـك ومـا وصينـا بـه ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيمـوا الدين ولا تتفـرقوا فيه﴾[2]، ففي عقائـد: التـوحيد، والحسـاب والجزاء الأخـروي، والعمل الصـالح... وهي اصـول الدين الإلٰهي الواحد، لا خلاف ولا اختلاف بين جميع الرسل والرسالات...

لكن محمدا قد جاء بشريعة جديدة، غير تلك التي تحولت من بعد عيسى على يد الرومان إلى قسمة من قسمات الحضارة الأوربيـة المادية... وغـير تلك التي تحـولت من بعد مـوسى على يـد العبرانيـين الى ما يشبـه الوثنيـة «للجيتو» اليهودي.. وهي شريعة اسلاميـة تمثل الاستجـابة لحـاجات الانسـانية المتـدينة عندما تبلغ سن رشدها فتستعين «بالعقل» استعانتها «بالنقل»، وتجد في العلوم المعتمدة على «البرهان العقلي» الثقة والطمأنينة التي تجدها في العلوم المؤسسة على «الوحي».. ومن هنا فهي طور جديد في مسيرة الانسانية على درب رسالات السماء وشرائعها الدينية..

وايضا.. فلم يكن ذلك كـل الجديـد في رسالـة الاسلام.. فمحمـد، عليه الصلاة والسلام، لم يكن يبشر بدعوته الجديدة في الفراغ، ولا في ظـروف مواتية.. صحيح انه، بالنسبة للعرب الذين تـطبق التحديـات على مصـائرهم وتهـدد الاخطار مستقبلهم، يمثـل حاجـة طالمـا تطلعـوا اليها، وضـرورة طـالمـا استشرفوها.. ولكن العصبية القبلية كانت هناك، وهي تريد القيادة العـربية، ولكنها تريدها من بينها هي، ومن قبيلتها وعصبيتهـا.. فأبـو سفيان بن حـرب (٥٧ق. هـ ٥٦٧ ـ ٦٥٢ م) يلتقي بعـظيم ثقيف والطائف عـروة بن مسعـود الثقفي (٩ هـ ٦٣٠ م) فيسـأله رأيـه في محمد ودعـوته، فـلا يجرؤ عـروة عـلى تكـذيب محمـد، ولكنـه يقـول لأبي سفيـان: «مـا كنت لأومن لنبي ليس من

---

(١) فاطر: ٣١

(٢) الشورى: ١٣

ثقيف ؟! . . » فالعصبية القبلية كانت مصدرا لتيار رافض ، بل ومعاد ، لدعوة الإسلام . .

وكانت هناك ايضا المصالح الاجتماعية التي تستثمر الأوضاع الجائرة التي استشرت في شبه الجزيرة ، من الربا والرق والاستغلال . . الخ . . واصحابها قد رفضوا الاسلام ، لأن محمدا لم يكن من الأغنياء المستغلين ، ولأنه يبشر بأن ارادة إلهه : ﴿ ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين﴾[1] . . وقديما قال اسلافهم ﴿ أنّى يكون له الملك علينا ونحن احق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال ؟!﴾[2] فكانوا ،هم ايضاً ، مصدر تيار رافض لدعوة الاسلام . .

وكان هناك الذين ارتبطت مصالحهم ، المادية والاجتماعية والأدبية ، بديانة الشرك ، وتعدد الآلهة وعبادة الأصنام . . وفي مكة كان نفوذهم كبيراً ، فهي موطن حج المشركين ومكان معارضهم واسواقهم التجارية ، واليها يجلبون الأموال والتجارات . . . وهذه الفئة قد أشفقت على رواج مكة المالي ، ومن ثم رواجهم هم ، من ذلك الدين الذي سيصرف عبدة الأوثان العرب عنْ تقديس مكة والحج اليها إن هي آمنت ، دونهم ، بالدين الجديد ، فكانت هذه الفئة ، كذلك ، مصدر تيار رافض للدين الجديد . .

ولقد تداخلت هذه المصادر وتشابكت هذه التيارات ، وقاد ملأ مكة وأشرافها ، بإسم هؤلاء جميعا ودفاعا عن كل تلك المصالح ، المعارضة والعداء والاضطهاد لمن آمن بالدين الجديد . . .

ومن هنا ، وامام هذه المقاومة التي بلغت ، بعد الايذاء والمقاطعة ، الشروع في قتل الرسول ، والتصاعد بالاضطهاد إلى حد اقتلاع المؤمنين من بلدهم ، واخراجهم من أحب المواطن إلى قلوبهم بالهجرة من مكة إلى يثرب . . امام هذه الملابسات لم تقف الدعوة الجديدة عند حدود « الدين » ، لأن اصحابها

(١) القصص : ٥ .
(٢) البقرة : ٢٤٧ .

وجدوا أنفسهم مضطرين إلى اتخاذ « الدولة » سلاحا يدافعون به عن حق الجماعة المؤمنة وحريتها في التدين بالدين الجديد ، وفي هذه « الدولة » صنع المؤمنون النموذج الجديد الذي يجسد فكرهم الاجتماعي والسياسي الجديد . . وايضا بشروا بالفكر القومي العربي الذي كان بمثابة الفتح الجديد الذي يخرج العرب من تحت خطر التحديات القديمة ومخاطرها ، وشيئا فشيئا وضعوا هذا الفكر القومي ، الذي استنهضوا به العرب الى بعث جديد ونهضة كبرى تحت رايات الاسلام ، وضعوه في الممارسة والواقع والتطبيق . .

* ففي صفحات كثيرة من فكر الدعوة الجديدة والدولة الوليدة تتراءى لنا تلك « العملة الفكرية » التي « سكتها » ، فاذا أحد وجهيها يحمل « التوحيد الديني » للذات الإلهية ، على نحو بلغ في التنزيه والتجريد والنقاء ما لم يبلغه عند أمة من الأمم التي سبقت المسلمين على هذا الطريق . . وعلى الوجه الثاني للعملة نجد « التوحيد القومي والسياسي » للعرب ! . . فهم الأمة التي اصطفاها الله ، بعد أن اصطفى منها رسولها ، لتنشر توحيده ، وهي لن تستطيع ذلك الا اذا « وحدت » الله و « توحدت واتحدت » قوميا وسياسيا ! . .

* والقرآن الكريم يعرض التوحيد الديني الذي يوحد هوية المجتمع قوميا ، بعد ان كان تعدد الآلهة يرمز إلى تمزقها . . يعرض هذا التوحيد باعتباره السبيل إلى النجاة من مخاطر التحديات التي فرضها الأعداء - (الفرس والروم) - على العرب لحقبة طويلة من حقب التاريخ - ﴿ واذكروا اذ انتم مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون ﴾[1] .

* وحديث الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، إلى عمه ابي طالب (٨٥ - ٣ ق . هـ ٥٤٠ - ٦٢٠ م) يتصاعد بهذه القضية إلى الحد الذي يجعل فيه « التوحيد الديني » ومن ثم « الوحدة القومية والسياسية » السبيل الذي يبشر به الاسلام كي ينتقم العرب من أعداء الأمس ، فرساً وروماً وبيزنطيين . . فهو

(١) الأنفال : ٢٦ .

يحدث عمه عن ما سيترتب على استجابة قومه لدعوته في هذا المجال فيقول : « يا عم ! ألا ادعوهم إلى كلمة يقولونها ، تدين لكم بها العرب ، وتؤدي اليكم العجم الجزية ؟! . . والله لتنفق كنوز كسرى وقيصر في سبيل الله ! » .

فهو يغري قومه بوحدة تجعلهم السادة والقادة ، وتفتح امامهم الطريق لتسوية الحساب مع اعداء الأمس ، الذين فرضوا عليهم التحديات ، وأذلوهم ، وجعلوهم جندا مرتزقا وتابعا في الصراع التاريخي بين الفرس والاغريق والروم . .

وفي موطن آخر يجعل من هذه «البشرى» نبؤة مؤكدة التحقيق، فيقول: «إن امتي ستظهر على « الحيرة » وقصور كسرى ، وارض الشام والروم ، وقصور « صنعاء » . وبشّر المسلمين بذلك » ![1] . .

* وتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة ، بمكة . . وهو أمر قد يراه البعض « دينا خالصا » لا دلالة فيه ولا أثر على الطابع القومي الذي انطبع به الاسلام ، في تلك البقعة ، في ذلك التاريخ . . ولكنا نرى فيه ـ وسندنا القرآن الكريم ـ طابعاً قومياً عربياً ، ودليلاً واضحا على هذا الطابع لا تخطئه عين الباحثين . . بل لقد كان تحويل القبلة هذا تشريعا إلّهياً تمنت حدوثه القلوب العربية المسلمة ، واشرأبت اليه العواطف والأفكار من قبل ابرام الله له والوحي الى رسوله به . . أليسوا هم الذين تطلعوا ، من الدعوة ، إلى دين جديد ، فسلكوا اليه بقايا دين جدهم ابراهيم وابيهم اسماعيل ؟! . . وأليست الكعبة ومسجدها الحرام وحرمها الآمن مكة مطمح أبصارهم وملتقى مشاعرهم ، وبقعتهم المقدسة ، وواديهم الأقدس عبر تاريخهم الطويل ؟! ثم أليس جدهم ابراهيم وأبوهم اسماعيل هما اللذان رفعا القواعد من هذا البيت العتيق ؟! . . فليس بالغريب ، اذن ، أن يتمنوا على ربهم أن تتحول قبلتهم في الصلاة عن القدس ، التي كانت حتى ذلك التاريخ في أسر الرومان البيزنطيين ، إلى

---

(١) ابن الأثير (الكامل في التاريخ) ج٢ ص ٦٧ ، ٢٤ ، ١٢٣ .

الكعبة . . فلقد كانت « قبلتهم » قبل الاسلام ، وها هم ، مع بعثهم القومي الجديد ، يريدونها « قبلة » في الدين الجديد أيضا . .

والقرآن الكريم يحدثنا عن هذا الحدث الديني ، حدث تحويل القبلة ، فنعلم منه أن الرسول وقومه كانوا يرفعون الوجه لله داعين أن يشرع لهم ذلك ، وان تشريعه هذا كان استجابة إلهية يرضاها الرسول والمؤمنون ﴿ سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا **وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلّا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه** وان كانت لكبيرة إلّا على الذين هدى الله وما كان الله ليضيع ايمانكم إن الله بالناس لرؤوف رحيم **قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولُّوا وجوهكم شطره** وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون ﴾[1] .

بل اننا لواجدون في هذه الآيات الكريمة ما يفيد بأن استقبال المسلمين لبيت المقدس ، في صلاتهم ، انما كان امرا مؤقتا ، ومرهونا بارادة الله أن يختبر طائفه من أهل الكتاب ، ليعلم من يستجيب منهم للشريعة المحمدية ، ومن ينقلب على عقبيه . . ومن ثم فان تحول القبلة الى ذلك المكان الذي هفَت اليه تاريخيا قلوب العرب واحتضنته مشاعرهم هو الطبيعي ، والمقرر ، سلفا ، في علم الله ! . .

* وحتى يحقق المسلمون ذلك الانجاز التاريخي ، فيؤلفون أشتات القبائل في كلٍّ قومي واحد ، ويتجاوزون التمزق ، الذي أباح للتحديات المعادية أن تقوم وتستمر بوطأتها الثقيلة ، إلى الوحدة . . كان لابد من صفحة جديدة تحمل الى القوم مفاهيم جديدة عن « العربي » و « العروبة » . . فالعصبية القبلية والنعرات الجاهلية كانت بمثابة الثغرات التي سلكتها التحديات ، ومن ثم فلقد

---

(١) البقرة : ١٤٢ ـ ١٤٤ .

ألقى الاسلام ، أو ألقت جوانبه القومية إلى الفكر العربي صياغات فكرية جديدة تستنهض الأمة لتجاوز ذلك الفكر الجاهلي المتخلف ، وتبشر بمفاهيم مستنيرة ، وغير عرقية ، وانما حضارية « للعربي » و « العروبة » . . حدث هذا منذ ذلك التاريخ البعيد! . .

فالرسول ، عليه الصلاة والسلام ، ينكر المضمون ، « العرقي » للعروبة ، ويدعو الى اعتماد المضمون الحضاري رابطة ومعيارا لمن هو العربي ؟ ومن هم العرب ؟ فاللغة ، وهي وعاء للفكر والتراث والحضارة والذكريات . . هي المعيار والرباط الذي دعا الرسول إلى اعتماده بدلاً من « العرق » و«القبلية»، ذلك أن مجتمع شبه الجزيرة كان يضم «عرباً باللغة» والحضارة غير « العرب » بالعرق والجنس والدم . ومن ثم فان اعتماد المعيار الحضاري كان سبيلا ، لا لتجاوز النعرات الجاهلية والمفاهيم المتخلفة والمتعصبة فقط ، وانما ، أيضا ، لبناء كيان جديد وأوسع من ذلك الذي يمكن بناؤه على أساس من العرق والجنس . . وهي أيضا قفزة حضارية ، وتطور متحضر هام الى الأمام . . يبشر الرسول بهذا المفهوم الجديد عندما يخطب في الناس قائلا : « أيها الناس ، إن الرب واحد ، والأب واحد ، **وليست العربية بأحدكم من اب ولا أم ، وانما هي اللسان (اللغة) ، فمن تكلم العربية فهو عربي !** »[1] .

وتتوالى أحاديث الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، تنهي العرب عن التعلق بالنعرات الجاهلية والعصبيات القبلية . . « . . ما بال دعوى الجاهلية ؟! . . دعوها فانها منتنة ! . .[2] » . . . « إن الله ، عز وجل ، اذهب عنكم عبية - (بضم العين وفتح الباء : الكبر) - الجاهلية وفخرها بالآباء . . .[3] » . . و « من قاتل تحت راية عمية - (بضم العين وكسر الميم المشددة وفتح الياء المشددة : الأمر الأعمى والمعمى ، لا يستبين وجهة) -

---

(١) (تهذيب تاريخ ابن عساكر) ج٢ ص ١٨٩ . طبعة دمشق .
(٢) رواه البخاري والترمذي .
(٣) رواه أبو داود .

يغضب لعصبة ، او يدعو الى عصبة ، فقتل فقتلة جاهلية ! . . . وليس من أمتي ! . . [1] . .

والرسول ، صلى الله عليه وسلم ، يفرق ويميز في هذا الباب من الأحاديث بين حب الانسان لقومه ، والولاء لهم ـ وهو مشروع ، والناس مدعوون اليه ـ وبين الاعانة على الظلم عصبية وتعصبا . . فالأول : ولاء للقوم ، يدعو اليه الطبع ويرضى عنه الرسول ، والثاني منهي عنه ، اذ فيه نرى عصبية الجاهلية ونعراتها . . وعندما يسأل « واثلة بن الأسقع » الرسول :

ـ يا رسول الله ، أمن العصبية أن يحب الرجل قومه ؟ . . . ـ (يجيبه) .
ـ لا ، ولكن من العصبية أن ينصر الرجل قومه على الظلم ! »[2] .

ذلك هو معنى « العصبية » الذي نهى عنه الرسول ، لأنه بشر بمضمون حضاري انساني مستنير للعروبة ، بل وجعل العدل شرطا لانتصار الإنسان لقومه ، فخطا بذلك على درب الفكر القومي المستنير الى الأمام الى ما هو أبعد وأرقى مما صنعت دعوات قومية كثيرة في العصر الذي نعيش نحن فيه! . .

* ولم تقف التجربة الإسلامية بهذا التطور عند حدود الفكر ، بل وضعت هذا الفكر في الممارسة والتطبيق ، وذلك عندما نهضت باقامة تنظيم « اجتماعي ـ قومي » جديد « للأمة السياسية » في الدولة الجديدة . .

فالرعية و « الأمة السياسية » في دولة المدينة كانت عربية كلها ، ولم تكن كلها مسلمة ، أي أن المعيار القومي كان ملحوظا في تكوينها . . ودستور هذه الدولة ، الذي سمي في مصادر التاريخ بـ (الصحيفة) وبـ (الكتاب) يذكر انها ضمَّت ، مع المهاجرين ، قبائل المدينة ، بقطاعاتها التي أسلمت وقطاعاتها التي ظلت على يهوديتها ، فكان فيها : « بنو عوف » و « يهود بني عوف » و « بنو

---

(١) رواهما مسلم .
(٢) رواه ابن ماجه وابن حنبل .

الحارث » و « يهود بني الحارث » ، و « بنو ساعدة » و « يهود بني ساعدة » ، و « بنو جشم » و « يهود بني جشم » ، و « بنو النجار » و « يهود بني النجار » و « بنو الأوس » و « ويهود بني الأوس » . . ونص هذا الدستور أيضا على أن المسلمين من رعية هذه الدولة يكونون أمة واحدة من دون الناس ـ وهي أمة الدين ـ على حين يكونون مع العرب المتدينين باليهودية « أمة واحدة » كذلك ، هي « أمة السياسة والقومية » ! . . و بعبارة ذلك الدستور : « . . المؤمنون والمسلمون ، من قريش ويثرب ، ومن تبعهم ولحق بهم وجاهد معهم : أمة واحدة من دون الناس . . . وان يهود أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ! . . »(1)

فالطابع القومي ، الذي يعتمد العروبة ، بالمعنى الحضاري ، ملحوظ هنا في تحديد رعية الدولة العربية الإسلامية الأولى ، ولا يمكن لعين باحث أن تغفله ، خصوصا اذا علمنا أن هذه « الأمة ـ الجديدة ـ الواحدة » قد شملت مع ذوي الأصول العرقية العربية « الأحلاف والموالي والأتباع » ، وهم الذين أصبحوا عربا باللغة والولاء للجماعة القومية العربية ، وان كانوا قد انحدروا من أصول عرقية غير عربية . .

ولقد برز هذا المعنى ، وتأكد أيضا في التطبيق ، بذلك التنظيم « القومي ـ الاجتماعي » الذي أدخلت به « الموالي » ـ وهم الذين تعربوا حضاريا ، ولم يكونوا عربا بالجنس ـ أدخلتهم به هذه الدولة في صلب التنظيم الواحد للامة الواحدة . . واذا كانت دولة المدينة قد جعلت « القبيلة » اللبنة الأولى في « الأمة الواحدة » ، بعد أن كانت ، قبل الأسلام ، كيانا سياسيا واداريا واجتماعيا مستقلا ، فانها ، في هذا التنظيم ، « دمجت » موالي كل قبيلة في قبيلتهم ، فأصبحت القبيلة ليست فقط « العرب بالعرق والجنس » وانما « العرب باللغة والهوية الحضارية والقومية » . . وتوالت أحاديث الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، تدعو وتأمر وتشرع لهذا التنظيم « القومي ـ الاجتماعي »

---

(1) (نهاية الأرب) ج ١٦ ص ٣٤٨ ـ ٣٥١ .

الجديد . . « مولى القوم منهم »[1] . . « الولاء لحمة كلحمة النسب ، لايباع ولا يوهب » . .[2]

هكذا تغير مفهوم « العربي » ومضمون « العروبة » ، فلم يعد المعيار فيهما : الجنس والعرق ، وانما أصبح المعيار هو : اللغة والحضارة ، والباب الى اكتساب ميزات « الأمة الجديدة هو الولاء لها ولما اكتسبت من قيم جديدة وفكر جديد ، ومن ثم فقد ضمت هذه « الأمة » وعلى قدم المساواة ، كل « العرب » ، بهذا المفهوم الجديد ، والمعيار الإنساني الحديث ، سواء منهم أولئك الذين انحدروا من أصلاب عربية أو أولئك الذين كانوا في الأصل فرسا أو روما أو زنجا أو من الأحباش . .

ولقد اتسع الأفق والنطاق بهذا التنظيم « القومي - الاجتماعي » بعد أن أدخلت الفتوحات في حدود الدولة مناطق أخرى لم تكن عربية من قبل ، فوجدنا عمر بن الخطاب (٤٠ق . هـ ٢٣ هـ ٥٨٤ - ٦٤٤ م) يكتب الى عامله بالعراق : « . . وانظر من قبلك من الحمراء - (الموالي ذوي الأصول الفارسية) - فالحقهم بقبائلهم ، وإن أرادوا أن يكونوا قبائل مستقلة ، فأجبهم ، وسو بينهم وبين غيرهم . . » .

بل إن قصة « الأعراب » - عرب البادية ، غير الحضريين - مع هذه الدولة العربية الاسلامية الأولى ، وعلاقتهم السياسية بها ، هي الاخرى دليل آخر على هذا الذي نقول . . فهم قد « أسلموا » بمعنى أنهم أطاعوا وانقادوا وانخرطوا في هذا البناء « السياسي - القومي » الجديد ، وخاضوا المعارك وشاركوا في الغزوات تأسيساً لهذه الدولة ودفاعا عنها . . فعلوا كل ذلك دون أن يكونوا « مؤمنين » بعقائد الدين الجديد وشريعته ، « فالايمان » يقين وتصديق قلبي ، وهو ، بالقطع ، أخص من « الاسلام » . . والقرآن الكريم يحدثنا عن هذه الحقيقة فيقول : ﴿ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ولمّا يدخل

---

(١) رواه البخاري .
(٢) رواه ابو داود والدارمي .

الإيمان في قلوبكم ! ﴾[1] .. فهم ، إذن ، جزء لا يتجزأ من « الأمة القومية » التي اسست وبنت الدولة العربية الإسلامية ، وان لم يكونوا من « الأمة المؤمنة » بعد الدين الجديد ..

ومثل « الأعراب » في هذا الأمر مثل « المؤلفة قلوبهم » .. فهم عرب أسهموا في بناء الدولة القومية ، لقاء نصيب تقرر لهم في مصارف الأموال ، وذلك دون أن يكونوا « مؤمنين » بالدين الجديد .. فهم كانوا من « أمة السياسة » و « قوم العرب » دون أن يكونوا من « أمة الدين » ...

هكذا نهض الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، وهكذا نهض الاسلام بهذا الانجاز القومي العربي الجديد ..

وهنا .. لنتأمل رقمين لعامين .. ولنتأمل حال الجماعة العربية في كل منهما ...

* سنة ٥٧١ م .. عام غزوة الفيل .. عندما أحدقت الأخطار والتحديات بالجماعة العربية من الشرق والغرب والشمال والجنوب ، وكاد الأحباش أن ينتزعوا القلب والوسط أيضا ويحتووه .. وعندما كان العربي فريسة مهيضة الجناح ، يتخطفه الأعداء وينوشونه فينهشونه ...

* وسنة ٦٣٢ م (سنة ١١ هـ) .. عام وفاة الرسول ، صلى الله عليه وسلم .. عندما أصبحت العرب « أمة » ، وغدت لهذه « الأمة » « دولة » ضمت شبه الجزيرة العربية بأسرها ..

هنا ، وفي الأحد عشر عاما التي امتدت من عام الهجرة إلى وفاة الرسول ، تغير اتجاه الريح ، واستدار التاريخ فيمم وجهه شطر هذه الأمة الجديدة .. فبعد أن كانت مزقا وأشلاء يتخطفها الأعداء ويفرضون عليها التحديات ويهددونها بالفناء .. استيقظت روحها ، فأثمرت خير ما في معدنها الأصيل ، واختلج جسدها فأبرز قواه الكامنة وعوامل المقاومة فيه ، وكان ذلك

---

(١) الحجرات : ١٤ .

اجابة إيجابية على التحديات التي فرضها عليها الأعداء . . وسجل التاريخ منذ ذلك التاريخ : **أن العرب بتجديد الذات وتوحيدها ، وبشحذ عوامل المقاومة للخطر وامكانياتها الكامنة وبتطوير الفكر وتحديثه ، قد استطاعوا أن يتوحدوا ، وأن يتولوا زمام القيادة في الشرق بدلا من الفرس ، بل وأن يزحفوا مطاردين كلا من الفرس والروم البيزنطيين ! . .**

* * *

وعندما زلزلت وفاة الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، يقين الأعراب الذين يسكنون غير المدينة ومكة والطائف ، فظنوا إن التوحيد الديني شيء ، وهم لم يغيروا عقائدهم فيه ، وأن الوحدة القومية شيء آخر ، فخلعوا عن أنفسهم تبعاتها ، بعد وفاة النبي الذي دعا اليها وانجزها . . عندما ارتدت قبائل الأعراب هذه عن وحدة الدولة العربية ، وخيل لعمر بن الخطاب ان لا حق لدولة الخلافة أن تقاتلهم ما داموا على التوحيد الديني ، فقال للخليفة ابي بكر الصديق (٥١ق . هـ ١٣ هـ ٥٧٣ ـ ٦٣٤ م) : كيف تقاتلهم وهم يشهدون أن لا إله الا الله ؟! لقد قال الرسول : من قال : لا إله الا الله فقد عصم مني دمه وماله ؟! . . كانت بصيرة ابي بكر وعبقريته السياسية وحسه القومي قد هداه الى القرار التاريخي الذي جعل تاريخ هذه الامة يسير في الاتجاه الصحيح . . لقد ربط ما بين التوحيد الديني ، والوحدة القومية والسياسية ، ورأى في وحدة دولة الخلافة « حقا » يستتبعه ويقتضيه التوحيد في الدين ، وأعلن أن الوحدة القومية والسياسية والادارية لم ولن تكون رهنا بحياة الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، وانما هي طريق بدأ العرب ، خلف الرسول ، السير فيه ، ولا بد لهم من مواصلة سيرهم فيه . . فقال لعمر : « والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونها الى رسول الله لقاتلتهم عليها . . » .

فنهض المسلمون فحصنوا المدينة كي تصمد امام هجوم الأعراب المرتدين ، وتراجعت خلافات الصحابة حول الخلافة ، فبايع علي بن أبي طالب (٢٣ق . هـ ٤٠ هـ ٦٠٠ ـ ٦٦١ م) ورهط من بني هاشم لأبي بكر بالخلافة بعد

أن أبطأت بيعتهم له عدة شهور . .[1] وخرج أبو بكـر الى « ذي القصة » فعقـد أحد عشر لواءً لأحد عشر قائداً زحفوا بجيـوش عربيـة مسلمة داعـين الى عودة الوحدة القومية التي بناها الرسول . . .

١ ـ خالد بن الوليد (٢١ هـ ٦٤٢ م) لقتال طليحة بن خويلد الأسدي ، ومن معه من قبائل : اسد ، وغطفان ، وطيء، وعبس ، وذبيان . . .

٢ ـ وعكـرمة بن ابي جهـل (١٣ هـ ٦٣٤ م) لقتال مسيلمـة بن حبيب ـ (الكذاب) ـ الذي قـاد بني حنيفة باليمامة ، بين نجد والأحقاف . .

وهو الذي كـانت ردته نمـوذجا للردة عن الـوحدة القـومية عنـدما يغلفهـا قائدها بستار مهلهـل من « التنبؤ » والادعاء الكـاذب للنبوة ، عـلى حين كـانت تفضح الأهداف السياسية هذا الادعاء . . فهـو الذي بـرر لأصحابـه ردتهم عن الـولاء لدولـة المدينـة بقولـه في سجعـه : « يـا ضفـدع نقي نقي ، لا الشـارب تمنعين ، ولا الماء تكدرين ، **لنا نصف الأرض ولقـريش نصف الأرض ، ولكن قريشا قـوم يعتدون** » ! . فهـو هنا يعلن ، صـراحـة أن الهـدف هو كسـر وحدة الدولة .

٣ ـ والمهـاجـر بن أميـة (بعـد ١٢ هـ ٦٣٣ م) لقتـال الأسـود العنسي (عبهلة) باليمن ، وقيس بن المشكوح ، وكندة بحضرموت . . .

٤ ـ وخالد بن سعيـد بن العاص (١٤ هـ ٦٣٥ م) لقتـال أهل الحمقتـين ـ الذين ارتدوا على مشارف الشام . .

٥ ـ وعمـرو بن العـاص(٥٠ق . هـ ـ ٤٣ هـ ٥٧٤ ـ ٦٦٤ م) لقتـال المرتدين من قضاعة ووديعة والحارث . .

٦ ـ وحذيفة بن محصن الغلفاني لقتال المرتدين من اهل دبا . .

٧ ـ وابن هرثمة (بعد ٢٠ هـ ٦٤٠ م) لقتال مهرة .

---

(١) انظر كتابنا (الخلافة ونشأة الأحزاب الإسلامية) ص ٨١ ـ ٨٧ طبعة بيروت سنة ١٩٧٧ م .

٨ ـ وشـرحبيـل بن حسنـة (٥٠ق .هـ ـ ١٨ هـ ٥٧٤ ـ ٦٣٩ م) لقتـال قضاعة .

٩ ـ ومعن بن حاجر لقتال سليم ومن معهم من هوازن . .

١٠ ـ وسويد بن مقرن لقتال تهامة ، باليمن .

١١ ـ والعلاء بن الحضرمي (٢١ هـ ٦٤٢ م) لقتال اهل البحرين . .

ولقـد استطاعت هـذه الجيوش ، في أقـل من عام ، أن تعيـد الى الدولـة وحدتها ، وأن تقضي على فتنة الانشقـاق القومي . . وكـان فتح « الحيـرة » سنة ٦٣٣ م (سنة ١٢ هـ) بعد أول لقاء مسلح بين الـدولة العـربية وفـارس إيذانـا بعـودة وحدة شبـه الجزيـرة إلى ما كـانت عليه في اواخـر حياة الـرسـول ، عليـه الصلاة والسلام ، وبشروع هذه الدولة في نقل الصراع الى موقع جديد ، تطارد فيـه الدولـة الفارسيـة ، وتستخلص منها منـاطق نفوذهـا التقليديـة في « الحيرة » حيث طالما حكمت و تحكّمت في العرب اللخميين[١] . .

* * *

ثم واصلت الـدولة العـربية ـ بعـد أن عـادت لهـا ولجمـاعتهـا الـوحـدة ـ صراعها مع الامبراطوريتين اللتين احتكرتا السيادة عـلى المنطقـة لعدة قـرون . . فارس والروم البيزنطيين . . . فكانت فتوحاتها الشرقيـة في العراق العـربي تحريراً من سيطرة فارسية ظالمة . . . وكان فتحها لفارس ذاتها ثأراً لتاريخ قديم ومرير ، وتأمينا لبـوابتها الشـرقية ، وانهاء لنـظام اجتماعي فـاسد ، غـدا فساده ثغـرة في جدار الشرق مكنت منه الغزاة البيزنطيين ، وغدت مظالمه قيـدا يحول دون اهـل فـارس ودون الابـداع الحضـاري الـذي أهّلهم لـه التـاريـخ والتـراث الـذي يملكون . . وجميع أسباب هذا الفتح سياسية ، تدخل في باب الصراع القومي ، لا الديني ، لأن العرب المسلمين لم يفرضـوا عقائـد الاسلام بـالقتال ، ومـا كان

(١) انظر أخبار حروب الردة في (تاريخ الـطبري) ج٣ ص ١٣٧ ، ٢٧٦ ، ٢٧٩ ، ٢٨٦ ، ٢٨٨ ، ٣٠٠ طبعة دار المعارف . القـاهرة . و(نهايـة الأرب) ج١٨ ص ٧٢ ، ٧٣ وج ١٩ص ٤٩ ، ٦١ ـ ٦٥ ـ ٦٩ ـ ٧٠ ، ٧٤ ، ٧٦ ـ ٧٨ ، ٨٠ . .

الإيمان ـ وهو تصديق قلبي ويقين للضمير المستكن في النفس ـ أن يتحصل بالإكراه . . لقد كانت فتوحات سياسية وقومية ، شارك فيها مع العرب المسلمين الفاتحين كثيرون من أهل البلاد المفتوحة ، وهم على دياناتهم القديمة ، وسقطت عنهم لهذه المشاركة تلك الضريبة الزهيدة (الجزية) التي فرضت على المخالفين في الدين ، ممن هم في سن الجندية ، كبدل عن الجندية ، اذا استدعت ظروف الأمن في القتال أن لا يشتركوا فيه أو اذا أرادوا هم ذلك[1] . . .

وكذلك صنعت الدولة العربية على الجبهة الغربية مع الروم البيزنطيين . . فالحرب التي خاضتها في الشام ، وفي مصر ، كانت جميعها ضد الحاميات والجيوش « البيزنطية ـ الأجنبية ـ المستعمرة » ، ولم يحدث في موقعة واحدة أن قاتل اهل البلاد ، وهم عرب أو قبط ذوو صلات سامية ، ضد الجيش العربي الفاتح . . بل على العكس من ذلك ، فلقد ساعد قبط مصر جيش عمرو بن العاص في حربه ضد جيش الاحتلال البيزنطي . . وطلب أهل القدس من عمر بن الخطاب في العهد الذي اعطاه لهم ان يخرجوا من مدينتهم ثلاث فئات :

١ ـ الروم . . وهم الغزاة المستعمرون . .

٢ ـ واللصوص . . الذين كانوا يهددون أمن السكان . .

٣ ـ واليهود . . الذين كانوا قد تحولوا الى عملاء للروم الغزاة ![2] . .

أما العرب ، أهل البلاد الأصليون ، وكانوا نصارى يشاركون الروم في الدين ، ويختلفون فيه مع المسلمين ، فقد وقفوا مع « قومهم » المغايرين لهم في الدين ضد « غزاتهم » المتفقين معهم في الدين ، فجسدوا بهذا الموقف الطابع القومي لهذا الفتح العربي المبين . . ولقد تصاعد هذا الموقف القومي ، أحيانا ،

---

(١) انظر في المعاهدات التي تثبت اسقاط الجزية عن الذين قاتلوا مع المسلمين ، وهم على دينهم القديم : (مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة) ص ٣٢٦ ، ٣٢٨ ـ معاهدة أهل « جرجان » ومعاهدة « آذربيجان» جمعها وحققها محمد حميد الله الحيدرآبادي طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦ م .

(٢) المصدر السابق ـ ص ٣٤٥ .

إلى درجة الاشتراك ، مع الجيش العربي المسلم ، في قتال الروم . . ففي موقعة « اليرموك » الحاسمة قاتل اهل « حمص » ، وهم على نصرانيتهم ، مع الجيش المسلم ، خلف أبي عبيدة بن الجراح (٤٠ق. هـ ١٨هـ ـ ٥٨٤ ـ ٦٣٩ م) ضد الروم البيزنطيين . . وكذلك فعل الجراجمة ، سكان « الجرجرمة » ، بشمالي سوريا ، عندما قاتلوا ، وهم على نصرانيتهم ، مع الجيش العربي المسلم ، تحت قيادة حبيب بن مسلمة الفهري (٢ق ـ هـ ٤٢ هـ ـ ٦٢٠ ـ ٦٦٢ م) ضد البيزنطيين المسيحيين !. . لقد صنع عرب الغرب والشمال ما صنعه عرب الشرق ، المناذرة ، عندما حاربوا مع الجيش العربي المسلم ضد الفرس ، فوقفوا مع « قومهم » ضد « عدوهم » ، بصرف النظر عن الاتفاق والاختلاف في الدين[1] . .

ومرة أخرى ، لنتأمل رقم هذا العام : سنة ٦٥١ م (سنة ٣١ هـ) . .

ففي هذه السنة قتل « يزدجرد » (٦١٧ ـ ٦٥١ م) آخر أكاسرة الفرس الساسانيين . بعد أن انهارت امبراطوريته أمام العرب الفاتحين . . وقبلها كان العرب قد فتحوا كل الشام ومصر وطرابلس الغرب ـ (ليبيا) ـ (ثم استكملوا تحرير المغرب كله سنة ٦٩٧ م سنة ٧٨ هـ) ـ فأزاحوا عن الشرق نير الروم ، كما أزاحوا عنه نير الفرس ـ بل ونقلوا مواقعهم إلى قبرص ، وبدأ تهديدهم للقسطنطينية ذاتها . . حدث ذلك كله في ثلاثين عاما من تاريخ الدولة العربية الاسلامية (١ ـ ٣٠هـ ـ ٦٢٢ ـ ٦٥١ م). . . ففي هذه السنوات :

* أقام العرب دولتهم . . وبنوا ، بمضمون حضاري ومستنير ، كيانهم القومي الواحد . . .

* واستجمعوا طاقاتهم الكامنة ، وقوى المقاومة المستكنة ، وطوروا الفكر ، وجددوا المفاهيم ووسعوا الآفاق .

* ونهضوا ، تحت رايات الاسلام القومية فحرروا وطنهم واخوانهم ، والشرق كله ، من سيطرة الفرس والروم .

---

(١) انظر : ابو يوسف (كتاب الخراج) ص ١٣٨، ١٣٩ . طبعة القاهرة سنة ١٣٥٢ هـ .

* وبنوا امبراطورية عربية ، تعـددت فيها العقـائد والاديـان ، وأصبحت وعـاء تمت فيه عمليـة التعـريب ، التي اتسعت دائـرتهـا فشملت سكـان الـوطن العربي الذي نعيش فيه الآن . .

* ودخلوا بالتاريخ ، أو دخل بهم التـاريخ الى طـور حضاري جـديد . . أصبحت لهم فيه قيادة الشرق ، بعد أن كانت للفرس حينا ، وللاغـريق حينا ، وللبيـزنطيـين أحيانـا أخرى . . فـأين هي خريـطة الأرض العربيـة « الحرة ذات السيادة » سنة ٥٧١ م ـ عام الفيل ـ من خريطتها بعد ثلاثين عاما من عودة الروح القومية إلى كيانهم القومي الجديد ؟! .

لقد كانت تلك هي اجـابة الأمـة العربيـة على التحـدي الذي واجهتـه ، والــذي بلغ ذروتــه سنــة ٥٧١ م عـام الفيـل ! لكن الأعــداء كـثيــرون . . ومتربصون . . . والليالي من الزمان حبالى . . يلدن الكثير من التحديات ؟! . .

الفصل الثاني

الشخصية القومية
تواجه العصبية والتعصب

بعد أن نجح الاسلام ودولته العربية نجاحا ملحوظا في وضع أشتات القبائل العربية على طريق الاندماج القومي ، وفق المضمون القومي الحضاري والانساني والمستنير الذي قدمه الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، لمن هو « العربي » ولماهية « العروبة » . . وبعد أن أثمر هذا الانجاز العظيم والتاريخي ثمرات عظيمة وتاريخية أنقذت العرب من القهر ، وجعلتهم قادة المنطقة ، وحققت لهم بالفتح الثأر من خصوم الأمس ، فرسا وروما . . بعد هذا الانجاز . عاد الخطر يطل على الوحدة القومية للدولة العربية من جديد . . واشتد هذا الخطر في ظل الدولة الأموية (٤١ ـ ١٣٢ هـ ـ ٦٦١ـ٧٥٠ م) على وجه التحديد . .

فالفتوحات التي انجزها العرب قد شملت ، في تلك المرحلة ، كلا من العراق والشام . . وسكان هذه البلاد هم عرب ، كانوا ، قبل هذا الفتح ، يرزحون تحت نير الحكم الفارسي أو البيزنطي ، ومن ثم فلقد كان فتح العرب المسلمين لبلادهم هذه « تحريرا » عربيا اسلاميا لبلاد عربية وأقوام عرب ، لا شبهة في طبيعته هذه على الاطلاق . . ولقد شارك عرب هذه البلاد الجيش الفاتح في قتاله ضد حاميات الفرس وجيوش الروم ، رغم اختلاف العقائد والديانات . . ومن ثم فلم تكن هناك « مشكلة قومية » خلقها هذا الفتح ، ولم يظهر « تناقض قومي » بين سكان هذه البلاد وبين العرب المسلمين الفاتحين .

ولقد شمل الفتح العربي الاسلامي ايضا : مصر ، وبلاد الشمال الأفريقي . . ولم تكن هذه المناطق عربية ، كالعراق والشام ، ولكن مصر كانت قريبة من العرب ، فلها بالسامية والساميين علاقات قديمة ، واليها تمت هجرات سامية من شبه الجزيرة على مراحل متتالية ومتباعدة في التاريخ ، وكثيرون يرون في « عروق » أبنائها ، يومئذ ، وفي لغتها القبطية آثارا لعلاقات كثيرة بالسامية والساميين[1] . . . ثم إن مصر ، ومثلها في ذلك ما فتح من بلاد الشمال الافريقي ، كانت ترزح تحت قهر الروم البيزنطيين ، ومن ثم فلقد رأوا في الفتح العربي حركة « تحرير » للمنطقة من غزاة أجانب ، وكان الفاتحون العرب أقرب إلى قلوب أهل تلك البلاد من الرومان . . فهم ، على عكس الرومان ، تركوا لهم حرية الاعتقاد الديني ، فعاد القبط الى مدنهم بعد أن كانوا قد هجروها إلى الصحراء ، وبنوا واستعادوا كنائسهم بعد أن حرموا منها طويلا وعبدوا الله في الكهوف والمغارات ، بل واعتمد عليهم العرب كل الاعتماد في بناء جهاز الدولة الجديد ، وعهدوا اليهم بوظائف الديوان . . ثم ان الحضارة القبطية كانت قد تلقت على يد الروم البيزنطيين من الضربات ما أضعفها وأوهن من عزمها ، يضاف الى ذلك أن الكثير من مقومات هذه الحضارة وقيمها ، ذات الأصل المصري القديم ، كان قد ضعف بعد تحول مصر إلى المسيحية ، بسبب الموقف الذي وقفته الديانة المسيحية من العناصر والمقومات والقيم الوثنية في ذلك التراث الحضاري . . ومن ثم فلم تكن لقبط مصر الذين أعادهم الفتح العربي إلى ظهر الأرض بعد أن كان البيزنطيون قد أجبروهم على الاختفاء تحت رمال صحرائها ، لم تكن لهم يومئذ حضارة شابة مزدهرة تستطيع أن تنافس الوليد الحضاري الشاب والجديد ـ الحضارة العربية الاسلامية ـ فأقبلوا ، غير نادمين ، على الاسهام بمواريثهم الحضارية في بناء هذا الكيان الحضاري الجديد ، وقنعوا بدور المسهم فيه ، ولم يقفوا منه موقف المعادي أو النقيض . . ومن ثم فلم يكن

(١) انظر : مكرم عبيد باشا : مجلة (الهلال) عدد ابريل سنة ١٩٣٩ م . و : د . عبد المجيد عابدين (البيان والاعراب عما بأرض مصر من الأعراب) للمقريزي . « الملحق » ص ٧٧ ـ ٩٢ طبعة القاهرة سنة ١٩٦١ م و : د . أحمد مختار عمر (تاريخ اللغة العربية في مصر) طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠ م .

أهل هذه البلاد مصدرا لمشاعر قومية معادية للعرب ، ولم يعهد أن نشأت في ربوعها أفكار « شعوبية » في أية مرحلة من مراحل التاريخ التي أعقبت عصر الفتوحات . .

لكن الامر لم يكن كذلك فيما تم فتحه من البلاد شرقي العراق ، وفارس منها على وجه التحديد . . فالفرس والساسانيون لم يكونوا عربا ، ولا ساميين . . وبلادهم لم تكن ، قبل الفتح ، رازحة تحت الاحتلال ، بل كانوا هم الغزاة الذين خضعت لهم بلاد عربية كثيرة ، دائما أو في فترات متفرقة من التاريخ . . وأكثر من ذلك فلقد كانت لهم قيادة الشرق في صراعه التاريخي ضد الاغريق ثم ضد الروم البيزنطيين ، ولأجله قادوا معارك هذا الصراع ، وباسمه كانوا يتحدثون . . وأخيرا فان ميراثهم الحضاري كان كبيرا وهاما وحيا ومتميزا ، رغم ما أصابه من وهن وشيخوخة لاستبداد أكاسرة الساسانيين ونظامهم الطبقي المغلق وحكمهم بالحق الإلٰهي . . الخ . . ولقد كان طبيعيا ، لهذه الأسباب ، ان لا يتقبل الفرس فتح العرب لبلادهم كما تقبله الآخرون ، والا ينظروا اليه « كحركة تحرير » ولا « كمد تحرري » . . بل على العكس من ذلك تماما ، فلقد رأوا فيه قهرا عربيا لأمة متميزة وعريقة ، واحتلالاً أجنبيا من قوم هم اقل منهم تحضرا ، وثأرا عربيا لاحتلال فارسي للأرض العربية قديم . . ورأوا فيه كذلك نقطة تحول يتسلم فيها العرب زمام قيادة الشرق كله بعد أن كان ذلك لهم وحدهم طوال تاريخ طويل . . ولهذا اجمع الفرس واجتمعوا ـ الا قليلا منهم ـ على رفض العروبة والتعرب ، واتخذوا موقف العداء ، ظاهرا أو مستترا ، من الدولة العربية . . وتراوحت مواقفهم ، اعتدالاً أو تطرفا ، داخل هذا الاطار الذي جمعهم جميعا ، فالمعتدلون منهم رحبوا بالاسلام ، كدين ، ورفضوا العروبة ، قومية ودولة . . والمتطرفون من بينهم رفضوهما معا ، إذ ربطوا بين العروبة والاسلام . . وكانت « الشعوبية » سلاحهم واطار تحركات فرقائهم أجمعين . . وكانت منطقتهم هذه الموطن الوحيد الذي ظهرت وازدهرت وعاشت « الشعوبية » فيه ! . .

واذا كانت الشعوبية تعني : تحقير العرب ، والازدراء بكل ما هو عـربي ، وتجريد العرب من أي فضل أو ميـزة ، فضلا عن أي امتيـاز[1] . . فان منهم ، كما قلنا ، الذين اعتدلوا في رفضهم للعـرب والعروبـة ، فلم يجردوا العـرب من كـل الميـزات ، ولكنهم جـردوهم من « الفضـل » ، وقـالـوا إن العـــرب ليسـوا « شعبا » ، أي ليسوا أمة ولا قومية ، ولكنهم مجرد « قبائل » ، أما الفرس فـانهم « شعب » من « الشعوب » ، وطالبوا أن تقف العلاقة بين « الشعب » الفـارسي « المسلم » وبـين « القبائـل » العربيـة « المسلمة » عنـد حدود « التعـارف » ، لا الـوحدة ولا الانـدماج السيـاسي والاداري والقـومي والحضـاري ، واستشهـدوا لموقفهم هذا بقول الله سبحانه :﴿ يا أيـها الناس إنّـا خلقناكـم مـن ذكـر وانثى وجعلنـاكم شعوبـاً وقبائـل لتعارفـوا ان أكرمكم عنـد الله أتقـاكم ﴾[2] . . فهم دعـاة مسـاواة ، عـلى اسـاس من الاسـلام ، وهم رافضـون لفضـل العـرب وامتيازهم ، ومن ثم رافضون لدخول الفـرس في اطار التبعيـة للدولة العـربية ، ولتولي العرب زمام القيادة ، بدلا منهم ، في المنطقة . .

أما التيار الشعوبي الأكثر غلواً فهو الذي لم يقف أصحابه عنـد حد انكـار فضـل العـرب وامتيـازهم ، بـل ذهبـوا الى تحقـير العـرب وتجـريـدهم من كـل الفضـائل ، وهـم في سبيـل ذلك حقـروا ، لا تاريـخ العرب فقط ، بـل واقعهم وحاضرهم ، الفكري منه والمادي ، فرأينا من يحقر ، بل ويهجو : الجمل ، لأنه حيوان الصحراء العـربية ! وكـذلك النخلة ! والعصـا التي يعتمد عليهـا خطبـاء العرب وهم يخطبون ! والبداهة والارتجال عند الخطباء ! وكذلك أطعمة العـرب وأزياءهم . . الخ . . الـخ . . بينما يفضلون ويمـدحون كـل ماهـو غير عـربي ، وبـالذات مـا كان فـارسيا . . ويعيـدون ويبالغـون في الحـديث عن اذلال ملوك الفرس للعرب عبر التاريـخ القديم . . ويبعثـون عقائـد الفرس الـدينية القـديمة ـ الـزرادشتية والمـانويـة والمجوسيـة ـ ويحاولـون إدخالها في عقـائـد الاسـلام . .

(١) انظر : ابن منظور (لسان العرب) طبعة القاهرة . والزمخشري (أساس البلاغة) طبعـة القاهـرة سنة ١٩٦٠ م .
(٢) الحجرات : ١٣ .

ويستخدمون الشك والمجون اسلحة يوهنون بها التدين عند العرب المسلمين . . ولقد استهدف هذا التيار ، من تيارات الشعوبية ، لا المساواة بين الفرس والعرب ، ولا حتى انفصال الفرس عن العرب ، سياسيا وادرايا ، بل تحطيم الدولة العربية ، واعادة العرب إلى وضع التبعية للفرس وتسليم زمام القيادة بالمنطقة للفرس ثانية كما كان الحال قبل الاسلام . . ولقد اصبحت هذه الشعوبية ، بهذا المضمون ، « دينا » يتدين به هذا التيار الفارسي ، دين تدور عقائده وشعائره حول محور : بغض العرب بل وقتلهم ! . . حتى لقد صدق نصر بن سيار (٤٦ - ١٣١ هـ - ٦٦٦ - ٧٤٨ م) عندما قال عنهم ، إنهم :

قوم يدينون دينا ما سمعت به ... عن الرسول ولم تنزل به الكتب
فمن يكن سائلا عن أصل دينهم ... فان دينهم : أن تقتل العرب[1] !

ومن يتأمل كلمات قحطبة بن شديد التي خطب بها اهل خراسان سنة ١٣٠ هـ يستعديهم فيها ضد العرب يجد مصداق ما نقول . . قال لهم : « **يا أهل خراسان ، هذه البلاد كانت لأبائكم الأولين . . حتى استولت عليها أذل أمة كانت في الأرض عندهم ، فغلبوهم على بلادهم ، واستنكحوا نساءهم ، واسترقوا أولادهم . . والآن سلطكم الله عليهم ، فاطلبوهم بالثأر ، وانتقموا منهم ، ليكونوا اشد عقوبة ! . .**[2] » .

وكانت رأس الحربة الشعوبية مصوبة إلى دولة بني أمية في الأصل والأساس ، ففي بني أمية كانت تتمثل يومئذ عصبية العرب ، التي كانت تغالي ، تاريخيا ، في تفضيل العرب على غيرهم ، وتلجأ كثيرا الى نعرات العصبية والتعصب العربي ضد غير العرب ، ثم انهم هم الممثلون لأشراف العرب وملأ قريش القدماء ، وكما يقول ابن خلدون فان عصبية قريش تركزت في مضر ، وعصبية مضر تركزت في الأمويين ! . .[3] كما أن قيام الدولة الأموية

---

(١) عبد الصاحب الدجلي (الشعوبية) ص ١٤ طبعة النجف سنة ١٩٦٠ م .
(٢) ابن ابي الحديد (شرح نهج البلاغة) ج٥ ص ٢٩٣ . تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم . طبعة القاهرة سنة ١٩٥٩ م .
(٣) (المقدمة) ص ١٧١ .

بالشام ، حيث البيئة العربية الخالصة ، وحيث أشراف العرب الذين نصروا معاوية بن ابي سفيان (٢٠ق . هـ ٦٠هـ - ٦٠٣ - ٦٨٠ م) ضد علي بن ابي طالب في الصراع على الخلافة ، وتركز الموالي في المشرق ، بالعراق وفارس ، حيث المناطق التي ناصرت علياً في هذا الصراع ، قد زاد من فقدان الثقة بين بني أمية وجموع الموالي . . ومن هنا نستطيع أن نفهم معنى الكلمات التي بعث بها الداعية العباسي ، المناهض لبني أمية ، والمتحالف مع التيار الشعوبي : ابراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس (٨٢ - ١٣١ هـ ٧٠١ - ٧٤٩ م) إلى ابي مسلم الخراساني (١٣٧هـ - ٧٥٥م) والتي تقول : « إن استطعت الا تدع بخراسان احدا يتكلم بالعربية الا وقتلته فافعل . . **وعليك بمضر ، فانهم العدو القريب الدار ، فأبد خضراءهم ، ولا تدع على الأرض منهم دياراً** ؟! »[1] . . وأخيرا فلقد كانت السلطة السياسية ، يومئذ ، بيد بني أمية ، فكان حتما أن توجه اليهم والى دولتهم والى عصبيتهم العربية رأس الحربة ونصل الخنجر وكل ما في ترسانة الشعوبية من أسلحة وأدوات قتال . .

وكرد فعل للغلو الشعوبي ، واتساقا مع العصبية العربية التقليدية لبني أمية ، ذهب الأمويون في عدائهم لغير العرب إلى نهاية الشوط وطرف الخيط وآخر الطريق . .

وشهدت ساحة الدولة والمجتمع العربي الوقائع والمظاهر لأعظم التحديات التي واجهت انجاز الاسلام والدولة العربية الأولى على درب الفكر القومي المستنير والتآلف والوحدة بين ابناء الدولة الجديدة .

* فالشعوبيون يصعّدون تذمر الموالي واحتجاج فقراء العجم حتى لا يقف عند طلب العدل والانصاف ، وانما يذهب إلى طلب فصم وحدة الدولة ، وتأريث العداوة والبغضاء لا للسلطة الأموية العربية فقط ، وانما لكل ما هو عربي ! . .

* والأمويون يسقطون اسماء الموالي من ديوان العطاء . . ويشركونهم في

---

(١) (تاريخ الطبري) ج٩ ص ١٢٣ . و (شرح نهج البلاغة) ج٣ ص ٢٦٧ - ٢٦٨ .

الحـرب مشاة محـرومين من شـرف الفرسـان . . ويجعلون من جمـوعهم وقـودا في المقدمة بحجة الحيلولة بينهم وبين الفرار !.

ويظلون يجمعون الجزية ـ رغم ضآلتهـا المالية ، ولكن للاذلال ـ ممن دخل الاسـلام من هؤلاء الموالي ، رغم تعـارض ذلـك مع شـريعـة الاسـلام . . . ويفتحون الباب لسـادة العرب وأشـرافهم فيشترون أرض الخـراج الجيدة ـ وهـو الأمر الذي يخالف التنظيم الذي وضعه لهـا عمر بن الخـطاب ، عندمـا أقر فيهـا أهلهـا نظير الخـراج ـ وذلك عـلى الرغم من الأثـر السلبي لـذلـك عـلى خـزانـة الدولة ، لأنها تتحول بملكية العرب لها من ضـريبة الخـراج إلى ضريبـة العشر ، وهي اقـل من ضريبـة الخراج !. . فـاذا ما غـادر المـوالي قـراهـم الى المـدن التي يسكنها العرب رأينـا واليا أمـويا مثـل الحجاج بن يـوسف الثقفي (٤٠ ـ ٩٥ هـ ٦٦٠ ـ ٧١٤ م) يجمعهم ، ويحضـر أختام الحـديد المحمـاة في النـار فيختم بهـا أقفيتهم ، علامة اذلال تتحـدد فيها قـراهـم كي يلزموهـا ولا يغادروهـا ، قائـلا لهم : « أنتم علوج وعجم ، وقـراكم أولى بكم » !. . بل لقـد بلغ الحجـاج في التعصب ضد الموالي إلى حد منع المسلم منهم أن يصلي إماماً اذا كان خلفه عربي في الصـلاة !. . والى حد التفـريق ، بالـطلاق ، بين المـرأة العربيـة وزوجها اذا تـزوجت مسلما غـير عـربي !. . ووجـدنـا رجـلا مثـل نـافـع بن جبـير (٩٩ هـ ٧١٧ م) اذا ما مرت به جنازة ، سأل : من هذا ، فان قالوا : قرشي ، قـال : واقوماه ! واذا قالوا : عربي ، قال : وابلدتاه ! ، واذا قالوا : مولى ، قـال : هو مال الله ؛ يأخذ ما شاء ويدع ما شاء ؟!. . وشاعت بين النـاس الحكم والأمثال التي تحقـر من المـوالي وتـزري بهم ، من مثـل قـولهم : « لا يقـطع الصــلاة إلا ثلاثة : حمار أو كلب أو مولى[1] » !. . الخ . . الخ . . وبعد أن رسخ الاسلام وتراث العرب في صدر الاسلام مبدأ المساواة بين الناس ، وحصر التفاضل بينهم في التقوى والعمل الصـالح ، وجـدنا من يخص هـذه المساواة بـالدار الآخـرة ، وتجـاهلوا قول الـرسول ، صـلى الله عليه وسلم : « النـاس سـواسيـة كـأسنـان المشط ، لا فضـل لعربي على عجمي الا بالتقوى » ، بـل وقـرروا ما هو مضاد لمعنى

(١) ابن عبد ربه (العقد الفريد) ج٣ ص ٤١٣ طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

هذا الحديث ، فقالوا : « إن العرب اذا ذمّت قوما قالوا : سواسية كأسنان الحمار » ! . .[1] حدث ذلك ومثله كثير ، رغم فكر الاسلام ، الذي بشّر به الرسول ، في المساواة ، ورغم تراث التجربة العربية الاسلامية في دمج الموالي بذوي الاصول العرقية في كل قومي واحد ، ورغم ما تحقق في هذا الميدان من نجاح .

* ولقد لعب الموقف الاجتماعي دوره في هذه القضية ، فوجدنا « سادة » العجم و « اشراف » الموالي متحالفين مع الدولة الاموية ، يساندون ظلمها لجمهور الموالي والأعاجم ، لأنهم يقتسمون الثراء المجموع ، او على الأقل ينالهم منه نصيب ، ولأنهم ـ كما قدروا ـ سيستفيدون من الاضطهاد اذا هو تصاعد فدفع الموالي إلى فصم وحدة الدولة ، وعند ذلك يعود هؤلاء « السادة » قادة وسادة في الملك الفارسي من جديد ، كما كانوا في القديم ! . . ولم ينتبه متعصبو العرب الى خبث الدهاقين هذا ، فرأينا منهم من يصب ذمّه وعداءه على « عامة » الموالي ، ثم يمدح « السادة والأشراف » . . ويعبر ابن قتيبة (٢١٣ ـ ٢٧٦ هـ ٨٢٨ ـ ٨٨٩ م) عن رأي أصحاب هذا الموقف عندما يقول : « . . ولم أر في هذه الشعوبية ارسخ عداوة ولا أشد نصبا للعرب من السفلة والحشوة واوباش النبط وأبناء أكرة ـ (أجراء) القرى ، فأما أشراف العجم وذوو الأخطار منهم وأهل الديانة فيعرفون ما لهم وما عليهم ، ويرون الشرف نسبا ثابتا » ؟![2] . .

* وتصارعت في ساحة الفكر ، بالمجتمع ، مؤلفات عن « فضل العرب » و « فضائلهم » مع تلك المؤلفات الشعوبية عن « مثالب العرب » و« نقائصهم » ! . . .

* وضاعت الحقيقة ، أو كادت ، بين عصبية العرب وتعصب الشعوبيين . . وكادت لهذا كله أن تنطمس المعالم التي ارستها على طريق الوحدة

---

(١) (العقد الفريد) ج٣ ص ٤٠٩ .

(٢) (كتاب العرب) ص ٢٧٠ ، منشور ضمن (رسائل البلغاء) .

القومية تجربة الخلافة الراشدة في التأليف بين ابناء الدولة الواحدة ، على اختلاف اصولهم العرقية ومواريثهم الحضارية ، وكادت ، لهذا كله أيضا ، أن تنطفىء الشعلة المقدسة التي أوقدها الاسلام على هذا الطريق . . . وكادت ، ايضا أن تتمزق وحدة الدولة ، وينتكس الفكر القومي ، ويضل الناس طريقهم إلى التآلف والاندماج ، وتعود العصبية العربية الجاهلية فتقتسم وزر هذه الانتكاسة مع التعصب الأعمى للشعوبية والشعوبيين . .

* * *

لكن الساحة لم تكن وقفا على هذين التيارين ، ولم تكن مقصورة على هذين اللونين من ألوان الفكر . .

* ففي الميدان الاجتماعي قامت ثورات عدة ، ضد مظالم بني أمية واستبدادهم بالسلطة ، شارك فيها العرب والموالي على السواء ، وانتفى منها الحس العنصري ، وألّفت بين العرب والموالي فيها وحدة الموقف الاجتماعي ، والاشتراك في المصالح ، والانطلاق من العوامل والظروف الكثيرة التي كانت قائمة في المجتمع تؤلف وتجمع بين مواطني هذه الدولة ، بصرف النظر عن الأصول العرقية والمواريث الحضارية . . فلم يكن واقع المجتمع ـ لحسن الحظ ـ قاصرا على العوامل التي تفرق وتمزق ، بل كان زاخرا بالفكر الذي يسوي ويؤلف ، وبالمصالح التي تجمع وتوحد ، بل وبالأخطار التي لا يمكن دفعها عن الجميع الا اذا اتحد الجميع . . ومن هنا كانت الأرضية التي انطلق من فوقها تيار آخر ، غير هذين التيارين اللذين غرقا في التعصب والعصبية . .

فالشيعة ، وهي واحدة من حركات المعارضة لبني أمية ، ضمت كلا من العرب والموالي ، وان كانت غلبة الموالي والأعاجم على تركيبها ، في بعض المناطق وبعض الفترات ، قد جعل صوتها القومي خافتا بعض الشيء ، وحسها العربي ليس بالوضوح المنتظر والمطلوب . .

وتيار من **المرجئة** ، وهو التيار الذي عارض بني أمية ، قد انخرط في ثوراته على مظالم العرب والموالي على السواء . . حدث ذلك في الثورات التي

قـامت في « السغـد » ، بـالقـرب من سمـرقنـد ، وفي « بخـارى » ، وفي « البصـرة » . . وهي الثورات التي شـارك فيها عـدد غير قليـل من فقهـاء ذلـك التاريخ - (القراء) . . ووضح ذلك ايضا في ثورة عظيم الأزد الحارث بن سريج (١٢٨ هـ ٧٤٦ م) ضد هشام بن عبـد الملك (٧١ - ١٢٥ هـ ٦٩٠ - ٧٤٣ م) وهي الثورة التي اندلعت سنة ١١٦ هـ[١] . . .

والخـوارج : تحققت في تنظيمـاتهم وجمـاهـير فـرقتهم وجيـوشهـم الثـائـرة المساواة التامة والتآلف والتأليف بين الناس ، بصرف النظر عن الأصول العـرقية والمـواريث الحضـاريـة ، حتى لقـد رأينـاهم ينصبـون واحـدا من المـوالي اميـرا للمؤمنين عليهم ، وهو ثابت التمار ، الذي عقدوا له البيعة بامارة المؤمنـين بعد امامهـم نجدة بن عامر الحنفي (٣٦ - ٦٩ هـ ٦٥٦ - ٦٨٨ م)[٢]

وكذلك المعتزلة ، الـذين جاء تنـظيمهم منذ نشـأته الأولى تجسيـدا يترجم عن العوامل والمصالح المشتركة التي تربط مجموع المـواطنين في الـدولة العـربية ، ويعلن أن دواعي التآلف والتأليف القومي أكبر وأخطر واعظم من اسباب التنافر العرقي والتمزق القـومي . . فاثنـان من أبرز قـادة المعتزلـة ومؤسسي مدرستهـا وتنـظيمها ، وهمـا : واصل بن عـطاء (٨٠ - ١٣١ هـ ٧٠٠ - ٧٤٨ م) وغيلان الـدمشقي بعده (١٠٥ هـ -٧٢٣م) تلقيـا الفكر والعلم في بيت عـربي هـو بيت محمـد بن الحنفيـة - بن عـلي بن ابي طـالب - (٢١ - ٨١ هـ ٦٤٢ - ٧٠٠ م) . ولكنها كانا من الموالي . . . وعدد كبير من طلائع المعتزلة وقـادتها وأئمتهـا كانـوا من الموالي كذلك ، ويكفي أن نذكر منهم :

* ابـو عثمان عمـرو بن عبيد (٨٠ - ١٤٤ هـ ٦٩٩ - ٧٦١ م) وهـو من موالي بني العدوية . .

* وابـو بكر محمـد بن سيرين (١١٠ هـ ٧٢٨ م) وكـان مـولى لأنس بن مالك . .

---

(١) انظر كتابنا (الخلافة ونشأة الأحزاب الاسلامية) ص ١٦٩ - ١٧٢ .

(٢) المرجع السابق . ص ١٤١ .

* وأبـو محمـد عمـرو بـن دينـار (١١٥ هـ ٧٣٣ م) وكـان من مـوالي جمح . .

* وهشام بن أبي عبد الله الـدستوائي (١٥٣ هـ ٧٧٠ م) وهـو من موالي بني سدوس . .

* ومـكحـول الـدمشقي (١١٣ هـ ٧٣١ م) وكـان مـولى لامـرأة من هذيل . .

* وأبـو عبـد الله محمـد بن اسحـاق (١٥١ هـ ٧٦٨ م) وكـان مـولى لقيس بن مخرمة بن عبد المطلب بن عبد مناف .

* وأبو الهذيل العلاف (٢٣٥ هـ ٨٤٩ م) وهو من موالي عبد القيس . .

* والجاحظ ، أبو عثمان عمرو بـن بحـر (٢٥٥ هـ ٨٦٨ م) وكان مـولى لأبي القلمس عمرو بن قلع الكناني ثم الفقيمي[١] . .

* وابو الفتح عثمان بن جني (٣٩٢ هـ ١٠٠١ م) وكان ابوه مملوكا روميا لسليمان بن فهد الأزدي الموصلي[٢] .

ففي هذه المدرسة الفكريـة ، التي ضمت العديـد من الموالي ، والتي لعب دورا بارزا في قيادتهـا ، فكرا وتنـظيما ، عـدد كبير من المـوالي ، في هذه المـدرسة تجسـدت معالم التيـار الفكـري الثـالث ، الـذي رفض عصبيـة بني أميـة ، ذات الطابع الجاهلي ، وتعصب الشعـوبية العـرقي ، وقدم للحـركة الفكـرية العـربية بواكير الفكر القومي ، في صياغاته الحضارية والانسانية والمستنيرة ، وكان بذلـك المعبـر عن نمـاء البـذور الأولى التي ألقى بهـا الفكـر الاسـلامي النقي في هــذا الميدان . .

وعلى سبيل المثال :

فعلى حين كـانت الشعوبيـة تنتقص من قدر لغـة العرب ، وتعلي من قدر

(١) انظر في هذه الأسماء وغيرها : المرجع السابق . ص ٢٠٠ ـ ٢٠٢ .

(٢) انظر كتابنا (نظرة جديدة إلى التراث) ص ٦٧ وما بعدها طبعة بيروت سنة ١٩٧٤ م .

الفارسية ، نجد ابن جني يقدم في كتابه (الخصائص) أروع وأعمق دفاع موضوعي عن العربية ، ويضع يدنا على الكثير من الأسرار التي تزكيها وتفسر أهليتها وجدارتها بما بلغته في ذلك التاريخ كلغة للدين والفكر والفلسفة والعلوم ، في الامبراطورية العربية ، وخارجها . .[1] .

أما الجاحظ فإننا واجدون عنده بواكير الصياغات النظرية للفكر القومي العربي ، بمضمونه الحضاري والانساني والمستنير ، حتى ليحسب المرء أنها من ثمرات العقل المستنير في عصرنا الحديث! . . فهو:

أولا : يهاجم التطرف ويدين طرفي النقيض :

فهو بجدله وحواره مع أطراف الصراع حول هذه القضية يحدد بوضوح أنه يمثل موقفا ثالثا وتيارا متميزا غير الموقفين والتيارين اللذين غطى غبار فكرهما ساحة المجتمع العربي عندما أصبحا طرفي نقيض في العصبية والتعصب . . فهو يهاجم ويدين كلا من تعصب الشعوبية ضد كل ما هو عربي ، وعصبية العرب على كل ماليس بعربي . . فيتحدث عن الشعوبية قائلاً : . . . « واعلم أنك لم تر قوماً أشقى من هؤلاء الشعوبية، ولا اعدى على دينه، ولا أشد استهلاكاً لعرضه ، ولا أطول نصبا - (عداوة) - ولا أقل غنما من أهل هذه النحلة . . وقد شفى الصدور منهم طول جسوم الحسد على أكبادهم ، وتوقد نار الشنآن - (العداوة والبغضاء) - في قلوبهم ، وغليان تلك المراجل الفائرة ، وتسعر تلك النيران المضطربة »[2] .

وهو يكشف ، ساخرا ، عن مدى الغلو الذي بلغته الشعوبية في عدائها لكل ما له صلة بالعرب ، حتى لقد سفهت من نمط معيشتهم والأدوات التي يستعملونها في حياتهم ، والنباتات التي تطيق أرضهم وتحسن صحراؤهم

---

(١) المرجع السابق . ص ٩١ - ١٠١ .

(٢) (البيان والتبيين) ج٣ ص ٤٠٥ . طبعة بيروت سنة ١٩٦٨ م .

زراعتها !. . وجعلت من هذه الأشياء رموزا قومية صيرتها أهدافا في الصراع . . فيقول : « . . وبعد ، متى صار اختيار النخل على الزرع يحقد الأخوان؟! ومتى صار تقديم النخلة ملة ؟! وتفضيل السنبلة نحلة؟! ومتى صار الحكم للنعجة نسباً، وللكرمة صهراً ؟! ومتى تكون فيه ديانة، وتستحكم فيها بصيرة، ويحدث عنها حمية؟!. . (١)

ثم يعيب على الشعوبية جهلهم الذي قادهم اليه التعصب والذي جعلهم يغفلون عن العلاقات الطبيعية بين بيئة كل أمة ومواريثها وملابسات حياتها وبين مالها من تقاليد وعادات . . فالفهم الواعي لأسباب الظواهر والطبائع يضع ايجابيات الأمم في اطارها ويكشف عن الأسباب الحقيقية لما لها من عيوب وسلبيات . . فالشعوبيون « لو عرفوا أخلاق كل ملة ، وزي كل لغة ! وعللهم في اختلاف إشاراتهم وآلاتهم وشمائلهم وهيئاتهم ، وما علة كل شيء من ذلك؟ ولم اختلقوه ؟ ولم تكلفوه ؟ لأراحوا أنفسهم ، ولخفت مؤونتهم على من خالطهم !؟. . (٢) .

وهو يدين العصبية والتعصب ، وينبه على اثره المدمر لكل من الدين والدنيا . . ويشير الى ما وقع فيه العجم من العصبية الشعوبية على العرب والى ما وقع فيه بعض الموالي - (الذين تعربوا) - من تعاليهم على كل من العجم ، الذين لم يتعربوا ، وعلى العرب ايضا ، لأن هؤلاء الموالي رأوا أنهم قد جمعوا ميراث العجم إلى عروبة العرب فافتخروا على الفريقين !. . وهو ، يعيب ، كذلك ، مفاخرة العرب بالأنساب ، وما تجلبه من الشر والفساد . . فيتحدث مهاجما « العصبية التي هلك بها عالم بعد عالم ، والحمية التي لا تبقي دينا الا أفسدته ، ولا دنيا إلا أهلكتها . . وهو ما صارت اليه العجم من مذهب الشعوبية ، وما قد صار اليه الموالي من الفخر على العجم والعرب . . وليس أدعى الى الفساد ولا أجلب للشر من المفاخرة بالأنساب . . (٣) ».

---

(١) (رسائل الجاحظ) ج١ ص ٢٤٠ . تحقيق عبد السلام هارون . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤م.
(٢) (البيان والتبيين) ج٣ ص ٤٠٦ .
(٣) (رسائل الجاحظ) ج١ ص٢٠ ، ج٢ ص٢٢ .

ومن منطلق العلماء عندما يبصرون طبائع الناس وخصائص الأمم ومميزات الأقوام . . ومن موقع الحرص على التأليف القومي بين الذين جعلتهم الفتوحات يستظلون براية دولة واحدة ، ثم فتحت أمامهم امكانيات تطور متحد . . من هذا المنطلق وذلك الموقع ينبه الجاحظ على ذلك الخطأ الذي غرق فيه وأغرق طرفا الصراع : الشعوبيون ومتعصبو العرب ، عندما زعم كل طرف إن عرقه وجنسه وأرومته هي المحتكر الأول والأوحد لمحاسن الصفات وحميد الأخلاق والجيد من المميزات ، ذلك ان المحاسن والمساوىء ، والطيب والرديء ، صفات توزعت في الناس جميعا والأمم جمعاء ، ولم ولن توجد الأمة الخالصة في المحاسن ولا تلك الخالصة للعيوب ، ومن ثم فان التفاضل بين الأمم انما يكون بغلبة صفات الخير على صفات الشر ، وكثرة الطيبات على السيئات ، فالصفات ، بنوعيها فيض مشاع ، وبي التوجه نحو الطيب كثيرا والتجنب للخبيث غالبا فلتتنافس الامم والشعوب ، كل الامم والشعوب . .

« فلقد اجتمعت الأنس على الصورة ، وأقرّوا بتفرق الأمور المحمودة والمذمومة ، من الجمال والدمامة ، واللؤم والكرم ، والجبن والشجاعة ، في كل حين ، وانتقالها من أمة الى أمة ، ووجود كل محمود ومذموم في اهل كل جنس من الآدميين ، فلكل نصيب من النقص ، ومقدار من الذنوب ، وانما يتفاضل الناس بكثرة المحاسن وقلة المساوىء ، فأما الاشتمال على جميع المحاسن ، والسلامة من جميع المساوىء دقيقها وجليلها ، وظاهرها وخفيها ، فهذا لا يعرف ! . . »(١)

وهو هنا يقول ، ايضا ، لطرفي النقيض في هذا الصراع ان ما لكل منهما من ميزات حقيقية من الممكن ان يتخلق بها الآخر ، وخاصة بعد أن أتاحت لهما الدولة الواحدة وجود وعاء للتفاعل القومي والحضاري « فانتقال الصفات من أمة الى أمة » حقيقة واردة ، ومن ثم فهي طريق مفتوح للتآلف والتأليف . .

هكذا أدان الجاحظ ، ممثلا لتيار فكري قومي جديد ، كلا من طرفي

---

(١) المصدر السابق . ج١ ص ١٢٦ ، ٣٧ .

النقيض في ذلك الصراع القومي : تعصب الشعوبية ، والعصبية العربية . . على السواء . .

وثانياً : يرى في الانصهار القومي استجابة لضرورات موضوعية

والجاحظ ، ممثلا لهذا التيار القومي ، لا ينطلق إلى دعوته التأليفية بين العناصر المتصارعة على ساحة الدولة والمجتمع من منطلق « الفكرة » المثالية الخيرة ، أو الحلم المثالي - (الطوبائي) وانما يبصر ، في عمق ، العوامل الموضوعية الجديدة التي نمت وتنمو في ذلك الواقع الجديد .. فعصبية العرب تحيي نعرات الجاهلية وتكبرها ، وذلك بعد أن أدانها الاسلام وشجبها الفكر القومي الذي بذر في تربة الدولة العربية منذ عهد الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، وبعد أن تجاوزتها تطورات ما مر بالعرب منذ ذلك التاريخ من أحداث - والتعصب الشعوبي يقف عند مجد الدولة الاقطاعية الساسانية ، وينطلق من حمية الثأر لنظام كان نكبة على الساسانيين والفارسيين بمقدار ما كان قيدا على العرب والشرقيين أجمعين ، ويجاهد ليحيي ديانة لا ترقى الى عشر معشار ما يمثله الاسلام من رقي في العقيدة والشريعة، لايدانية فيهما دين من الأديان . . يقف الطرفان ، كلاهما ، عند أطلال الماضي ، وينطلقان الى تعصبهم وعصبيتهم منها ، جاهلين أو متجاهلين العوامل الموضوعية ، والأخطار الخارجية التي تهيب بالجميع أن يأتلفوا ، والتي تجعل من الانصهار القومي استجابة منطقية لضرورات موضوعية ، وليس مجرد « دعوة صالحة » وحلم مثالي جميل . .

فلقد ولدت في هذا المجتمع ظروف موضوعية جديدة . . وهي ظروف تأليف وتآلف وجمع وانصهار . . وهي ظاهرة موضوعية ، ولدت وتنمو على حساب عوامل التمزق والتغاير والتخالف التي تمثل مواريث الماضي ، والتي تتجه نحو التقلص والشحوب والذبول . . صحيح إن فروقاً لا تنكر لا تزال قائمة ، وتناقضات لا تجحد، لا تخطؤها العين الفاحصة الباحثة ، ولكن لنضع كل ذلك في حجمه الصحيح . . ثم لنتنبه أن عدواً لوحدة هذه الأمة ينفخ في

أسباب الاختلاف ويدفع في اتجاه الإفتراق . يحدثنا الجاحظ عن ذلك في مقدمة كتابه (مناقب الترك) باعتباره الغرض من تأليف هذا الكتاب ، فيقول : **« وكتابنا هذا إنما تكلفناه لنؤلف بين قلوبهم التي كانت مختلفة ، ولنزيد الالفة إن كانت مؤتلفة ، ولنخبر عن إتفاق أسبابهم لتجتمع كلمتهم ، ولتسلم صدورهم ، وليعرف من كان لا يعرف منهم موضع التفاوت في النسب ، وكم مقدار الخلاف في الحسب ، فلا يغير بعضهم مغير ، ولا يفسده عدو بأباطيل مموهة وشبهات مزورة ، فإن المنافق العليم ، والعدو ذا الكيد العظيم ، قد يصور لهم الباطل في صورة الحق ، ويلبس الاضاعة في ثياب الحزم ؟ ! . . »**[1] . .

وكما قلنا ، فهو لا ينكر الفروق والفوارق بين الجماعات التي كانت على عتبة الانصهار القومي ، وفي مراحله الأولى ، والتي كانت العصبية والتعصب يجاهدان لردها عن هذا الطريق . . ولكنه يضع هذه الفروق في اطارها وحجمها ، بل ويدعو إلى اتخاذ هذا « التعدد » كميزة ، تثري حياة هذه الجماعات ، وتغني قسماتها المشتركة الوليدة ، بالتنافس ، بدلاً من التناحر . . ذلك إنهم إذا عرفوا ما بينهم من تمايز ، وما يجمعهم من روابط ، وأبصروا اتجاه حركة نمو « الظاهرة » . . **« سامحت النفوس ، وذهب التعقيد ، ومات الضغن ، وانقطع سبب الأستثقال ، ولم يبق إلا التنافس ! . . »**[2] .

وفي سبيل وضع الفروق والخصائص الخاصة والمميزة لتلك الجماعات ، التي تألفت منها رعية الدولة يومئذٍ في حجمها الحقيقي ، وفي سبيل التنبيه على غلبة عوامل الإتفاق والتآلف ، في سبيل ذلك سلك الجاحظ دربا لعل الكثيرين من الدارسين لم يفطنوا إليه ، فهو قد ألف عدداً من الرسائل ، خصص كل واحدة منها للإنتصار لطائفة من الطوائف ولتفضيل جماعة من الجماعات . . وذلك مثل : (مناقب الترك) و (فخر السودان على البيضان) و (مفاخرة قحطان)

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٢٩ .

(٢) المصدر السابق . ج ١ ص ٣٤ .

و(تفضيل عدنان) . . الخ . . الخ . . . حتى ليحسب البعض أن الرجل إما كان متناقضاً ، لأنه فضل الجنس ونقيضه والجماعة وغريمتها ! أو أنه كان « سوفسطائياً » - بالمعنى الدارج - يحتج للأشياء ونقائضها ! . . ولكننا نبرئه من كلا الظنين ، ونراه قد سلك هذا الدرب ليثبت لنا ، في النهاية ، أن كاتباً قديراً وفيلسوفاً مقتدراً مثله يستطيع أن يبرهن على أن الفضل والفضائل هي من نصيب كل جماعة من هذه الجماعات وكل جنس من هذه الأجناس . . وعندما يحدث ذلك ، فلا بد لصاحب الرؤية الشاملة والنظرة التي ترى الظواهر من زواياها المختلفة والمتعددة من أن يتساءل : إذا كان لكل فضل ، وإذا كانت الفضائل في الجميع ، فإن الحقيقة الموضوعية لا بد وأن تكون مع التآلف والائتلاف ، للإشتراك في الفضائل ، ولشيوعها في الأمم والأجناس والجماعات ، ولا بد أن تكون هذه الحقيقة الموضوعية ضد أولئك الذين يتوهمون الفضائل حكراً لفريق ، والرذائل وقفا على فريق آخر ! . .

وثالثا : يعلن عن ولادة قومية جديدة وجامعة

وإذا كان طرفا النقيض المتعصبان يقفان عند الماضي المتخلف . . وإذا كانت هناك ظروف موضوعية جديدة وجدت وتوجد ونمت وتنمو في هذا المجتمع الواحد - كما نبه على ذلك الجاحظ - وإذا كانت هذه الظروف الموضوعية الجديدة ، تنمو ، كظاهرة ، على حساب الماضي المتخلف . . فان الجاحظ ينتهي من ذلك إلى تسليط الضوء على الآثار النامية والتأثيرات المتزايدة للقسمات المشتركة والسمات المتحدة ألتي أخذت تجمع ابناء المجتمع كلهم ، بصرف النظر على العرق والجنس . . وهو هنا يصل إلى قمة المضمون الانساني والحضاري والمستنير الذي جعله محتوى للفكر القومي الذي قدم بواكير صياغاته النظرية في تراثنا . . فهو يرفض « العرق والجنس » معياراً « للقوم والقومية » ، ويتحدث عن العادات والتقاليد والشمائل وعن اللغة ، وعن الولاء للقوم وفكرهم وحضارتهم . . الخ . . يتحدث عن هذه الأشياء والقسمات ، باعتبارها الروابط والسمات القومية البديلة لوحدة العرق والجنس ، بل وباعتبارها أقوى

من وحدة العرق والجنس . . فهذه السمات التي ولدت ونمت في المجتمع العربي ، والتي ربطت وألفت بين جماعات عرقية متعددة ، قد أصبحت بمثابة « الرحم » الواحد ، الذي ولدت منه هذه « الجماعات »، بل « الجماعة » الواحدة ولادة جديدة . . وبذلك أصبحوا « كلاً قومياً واحداً » على حين ابتعدت بهم هذه السمات ، قومياً ، عن أخوة لهم في النسب لم يكتسبوا مثلهم تلك السمات . .

فالعرب العدنانيون ، ابناء إسماعيل بن إبراهيم ، هم اخوة في النسب والعرق للعبرانيين ، ابناء إسحاق بن إبراهيم . . (عليهم السلام) والعدنانيون ليسوا اخوة في النسب والعرق للعرب القحطانيين . . ومع ذلك فان « تعرب » إسماعيل ونسله ، قد جعلهم مع القحطانيين جماعة واحدة وأمة متحدة تجمعهم جميعاً العادات والتقاليد واللغة والثقافة والولاء . . الخ . . الخ . . وليس ذلك حالهم في الروابط والارتباط مع بني عمومتهم في النسب من العبرانيين . . فليس العرق والنسب معياراً للقومية ، ولا هو من قسماتها وشروطها . . ومن ثم فان الباب واسع والدرب عريض أمام الانصهار القومي والوحدة القومية لهذه الجماعات التي تؤلف المجتمع العربي والرعية في الدولة العربية ، لأنهم وان افتقروا إلى وحدة العرق والنسب ، فان في القسمات التي نمت وتنمو مؤلفة بينهم رحماً جديداً وواحداً ، يولدون جميعاً منه ولادة جديدة ، كقومية واحدة ، مبرأة من عصبية العروق والأجناس . . .

يحدثنا الجاحظ عن هذه القضية الهامة ، ويقدم لنا صياغته النظرية لها عندما يقول : « ان العرب قد جعلت إسماعيل ، وهو ابن اعجميين ، عربياً ، لأن الله فتق لهاته[1] بالعربية المبينة ، ثم فطره على الفصاحة ، وسلخ طباعه من طبائع العجم . . وسواه تلك التسوية ، وصاغه تلك الصياغة ، ثم حباه من طبائعهم ومنحه من أخلاقهم وشمائلهم ، وطبعه من كرمهم وأنفتهم وهممهم على أكرمها . . فكان أحق بذلك النسب وأولى بشرف ذلك الحسب . . **وان العرب لما كانت واحدة فأستووا في التربية وفي اللغة والشمائل والهمّة وفي**

---

(١) اللهاة : جزء من أقصى سقف الفم ، مشرف على الحلق .

الأنف والحمية ، وفي الأخلاق والسجية ، فسبكوا سبكا واحداً ، وكان القالب واحداً ، تشابهت الاجزاء وتناسبت الاخلاط ، وحين صار ذلك أشد تشابها في باب الأعم والأخص ، وفي باب الوفاق والمباينة من بعض ذوي الأرحام، جرى عليهم حكم الإتفاق في الحسب ، وصارت هذه الأسباب ولادة أخرى ، حتى تناكحوا عليها وتصاهروا من أجلها ، وامتنعت عدنان قاطبة من مناكحة بني إسحاق ، وهو أخو إسماعيل ، وجادوا بذلك في جميع الدهر لبني قحطان، وهو ابن عابر . . ففي اجماع الفريقين على التناكح والمصاهرة ، ومنعهما من ذلك جميع الامم ، كسرى فما دونه ، دليل على أن النسب عندهم متفق ، وأن هذه المعاني قد قامت عندهم مقام الولادة والأرحام الماسة . . وإن الموالي بالعرب أشبه ، واليهم أقرب ، وبهم أمس ، لأن السنة جعلتهم منهم . . إن الموالي أقرب إلى العرب في كثير من المعاني ، لأنهم عرب في المدعي والعاقلة - (العصبة) - وفي الوراثة ، وهذا تأويل قول الرسول : « مولى القوم منهم » و « مولى القوم من أنفسهم » و « الولاء لحمة كلحمة النسب » . . وعلى شبيه ذلك صار حليف القوم منهم ، وحكمه حكمهم »[1] . .

هكذا طرح الجاحظ القضية . . وهكذا أعلن ميلاد الشخصية القومية العربية الجديدة . . وهكذا نضع يدنا ، في صياغة النظرية هذه ، على الشجرة النامية المثمرة ، تلك التي وضع بذرتها في تربة الدولة العربية الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، عند ظهور الاسلام . . فالعربي والعروبة ليست عرقا ولا جنساً . . وإنما هي حضارة وولاء وسمات تؤلف وتجمع أولئك الذين يمنحون ولاءهم لهذه الحضارة وتلك السمات ، وذلك بصرف النظر عن العرق والجنس والدين . .

لكن . . لابد من سؤال : لماذا كانت مبكرة تلك النشأة للشخصية القومية العربية ، بالقياس إلى أمم كثيرة ؟ ؟ . .

وهنا لا بد ، كي نجيب ، من الاشارة إلى عدد من الحقائق . .

---

(١) (رسائل الجاحظ) ج ١ ص ٢٩ - ٣١ ، ١١ - ١٤ .

* فالتيار الفكري الذي تصدى لعصبية الشعوبية وتعصب النعرة العربية الجاهلية ، وقدم في صراعه معهما ، بواكير الصياغة النظرية للفكر القومي بتراثنا ، كان هو ذات التيار الذي أعلى من شأن العقل وانتصر له وجعله سيداً وحكماً بالقياس إلى النصوص والمأثورات . . ولقد توزع هذا التيار « القومي - العقلاني » في مدارس فكرية وفرق اسلامية عدة ، لكن أبرز فصائله كانوا هم (أهل العدل والتوحيد) ، و (المعتزلة) منهم بوجه خاص . . والجاحظ ، الذي ضربنا بفكره المثل على بواكير الصياغات النظرية في فكرنا القومي القديم هو واحد من أئمة المعتزلة وأعلامهم . . فالعقلانية، بمعناها المتميز في تراثنا - والتي سيأتي حديثنا عنها في الفصل القادم - كانت وجه عملة ، يمثل الفكر القومي ، بمضمونه الحضاري والمستنير ، الوجه الآخر لها . . علا شأنهما معاً ، وأصابتهما الانتكاسات معاً كذلك . .

* ومنذ وقت مبكر، نسبياً، شهد واقع المجتمع العربي عوامل موضوعية أعانت على النشأة المبكرة لهذا التيار القومي وفكره النظري ، وهنا نذكر بما سبقت إشارتنا إليه من مكان هذا الوطن على طريق التجارة العالمية منذ وقت موغل في التاريخ . . فلقد أدى هذا الموقع إلى أن صنعت حركة التجارة لها بأرجاء هذا الوطن طرقاً ومسالك صارت أشبه ما تكون بالروابط التي تربط أجزاء هذا الوطن ، بل لقد غدت طرق التجارة شرايين تدفع عوامل الوحدة والتآلف بين مدن هذا الوطن وأقاليمه دفع الشرايين للدم الواحد في الجسد الواحد . . فنمت فيه ، أكثر من غيره وأسرع من غيره ، العادات والتقاليد والقسمات التي تجمع وتوحد بين القاطنين فيه . . الأمر الذي جعل تطوره نحو تبلور الشخصية القومية وظهور الفكر القومي أسرع من سواه . .

* لقد كان طبيعياً، بل وحتمياً، أن تنمو مع حركة التجارة النشطة قوى اجتماعية تمارس التجارة وترتبط بطرقها ومدنها وبالأنشطة المساعدة في انجازها والمعينة على أعمالها . . . وبحكم التفاعل بين هذه القوى وبين أبناء الحضارات الأخرى ، فلقد كانت قسمة العقلانية عندها أوضح منها عند سواها . . وبحكم ارتباط أزدهار التجارة ونموها بوحدة الوطن ، التي تزيل

الحواجز ، وترفع المكوس ، وتؤمن الطرق ، وتيسر الخدمات . . كان ارتباط هذه القوى الاجتماعية بكل ما يوحد الشخصية القومية للمجتمع ويزيل من ساحته الفكر العنصري ، والاقليمي ، والضيق الأفق . . شعوبياً كان ، أو عربياً جاهلياً . .

* ولقد أعان هذه القوى الاجتماعية النامية على أن تنجز ما انجزت على درب وحدة الوطن ، ومن ثم توحيد الأمة ، أن نمط الانتاج الاقطاعي في المنطقة لم يكن كمثيله في أوربا ، امارات اقطاعية ذات حواجز كاملة وشاملة ، جعلت من حدودها حدوداً في الإدارة والسياسة والتشريع كما هي حدود في الاقتصاد . . فنمط الانتاج في الشرق الذي حكمته المركزية التي نشأت منذ القدم في أحواض الأنهار ، قد جعل الطريق لتوحيد الوطن ووحدة الأمة أكثر يسراً مما كان الحال عليه في ظل إمارات الاقطاع الأوربي المغلقة الحدود والعالية الأسوار . .

ولقد كان التجار العرب ، هم ، غالباً علماء عرب . . والذين يعلمون الدور الأكبر الذي لعبه التجار ولعبته قوافل التجارة في نشر اللغة العربية ، ونشر الاسلام ، يعلمون الدور الذي لعبه التجار ولعبته التجارة في التقريب والتوحيد بين السمات والقسمات التي غدت ، مع الزمن ، الروابط القومية الواحدة لهذه الجماعة العربية الواحدة ، منذ ذلك الوقت المبكر في التاريخ .

* ومن هنا فليس غريباً ، وليست مصادفة أن نجد جمهوراً كبيراً من أعلام المعتزلة وعلمائها تجاراً وأصحاب حرف وصناعات ، ومن ثم أن نجدهم فرسان الفكر القومي العربي ، والمنتصرين لمقام العقل في تراثنا . . ولقد كان الجاحظ ، الذي قدمنا اشارات لفكره القومي هو صاحب أقدم كتاب عن التجارة في تراثنا ـ (كتاب التبصر بالتجارة) ![1] . .

وليس غريباً ، وليست مصادفة كذلك أن نجد المدن والحواضر التي انتشر فيها فكر المعتزلة أكثر من غيرها هي المدن والحواضر المرتبطة بطرق التجارة في

---

(١) انظر كتابنا (الخلافة ونشأة الاحزاب الاسلامية) ص ٢٢٠ ـ ٢٢٥ .

ذلك التاريخ ؟ !(١) . . فهذه القوى الاجتماعية كانت أكثر من غيرها ، أكثر من بدو الصحراء وأعرابها، وأكثر من فلاح الأرض المتوطن في قريته . . كانت أكثر من هؤلاء ارتباط مصلحة بوحدة واتحاد المجتمع ، وأيضاً أوسع أفقا من هؤلاء وهؤلاء .

* ولقد أعان على هذا النمو المبكر لهذا الفكر القومي ، الذي عكس تبلور الشخصية القومية المبكر أيضاً ، أن دين الاسلام ، وهو الذي كان « ايديولوجية » المجتمع عبر هذا التاريخ ، لم يكن دينا لعنصر أو قوم أو جنس أو شعب بعينه، كما كان حال الأديان من قبل، فرسالته إلى الناس كافة، ورسوله، صلى الله عليه وسلم، مبعوث للبشر أجمعين . . ووضوح هذه القسمة العالمية في الاسلام كانت ، بالتأكيد ، عونا للذين ارتبطت مصالحهم وطمحت نفوسهم واستشرفت عقولهم آفاق الدائرة القومية ، فهذه الدائرة وان كانت أدنى من الأفق العالمي والانساني ، الا أنها أوسع من حدود الجنس والعرق والعصبية . . وإذا كان بلوغ الاسلام بأهله دائرة العالمية والانسانية قد عز على امكانات ذلك العصر ، فلقد أعانهم على تخطّي حدود العرق وحواجز العصبيات إلى رحاب الدائرة القومية ، فدخلوها قبل غيرهم ، وانطبعوا بطابعها قبل الكثيرين . .

وهكذا نجد أنفسنا امام عوامل موضوعية ، نمت في المجتمع العربي بعد الفتوحات ، أثمرت سمات توحيدية ، ونسجت خيوطا موحدة ألفت بين الجماعات التي أصبحت عربية ، بالحضارة والولاء ، بصرف النظر عن الأنساب والدماء والمواريث المختلفة التي سبقت على فتح العرب المسلمين لبلاد هذه الجماعات . .

ونجد ، كذلك ، الغلبة لهذه السمات القومية في الصراع الذي خاضته ضد طرفي النقيض اللذين اجتهدا وجاهدا لتمزيق أوصال الدولة ، بالانشقاقات والتفتت ، كما كان حال الشعوبية . . وبالقهر ، الذي لا بد أن يدفع المقهورين إلى الانشقاق ، كما كان حال العصبية الجاهلية للأموين . .

---

(١) المرجع السابق . ص ٢٤٠ ـ ٢٤٧ .

وعندما يتأمل المرء هذه الحقيقة يدرك عبقرية هذه الأمة وأصالتها . . فأمام التحدي الذي فرض عليها يومئذ ، تحدي العصبية والتعصب ، جددت ذاتها ، وأبصرت مصالحها ، وأحيت خير ما في تراثها ، فكان أن أبرزت عوامل الوحدة على أسباب التمزق ، ورفعت قسمات التأليف على أمارات الشتات ، وكان أن أجابت على ذلك التحدي بهذه الشخصية القومية الواحدة ، وذلك الفكر القومي ، طوقي نجاة ، سبقت بهما أمما كثيرة في هذا الميدان . .

الفصل الثالث

بالعقل انتصرت العروبة، وانتشر الإسلام

قبل أن ينقضي القرن الهجري الأول كانت الدولة العربية قد ضمت أمما وشعوبا تتدين بجميع ما على الأرض من ملل ونحل وعقائد ومذاهب وأديان ! . .

ففي (٩٤هـ-٧١٢م) كانت الفتوحات قد بلغت السند ، في الشمال الشرقي للقارة الهندية ، والأفغان ، وماوراء النهر - هذا في الشرق - ثم بلغت في الغرب إلى قلب الأندلس . . وبذلك غدت هذه الدولة أكبر امبراطوريات ذلك التاريخ . . وهي لم تضم فقط شعوباً تتدين بكل أديان الدنيا ، سماوية ووضعية ، بل وضمت رعية أغلبيتها العديدة من غير المسلمين! . .

فمن رعيتها من كانوا يتدينون بكل مذاهب المسيحية يومئذ : اليعقوبية ، والملكانية ، والنسطورية .

ومن يتدينون بكل مذاهب اليهودية : ربانيين ، وقرائين ، وسامرة . . ومن يتدينون بمذاهب الفرس - (المجوس) - الدينية : المانوية ، والمزدكية ، والديصانية ، والمرقيونية ، والماهانية ، والصيامية ، والمقلاصية - وهي فروع وفرق للوثنية - وكذلك مذاهب : الزرداشتية ، والتناسخية ، والكيومرثية ، والزرواثية ، والكينوية .

ومن يتدينون بديانات الهند : هندوسية ، وسمنية .. الخ ..

ومن يتدينون بديانة الصابئة ، المغتسلة ، بشمالي العراق ، وفيها تمتزج المجوسية بالمسيحية بعبادة الكواكب .

ومن يتدينون بمذاهب روحية ، سماهم لها كتاب (الملل والنحل) : « أصحاب الروحانيات » ..

ومن يتدينون ، أيضاً ، بعبادة الأوثان .. في مناطق من بلاد الشمال الافريقي ، غربا ، وبلاد ماوراء النهر التركية ، في الشمال الشرقي ..

هكذا كانت الأوضاع الدينية بالدولة العربية الاسلامية .. امبراطورية كبرى ، ضمت ، مع الاسلام ، كل ديانات الدنيا .. والمسلمون هم الحكام ، وهم الأقلية الدينية بين المحكومين ! ..

ومنذ البدء اتخذ الاسلام موقفاً واضحاً ، وغير مسبوق ، من المتدينين بالديانات السماوية ، فلقد أكد قرآنه الكريم وحدة الدين الإلهي ، أزلا وأبدا ، عندما قرر أن أصول الدين ثلاثة : الايمان بالألوهية - (وحدانية الإله) - والإيمان باليوم الآخر - (الحساب والجزاء) - والعمل الصالح .. ويجمع هذه الأصول عنوانان رئيسيان : التوحيد ، والطاعة .. والتوحيد هو « الحنيفية » ، والطاعة هي « الاسلام » .. فالدين ألحق والواحد هو هذا ، وكما قال الرسول ، عليه الصلاة والسلام : « ان ذات الدين عند الله : الحنيفية المسلمة ... ومن يعمل خيراً فلن يكفره » ..[1] وهذا معنى : ﴿إن الدين عند الله الاسلام﴾[2] و ﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً﴾[3] .. وبهذا الدين الواحد ، أزلا وأبدا ، جاء محمد ، صلى الله عليه وسلم ، فهو قد جاء - في الدين وأصوله - ﴿مصدقاً لما بين يديه﴾[4] ...

---

(١) رواه الترمذي في سننه .

(٢) آل عمران : ١٩ .

(٣) آل عمران : ٦٧ .

(٤) البقرة : ٩٧ ، وآل عمران : ٣ ، وفاطر : ٣١ .

أما في « الشريعة » ، أي النهج والطريق والمذهب الذي يسلكه الانسان كي يتدين عن طريقه بأصول هذا الدين الواحد . . فلقد جاء الاسلام بشريعة جديدة ، دعا إليها الناس أجمعين ، وثنيين كانوا أم أهل كتاب . . لكن قرآنه الكريم قد ميز بين المشركين ، الذين يجحدون أصول الدين ، وبين أولئك الذين يتدينون بالدين الإلهي ، ويسلكون إليه شرائع الأنبياء والأمم السابقة ، دون شريعة محمد وأمة الاسلام ، فسماهم أهل الكتاب ، بل وألمح إلى أن بقاءهم على شرائعهم لا يخرجهم من دائرة التدين التي تضمن لصاحبها النجاة . . فاليهود ﴿ عندهم التوراة فيها حكم الله ﴾[1] والله سبحانه أنزل ﴿ التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار ﴾[2] . . وبالنسبة للنصارى : فـ ﴿ ليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه ﴾[3] . . ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ﴾[4] . . ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين * إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم ﴾[5] . . والمفسرون يقفون امام هذه الآيات فيقولون ان معناها أن الله « **جعل التوراة لأهلها ، والانجيل لأهله ، والقرآن لأهله ، وهذا في الشرائع والعبادات . والأصل : التوحيد ، لا خلاف فيه . .** »[6]

ويقولون في تفسير الاشارة الواردة بقوله سبحانه ﴿ ولذلك خلقهم ﴾ : « **ان الاشارة للاختلاف ، أي وللاختلاف خلقهم !** »[7]

وهو يؤكد نجاة كل المتدينين بأصول الدين الإلهي الواحد ، رغم تعدد شرائعهم التي ينهجونها سبلا لهذا التدين ، فيقول القرآن الكريم : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم

---

(١) المائدة : ٤٣ .
(٢) المائدة : ٤٤ .
(٣) المائدة : ٤٧ .
(٤) المائدة : ٤٨ .
(٥) هود : ١١٨ ، ١١٩ .
(٦) القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) ج ٦ ص ٢١١ .
(٧) المصدر السابق . ج ٩ ص ١١٥ .

الآخر ، وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾(١).

اذن ، فموقف الاسلام من أهل الكتاب يتعدى التسليم بحقهم في حرية العقيدة والضمير ، المؤسسة على قاعدة ﴿لا اكراه في الدين﴾(٢)، والنابعة من طبيعة « الايمان » ، باعتباره تصديقاً قلبياً ويقيناً داخلياً لا يمكن تحصيله بغير الاقتناع الحر ، ويستحيل الحصول عليه بالاكراه . . يتعدى الاسلام هذا الموقف ، ويرتقي فوقه إلى حيث يقرر وحدة الدين الإلهي ، أزلا وأبدا ، وتعدد الشرائع الإلهية ، أزلا وأبدا كذلك ، ومن ثم فان التعدد في الشرائع واقع مقرر وقائم ، وهو سنة من سنن الله في الكون . . وتبعا لذلك فان الاسلام لا يعرف الحرب الدينية التي تكره الآخرين على التمذهب بشريعته ، وكذلك فان دولته التي صنعت أكبر الفتوح العسكرية وأسرعها ، وألتي أسست أكبر الامبراطوريات في القرن الأول من عمرها قد ضمت واحتضنت كل الذين تدينوا بديانات السماء ! . . وفي البداية كانت هذه الحرية مقررة لليهود ، والنصارى ، والصابئة ، وهم الحنفاء ، الذين استبدلوا بالوثنية العربية ما استطاعوا الكشف عنه وتأليفه من توحيد إبراهيم الخليل ، عليه السلام . . ولكن الاعتبارات السياسية سرعان ما استفادت من روح التسامح الاسلامي فاتسعت بنطاق هذه الحرية كي تشمل المجوس بفرقهم ومذاهبهم ـ عندما اعتبروهم أهل كتاب قديم ضيعوه بانحرافاتهم عنه وتبديلهم له ، كما روي عن الامام الشافعي ـ . .(٣) وكي تشمل أيضاً مغتسلة حران وشمالي العراق ، الذين تسّموا باسم الصابئة ! . . . وفي عهد بني أمية حرص الكثير من الخلفاء والولاة وجباة الضرائب على جمع الأموال أكثر من حرصهم على نشر الاسلام ـ بل لقد ظلوا يجمعون الجزية ممن دخل في الاسلام ! ـ فرأوا في أخذ الجزية من وثنيي بلاد ما وراء النهر ، وبربر الشمال الافريقي ، وأصحاب الديانة

(١) البقرة : ٦٢ .
(٢) البقرة : ٢٥٦ .
(٣) القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) ج ٨ ص ١١١ .

الوضعية ، غير السماوية ، في السند ، أمراً أفضل مما سواه ، فعاملوهم معاملة أهل الكتاب . . وهكذا أقرت الدولة بحرية جميع هؤلاء الرعايا ، المتدينين بكل ديانات الدنيا ومذاهبها ، وأمَّنتهم على « مللهم وشرائعهم » ، كما أمَّنتهم على « أنفسهم وأموالهم » في نظير ضريبة زهيدة وهي « الجزية » ، يدفعها القادرون على أداء واجب « الجندية » ، إذا منعت دواعي الأمن من اشراك غير المسلمين في القتال، أو إذا رغب هؤلاء في عدم الانخراط في الجيش. .

ولنا أن نتصور ، في امبراطورية مترامية الاطراف كهذه الامبراطورية ، ووسط رعية أغلبيتها العددية من غير المسلمين، وفي طول بلادها وعرضها تنتشر مؤسسات دينية قديمة ومراكز لاهـوتيـة عريقة ومدارس للفكر الديني مرّت على نشأتها قرون وقرون . . ومارس أحبارها ورهبانها وعلماؤها الجدل والبحث والدرس ، وغدت لهم فيه تقاليد ومواريث . . وتسلحوا في عملهم هذا بأسلحة فكرية عديدة ، في مقدمتها منطق أرسطو وفلسفة اليونان وحكمة الهنود وتراث الفارسيين . . لنا أن نتصور وضع الاسلام والمسلمين ، وهم قلة ، في المحيط المتلاطم بالنظريات والأبنية الفكرية المركبة والمعقدة ، والمسلح ملاحوه بفكـر لاهوتي قديم وعريق، وأيضاً بأدوات للجدل والحجاج ذات طابع عام، يتخطى خصوصيات الدين ومحليات الأمم والأقوام ، هي مواريث اليونان المنطقية والفلسفية . . وعندما نتصور ذلك ، علينا أن نتساءل : أي تحد ، خطير وعظيم ، ذلك الذي واجهه الاسلام والمسلمون ؟ ؟ ! . .

لقد كان المسلمون ، بالمدينة في صدر الاسلام ، يشكون من تعالي نفر من اليهود عليهم وشموخهم بأنوفهم لأنهم أهل الذكر وأصحاب الكتاب والعالمون بالتراث في الديانات . . وكان اليهود ، يومئذ فئة واحدة ، وقليلة ، ولم تكن معرفتهم بالكتاب ، حتى كتابهم ، بالتي تمثل تحدياً فكرياً ذا وزن أو خطر - ﴿ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون﴾![1] . . فما حال المسلمين في امبراطورية هم فيها الأقلون عدداً ؟ ! وتجاه كل ديانات السماء

---

(١) البقرة ٧٨ .

والأرض ؟ ! وفي مواجهة أعرق مؤسسات اللاهوت وفلاسفته ؟ ! وفي الصراع الذي تسلح فيه خصوم الاسلام بحكمة القدماء جميعاً ، وبمنطق أرسطو وفلسفة اليونان على وجه الخصوص ؟ ! . .

باليقين ، لقد واجه المسلمون يومئذ واحداً من أخطر التحديات التي واجهتهم بعد انجاز الفتوحات . . .

ولقد زاد من جدية هذا التحدي وخطره أن العرب المسلمين كانوا يسعون لبناء حضارة واحدة لرعية الدولة كلها ، على اختلاف الأديان والمعتقدات ، ويسعون كذلك إلى الاستفادة من المواريث الحضارية التي وجدوها في البلاد المفتوحة في صنع المعالم الاساسية لهذه الحضارة الواحدة . . ومن ثم فان التواصل والتزامل والتفاعل مع أهل الديانات الأخرى هو أمر لا مفر منه ، بل هو واجب يجدّ إليه المسلمون ويسعون . . وفي هذا التلاحم والاتصال لا بد من أن تتصارع العقائد وتتحارب الأفكار . . وأيضاً فان المسلمين ، وإن كانوا لا يستخدمون القوة والدولة في فرض عقائدهم الدينية ، فهم في شوق ـ نابع من شوقهم للجنة ـ إلى نشر دينهم الحنيف بين ربوع كل تلك البلاد ، ومن ثم فلا بد من الجدل والصراع مع كل تلك الديانات ، وما لها من أسلحة ومؤسسات . .

ولن يستطيع المرء أن يدرك جدية هذا التحدي وخطره إلا إذا تمثل عدداً من الحقائق . . مثل :

* اعتزاز كل مؤمن، من أي دين، بعقيدته الدينية، وهذا إذا كان من الصفوة المستنيرة ، أما من عداها فانهم ، غالباً ، ما يتعصبون لما به يدينون ! . .

* استفادة أهل الأديان الأخرى من الحرية الدينية التي قررها الاسلام وألزم بها أهله تجاه الديانات الأخرى وأهلها. . وحتى ندرك إلى أي الحدود كانت هناك فرص حقيقية لهذه الحرية نشير إلى حقيقة قد تبدو غريبة ، ولكنها هي الحق والواقع ، وهي : أن المجتمع العربي الاسلامي قد وفر ، في كثير من الأحيان ،

لغير المسلمين ، قدرا من الحرية الدينية لم يتوفر لكثير من الفرق والتيارات الفكرية الاسلامية ؟ ! . . ذلك أن تراث المسلمين الديني كان يحض على الوحدة والاتحاد بين المسلمين ، ويدين الخروج والمروق عن وحدة الأمة ، ومن هنا ـ عندما اختلف المسلمون فرقا وأحزابا ـ زعم كل طرف أنه الأمة والفرقة الناجية ، واستحل اضطهاد سواه ، وتسنى للقوى ، ولمن بيده سلطان الدولة وجهازها ، أن يمارس قهر التيارات المعارضة . . هذا بين المسلمين بعضهم والبعض الآخر . . على حين ظلت تعاليم الاسلام قاضية بحق أهل الأديان الأخرى في الأمن على « أنفسهم ومللهم وشرائعهم وأموالهم » ، وكذلك وصاياه بالاحسان إليهم ورعاية ذمتهم وجدالهم بالتي هي أحسن . . ظلت هذه الوصايا وتلك التعاليم مرعية دائماً ، أو في غالب الأحوال والأحيان . . فلم يحدث أن جرّد المسلمون سيوفهم ضد أصحاب الأديان الأخرى كي يدخلوهم إلى الاسلام، على حين امتلأت صفحات تاريخهم ، وكذلك سنواته ، بالصراعات المسلحة بين الفرق والأحزاب والتيارات التي توزعت واستقطبت المسلمين ! . .

وإذا شئنا مثلا يشهد لهذه الحقيقة فان في موقف الخوارج ، وهم أشد الناس غيرة ـ بلغت حد التشدد المغالي ـ على الإسلام ، في موقفهم المثل الذي يشهد على ما نقول . . فلقد ظفرت جماعة منهم يوماً بمسلم ونصراني ، فقتلوا المسلم وتركوا النصراني ، بل أوصوا به خيراً قائلين : « احفظوا ذمة نبيكم » ! . .[1] وهم يجدون في القرآن ، بزعمهم ، ما يحل لهم دم رجل صالح مثل عبد الله بن خباب ، لأنه خالف رأيهم في علي بن أبي طالب بعد أن قبل « التحكيم » في صراعه مع معاوية ، ورأيهم في عثمان بن عفان في سنوات حكمه الست الأخيرة ، فأمسكوا عبد الله بن خباب ، وفي عنقه مصحف ، وقالوا له : « ان هذا الذي في عنقك ليأمرنا أن نقتلك ! » . . وقتلوه . . وكان على مقربة منهم بستان نخل لرجل نصراني ، فذهبوا يبتاعون منه بلحاً ، فعرض عليهم البلح دون مقابل ، فأبوا ذلك ، واستنكروه قائلين : « ما كنا لنأخذه إلا بثمن ! » فعجب النصراني وتعجب قائلا : « ما أعجب هذا ! . . أتقتلون مثل

(١) المبرد (الكامل) ـ باب الخوارج ص ٥٠ . طبعة دمشق سنة ١٩٧٢ .

عبـد الله بن خباب ، ولا تقبلون منـا جني نخلة ؟! »[1] . . ومثل ذلـك قصتهم مع امام المعتزلة واصل بن عطاء ، فلقـد أدركته جمـاعة منهم ، وهـو في عدد من أصحـابه ، فلما استشعـر الخطر طلب من أصحـابه أن يـدعوا لـه أمر التصـرف والحوار مع الخوارج ، فدار بينهم وبينه حوار استهلوه :

ـ ما أنت وأصحابك ؟

ـ مشركون مستجيرون ليسمعوا كلام الله ويفهموا حدوده !

ـ قد أجرناكم !

ـ فعلمونا !

فجعلوا يعلمونهم مبادئهم وأحكامهم . . ثم قالوا لهم :

ـ أمضوا ، مصاحبين ، فانكم اخواننا !

ـ ليس ذلك لكم ، فالله يقول : ﴿ وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه﴾[2] ، فأبلغونا مأمننا ! . .

فنظر الخوارج بعضهم إلى بعض ، ثم قالوا :

ـ ذاك لكم !

فساروا بجمعهم حتى أبلغوهم المأمن . . . ؟ ![3]

فالحفاظ على المشركين ، وابلاغهم مأمنهم الذي يـريدون . . والعـدل مع النصـــراني في حبـات من البلح . . والقتـــل لمسلم صـالـــح مثـل عبـــد الله بن خباب ! . . ففي المشركين نزل قرآن لا سبيل إلى تـأويله . . والنصراني هـو ذمة النبي بنص الحـديث . . أما عبـد الله بن خباب ، حـامـل المصحف في عنقـه ، فلقد تأولوا القرآن حتى زعموا « ان هذا الذي في عنقك ليأمرنا بقتلك ! » . .

---

(١) المصدر السابق ٥٠ ، ٥١ .
(٢) التوبة : ٦ .
(٣) (الكامل) : للمبرد . ص ٨ ، ٩ .

إلى هذا الحد بلغ الاسلام ، وأيضاً بلغ المسلمون في صيانة حرية أهل الديانات الأخرى في الاعتقاد ، وممارسة شعائر الاعتقاد . . ولقد كان طبيعياً أن يتيح هذا الوضع رجحان الكفة لهذا المحيط من العقائد غير الاسلامية وهذا الخضم من أصحابها في الصراع الفكري ضد الاسلام والمسلمين . .

ولقد زاد من خطورة هذا التحدي وجديته ان المسلمين لم يكن لهم عهد بالكثير من أدوات الجدل والاحتجاج التي برع فيها أبناء تلك الديانات ، ولم تكن لهم خبرة ولا دربة ولا ممارسة في أدوات المنطق والفلسفة منها بالذات . .

صحيح ان القرآن فيه المحكم وفيه المتشابه . . والمتشابه منه لا يدرك إلا بنمط من الفكر العقلي المتأمل ، وهو نمط إلى صناعة الفلسفة ونهج الفلاسفة قريب . . وصحيح أن فيه اشارات تستوقف الصفوة وتلفت انظار الراسخين في العلم كي يبحثوا عن ما استكن وراء ظواهر النصوص ، وهي اشارات ومواطن تمثل بداية الطريق لبناء الفلسفة وتحصيل مناهجها . . ولكن حياة العرب البسيطة ، في شبه الجزيرة ، قبل اتمام الفتوحات الكبرى ، ووضوح الغايات وبساطة الوسائل ، وجو التسامي الديني الذي صنعته حياة الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، كل ذلك ، وغيره مثله ، قد وقف بالحياة العقلية العربية الاسلامية ، حتى ذلك الحين ، عند الاحتكام في المشكلات ، غالبا ، إلى النصوص والمأثورات . . وهم جميعاً مؤمنون ، يقدسون هذه النصوص ويجلُّون هذه المأثورات، ومن ثم فإن تلاوة النص حاسمة في الاقناع والاقتناع. . ولم تكن الحياة قد طرحت عليهم ، بعد ، تلك المشكلات التي لا تجد حلولها في النصوص والمأثورات ، ولا في القياس على هذه النصوص والمأثورات . .

أما بعد أن تمت الفتوحات الكبرى . . وقامت الامبراطورية . . فلقد وجد المسلمون أنفسهم أقلية دينية في محيط من المتدينين بكل ديانات السماء والأرض ، يخوضون صراعاً فكرياً قاسياً ضد مؤسسات كهنوتية وتيارات لاهوتية ذات تراث عريق في الجدل الفكري والصراعات الدينية ، ومسلحة بما هو أكثر من « اللاهوت » وعلومه ، مسلحة بحكمة القدماء ، ومنطق أرسطو وفلسفة اليونان . . على حين كانت أدوات المسلمين في الصراع هي النصوص

والمأثورات ، وهي أدوات لا تفيد إلا إذا كان الخصم مؤمناً بها ، ومصدقا بقدسيتها . . فإذا حاور المسلم أخاه ، فوارد في الحوار أن يحسمه أحدهما بآية من آيات القرآن الكريم ، لأن الآخر مؤمن بأن هذا القرآن قد بلّغه محمد إلى أمته ، ومؤمن بأن محمداً رسول ، وأنه رسول الله . . فالقرآن هنا ثمرة ، والايمان به كحجة مترتب على الايمان بنبوة محمد ورسالته ، والايمان بالإلّه الواحد الذي أوحى إليه بالقرآن . . أما الذين لا يؤمنون بشيء من هذه المقدمات ، فغير وارد ولا معقول أن نجادلهم ونحاجهم ، فضلا عن أن نفحمهم بآيات ونصوص لا يؤمنون هم ، اصلا ، بأن لها تلك القدسية والحجية التي نعتقدها نحن فيها . .

وهنا كان المأزق ، وكان التحدي عندما انعدمت « الأدوات المشتركة » للصراع الفكري بين المسلمين وخصومهم الفكريين . . وزاد الأمر حرجا رجحان كفة هؤلاء الخصوم ، لأنهم كانوا يملكون ، غير « اللاهوت » أدوات المنطق والفلسفة ، وهي أدوات عالمية ، لا تختص بدين أو حضارة ، وصالحة للصراعات الفكرية جميعاً ، على حين كانت أدوات « القراء والفقهاء » المسلمين هي من النوع الذي لا يؤتي ثماره خارج اطار المؤمنين بشريعة الاسلام . .

وإذا شئنا قصة من قصص صراعات الفكر في ذلك العصر تجسد لنا عمق ذلك التحدي وجديته وخطره فان قصة المناظرة التي دارت بين قاضي بغداد وزعيم طائفة « السمنية » ببلاد السند دليل جيد البرهنة على ما نقول . .

فلقد زعم « السمني » ـ وطائفته تنكر الرسالات السماوية ، وترى أن أصحابها قد سببوا الحروب الدينية وأوجدوا العداوة بين الناس ! ـ زعم في حديثه إلى مليكه ـ ملك السند ـ أن دين الاسلام لابقاء له إلا بقوة السيف وسلطان الدولة ، وان أهله يعجزون عن اثبات صدقه بالعقل والمنطق . . بل ودعا مليكه إلى أن يرسل إلى الخليفة العباسي هارون الرشيد (١٤٩ ـ ١٩٣هـ ـ ٧٦٦ ـ ٨٠٩م) فيتحداه أن يبعث من علماء الاسلام من يناظر زعيم « السمنية » ، على أن يتبع المغلوب عقيدة الغالب ! . . فلما جاءت رسالة الملك إلى الرشيد بعث إليهم بقاضي بغداد . . واستبشر زعيم السمنية خيراً عندما

علم أن القـاضي من « الفقهاء » وليس من « الفـلاسفـة ـ علماء الكـلام » ! . .
وهناك دارت المناظرة بين زعيم السمنية وبين القاضي الفقيه ، على هذا النحو :

السمني : أخبرني عن معبودك ، هل هو قادر ؟

القاضي : نعم . .

السمني : فهل هو قادر على أن يخلق مثله ؟ !

القاضي : هذه المسألة من الكلام ـ (علم الكلام) ، والكلام بدعة ، وأصحابنا ينكرونه !

السمني : ومن أصحابك ؟

القاضي : محمد بن الحسن ، وأبو يوسف ، وأبو حنيفة . .

وعند هذا الحد من المناظرة التفت زعيم السمنية إلى مليكه وقال له : « قد كنت أعلمتـك دينهم ، وأخبرتـك بجهلهم وتقليدهم ، وغلبتهم بـالسيف ! . . « فصـادق الملك على قـوله ، وبعث إلى الـرشيد رسـالة قـال فيهـا : « اني كنت ابتدأتك ، وأنا على غير يقين مما حكي لي ، والآن قد تيقنت ذلـك بحضور هـذا القاضي ! » . .

ففي هذه القصة يتجسد التحدي الذي فرضته على الاسلام ، وعلى دولته وحضارته ، تلك الديانـات والمذاهب المسلحـة بأدوات المنـطق والعقل ، عنـدما استخدمت في صراعها معه تلك الأدوات ، ـ بمـا فيها هـذا « المنطق الشكـلي » ـ عـلى حين وقف الفقهـاء عند النصـوص والمأثـورات التي لا تلزم الحجـة إلا من كان ، سلفا ، متدينا بهذا الدين . .

ولقد استاء الرشيد ، وغضب ،وثارت ثائرته لهذا الذي حـدث ، ولما قـرأ في رسـالة ملك السنـد . . وفي هذه الثـورة رأيناه يعبـر عن هذا التحـدي الذي يـواجــه الاسـلام والمسلمين بتسـاؤ له قـائـلا : « أليس لهـذا الـدين من منـاظـر عنه ؟ ! .

ويستكمل الرواة وقائع القصة فيقولون ان نفرا من حاشية الرشيد لفتوا نظره إلى أن من يناظر، عن الاسلام، مثل هؤلاء الخصوم لا بد وأن يكون عارفا بأدواتهم في الجدل والاحتجاج، أي عالماً بالفلسفة والمنطق، وأن للاسلام وللمسلمين علماءهم في هذا الميدان، وهم علماء الكلام، ولكنهم - وكانوا هم المعتزلة يومئذ - لعدائهم للشعوبية التي غلبت على الدولة العباسية في سنواتها الأولى، كانوا مبعدين، بل وكان أئمتهم وأعلامهم في السجون . . فبعث الرشيد فأحضر عدداً منهم، وعرض عليهم مناظرة السمني مع قاضي بغداد، فقال له واحد من شباب علمائهم، هو معمر بن عباد (٢١٥هـ-٨٣٠م): يا أمير المؤمنين، إن سؤال السمني - هل يقدر الله أن يخلق مثله ؟ - سؤال محال، لأن الله قديم بالضرورة، والمخلوق حادث بالضرورة . . والحادث لا يمكن ان يكون مثل القديم، فلقد أخطأ السمني عندما سأل هذا السؤال ! . .

وبمقدار قوة البساطة في اجابة معمر بن عباد . . كانت ضخامة العجز عند قاضي بغداد ! . . وأدرك الرشيد يومئذ أن الحديد لا يفلّه إلا الحديد . . ولن يناظر الفلاسفة إلا المتكلمون، فلاسفة الاسلام، فبعث بعدد من علماء المعتزلة، وعلى رأسهم معمر بن عباد، لمناظرة زعيم السمنية، فناظروه وانتصروا عليه . .[1]. وبدأت الدولة العباسية تقترب من علماء الكلام وتقرب المعتزلة، وخاصة بعد انحسار المد الشعوبي بنكبة البرامكة (١٨٧ هـ-٨٠٣ م) . .

لكن إدراك العرب والمسلمين لهذه الحقيقة لم يبدأ بأدراك الرشيد لها . . فلقد سبق ذلك عهد الرشيد، بل ودولة بني العباس بزمن غير قصير . . وكانت نقطة البدء عندما استشعرت هذه الأمة جدية التحدي وخطره، ساعة واجهت بفكرها الشاب وعقيدتها البسيطة النقية مواريث الأمم التي أصبحت تشاركها في الدولة، مواريثها في الفلسفة واللاهوت والمنطق وأدوات الصراع ذات الطابع العقلي . . منذ تلك اللحظة غاصت روح هذه الأمة إلى العمق، وفتشت عن

---

(١) قاضي القضاة عبد الجبار بن أحمد (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٥ . تحقيق فؤاد سيد . طبعة تونس سنة ١٩٧٢م .

تراثها الأولي والبسيط في الحكمة ، ويممت وجهها شطر قرآنها الكريم ، وانخرط نفر من طلائع أبنائها على درب التأمل الفلسفي ، وتجاوزوا ظواهر النصوص إلى ما ورائها ، واجتازوا الحدود التي توقف عندها الفقهاء والنصوصيون . . فبدأت تظهر ، منذ ذلك التاريخ المبكر ، قسمات البناء الفكري الذي تمثلت فيه عبقرية هذه الأمة في الفلسفة الإلٓهية بالذات ، وهو علم الكلام . .

وإذا كان هناك اتفاق على أن عهد العرب بالترجمة قد بدأ بالأمير الأموي خالد بن يزيد (٩٠هـ - ٧٠٨م) فان الاتفاق قائم على أن ما ترجمه العرب يومئذ قد اقتصر على بعض « علوم الصنعة » التي تطلبتها الحياة « العملية » ، مثل الكيمياء والطب والنجوم . . وعلى أن بداية عهد العرب « بالفلسفة » ، كما عرفها اليونان ، وطلائع وعيهم بأرسطو، كفيلسوف إنما جاء على يد أول فلاسفة العرب المسلمين : الكندي ، أبو يوسف يعقوب بن اسحق (٢٦٠هـ - ٨٧٣م) . .[١] أما ما قبل هذا التاريخ فان فلسفة هذه الأمة وابداعها الخاص في العلوم العقلية تمثَّل في « علم الكلام » . . وهو العلم الذي بدأ مبكراً ، ومنذ أن واجهت هذه الأمة ذلك التحدي على جبهة الفكر ، والفكر الديني على وجه الخصوص .

فقبل الكندي بأكثر من قرن من الزمان بدأ يتبلور التيار العقلاني للعرب والمسلمين . . وروت أوثق المصادر أن رجلاً عربياً من قبيلة جهينة هو معبد الجهني (٨٠هـ ٦٩٩م) قد تزعم ، في البصرة تياراً فكرياً بدا غريباً عن المألوف والشائع في ذلك الحين ، فلم يقنع أصحاب هذا التيار بما تحصل من ظواهر النصوص ، فأخذوا في التأمل الفلسفي ، وذهبوا يغوصون وراء ظواهر النصوص والمأثورات . ولقد عرض « يحيى بن يعمر » أمر هذا التيار الفكري على الصحابي عبد الله بن عمر بن الخطاب ٧٣ هـ -٦٩٢م) قائلاً : « أنه قد ظهر قبلنا - (عندنا) - ناس يقرأون القرآن، ويتقفرون العلم!» أي يطلبونه ،

---

(١) ابن النديم (الفهرست) ص ٢٤٢ . طبعة ليبزج سنة ١٨٧١م . والجاحظ (البيان والتبيين) ج ١ ص ٣٢٨ . تحقيق : عبد السلام هارون . طبعة القاهرة سنة ١٩٤٨م . و : أوليري (مسالك الثقافة الاغريقية إلى العرب) ص ٢٦٥ ، ٢٤١ ، ترجمة د . تمام حسان . طبعة مكتبة الانجلو . القاهرة .

ويتتبعونه ، ويبحثون عن غامضه ، ويستخرجون خفيَّه ، ويغوصون إلى القاع ، فيأتون منه بالغريب ! . . [1]

فإذا كان عبد الله بن عمر قد توفي سنة ٧٣هـ على حين قتل معبد الجهني ، بعد اشتراكه في احدى الثورات ضد الحجاج بن يوسف سنة ٨٠هـ فاننا نستطيع أن نؤرخ بمنتصف القرن الهجري الأول لنشأة هذا التيار الفلسفي الاسلامي ، تيار علم الكلام . . وهو التيار الذي تمثل في المعتزلة ، فرسان العقلانية العربية الاسلامية ، والذي كان معبد الجهني واحداً من طلائعهم السابقين على هذا الطريق ؛ فلقد رووا انه كان أول من دعا بالبصرة إلى مذهبهم في حرية الانسان واختياره . . [2] أي أن هذا التيار قد بدأ يتبلور منذ أن استشعرت هذه الأمة ، على درب حياتها الفكرية ، الخطر الذي تمثل في تسلح خصومها بأسلحة عقلانية لا عهد لها بمثلها ، فكان في هذا التيار العقلاني الاسلامي الرد الايجابي على الخطر والتحدي اللذين فرضهما عليها هؤلاء الخصوم . .

ورغم البداية المبكرة لهذا التيار ، وسبقه على ترجمة انسانيات اليونان ، وخاصة فلسفتهم ، بل وسبقه على تمثل العرب المسلمين للكنوز الفكرية في المواطن التي افتتحوها . . إلا أن هذا التيار لم يبدأ من فراغ . . فهو قد بدأ فسلك طريق التأمل في العقائد والكون والمأثورات والنصوص ، وشرع « يفلسف » كل ذلك ، واستعان على ذلك كله بوصايا القرآن والسنة التي تعلي من شأن العقل كأداة للبرهنة والهداية وثق فيها الدين كل الثقة وفوَّضها كل التفويض ، ودعا إليها الراسخين في العلم كسبيل لا يستطيع أن يسلكه عامة الناس . .

* ولنبدأ بالقرآن الكريم ، وما تضمنته آياته الكريمة من انتصار للعقل والعقلانية ، يدعو ، ولا شك ، أمة الاسلام إلى أن يكون لها على هذا الدرب

(١) (صحيح مسلم) وكذلك (سنن الترمذي) و (سنن أبي داود) .
(٢) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٨٥ . .

بناؤ ها الفكري الذي تباهي به الأمم وتصد بواسطته تحديات الخصوم . .

لقد تميزت شريعة الاسلام ، وامتازت ، عن الشرائع التي سبقتها بقسمتها العقلانية ، واعلائها سلطان العقل ، لا في أمور الدنيا فحسب ، بل وفي الكثير من أمور الدين . . وهي في ذلك قد جاءت متسقة مع المرحلة التاريخية التي جاءت فيها ، مرحلة بلوغ الانسانية سن رشدها ، وتجاوزها عهد الطفولة الانسانية ، ومناسبة كذلك لكون هذه الشريعة هي ختام شرائع السماء الموحى بها إلى الانسان ، ومن هنا كانت ضرورة أن تفتح الباب واسعاً للعقل الانساني كي يمارس دوره في عصور قادمة ستشهد اشتداد عوده واتساع مجالاته أكثر فأكثر ، وعلى نحو لم يسبق له مثيل . .

ولن يقلل من موضوعية هذه الحقيقة أو يقدح فيها أن تراثنا الديني والحضاري لم يشتمل على مصطلح « **الفلسفة** » ، التي تندرج تحتها المباحث التي تعلي سلطان العقل ، وتعتمده أداة في البرهنة والنقض والاثبات ، ذلك أن تراثنا قد استخدم مصطلح « **الحكمة** » ، في أغلب الأحيان ، للدلالة على ما يدل عليه مصطلح « الفلسفة » من معاني ومضامين . .

ومن هنا ، فان انظارنا لا بد وأن تلتفت إلى ذلك الموقف القرآني الذي يعلمنا ، في أكثر من موضع ، وفي آيات بلغت التسع عشرة آية ، أن مما أوحى الله به إلى رسوله ليس « **الكتاب** » فقط ، وإنما « **الحكمة** » أيضاً ؟ ! . . أي أن الاسلام لا يركن فقط إلى « النص والنقل » ، وإنما يعتمد أيضاً على « العقل وبرهانه » . . ولا نعتقد أن شريعة سبقت شريعة الاسلام قد جعلت « الحكمة » ـ بهذا المعنى ـ جناحاً من جناحيها اللذين طار بها وحي السماء إلى الانسان ! . . .

فابراهيم وإسماعيل ، عليهما السلام ، يدعوان ربهما أن يرسل في العرب رسولاً منهم ـ هو محمد ، صلى الله عليه وسلم ـ ﴿ **يعلمهم الكتاب والحكمة** ﴾ . . (١) والله يتحدث إلى المسلمين عن رسالة نبيه ومهامه ، فيقول

---

(١) البقرة : ١٢٩ .

لهم : ﴿ . . ويعلمكم الكتاب والحكمة ﴾ . . [1] ويعرفهم ماهية وحيه إليهم فيقول : ﴿ وإذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة . . ﴾ [2] . . ﴿ لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة . . ﴾ [3] وفي معرض تعداد الله لنعمه على رسوله يقول له : ﴿ . . وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم . . ﴾ [4] وفي معرض تعداد نعمه على العرب يقول سبحانه : ﴿ هو الذي بعث في الاميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾ . . [5] وهو يتحدث ، في القرآن ، إلى نساء النبي ، فنعلم أن ما كان يعلمهن الرسول اياه لم يكن « نقلاً » و « كتاباً » فقط ، بل « حكمة » أيضاً : ﴿ . . واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة . . ﴾ [6] . . وما أوحاه الله إلى نبيه ليس « نقلاً » فقط ، بل و « حكمة » كذلك : ﴿ . . ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ﴾ . . [7]

وأخيراً يضع القرآن الكريم يدنا على السر الذي جعل « الحكمة » بعضاً من وحيه . . فهو ، كما أشرنا ، قد جاء إلى انسانية قد بلغت سن رشدها ، وتجاوزت عهد طفولتها ، ومن ثم فان من هذه الانسانية من يناسب هديهم « برهان العقل ، أي الحكمة » ، ومنهم من يناسب هدايته أسلوب « الجدل » والحجاج ، ومنهم جمهور يكفي في هديهم « الخطابة والوعظ والارشاد » . . فمستويات الناس في المدارك العقلية والاستعدادات الفطرية والمكتسبة متفاوتة ، ومن ثم فان سبل هدايتهم متفاوتة كذلك بتفاوت هذه المستويات . . والقضية

---

(١) البقرة : ١٥١ .
(٢) البقرة : ٢٣١ .
(٣) آل عمران : ١٦٤ .
(٤) النساء : ١١٣ .
(٥) الجمعة : ٢ .
(٦) الأحزاب : ٣٤ .
(٧) الاسراء : ٣٩ .

التي طرحها أبو الوليد بن رشيد (٥٢٠ - ٥٩٥هـ ١١٢٦ - ١١٩٨م) عندما قال : ان « الناس في الشريعة على ثلاثة أصناف :

صنف ليس هو من أهل التأويل أصلا ، وهم الخطابيون ، الذين هم الجمهور الغالب . .

وصنف هو من أهل التأويل الجدلي ، وهؤلاء هم الجدليون ، بالطبع فقط ، أو بالطبع والعادة . .

وصنف هو من أهل التأويل اليقيني ، وهؤلاء هم البرهانيون ، بالطبع والصناعة ، أعني صناعة الحكمة »[1] !

هذه القضية قد فصل فيها القرآن الكريم من قبل عندما حدد للرسول ، صلى الله عليه وسلم ، سبل دعوة الناس إلى الدين ، فإذا هي سبل ثلاث ، وفق أصناف هؤلاء الناس ، وإذا بـ « الحكمة » واحدة من هذه السبل الثلاث : ﴿ ادع إلى سبيل ربك **بالحكمة** والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن . . ﴾[2] .

هكذا ، وعلى هذا النحو ، احتلت « الحكمة » مكانها في القرآن الكريم . . وكان ذلك زادا ومنطلقاً وتراثاً لطلائع هذه الأمة على درب الفلسفة وطريق « علم الكلام » . .

والسنة النبوية هي الأخرى اتساقاً مع القرآن الكريم ، قد حفلت بعشرات الأحاديث التي أعلت من شأن « الحكمة » وزكتها طريقاً للمعرفة وهداية الانسان . . فنحن نطالع أحاديث الرسول التي تقول : « نعم المجلس مجلس ينشر فيه الحكمة »[3] . . و « الكلمة الحكمة ضالة المؤمن »[4] . . . وإذا كانت

---

(١) (فصل المقال فيا بين الحكمة والشريعة من الاتصال) ص ٥٨ . دراسة وتحقيق د . محمد عمارة طبعة دار المعارف ، القاهرة سنة ١٩٧٢م .

(٢) النحل : ١٢٥ .

(٣) رواه الدارمي .

(٤) رواه الترمذي وابن ماجه .

« النبـوة » صدق واصـابة بـالوحي ، فـان « الحكمة » ـ الفلسفـة ـ هي الصـدق والاصابة بالبرهان العقلي والتأمل الفلسفي ، والرسول يجدد هذين الطريقين من طرق الحق والاصابة عندما يقول : « . . والحكمة : الاصابة في غير النبـوة »[1] وهو، لذلك، يضم عبدالله بن عباس (٣ ق. هـ ٦٨ هـ ٦١٩ ـ ٦٨٧ م إلى صدره، ويـدعو لـه قائـلاً : « اللهم علمـه الحكمـة »[2] . . ويعلمنـا أن « الحكمـة » لا تصلح إلا لأهلهـا . . « ولا تحدث الحكمـة للسفهـاء »[3] ! لأنهم ، فضـلا عن عجزهم عن الارتقاء إلى بـراهينها ، فهم يحسـدون أهلها ، إذ « لا حسـد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالاً فسلطه عـلى هلكته في الحق ، وآخـر آتاه الله حكمـة فهـو يقضي بهـا ويعلمهـا » . .[4] ولكنـه يـوصي أهلهـا بـالسعي لتحصيلهـا : « عليك بالحكمة ، فان الخير في الحكمة »[5] . . و « ليس هدية أفضل من كلمة حكمة »[6] .

ولقد كان هذا الهدى النبوي ، في الحكمة ، زادا وتـراثا ومنـطلقا لـطلائع علماء الكلام على الدرب الذي سلكوه لبناء فلسفـة هذه الأمـة ، التي تتمثل فيهـا نظرتها للكون ، ورؤيتها المتميزة لقضايا الدين والدنيا ، والتي كانت لها سـلاحاً نازلت به خصومها في الفكر والدين . .

والـذين يتأملون بعض صفحـات تـراث العـرب القـديم ، مـا سبق منـه الاسلام وما أبدعوه في عصر النبوة والصحابة ، لن يعـدم لهؤلاء الأسلاف تـراثا في هـذا الميدان . . ميـدان « الحكمـة » . . . فلقـد كـان للعـرب في جـاهليتهم حكـماء ، من مشـاهيـرهم : قس بن سـاعـدة الايـادي (٢٣ ق . هــ ـ ٦٠٠م) وأكـثم بـن صيفي (٩هـ ٦٣٠ م) . . ومن يقـرأ (نهج البـلاغـة) لعـلي بن أبي

(١) رواه البخاري .
(٢) رواه البخاري .
(٣) رواه الدارمي .
(٤) رواه البخاري .
(٥) رواه الدارمي .
(٦) رواه الدارمي .

طالب لا بد واجد نفسه أمام « حكمة وفلسفة » لعل نوعية الجمهور وبساطة الحياة والناس قد منعتها أن تظهر كاملة ومفصلة إلى الناس ! . . وغير علي بن أبي طالب نجد ذلك الحكيم أبا ذر الغفاري (٣٢هـ-٦٥٢م) وهو الذي وصل إلى عقيدة التوحيد ، بالتأمل الفلسفي ، وعبد الله الواحد وصلى له ، قبل ظهور الاسلام بسنوات ثلاث . . وهو الذي أشار علي بن أبي طالب إلى ما عنده من « حكمة » حجبها نقص استعداد الجمهور ، فقال : « لقد وعى أبو ذر علما عجز الناس عنه ، ثم أوكأ عليه فلم يخرج منه شيئا ! . .[1] وبشير بن كعب يشير إلى أن ذلك العصر ، عصر الصحابة ، كانت فيه صحف ومدونات في الحكمة ، فقتادة بن دعامة السدوسي (٦١ - ١١٨ هـ-٦٨٠- ٧٣٦م) يروي فيقول : « سمعت أبا السوار يحدِّث أنه سمع عمران بن حصين يحدِّث عن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « الحياء لا يأتي إلا بخير » . . فقال بشير بن كعب : **انه مكتوب في الحكمة** : أن منه وقارا ، ومنه سكينة ، ومنه ضعفا ! . . فقال عمران : احدِّثك عن رسول الله ، وتحدِّثني عن **صحفك** ؟ ![2] . . فمن الصحابة ، اذن ، من كانت لديه مدونات وصحف في « الحكمة » ! . . الأمر الذي يؤكد أن بداية طلائع المتكلمين على هذا الدرب لم تكن من لا شيء ولا من فراغ . . فهم عندما تجاوزوا ظواهر النصوص والمأثورات ، استجابة لحاجات الأمة التي فرضت عليها التحديات في الصراع الفكري والعقائدي إنما كانوا يستجيبون ، أيضاً ، للنهج القرآني الذي جعل الحكمة سبيلاً من سبل الهدى والإرشاد ، وللسنة النبوية التي أعلت قدرها . . بل وينفِّذون وصية الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، عندما علم أمته أن من يرد منهم الوقوف على اسرار القرآن ومكنوناته فليتجاوز ظاهر نصوص آياته ، وليقلب هذا الظاهر ، وصولاً إلى الأعماق : « من أراد العلم فليثوِّر القرآن » و« أثيروا القرآن ، فان فيه خبر الأولين والآخرين » ![3] . .

(١) انظر كتابنا (مسلمون ثوار) ص ١٨ . طبعة بيروت ، الثانية ، سنة ١٩٧٤ م .
(٢) رواه البخاري ، ومسلم وابن حنبل .
(٣) انظر مادة « ثار » في (لسان العرب) لابن منظور .

هكذا كانت البداية . . وتلك كانت الدوافع . . من قبل أن تعرف هذه الأمة تراث اليونان في الفلسفة ، بل ومن قبل أن تعرف لغتها مصطلح « الفلسفة . . ومن قبل أن يتمثل عربها المسلمون الأول تراث البلاد المفتوحة في هذا الميدان . .

وغير الموقف القرآني ، وموقف السنة المنحازين « للحكمة » . . فلقد أعان طلائع « الحكماء - المتكلمين » على مهمتهم هذه موقف القرآن والسنة من « العقل » . . فمأثوراتها ونصوصها لم تقف فقط عند « النقل » ، بل لقد أعلت من شأن « العقل » ، وجعلت له سلطانا أي سلطان ! . .

وإذا كان « العقل » في لغة العرب : هو التثبت في الأمور ، و« العاقل » : هو الجامع لأمره ورأيه . . فلقد جعلوا العقل ، أيضاً ، القوة التي يتميز بها الانسان عن الحيوان . . وكذلك جعلوه حصن هذا الانسان ، وقالوا : ان هذا هو السبب في تسمية « الحصن » بـ « المعقل » ! »[1] . . والقرآن يعرض لمادة « العقل » في تسع وأربعين موطناً من آياته الكريمة ، وفيها يجعله مناط التكليف ، والمسؤولية ، ومن ثم مناط تحقق انسانية الانسان ! . . وأيضاً ، وذلك هام وجدير بالتأمل ، فان القرآن يصنع مع « العقل » صنيعه مع « الحكمة » ، عندما يحدثنا عن أنه سبيل متميز عن سبيل « النقل » والنص والمأثور . . فهناك ما هو مسموع من الأدلة « النقلية » ، وهناك ما هو « معقول » من البراهين الحكمية الفلسفية . . وأهل النار عندما يندمون في الآخرة يتذكرون كيف قصّروا في السعي على كل من الطريقين ، طريق « النقل » السمع - وطريق « العقل » ، فيقولون : ﴿ **لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في اصحاب السعير** ﴾ . .[2] والقرآن يقرِّع المشركين الذين عجزوا عن الاهتداء بواحد من السبيلين ، « العقل » و « النقل » ، رغم الآيات الكونية الناطقة الشاهدة ، فيقول : ﴿ **أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون**

(١) المصدر السابق . مادة « عقل » . وانظر كذلك هذه المادة في (معجم ألفاظ القرآن الكريم وضع مجمع اللغة العربية . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠م .
(٢) الملك : ١٠ .

بها ، فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ . .[1] .

وغير الآيات التي تتحدث عن « **عمل العقل** » بلفظه ، يتحدث القرآن عن « عمله » مستخدماً اسماً من أسمائه ، وهو « اللب » . . **والعرب يقولون ان لغتهم قد أطلقت على « العقل » كلمة « اللب » لأنه « يمثل جوهر الانسان وحقيقته »** ![2] . . ويأتي ذكر هذا المصطلح ومشتقاته بالقرآن الكريم في ست عشرة آية من آياته ، تتحدث عن أولي الألباب ، الذين من سماتهم وصفاتهم الذكر والتذكر والفكر والتفكر في آيات الله وسننه التي أودعها هذا الكون وطلب من الانسان ، ذي اللب ، أن يتفكر فيها . .

وكما تحدث القرآن عن « العقل والتعقل » تحت مصطلح « اللب » ، كذلك صنع عندما تحدث عنه ، في آيتين ، تحت مصطلح « النهى » - بضم النون مشددة ، وفتح الهاء - . . و « النهى » جمع ، والمفرد : «نهية»، و « النهية » : « العقل » ، وسمي بذلك لأن استخدامه يصل بالانسان إلى نهاية المأمور به ، والحدود التي لا ينبغي تجاوزها[3] . . . فهو الزمام ، والقائد ، وهو الذي يحدد الحدود ! . .

ولنفس المعاني التي دلت عليها مصطلحات « العقل » و « اللب » و« النهية » جاءت مصطلحات « التدبر » - في أربع آيات - و « الاعتبار » - في سبع آيات - . . فالله يطلب منا ، لا أن « نسمع » القرآن فقط ، بل وأن « نتدبر » ما نسمع من آياته : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن﴾ ؟ ![4] . . ﴿ أفلم يدبروا القول ﴾[5] ؟ ! . . ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدّبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب ﴾ . .[6] وكذلك « الاعتبار » الذي هو : الاستدلال بالشيء على الشيء ، والتدبر ، والنظر ، والقياس ! . .[7] .

---

(١) الحج : ٤٦ .

(٢) (معجم ألفاظ القرآن الكريم) ج ٢ ص ٥٦٠ .

(٣) (لسان العرب) مادة « النهى » . وانظر كذلك (معجم ألفاظ القرآن الكريم) ج ٢ ص ٧٦٩ .

(٤) النساء : ٨٢ ، محمد : ٢٤ .

(٥) المؤمنون : ٦٨ .

(٦) ص : ٢٩ .

(٧) (لسان العرب) مادة « عبر » .

أمـا السنة النبـوية فـان حديثهـا عن العقل ، واعـلاءهـا لشـأنـه حـديث طويل . . فالامام الغزالي يروي في كتابه (احياء علوم الدين) قـول الرسـول ، صلى الله عليه وسلم : « أول ما خلق الله : العقل ، فقال له : أَقْبِل ، فأقبل . ثم قال له : أدبر فأدبر. ثم قال عز وجل: وعـزتي وجلالي مـا خلقت أكرم عـلي منك ، بك آخذ وبك اعطي ، وبك أثيب ، وبك أعاقب » . .[1].

وأنس بن مالك يـروي فيقول : « أُثني على رجل عنـد رسول الله ، صـلى الله عليه وسلم ، بخير ، فقـال : كيف عقله ؟ . . قالـوا : يا رسـول الله ، ان من عبادته . . ان من خُلقـه . . ان من فضله . . ان من أدبه . . فقـال : كيف عقله ؟ ! . . قـالـوا : يـا رسـول الله ، نثني عليـه بـالعبـادة ، وتسـألنـا عن عقله ؟ ! . . فقال رسول الله : ان الأحمق العابد يصيب بجهله أعظم من فجور الفاجر ، وإنما يقرب الناس من ربهم بالزلف على قدر عقولهم » . .

وابن عبـاس يروي فيقـول : قـال رسـول الله ، صـلى الله عليـه وسلم : « لكل شيء آلة وعدة ، وان آلة المؤمن العقل . ولكل شيء مطية ، ومطية المرء العقل . ولكل شيء دعامة ، ودعامة الدين العقل . ولكـل قوم غـاية ، وغـاية العباد العقل . ولكل قوم داع ، وداعي العابدين العقل . ولكل تاجر بضـاعة ، وبضـاعة المجتهـدين العقل . . ولكـل أهل بيت قيم ، وقيم بيـوت الصـديقـين العقل. ولكل خراب عمارة، وعمارة الآخرة العقل. ولكل امرىء عقب ينسب إليه ويذكر به ، وعقب الصديقـين الذي ينسبـون إليه ويـذكرون بـه العقل . ولكـل سفر فسطاط ، وفسطاط المؤمنين العقل . . » .

وإذا كان ابن عباس قد روى قول الرسول: « ودعامة الـدين العقل» . . فان علي بن أبي طالب عندما سأل النبي عن سنتـه ؟ كان من جـوابه لـه قولـه ، صلى الله عليه وسلم : « . . والعقل أصل ديني » ؟ ! . .

وهنا يفتح هذا القول وهذا الموقف لهذه الأمة فتحـا جديـدا ، ويسلك بها

---

(١) الغزالي (احياء علوم الدين) ج ١ ص ١٤٢ . طبعة دار الشعب القاهرة .

طريقا لم يسلكه من قبلها أهل أي دين من الأديان ! . .

فأهل العقل الذين تديَّنوا بما سبق الاسلام من شرائع دينية قد استخدموا « العقل » وبراهينه فيما هو خارج عن عقائد الدين وأصوله ، ولم يعهد في شريعة من تلك الشرائع استخدام « العقل » في تحصيل « الايمان » ، وإنما وقفت جميعها عند « المعجزات » والخوارق والنصوص والمأثورات سبلا لتحصيل الايمان . . وهذه الحقيقة يؤكدها القديس أنسلم Anselme (١٠٣٣ -١١٠٩م) ، رئيس أساقفة كنتربري ، بانجلترا ، وأحد مؤسسي الفلسفة المدرسية ، عندما يقول : « يجب أن تعتقد أولاً بما يعرض على قلبك ، بدون نظر ، ثم اجتهد بعد ذلك في فهم ما اعتقدت فليس الايمان في حاجة إلى نظر عقل » ؟ ! . .[١] وحتى « اللاهوتيين » الذين تصدوا للاسلام وأهله بأسلحة المنطق الأرسطي وفلسفة اليونان ، فأنهم إنما كانوا يدافعون بأدوات العقل عن بناء فكري لاهوتي منعوا استخدام العقل في تحصيل عقائده وأصوله ، فهم قد استعانوا بالعقل في الدفاع عن بناء غير مؤسس على العقل ، وكان مثلهم مثل المجتمع الذي أوهن الفساد عزمه وأوهى من دعائمه ، ومع ذلك فإن له جيشاً ظاهر العزم وبادي القوة يدفع عنه المغيرين ! . .

ولم يكن ذلك حال العرب المسلمين عندما بدأ سعيهم على هذا الطريق . . نعم كانوا قلة عددية . . وكانوا في بدء مسعاهم على درب الحكمة والفلسفة وعلم الكلام . . ولكنهم انطلقوا من دين العقل أصله . . فالألوهية هي أصل الدين وجوهره وبدايته . . وتحصيل الايمان بالله لن يتأتى بواسطة « النص » الموحى به ، لأن التصديق بالنص فرع عن التصديق بالرسول والتصديق بالرسول فرع عن التصديق بالذي أرسل هذا الرسول ! . . ومن ثم فلا بد من سبيل آخر ، غير « النقل » لتحصيل الايمان بالألوهية ، التي هي أصل أصول الدين . . وهذا السبيل عند المسلمين ، دون سواهم ، هو « العقل » ، حتى لقد غدا ذلك امراً مقرراً . . لا عند الخاصة ، فقط بل وعلى

(١) (الأعمال الكاملة للأمام محمد عبده) ج ٣ ص ٢٦٢ .

ألسنة الجمهور والعوام الذين قالوا ويقولون : « ربنا عرفوه بالعقل » ! . .

ولأن الأساس متين ، والبداية صادقة ، والمنطلق مؤسس الدعائم ، فسرعان ما تبلور ونما لهذه الأمة بناؤها العقلي ، وهو علم الكلام ، وسرعان ما تحول تيارها العقلاني من موقف الدفاع إلى وضع الهجوم ، فرأينا جيش اللاهوتيين وقد نزع سلاحه ، فأضيف هذا « السلاح العقلي » إلى ترسانة المتكلمين بعد ترجمة الفلسفة اليونانية إلى العربية ، وأصبحت له يومئذ فعالية لم تكن له في يد علماء اللاهوت ، لأنه قد أصبح بيد جيش تتسق جهوده العقلية مع الدين المؤسس على العقل ، وأبصر الذين فقهوا تلك الحقيقة ، عربا ومستشرقين أن علم الكلام الاسلامي ، الذي أسَّسه المعتزلة ، فرسان العقلانية في تراث المسلمين وفكرهم ، هو الذي تجسدت فيه عبقرية العرب المسلمين الفلسفية ، لأنه هو الذي استخدم « العقل » في الانتصار للدين المؤسس على العقل ، ومن ثم فلقد جاء بناء متوازناً ومتسقاً أيضاً . . ففيه تفلسف الدين ، وتدينت الفلسفة ! . . وفيه تجلت قوة هؤلاء الرواد وعبقريتهم ، وكما يقول ألفريد جيوم A . Guillume فان « قوة الحركة الاعتزالية مردها جهود أولئك الذين حاولوا اقصى ما في طوقهم اقامة علم الكلام الاسلامي على أسس ثابتة من الفلسفة ، مصرين ، في الوقت نفسه ، على أن تكون تلك الأسس منطقية ، ثم الانسجام بينها وبين الفلسفة التي يجب أن تدرس بوصفها من صميم العقيدة الدينية » !(١) .

وأمام عبارة جيوم ، هذه التي تبدو توليفة غريبة ومتناقضة لدى غير المسلمين ، نتذكر ما سبقت اشارتنا إليه ، في فصل سابق ، من حديث عن الطابع المتميز الذي تميزت به حضارة هذه الأمة ، ، طابع التوازن والموازنة بين طرفي النقيض في عدد من القضايا ، وقطبي الظاهرة في كثير من الأمور . . ففي فلسفة هذه الأمة (علم الكلام) وضحت هذه الموازنة ، وظهر ذلك التوازن أيضاً . .

---

(١) (الفلسفة وعلم الكلام) بحث منشور بكتاب (تراث الاسلام) ص ٣٧٩ ترجمة جرجيس فتح الله . طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م .

* أي لاهوت ، وأي دين ذلك الذي جمع بين « **الشك** » وبين « **اليقين** » ؟ ! . . وفي أي فلسفة دينية ، غير علم الكلام الاسلامي ، عقدت أوثق الصلات وقامت أقوى الروابط ، روابط العضوية ، بين « الشك المنهجي الخلاق » وبين « الايمان ـ اليقين » ؟ ! . .

صحيح ان الحضارة الأوربية المسيحية قد عرفت « الشك المنهجي » على يد ديكارت Descartes (١٥٩٦ ـ ١٦٥٠م) ولكن أوربا هذه هي أوربا « العلمانية » ، وبالمعنى المناقض والمناهض للاهوت المسيحي ، ولا زالت المسيحية ولاهوتها ينكران « الشك » ، منهجيا كان أو غير منهجي ، ولا زالت عبارة « القديس انسلم » هي القانون : يجب أن تعتقد أولاً بما يعرض على قلبك بدون نظر . . فليس الايمان في حاجة إلى نظر عقل » ! . .

أما في الاسلام ، وفي علم الكلام الاسلامي ، فاننا واجدون فيه ، وفيه وحده ، تلك العلاقة التي بلغت حد التزواج والتعايش ، بل والعضوية ، وحتى علاقة المقدمة بالنتيجة بين « **الشك** » وبين « **اليقين** » ! .

ففي القصص القرآني ، الذي يسوقه القرآن للعبرة والتأسّي والاقتداء ، يعلمنا الله سبحانه أن إبراهيم الخليل ، عليه السلام ، قال لربه :﴿ أرني كيف تحيي الموتى﴾ فسأله ربه : ﴿أَوَلَمْ تؤمن ﴾ ؟ فقال إبراهيم : ﴿ بلى ولكن ليطمئن قلبي﴾ ! . .[1] فهو هنا يشك ، ويريد أن يطمئن قلبه ويتحصّل له اليقين ، ولم ير إبراهيم ، ولا رأى مولاه ، سبحانه ، تعارضا بين شكه وبين سعيه تحصيل اليقين ، لأن شكه هذا ليس فوضويا « لا أدريا » ، وإنما هو واقع موضوعي لا يستطيع أن يتجاهله ، وهو منهجي ، بمعنى أنه منظم وموظف في السعي إلى بلوغ الحقيقة وتحصيل اليقين . .

وفي السنة النبوية يروي أبو هريرة ، وتروي عائشة ، ويروي عبد الله بن عمر ـ كل بلفظه وعن طريقه ـ كيف قام الشك لدى جماعة من الصحابة على عهد الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، والشك في ماذا ؟ في الذات الإلهية ! . .

---

(١) البقرة : ٢٦٠ .

وكيف أرّقهم هـذا الشك وأقضّ منهم المضاجع وأزعج فيهم الطمأنينة والاطمئنان . . ولكنهم لم يجدوا حرجا في أن يصارحوا رسول الله بما يجدون ، فقالوا له : « يا رسول الله ، ان أحدنا يحدث نفسه بالشيء ما يجب أنه يتكلم به وان له ما على الأرض من شيء ! . . إنّا لنجد شيئاً لو أن أحدنا خر من السماء كان أحب إليه من أن يتكلم به!» . . هكذا شكّوا ، وهكذا استعظموا خطر الشك وموضوعه . . ولكن الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، بروح البشير المذكر ، يبصر أن من « يشك » هو من يعمل عقله ، ومن « يشك » متأملاً ومفكراً ، وشكا منظما وموظفا في سبيل اليقين ، هو ذلك الساعي إلى تحصيل الايمان الحقيقي ، البالغ مرتبة « التصديق واليقين » ، ولذلك فهو لا يصدهم عن الشك ، ولا ينهاهم ، لأنه من الواقع يبدأ وينطلق وبه يقر ويعترف ، بل يصل عمقه وتحليقه إلى الحد الذي يسمّي هذا الشك باسم النتيجة والثمرة التي لا بد وأن يفضي إليها ، فيقول لصحابته هؤلاء عن شكهم هذا : « ذاك محض الايمان[1] » ؟ ! . .

ولذلك فان علم الكلام الاسلامي ـ وهو فلسفة هذه الأمة ـ عندما اعتمد الشك طريقا إلى اليقين ، وعندما قرر أن الشك المنظم والمنهجي يجب أن يكون غاية يقصد إليها المتكلم ـ الفيلسوف ـ قصدا ، وعلما يسعى إلى تعلمه عامدا ، لأنه أكثر الطرق الآمنة لتحقيق اليقين الحقيقي ، « ومحض الايمان » . . عندما صنع ذلك علم الكلام فان منطلقه إلى ذلك ومصدره في هذا إنما كان اسلامياً خالصاً ، ومن ثم فان تعبيره عن روح الاسلام في هذه القضية لا تلحقه شائبة من الشوائب بحال من الأحوال . .

ومن بين متكلمي التيار العقلاني الاسلامي نجد الجاحظ يتناول هذه القضية . . فهو يدعو إلى الشك . . وإلى معرفة مواطنه ومواضعه . . وإلى اكتشاف أسبابه . . بل ويدعو إلى تعلم هذه الأمور ، أي تعلم الشك ، باعتباره علماً يقصد إلى تعلمه العلماء! فيطلب ذلك من قارئه قائلاً: « . . . **فاعرف مواضع الشك ، وحالاتها الموجبة له ، لتعرف بها مواضع اليقين ، والحالات الموجبة**

(١) رواه مسلم وابن حنبل .

لـه ، وتعلم الشـك في المشكـوك فيـه تعلما ، فلو لم يكن في ذلـك إلاّ تعـرف التوقف ، ثم التثبت ، لقد كان ذلك مما يحتاج إليه . . » ![1]

فهو يدعونا إلى التبصر عند النـظر ، فإذا عـرضت لنا قضيـة يراد لنـا أن نحكم فيهـا فـلا بـد من « التثبت » ، وإذا كنـا امـام « شبهـة » فـلا بـد من « التـوقف » . . ثم يطلب منـا أن نرفض منهـج الـذين يجيبـون ، في مثـل هـذه المـواقف بـ « لا » أو بـ « نعم » فقط ، لأن للحقـائق زوايـا وقسـمـات ، تستدعي الاجابة العلمية عن مسائلها الربط بين هذه الزوايا والقسمات ، فلربما كانت الاجابـة في بعض نواحيهـا بـ « نعم » وفي بعضها الآخـر بـ « لا » ! . . وهـو يعرض لهـذا الموقف المنهجي بـاعتباره منهجـه في كتابـه (الحيـوان) ، فهـو يرفض التمذهب الذي جعل الناس فرقا وشيعا أراحت عقول المتمذهبين بها من عناء النظر في كل معضلة وقضية ومسـألة عنـدما « تـرك الجمهور الأكبـر والسواد الأعظم التوقف عند الشبهة والتثبت عند الحكمة جانبا » وأضربوا عنـه صفحا ، فليس إلا : لا ، أو : نعم . الا أن قـولهم : « لا » موصـول منهم بـالغضب ، وقولهم : « نعم » موصول منهم بالرضى ! . . وينبه الجاحظ على ان هذا المسلك المعيب قـد حـرم النـاس من استخـدام نعمـة « الحريـة » ، فلم يكتشفـوا ، بوساطتها ، الحلال من الحرام ، ولا الحسن من القبيح ! إذ قـد « عزلت الحـرية جانبا » ـ كما يقول ـ بمسلكهم هذا . . [2] !

ثم يحـدثنا الجـاحظ عن أن العلماء والمفكـرين ـ (الخـاصـة) ـ لهم حيـال الحقـائق والمسـائـل حـالات ثـلاث : التكـذيب والـرفض ، أو التصـديق ، أو الشـك ، وهو درجـات وطبقـات . . بينـما العـامـة والجهـلاء لا يعـرفـون إلا : التكذيب ، أو : التصديق ، لأنهم مقلدون ، لا يستخدمون ملكاتهم العقلية كما ينبغي للانسان الراقي أن يستخدمها . فكأنما الشك المنهجي علامة مميزة لعقلانية الانسـان العاقـل . . يقول : « **والعـوام أقـل شكـوكـا من الخـواص ، لأنهم لا**

---

(١) (الحيوان) ج ٦ ص ٣٥ .

(٢) المصدر السابق ج ٧ ص ٨ .

يتوقفون في التصديق والتكذيب ، ولا يرتابون بأنفسهم ، فليس عندهم إلا الاقدام على التصديق المجرد ، أو على التكذيب المجرد ، وألغوا الحالة الثالثة من حال الشك ، التي تشتمل على طبقات الشك ، وذلك على قدر سوء الظن وحسن الظن بأسباب ذلك ، وعلى قدر الأغلب . . »[1] .

ولقد كان الجاحظ ، في هذا الموقف ـ موقف الربط والموازنة بين « الشك » وبين « اليقين » ـ واحداً من تيار عريض ، هو تيار علماء الكلام العقلانيين ـ وهو نفسه ينبهنا على أنه ليس وحيدا في القول بهذا . . فأستاذه النظام أبو اسحاق إبراهيم بن سيار (٢٣١ هـ ٨٤٥ م) له تجارب في الجدل مع الملحدين جعلته يفضل أهل الشك على الجاحدين ، فيقول ، : « نازعت من الملحدين : **الشاك ، والجاحد ، فوجدت الشكاك أبصر بجوهر الكلام من أصحاب الجحود . . »** الأمر الذي جعله يقطع بحتمية سبق الشك لليقين ، وبعبارته : « . . **ولم يكن يقين قط حتى كان قبله شك ، ولم ينتقل أحد عن اعتقاد إلى اعتقاد غيره حتى يكون بينهما حال شك »** ![2] .

بل لا ينسى الجاحظ أن يحكي لنا فخر العلماء بالشك . . فعندما « قال ابن الجهم للمكي : أنا لا أكاد أشك ! قال المكي : وأنا لا أكاد أوقن ! ففخر عليه المكي بالشك في مواضع الشك ، كما فخر عليه ابن الجهم باليقين في مواضع اليقين » ![3] .

وعند امام آخر من أئمة علم الكلام ، وعلم من أعلام المعتزلة ، هو أبو هاشم الجبائي (٢٤٧ ـ ٣٢١ هـ ٨٦١ ـ ٩٣٣ م) يبلغ الايمان بهذا المنهج القمة . . فأبوه : أبو علي الجبائي (٢٣٥ ـ ٣٠٤ هـ ٨٤٩ ـ ٩١٦ م) ـ وهو من أئمة المعتزلة أيضاً ـ قد رأى أن الواجب الأول على الإنسان هو « النظر »، بما في هذا النظر من يقين أو شك يقود إلى اليقين[4] . . أما أبو هاشم فلقد رأى أن

(١) المصدر السابق ج ٦ ص ٣٦ ، ٣٧ .
(٢) المصدر السابق ج ٦ ص ٣٥ ، ٣٦ .
(٣) المصدر السابق ج ٦ ص ٣٥ .
(٤) د . علي فهمي خشيم (الجبائيان : أبو علي وأبو هاشم) ص ٣٣٣ طبعة طرابلس ، ليبيا سنة ١٩٦٨ م .

الشك هو الواجب الأول على الإنسان . . لأنه ـ كما تقدم ـ « لم يكن يقين قط حتى كان قبله شك » .

هكذا تعايش « الشك » و« اليقين » ، بل ارتبطا ارتباط المقدمة بالنتيجة ، والأسباب بالمسببات ، والطريق والنهج بالمقاصد والغايات . وهكذا وازنت فلسفة الاسلام بين ما كانا ولا يزالان نقيضين لا سبيل إلى التوفيق بينهما في غيرها من فلسفات الشرائع والأديان . . فامتازت وتميزت في ذلك ، عن غيرها من فلسفات الأديان . . .

ثم . . أين هي الفلسفة الدينية ـ (اللاهوت) . . غير علم الكلام الاسلامي ، تلك التي طرقت أصعب الدروب عندما ذهبت فحاولت التوفيق بين ما للذات الإلهية من إرادة وقدرة فاعلة في هذا الكون ، وبين ما في الطبيعة وظواهرها وما في الأشياء ، بالطبع ، من قوى فاعلة ، تؤثر وتفعل عندما تتوافر لها الظروف والشروط ؟ . .

إن فلسفات كثيرة ، ومنها الحديثة ، وبعضها ليس بالديني أيضاً ، ذهبت وتذهب إلى إنكار الوجود الموضوعي للأشياء في الحقيقة والواقع ، وقالت أنها موجودة ، فقط ، في الفكر والذهن الانساني ، وأنه هو الذي يضفي عليها ما نحسبه وجودا موضوعيا متحققا لها خارج الذهن والتفكير . وفي لاهوت الشرائع غير الاسلامية يرجعون الوجود الحقيقي والتأثير الحاسم للمادة والظواهر والأشياء إلى ما يصدر عن ارادة الخالق سبحانه ، وإلى ما تفيضه هذه الارادة على هذه الظواهر والأشياء . . ومن ثم فلقد أقام هذا اللاهوت تناقضا حادا بين « الألوهية » وبين « الطبيعة » وقوانينها وفعل ظواهرها وتأثير مادتها . . وذهبوا في ذلك إلى حد انكار العلاقة الضرورية للسببية ، فرأوا أن لا علاقة ضرورية بين وجود الأسباب ووجود المسببات ، وأن ما بينهما لا يعدو أن يكون مجرد « اقتران » جرت العادة أن يحدث بحدوثه التأثير ! . . كما ذهبوا إلى أن الأشياء لا تكون « حسنة » ، لأنها بطبيعتها ، حسنة ، ولا تكون « قبيحة » لأنها ، بطبيعتها ، قبيحة ، وإنما هي هذه أو تلك لأن هناك نصا ومأثورا وحكما ، من خارج هذه الأشياء ، هو الذي جعلها كذلك ! . . كما أقاموا تعارضا حادا بين أن تكون

المادة قديمة والعالم قديماً وبين أن يكون لهذه المادة ولهذا العالم خالق قادر فعال لما يريد ! . .

ولقد نبتت أو انتقلت آراء من هذه إلى البيئة الاسلامية بعد عصر تبلور علم الكلام ونشأته الأولى ، وبعد أن طوى التاريخ صفحة الازدهار الأولى للقسمة العقلانية في حضارتنا ، فوجدنا من يقيم تناقضا بين أن نؤمن بارادة الله الفاعلة في هذا الكون وبين أن نؤمن بعلاقة الضرورة ، التي لا تتخلف بين الأسباب والمسببات ، ورأينا إماماً عظيما مثل الغزالي ينكر ان تكون النار هي التي تحرق القطن عندما يشتعل بها ، وأن يكون السيف هو الذي قطع عنق المقتول به ، وأن يكون الثلج هو الذي أحدث البرودة في الماء الموضوع فيه ، وأن يكون الأكل هو الذي يحدث الشبع والماء هو الذي يحدث الري للانسان ؟ !(1) . . . .

أما علم الكلام الاسلامي ، كما تبلور على يد التيار العقلاني في حضارتنا ، وكما تجسَّدت فيه إبداعات هذه الأمة في الفلسفة المتدينة ، فإنه قد أبرز إلى الوجود أكثر محاولات الفكر الانساني توفيقا - وليس تلفيقا - بين ما عده اللاهوتيون متناقضات لا سبيل إلى الجمع بينها ، فضلا عن التوفيق . .

فللأشياء وجود موضوعي وحقيقي خارج الفكر والذهن ، بل أن هذا الوجود هو الذي يصدر منه العلم الانساني والفكر منعكسا على الذهن ، وتغير هذا العلم والفكر وتطورهما مرهون بما يحدث من تغير وتطور في « الموجود » خارج الأذهان . . وبعبارة ابن رشد : « . . ان علمنا معلول للمعلوم به ، فهو محدث بحدوثه ، ومتغير بتغيره . . ووجود الموجود هو علة وسبب لعلمنا . . . والكليات المعلومة عندنا معلولة أيضاً عن طبيعة الموجود . . »(2) .

والتناقض بين الألوهية - (التوحيد) - وبين الاعتراف للطبيعة بدور وأثر ، تناقض مفتعل ومزعوم ، لأنه يتجاهل أن تأثير الطبيعة والمادة وفعلها إنما

---

(1) انظر آراء الغزالي هذه في (تهافت الفلاسفة) ص ٦٥ - ٦٨ طبعة القاهرة سنة ١٩٠٣ م . وانظر رد ابن رشد عليها في (تهافت التهافت) ص ١٢٢ - ١٢٣ . طبعة القاهرة سنة ١٩٠٣ م .
(2) (فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال) ص ٧٥ ، ٧٦ ، ٤٠ .

هو قانون نابع من خصائصها الذاتية ، وأنه ، كغيره من القوانين ، هو واحد من سنن الكون التي تحكمه وتسيِّره ، وأنه ، أيضاً ، جزء من كل أراد الله سبحانه أن يكون كذلك وأن يفعل هذا في العمل والتأثير . . وبعبارة الجاحظ التي تلمس هذه القضية ، مع الاعتراف بخطرها وصعوبات استيعابها على غير أهلها ، . .

« . . فإن المصيب هو الذي يجمع تحقيق التوحيد ، واعطاء الطبائع حقها من الاعمال . ومن زعم أن التوحيد لا يصلح إلا بابطال حقائق الطبائع فقد حمل عجزه عن الكلام في التوحيد ! وكذلك إذا زعم أن الطبائع لا تصح إذا قرنها بالتوحيد . ومن قال هذا فقد حمل عجزه على الكلام في الطبائع ! وإنما ييأس منك الملحد إذا لم يدعك التوفر على التوحيد إلى بخس حقوق الطبائع ، لأن في رفع أعمالها رفع أعيانها ، وإذا كانت الأعيان هي الدالة على الله ، فرفعت الدليل ، فقد أبطلت المدلول عليه ! . ولعمري إنّ في الجمع بينهما لبعض الشدة ؟! . . وأنا أعوذ بالله تعالى أن أكون كلما غمز قناتي باب من الكلام صعب المدخل ، نقضت ركناً من أركان مقالتي ! ومن كان كذلك لم ينتفع به »[1].

فالجاحظ في هذا النص الهام يعلن أن صعوبة التوفيق بين التوحيد وبين « الطبائع » لا تبرر دعوى التناقض بينهما ، لأن هذه الدعوى هي ثمرة العجز عن التوفيق ، الذي هو ممكن وضروري ، لأنه هو الحقيقي ! . . وهو ، أيضاً ، إضافة من إضافات علم الكلام الاسلامي إلى الفلسفة الدينية واللاهوت . .

وانطلاقاً من الاقرار للأشياء والظواهر بخصائصها الذاتية . . وإيمانا بقدرة العقل الانساني على الحكم والتمييز في نطاق هذه الأشياء المادية ، قال المتكلمون بأن « الحسن » و« القبح » في هذه الأشياء ذاتي ، وبأن العقل قادر على ادراك ذلك والحكم به دون أن يتوقف ذلك على النصوص والمأثورات ، طالما كان الأمر في نطاق ما تدركه العقول الانسانية ، مما هو خارج عن نطاق الغيب وما اختصت به علوم الوحي الإلّهي إلى الرسل والانبياء . .

وانحاز المتكلمون ، أيضاً ، إلى الموقف الذي يربط ، ربطا ضروريا ، بين

---

(١) (الحيوان) ج ٢ ص ١٣٤ ، ١٣٥ .

الأسباب والمسببات . . وفاضت آثارهم الفكرية بصفحات وصفحات تقرر هذه الحقيقة وتبرهن على صدقها . .

وفي الموقف من العالم ، أقديم هو ؟ أم حادث ؟ قدموا فكرا لعله غير مسبوق في نطاق الإلهيات . . فالمعتزلة ، مثلا ، ينكرون أن يكون هناك « زمن » قد كان فيه العالم عدماً ؟ ! ـ مع ملاحظة أن « الزمن » مرتبط بالحركة ، وهي مرتبطة بـ « الوجود » ! ـ وهم يقولون أن ما يسمى بـ « العدم » هو في الحقيقة « شيء » . . وهذا الشيء هو الذي يسميه ابن رشد « الوجود بالقوة » ، وأن عملية « الخلق » هي عملية دائمة ومستمرة في هذا الكون ، فالموجود بالقوة ينتقل ، بالخلق ، ليصبح موجودا « بالفعل » ، والتحول ـ الذي نسميه « فناء » ـ هو الانتقال بالموجود « بالفعل » إلى حال الوجود « بالقوة » ، وهكذا باستمرار . . . ولذلك رأينا ابن رشد يُنبِّه على أن سببا هاما من أسباب الصراع بين الذين قالوا بقدم العالم وبين الذين قالوا بحدوثه هو حسبانهم أن « القدم » و« الحدوث » ، في هذا المبحث ، متقابلان في المعنى ومتضادان في المحتوى وحقيقة المفهوم ، بينما « الأمر ليس كذلك ؟ » و« الاختلاف في هذه المسألة بين المتكلمين من الأشعرية وبين الحكماء المتقدمين يكاد يكون راجعا للاختلاف في التسمية ، وبخاصة عند بعض القدماء ! . . . »[1] .

هكذا طرق المتكلمون المسلمون ، والتيار العقلاني منهم بخاصة ، ذلك المبحث الصعب ، وارتادوا هذا الدرب الأصعب . . فمن قبلهم كانت الفلسفة ، وعند اليونان خاصة ، لا تلقي طويل بال إلى تقديم التصورات التي تجمع بين منطلقاتها وحقائقها وبين التصورات « الإيمانية » للكون وللظواهر ، وفي الطرف الآخر كان اللاهوتيون ينكرون تصورات الفلسفة لهذه الأمور ، وحتى عندما كانوا يستعيرون أدوات الجدل الفلسفي للدفاع عن تصوراتهم فإنهم كانوا يقفون غالباً من الفلسفة عند الأدوات ! . . أما علم الكلام الاسلامي فإنه

(١) (فصل المقال) ص ٤٢ ، ٤٠ . وانظر في آراء ابن رشد حول هذه القضايا كتابنا (المادية والمثالية في فلسفة ابن رشد) طبعة دار المعارف ، القاهرة سنة ١٩٧١ م .

طرق باب « التوفيق » ـ لا التلفيق ـ بين الحكمة والشريعة ، وقرر ـ كما قال ابن رشد ـ أن الشريعة أخت الحكمة « وأن النظر البرهاني لا يؤدي إلى مخالفة ما ورد به الشرع ، فإن الحق لا يضاد الحق ، بل يوافقه ويشهد له ! »[1] . .

صنع المتكلمون ذلك وأنجزوه . . بل لقد كان صنع ذلك وانجازه هو الشرط الأولي والضروري كي يشرف الواحد منهم بانخراطه في عداد أفذاذ المتكلمين . . وكما يقول الجاحظ : « . . وليس يكون المتكلم جامعا لأقطار الكلام ، متمكناً من الصناعة ، يصلح للرئاسة ، حتى يكون الذي يحسن من **كلام الدين** في وزن الذي يحسن من **كلام الفلسفة** . . »[2] فمنهما جاء المزيج ـ (علم الكلام) ـ وبينهما قامت المصالحة ، إلى حد كبير ، وتم التوفيق في عدد من القضايا والتصورات . .

وأخيرا . . فإن إنجازاً كهذا ما كان له أن يتم بغير اعلاء شأن العقل وتكريمه ، والثقة في مناهجه وبراهينه ، والاعتماد عليه سبيلا للهدى والرشاد بالنسبة للانسان . .

وكما سبقت اشارتنا فإن التيار العقلاني في حضارتنا لم ينطلق إلى اعلاء شأن العقل وتأكيد سلطانه من فراغ ، فلقد كان هناك القرآن الكريم ، والسنة النبوية الشريفة ، وحكمة العرب القدماء ، وكلها تزكّي الانطلاق إلى هذه الغاية وتحث على السعي في هذا الطريق . . ولكن هذا التيار اضاف الكثير ، وفصل المجمل ، ووضع المبدأ العام في صورة منهج عقلي ، وقام بتطبيقه على المشكلات وموضوعات الجدل وقضايا الصراع . .

فتجاه « النصوصيين »، الذين يقفون عند النصوص والمأثورات وحدها ، أو يقفون عند ظواهرها فقط ، منكرين « التأويل » . . قطع العقلانيون باستحالة التعارض بين « الكتاب » وبين « العقل » . . ووجدنا ذلك التصوير الرائع الذي حدثنا عنه الجاحظ ، فجعل « الكتاب » دليل الله وحجته

---

(١) (فصل المقال) ص ٣١ ، ٣٢ .
(٢) (الحيوان) ج ٢ ص ١٣٤ .

لدى الانسان . . و« العقـل » كذلـك ـ غريـزيا أو مكتسبـة أو هما معـا ـ « وكيل الله » ودليله وحجتـه لدى الانسـان . . فهـما دليـلان ، خلقهـما خـالق واحـد ، واستهدف منهما معا تحقيق الهداية والرشاد ـ كل في مجـاله ـ لـلانسان . . ومن ثم فإن تعارضهما وتناقضهـما هو أمـر مستحيل ![1] وإذا بـدا أن هناك تعـارضا بـين النص والمـأثور وبـين معطيـات البرهـان العقـلي ، قـطع العقـلانيـون ، وهم في الاطمئنان على درجة اليقين أن لا تعارض على الاطلاق ، وأن التأويل ـ المحكوم بقوانين اللغة وقواعـد الأسلوب العربي ـ للنص سيجـلي الحقيقة ويـظهر الأتفـاق التام بين برهان العقل وبين النص المأثور . . وعن هذا اليقين يتحـدث ابن رشد فيقول : « . . ونحن نقطع قطعاً أن كل ما أدى إليه البرهان وخالفه ظاهر الشرع ، أن ذلك الظاهر يقبل التأويل على قانون التأويل العربي . . بل نقول : أنه ما من منطوق به في الشرع ، مخالف بظاهره لما أدى إليه البرهان إلا إذا اعتبر وتصفحت سائر أجزائه ، وجد في ألفاظ الشرع ما يشهد بظاهره لذلك التأويل ، أو يقارب أن يشهد . . وهذه القضية لا يشـك فيها مسلم ولا يـرتاب بها مـؤمـن ! . . »[2] . . ذلك أن مجيء الشرع بما يعـارض العقل ، عنـدهم ، مستحيل ، بل أن ما جاء به الشرع أما أن يكون واجبا بالعقل أو جائـزا في نظره « فلم يـرد الشرع إلا بمـا أوجبه العقـل أو جوَّزه ، ولم يـرد بمـا حظَّره العقـل أو أبـطله . . » وهكذا كـانت حجج العقـل وبراهينـه حاكمـة على حجـج السمـع وقـاضية في أمـرها ، وبعبـارتهم : « صارت حجـج العقول قـاضية عـلى حجـج السمع ، ومؤدية على علم الاستدلال ، ولـذلك سمى كثير من العلماء العقل : أم الأصول ! »[3] .

وتجـاه « النصـوصيـين » الـذين استبعـدوا « العقـل » عنـد تحـديـدهم « لـلأدلة » ، وقصـروا دوره على إلحـاق « الفـروع » « بـالأصـول » في عمليـات « القياس » ، وقالوا : أن الأدلة هي : الكتـاب والسنة ، والاجمـاع ، على هـذا

(١) (رسائل الجاحظ) ج ١ ص ٩٢ ، ٩٦ .

(٢) (فصل المقال) ص ٣٣ .

(٣) الماوردي (أدب القاضي) ج ١ ص ٢٧٤ ، ٢٧٥ . تحقيق محيي هلال السرحان . طبعة بغداد سنة ١٩٧١ م .

الترتيب . . تجاه هؤلاء اتخذ التيار العقلاني موقفا متميزا وبالغ الجرأة عندما قرر أهله أن « العقل » دليل مستقل ، وأنه ليس رابع هذه الأدلة الثلاثة ، بل هو أولها من حيث الترتيب . . . ذلك أن الصراع مع خصوم لا يؤمنون بنصوص الكتاب والسنة يستحيل أن تكون أدواته النصوص التي لا يؤمن بها هؤلاء الخصوم . . وكذلك يستحيل أن يكون أداة هذا الصراع هو الاجماع ، لأنه اجماع المؤمنين بهذه النصوص التي يرفض الخصم حجتها ، وهو اجماع مؤسس ، أيضاً ، على هذه النصوص . ومن ثم فلا بد لهذا الصراع من أداة ذات طابع إنساني ، تتخطى حجيتها الأديان والحضارات والسلالات والقوميات ، وهذه الأداة هي العقل بمناهجه وبراهينه . . فنحن إذا شئنا ، مثلا أن نهدي ضالاً إلى الإيمان بأن لهذا الكون خالقاً مبدعاً وقادراً . فليس السبيل إلى مناظرته تلاوة النصوص وتفسيرها ، لأن ذلك إنما يصلح لمن يؤمن بأن هذه النصوص هي وحي ، ووحي إلى رسول هو مؤمن به سلفاً ، وأن الله هو الذي أوحى بها إلى هذا الرسول . أما إذا كان الخصم منكراً للمصدر الأصلي للنص ، أي الله ـ والعياذ بالله ـ فإن الأمر يتطلب أداة جدل وسبيل اقناع ، غير النص ، نثبت بها ، أولا ، عقيدة الألوهية ، ووحدانية الذات الإلهية ، ثم نتدرج إلى الوحي ، بالنبوة والرسالة ، فصدق هذه النصوص .

وبهذا المنطق ، ومن هذا المنطلق جعل العقلانيون الأدلة أربعة ، وجعلوا « العقل » أولها في الترتيب . . ولما كانت النصوص والمأثورات ، بعضها محكم وبعضها متشابه ، ومنها ما هو قطعي الرواية وما هو ظني فيها ، ومنها ما هو قطعي الدلالة وما هو ظني فيها ، ومنها ما يختلف فيه تأويل المتأولين وتفسير المفسرين . . رأى العقلانيون ضرورة جعل « العقل » وبراهينه حَكَماً تعرض عليه المأثورات عند الاشتباه والاختلاف ، ومن هنا قالوا أنه الأصل في جميع الأدلة أيضا ! . . وبهذا المنطق ، ومن هذا المنطلق، ولهذه الأسباب قالوا : « إن **الأدلة أولها : دلالة العقل : لأن به يميز بين الحسن والقبيح ، ولأن به يعرف أن الكتاب حجة ، وكذلك السنة ، والاجماع ، وربما تعجب من هذا الترتيب بعضهم ، فيظن أن الأدلة هي : الكتاب ، والسنة ، والاجماع ، فقط . أو يظن أن العقل ، إذا كان يدل على أمور ، فهو مؤخر ، وليس الأمر كذلك ،**

لأن الله تعالى لم يخاطب إلا أهل العقل ، ولأن به يعرف أن الكتاب حجة ، وكذلك السنة ، والاجماع ، فهو الأصل في هذا الباب . وإن كنا نقول : أن الكتاب هو الأصل ، من حيث أن فيه التنبيه على ما في العقول ، كما أن فيه الأدلة على الأحكام . وبالعقل يميز بين احكام الافعال وبين أحكام الفاعلين ، ولولاه لما عرفنا من يؤاخذ بما يتركه أو بما يأتيه ، ومن يحمد ومن يذم ، ولذلك تزول المؤاخذة عمن لا عقل له . ومتى عرفنا بالعقل إلهاً منفردا بالإلهية ، وعرفناه حكيما ، نعلم في كتابه أنه دلالة ، ومتى عرفناه مرسلا للرسول ، ومميزا له بالأعلام المعجزة من الكاذبين ، علمنا أن قول الرسول حجة ، وإذا قال الرسول ، صلى الله عليه وسلم : « لا تجتمع أمتي على خطأ ، وعليكم بالجماعة » ، علمنا أن الإجماع حجة . . . »[1] .

فالعقل هو أول الأدلة ، وليس ذلك فقط ، بل هو أصلها الذي به يعرف صدقها ، وبوساطته تستبين حجية الكتاب والسنة والاجماع . .

وكذلك الحال في معرفة الاصول الشرعية ، فهم يرون أن العقل هو سبب معرفتها ، بل السبب شبه الوحيد في معرفة هذه الأصول ، لأن المرء لا يحتاج ، مع العقل ، في معرفة الأصول الشرعية إلا إلى حذق اللسان العربي عندما يتعلق الأمر بحجج السمع خاصة ، وهم في هذا يقولون : أما وقد « ثبت وجوب النظر في الأصول الشرعية ، فالسبب المؤدي إلى معرفتها والعمل بها شيئان : أحدهما : علم الحس ، وهو العقل ، لأن حجج العقل أصل لمعرفة الأصول ، إذ ليس تعرف الأصول إلا بحجج العقول . والسبب الثاني : في معرفة الأصول الشرعية : معرفة لسان العرب ، وهو معتبر في حجج السمع خاصة . . »[2] .

هذا عن مقام العقل عند التيار العقلاني من المتكلمين . . وهذه هي إحدى الإضافات التي صنعوها على درب تطور الفكر الانساني ، فبعد أن كان مقام العقل عاليا ، فقط ، في الفلسفة ، ومستبعدا تماما ، أو إلى حد كبير ، في

---

(١) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ١٢٧ .

(٢) الماوردي (أدب القاضي) ج ١ ص ٢٧٤ ، ٢٧٥ .

الإلهيات . . انتقلوا به ، وهو في سلطانه العظيم ومقامه العالي ، إلى الإلهيات أيضا ، وعالجوا على ضوء براهينه قضايا العقيدة أيضا ، حتى لقد رأيناهم يتسعون بنطاق العلوم العقلية ، المؤسسة على براهين العقل ونظره ، بعد أن كانت الديانات والشرائع السماوية لا تعرف غير العلوم الشرعية المؤسسة على الوحي وحده . . بل سموا « العلوم العقلية » ـ ومنها « العلم الإلهي » ـ بالعلوم الحقيقية » ! . . . وقالوا عنها : أنها « لا تتغير بتغير الملل والأديان ! »[1] .

ولما كانت هذه القسمة العقلانية ، في الحضارة العربية والتراث الاسلامي ، لم تنشأ ترفاً فكريا ورياضة ذهنية مجردة لقلة من الصفوة المستنيرة في صفوف العلماء والمفكرين ، وإنما نشأت استجابة لضرورة ملحة وقاهرة فرضها ذلك التحدي الفكري الذي فرضته الديانات والمذاهب والملل والنحل غير الاسلامية على الاسلام وأهله ، في الدولة العربية ، عندما كان المسلمون قلة عددية بين المتدينين بتلك الأديان . . لما كان الأمر كذلك ، فإن هذه القسمة العقلانية لم تقف عند حدود فكر الخاصة وابداع الصفوة المستنيرة ، وإنما أصبحت سلاحا في يد المتكلمين للدفاع عن الاسلام . . لقد ولدت ونمت وتبلورت سلاحا في معركة ، واستمرت ، إلى أمد طويل ، حصنا لهذه الأمة وسلاحا لها تصدت به لمواجهة التحدي الفكري الذي فرضه عليها خصومها الفكريون . .

وإذا كان فرسان العقلانية ، من متكلمي المعتزلة ، هم الذين ناظروا زعيم « السمنية » ـ في القصة التي رويناها ـ وأفحموه ، فإنهم ، أيضاً ، هم الذين نهضوا بالعبء الأكبر في نشر الاسلام والدفاع عن عقائده ، وخاصة بين أبناء الأمم والملل التي شاع فيها قدر من التراث العقلاني ، ومنطق أرسطو ، وفلسفة اليونان . . لأنهم كانوا ، قبل غيرهم ، المؤهلين لذلك ، ولأنهم ، دون سواهم ، كانوا هم المسلحون بالعقلانية ، التي تفوقت على الأدوات العقلانية والمنطقية لهؤلاء الخصوم . . لقد اكتشفوا سر تفوق الخصم ، وامتلكوا هذا

---

(١) التهانوي (كشاف اصطلاحات الفنون) ج ١ ص ٤٦ ـ ٦٢ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٣ م .

السر ، وعلى يدهم وبابداعهم تطور فأصبح سلاحهم في تقرير عقائد الاسلام ، ودفع شبهات خصومه ، وكسب الانصار إلى الايمان بهذا الدين الحنيف . .

ولما كان المعتزلة هم فرسان العقلانية العربية الاسلامية ، وأهم فرقها ومدارسها ، فإن فرقة من فرق الاسلام لم تتصد لمناهضة خصُومه كما تصدت لهم المعتزلة . . فالخوارج ـ والعقلانية في فكرهم ملحوظة ـ كانوا في شغل عن ذلك بالحرب المتصلة التي لا تدع وقتا ولا جهدا للفكر النظري ومجادلة خصوم الاسلام . . والشيعة ـ وهم عقلانيون في جوانب عديدة من عقائدهم ـ كانوا قد شغلوا باتقاء اضطهاد الأمويين ، وبتجسيد أحزانهم ومأساتهم كي تتحول إلى رباط عاطفي يكسب الأنصار ويديم لفرقتهم البقاء . . والمرجئة والجبرية الأموية كانوا « أهل حشو » يقفون عند ظواهر النصوص ، ومن ثم فلا جلد لهم ولا قدرة على جدل خصوم المسلمين بمنطق أرسطو وحكمة الفرس وفلسفة الهند واليونان ـ ولم تكن الفرق الأخرى قد ظهرت بعد في الحياة الفكرية الاسلامية ـ . . . أما المعتزلة فقد كانوا هم فلاسفة الاسلام الإلّهيين ، الذين تفلسف عندهم الدين وتدينت لديهم الفلسفة ، ومن ثم كانوا هم الفرقة الاسلامية التي تصدت للدفاع عن الاسلام ضد خصومه ، بل واتخذت موقع الهجوم ووضعه ضد هؤلاء الخصوم . . وإذا كان تراثهم في أغلب الميادين ، وفي هذا الميدان بالذات ، قد أتت عليه الاحداث غير المواتية فأبادته ، فإن هناك شواهد على أنهم كانوا أبرز من تصدى لمحاولات بعث عقائد الفرس القديمة ـ الثنوية ، وفروعها ـ تلك التي بعثها الشعوبيون في السنوات الأولى لحكم العباسيين . . وكما يقول جب Gibb (١٨٥٦ ـ ١٩٠١ م) فإن المعتزلة هم الذين « استطاعوا أن يقارعوا الثنوية حجة بحجة ، وأن يفحموهم ، وأن يسندوا ، بل نقول : أن ينشئوا ، الفلسفة الاخلاقية المستمدة من القرآن . . »[1] .

---

(١) دراسات في حضارة الاسلام ص ١٦ ، ترجمة الدكتور احسان عباس ، الدكتور محمد نجم ، الدكتور ، محمد زايد . طبعة بيروت ١٩٦٤ م .

ويكفي أن نشير إلى أن الجزء الخامس من كتاب (المغني في أبواب التوحيد والعدل) الذي ألفه قاضي القضاة عبد الجبار بن أحمد ، قد أفرد للرد على الديانات والفرق والمذاهب غير الاسلامية ، لا على النحو الذي نجده في كتب (الملل والنحل) عند غير المعتزلة ، كالبغدادي (٤٢٩ هـ ـ ١٠٣٧ م) والشهرستاني (٤٧٩ ـ ٥٤٨ هـ ١٠٨٦ ـ ١١٥٣ م) وابن حزم (٣٨٤ ـ ٤٥٦ هـ ٩٩٤ ـ ١٠٦٤ م) وإنما على النحو الذي يشعرنا بحرارة المعركة التي خاضها المعتزلة ، بفكرهم العقلاني ، ضد هؤلاء الخصوم الفكريين في ذلك الصراع الفكري الحضاري الطويل . .

ومن الذي يستطيع أن ينكر دلالة ما روي في سيرة امام المعتزلة أبو الهذيل العلاف (٢٣٥ هـ ٨٤٩ م) ـ وهو الذي تبلورت في عصره نظريتهم الفكرية في « أصولهم الخمسة » ـ فلقد قالوا أنه قد مارس الدعوة إلى الاسلام بين أولئك الذين ورثوا تراثا عقلانيا من أبناء البلاد المفتوحة ، وأن الذين أسلموا على يديه وحده قد زادوا عن ثلاثة آلاف ! . . أما بشر بن المعتمر (٢١٠ هـ ٨٢٥ م) ـ وهو من أئمة المعتزلة أيضا ـ فقالوا أنه قد نذر لله نذرا أن يكسب إلى الإسلام اثنين في كل يوم ! فإذا لم يتحقق له الوفاء بالنذر في يوم من الأيام عدَّه دينا ، واجب القضاء ، فقضاه ؟ ! . .[1] .

إذن . . فبهذه القسمة العقلانية في حضارتنا وتراثنا كان تصدي أمتنا للتحدي الفكري الذي فرضه عليها خصومها الفكريون . .

وبالتيار العقلاني في هذه الحضارة كان الدفاع عن الاسلام ، وكان انتشاره أيضا . . الأمر الذي جعل المسلمين أغلبية في رعية الدولة ، وفي القومية التي تبلورت على أرضها ، والذي جعل الاسلام على ما أصبح عليه . . ديناً يزهو ، لا بنصوصه الشريفة ومأثوراته المقدسة فقط ، وإنما بالعقلانية التي أصبحت ، للمرة الأولى ، درعاً للدين وقسمة تمتزج بعقائده وأصوله وتتعايش معها في الغالب من الأحيان . .

---

(١) فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ص ٢٥١ .

وإذا كـان حقـا أن الاسـلام ، كـدين ، لم ينتشـر بـالسيف . . فـإن من الحق ، كـذلك أن نقـول : أنه قـد انتشر انتشـاره الأكبر بـالعقل والعقـلانية ، وخاصة عندما تكون الدعوة إليه بين الذين يحترمون سلطان العقل ويجلون ما له من بـراهين . . وأن نقـول أيضاً : أن أعـظم صفحات تـاريخ هـذه الأمـة هي صفحة ازدهار حضارتها العربية الاسلامية . . وأن أبرز قسمات هـذه الحضارة قـد تمثلت في تبلور الشخصية القـومية الـواحدة لـلأمة . . وفي الثـراء الفكري الذي أبدعه العقل العربي المسلم . . وهمـا قسمتان ، أو وجهـان لعملـة واحـدة ، صنعها التيـار العقلاني في تـاريخنا وتـراثنا ، ذلـك التيار الـذي جعل العقل أشرف سبيل لأشرف المقاصد والغايات . .

الفصل الرابع

الفروسية العربية تواجه الفرسان الصليبيين

لكل شيء إذا ما تم نقصان   فلا يغر بطول العيش انسان ؟!

وهذا المعنى ، الذي عبر عنه الشاعر العربي بهذا البيت ، هو الذي نجده عند ابن خلدون (٧٣٢ - ٨٠٨ هـ ١٣٣٢ - ١٤٠٦ م) ، في فلسفة التاريخ والعمران ، عندما يتحدث عن دورات الدول والحضارات ، ولادة ، فشبابا ، فترفا وشيخوخة واضمحلالا . .

ثم . . ماذا حدث للأمة العربية ، وحضارتها ، ودولتها بعد أن صارع التيار « العقلاني - القومي » خصومها جميعا : الشعوبيين ، وأصحاب العصبية العربية الجاهلية ، وأصحاب الشرائع والملل والنحل غير الاسلامية ، فأحرز في صراعه هذا العديد من الانتصارات ، و« سك » لهذه الأمة « عملتها » الحضارية ، وعلى أحد وجهيها قسمتها القومية الواحدة ، وعلى الثاني الطابع العقلاني لحضارتها التي بلغت قمة التأثير والعطاء والازدهار ؟؟ . . ماذا حدث لهذه الأمة ، وحضارتها ، ودولتها بعد ذلك ؟؟ . .

نحن نعلم أن التيار « القومي - العقلاني » قد كسب جولة كبرى في صراعه مع الشعوبية والثنوية قبل عشر سنوات من انتهاء حكم هارون الرشيد ، بنكبة البرامكة (١٨٧ هـ ٨٠٣ م) . ومنذ ذلك التاريخ اقترب التيار « القومي - العقلاني » من الدولة وجهازها . . وفي عهد الخلفاء العباسيين

الثلاثة : المأمون (١٩٨ ـ ٢١٨ هـ ٨١٣ ـ ٨٣٣ م) والمعتصم (٢١٨ ـ ٢٢٧ هـ ٨٣٣ ـ ٨٤٢ م) والواثق (٢٢٧ ـ ٢٣٢ هـ ٨٤٢ ـ ٨٤٧ م) بلغ التيار « القومي ـ العقلاني » مرحلة امتلاك قمة جهاز الدولة ـ فلقد كان هؤلاء الخلفاء على مذهب المعتزلة ـ فاستخدمه في نشر فكريته ومذهبه . . وشهد عصر هؤلاء الخلفاء قمة ازدهار الحضارة العربية الاسلامية ، وأروع صفحاتها ، وانجزت فيه أعمال حضارية وفكرية أساسية ، آتت أكلها فيما بعد ذلك من السنوات . .

ونحن نعلم أن المعتزلة كانوا ، في النشأة والتطور ، تيارا سياسياً ، لهم جمهور واسع وعريض . . ولكن الاهتمام المتزايد بالمباحث العقلية ، وخاصة بعد ترجمة الفلسفة اليونانية ، قد تحول بهم ، أكثر فأكثر ، إلى تيار فلسفي ، و« فلاسفة إلهيين » ، فغدوا ، بالقياس إلى « الجمهور » و« العامة » ، يمثلون « الاستقراطية الفكرية » إلى حد كبير . .

أما خصوم المعتزلة ، من الفقهاء وأهل التقليد ، ممن يقفون عند المأثورات وظواهر النصوص ، فإنهم كانوا أقرب إلى مستوى «العامة » وفكر « الجمهور » . . ومن هنا شعر المعتزلة ، رغم وجود السلطة في أيديهم ، بأن قوة خصومهم ، المستندة إلى « العامة » ، قد غدت تهدد سلطانهم الفكري وتعوق السيطرة المذهبية التي يريدون . . وبدلا من حل هذه المعضلة عن طريق حصر الجدل حول « الإلهيات » و« المقولات الفلسفية » في اطار « الخاصة » ، وافساح المجال لحرية الخلاف والاختلاف ، سعى فريق من المعتزلة إلى صبغ المجتمع كله بمذهبهم العقلاني المتقدم والمستنير ، واستخدموا لذلك : « العقل » و« السلطة » معا ؟ ! . . وعندما حدثت بعض التجاوزات ووقع بعض الاضطهاد على نفر من خصومهم ، وخاصة بصدد القول « بخلق القرآن » ، لجأ خصومهم إلى « العامة » ، واستنفروها للدفاع عن عقائدها الموروثة ومفاهيمها الشائعة وتصوراتها البسيطة ، ثم انتقلوا بها من مواقع الدفاع إلى مواقع التربص والهجوم . .

فمثلاً . . يشكو الجاحظ من قلة عدد العوام « في صفوف المعتزلة ،

وكثـرتهم في معسكـر الخصوم ! »[١] . . وينبـه إلى أن خصـــوم المعتـزلـــة ، من الفقهـاء ، قد جمعت بينهم وبـين العامـة : النفـرة من الفكـر الفلسفي العقـلاني المركب ، والاستنامة إلى ظواهر النصوص وتبسيط الأفكار وتسطيحهـا ، من مثل اختيار « التشبيه » بدلا من « التنزيه والتجريد » . . الخ . . الخ . . كما ينبه إلى أن هؤلاء الخصوم قد استهدفوا قيادة «العامة» واستخدامها في تحقيق طموحات سيـاسية ، فهم ـ بعبـارته ـ قـد « أملوا أن ينالـوا بذلـك بشاشـة العامـة ، حتى تستوي لهم الرياسة على طغام الناس ورعاعهم ! »[٢] . . وهو ، كذلك ، يحذر أعلام المعتزلة وعلماءها من الاغترار بكثرة « المهادنين والمسايرين » ، لأن ذلك لا يعدو خلق النفاق ومظاهره ، ولم ينقص من عـدد الخصوم « فـإن عدد الجمـاجم على حاله ! وضمير أكثرهم على ما كان عليـه ، والذين مـاتوا قليـل من كثير؟ ! ونحن لا ننتفع بالمنافق ! ولا نستعين بـالمرتـاب ، ولا نثق بالجـانح ! وإن كـانت المبادأة قد نقصت فإن القلوب أفسد ما كانت ! . . وهم اليوم إلى المنازعة أميل ، وبها أكلف ؟ ! » . .[٣] .

وعندما وضحت للمعتزلة ، ودولتهم ، أن قيادة خصومهم للعـامة تتـدعم وتتأكد استشعروا الخطر « فالعوام إذا كانت نشرا ـ (متفـرقة) ـ فـأمرهـا أيسر ، ومدة هيجها أقصر ، فإذا كان لها رئيس حاذق ومطاع مدبر ، وامام مقلد ، فعند ذلك يموت الحق ، ويقتل المحق ؟ ! » . .[٤] . .

وحتى لا « يمـوت الحق ، ولا يقتل المحق » ـ كـما قال الجـاحظ ـ ارتكبت المعتزلة ودولتها خطأها الأكبر ، فاستخدمت جهاز الدولـة في محاولتهـا « اقناع » الخصوم بما لها من أفكار وآراء ! ! . .

وأمام القلاقل المنتظرة والسخط المتوقع والغضب الموشك على الانفجار ، من هـذه الأزمة الـداخلية في المجتمـع ، سعت الدولـة إلى زيادة الاعتمـاد على

(١) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٣٧٣ .
(٢) (رسائل الجاحظ) ج ١ ص ٣٣٩ .
(٣) المصدر السابق . ج ٢ ص ١٢٦ .
(٤) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٨٣ .

القـوة العسكريـة ـ الجيش ـ واتخذت الخـطوات إلى تنمية حجم هـذه الأداة من أدوات الحكم والسلطان .

وأيضا . . كانت الدولة العربية الاسلامية قد بلغت يومئذ أقصى حدودها في الانتشار والاتساع ، فبعد أن ملك العرب من الأنـدلس ، على حـدود فرنسـا الغربية ، حتى الحدود الغربية للصين ، شرعوا يهددون جنوب أوربـا وينتزعـون منها جزرها في البحر الأبيض المتوسط .

* ففي (١٩٥ هـ ـ ٨٠٩ م) فتح العرب واحتلوا جزيرة « كورسيكا » . .

* وفي (١٩٦ هـ ـ ٨١٠ م) فتحوا واحتلوا جزيرة « سردينيا » . .

* وفي (٢١٠ هـ ـ ٨٢٥ م) فتحوا واحتلوا جزيرة « كريت » . .

* وفي (٢١٢ هـ ـ ٨٢٧ م) بدأ فتحهم لجزيرة « صقلية » . .

* وفي (٢٥٦ هـ ـ ٨٧٠ م) كان فتحهم واحتلالهم لجزيرة « مالطة » . .

* وفي تلك الحقبة تجاوزوا فتح الجزر وحروب البحر ، فاقتحموا الجنـوب الأوربـي في ايـطاليا ، ونـزلت جيوشهم (٢٣١ هـ ـ ٨٤٦ م) بمينـاء « أوستيا » ، وهو المرفأ البحري لمدينة روما ، واستمر تهديدهم لهـا سنوات ثـلاث ، بكل مـا عناه ذلك من اقتحام المعقل الذي ظل طويلا مركز الخطر الرومـاني الذي احتـل الشـرق وأقام لنفسـه الدول بـالشمال الافـريقي ومصـر والشـام ، ثم استخـدم نصرانية الحبشة في محاولة القضاء عـلى البقعة العـربية التي افلتت من سيـطرته ، بمحاولته غزو مكة عام الفيل ، بعد أن احتلت اليمن ردحا طويلا من الزمان .

* وحتى بعـد انحسار هـذا التهديـد العـربي لـرومـا (٢٣٥هـ ـ٨٤٩م) ، عادوا فحاولوا غزوها (٢٥٨هـ ـ٨٧٢م) . . واستمر تهديدهم لهـا ولايطاليـا حتى (٣٠٤هـ ـ٩١٦م) . . وأثنـاء تلك الفترة فـرضوا الجـزيـة عـلى رومـا ، وسجـل التاريخ أن البابا يـوحنا الثـامن (٨٧٢ ـ ٨٨٢م) ظل لعـامين ، يـدفع للعـرب

جزية سنوية مقدارها ٠٠٠ ،٢٥ رطل من الفضة ! . .[١] وبقدر ما كان ذلك مظهر بأس وعنوان قوة ، فلقد كان حملاً ثقيلاً على القلب ، جعل المركز والعاصمة وجهاز دولة الخلافة يحملون ما هو أزيد من الطاقة الطبيعية لهم ، وزاد من ثقل العبء أن الكثير من أطراف هذه الدولة لم تكن قد تعربت تماماً بعد، ومن ثم فلم تكن « القومية الواحدة » بقسماتها الواحدة ولا « الحضارة الواحدة » بسماتها المتحدة قد غدت لهذه الأطراف خيوطا وشرايين تؤلف بينها وبين السلطة المركزية والقطاع الذي تعرب من البلاد ، فكان « جهاز الدولة » هو الرباط الوحيد بين القلب وهذه الأطراف ، الأمر الذي زاد الحمل ثقلاً على سلطة الخلافة المركزية في ذلك التاريخ .

ولذلك ، فلم يكن غريبا - وان استغربه البعض - أن تظهر في قمة ازدهار الحضارة العربية الاسلامية ، وفي لحظات الذروة من تألق قسمتيها القومية والعقلانية ، أن تظهر واضحة ، بل ومحزنة : ظاهرة التجزئة والانقسام واستقلال الامارات والولايات عن السلطة المركزية ، وخاصة في الأقاصي والأطراف ! . .

فغير الأندلس التي استقل بها الامراء الامويون منذ أن تأسست الدولة العباسية في المشرق . . وغير قبرص التي استردها البيزنطيون قبل خمس وعشرين عاماً من نهاية القرن التاسع الميلادي ، انتشرت وتناثرت على خريطة أطراف الامبراطورية دويلات الأسر التي استقلت ، رسمياً أو عملياً ، بحكم العديد من الامارات ، من دون خلفاء بني العباس في بغداد . .

* فبنو ساج : في أذربيجان ومراغة وداغستان . .
* والأدارسة : في مراكش وغربي الجزائر . .
* والأغالبة : في شرقي الجزائر وتونس وطرابلس . .
* والبربر والتبو : في شمالي الصحراء الافريقية . .
* والنوبيون : في جنوب مصر . .
* والطولونيون : في مصر والحجاز وعسير والشام . .

---

(١) انظر في ذلك : فيليب حتي (تاريخ العرب) « المطول » طبعة بيروت سنة ١٩٥٣م .

* وبنو زياد : في زبيد . .
* وبنو يعفر : في صنعاء . .
* وبنو رس : في صعدة . .
* وبنو الجلندي : في عمان . .
* والزنج : في البصرة .
* والعلويون . . أبناء علي ـ الزيدية ـ في طبرستان . .
* والصفارية : في سجستان وأفغانستان . .
* والطاهرية : في مرو ونيسابور.
* وأحمد بن أسد : في ما وراء النهر . .
* والسامانيون : في بخارى . .

تجزئة وانشقاقات قاربت العشرين شهدها ذات القرن الذي شهد ذروة الازدهار العربية الاسلامية . .

وأمام هذا الخطر ، أيضاً ، وجدت دولة الخلافة نفسها مدفوعة إلى زيادة حجم القوة العسكرية ـ الجيش ـ فاتخذت في هذا السبيل خطوات وخطوات ! . .

وكانت الحضارة والرفاهية والإزدهار وطيب العيش ولين الحياة قد ابتعدت بالعنصر العربي الأول عن خشونة الجند التي عرف بها في عصر الفتوحات ، يوم أن كان العرب جيشاً ، وأشبه ما يكونون « بالاسبارطيين » ! . . كما أن أحلام الموالي ، ذوي الاتجاه الشعوبي، كانت لا تزال لبقاياها حياة ، الأمر الذي صرف الدولة عن أن يكونوا هم القوة الأساسية في الجيش الذي سعى الخليفة المعتصم إلى تكوينه كي يواجه به « أزمة القلب » وانسلاخ الأطراف وما خلفها من مخاطر واحتمالات .

لقد كوّن المعتصم ، ضمن الجيش الذي أنشأه ، فرقة « الجند المغاربة » من موالي حوف مصر وحوف اليمن وحوف قيس . . وفرقة « الفراغنة » من أهل فرغانة . . وفرقة « الأشروسية » من أهل اشروسنة . . ولكنه سعى فارتكب

أعظم أخطاء الدولة في عصره عندما أخذ يكثر من شراء المماليك والأتراك ، ويقيم لهم المعسكرات ، ويجعلهم القوة الكبرى والرئيسية في جيش الدولة . . حتى لقد أقام لهم مدينة كاملة وجديدة هي « سامراء » ! . .(١)

لقد ظن المعتصم أنه باتخاذه الجند الغريب ، حضاريا وقوميا ، عن المجتمع ، سيحصل على أداة القمع الأسهل قيادا ، والتي لا أمل لها في السلطة ، ولا مصلحة لها في الصراعات الناشبة من حولها ، وانه بذلك سيقيم القوة الضاربة التي يحافظ بها على التوازن بين العرب والموالي وغيرهما من العناصر والأجناس المتصارعة والمتنافسة . . **ولكن تضخم هذه القوة العسكرية الجديدة سرعان ما جعلها مركز ثقل وقوة جذب ومصدر توجيه . . فالمدينة التي بنيت لها معسكرا تابعا للعاصمة بغداد تحولت منذ (٢٢١هـ-٨٣٦م) إلى عاصمة للدولة ، انتقلت إليها الخلافة ، وأصبحت بغداد تابعة لها ! . . وهؤلاء الجند الذين أرادهم المعتصم قوة بيد الخلافة ، سرعان ما أصبحت الخلافة لعبة بيدهم ، يولون من أطاع ويعزلون من عصى ، بل ويسجنون ويقتلون من يتمرد على أوامر المماليك الأتراك ؟ ! . .**

وبسبب من أن هذه المؤسسة الجديدة والكبيرة هي : جند وجيش كانت بعيدة عن الاهتمامات الحضارية . . وبسبب من غربتها عن العروبة وتخلف قادتها ، بداهة ، عن نمط التفكير العقلي والفلسفي كانت أميل إلى « العامة » ، وأمعن في عدائها للفكر الفلسفي والآراء المستنيرة والتيار العقلاني . . وهكذا تحولت الأداة التي أرادها المعتصم حصنا للحضارة العقلانية ، ضد « العامة » ، تحولت إلى حصن للفكر المتخلف انطلقت منه « العامة » وفقهاؤها ليصيبوا ذلك المد الحضاري العقلاني بالتوقف ، فالجمود ، فالتراجع ، وذلك بمجرد استيلاء الخليفة المتوكل (٢٣٢ - ٢٤٧هـ-٨٤٧ ٨٦١م) على السلطة ، بعد موت الخليفة الواثق ! . .

ولقد رضيت العامة ، وفقهاؤها من النصوصيين ، لقصر نظرها ، عن

---

(١) المسعودي (مروج الذهب) ج ٢ ص ٦٦ . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦ .

هذا الانقلاب . . ولكن سرعان ما أفاقت على صوت نـاقوس الخـطر الأشد . . فلقد استأثر الجند الأتـراك بخيرات المجتمـع المادية ، بعد أن أحكمـوا قبضتهم على سلطة الدولة السياسيـة . . وتركـوا العامـة وفقهاؤ هـا يسعدون بـزوال دولة المعتزلة وانحسار فكرهـا العقلاني ، ويتشفـون في خصوم الأمس الـذين أصبحوا رهن المنافي وغيابات السجون ! . .

لقد عم الاضطهاد ، منذ عهد المتوكل ، كلا من المعتزلة والعلويـين ، ومن لم يوضع في السجن من قادتهم جرد من « حقوقه المدنية » ـ بلغة عصرنا ـ عندمـا أسقطت شهاداتهم أمام القضاء ، وسلبت حقوقهم الاقتصادية ، وأصابهم الكثير من التمييز في المراسم الاجتماعية والعلاقات الانسـانية . .[1] وذلـك فضلا عن تجريم فكر المعتزلة وتحريمه بمراسيم هي أشبه مـاتكون بقـرارات المجامـع الكنسية الكهنوتية ، الغربية عن روح الاسلام ! . .[2] . .

وفي ظل هذا الاضـطهاد كـانت قيادات الـدولة بيـد رجال أسمـاؤ هم من مثل : « وصيف » و « بغا » و « كيغلغ » و « ياجور » و « بـايكباك » و « بكـالبا » و « يـارجـوخ » و « أصغجون » و « طـاشتمـر » و « كنجـور » و « تكـين » و« أغرتمش » و « ابن كندا جيق » و « اساتكين » ؟ ! . . واستأثرت هذه القيادة ، مع مماليكها وأعوانها باقطاعات الدولة وثرواتها ، دون العامة ، بل وزادت أثـرتها فأستأثرت بهذه الثروة أحياناً دون عامة الجند والمماليك ؟ ! . .

ولقـد تصاعـدت سطوة قـادة الجند الأتـراك فبلغت الـذروة عنـدمـا قتلوا الخليفـة المتوكـل في ٣ شوال سنـة ٢٤٧هـ-١٠ ديسمبر سنـة ٨٦١م) ، فأصبـح منصب الخلافة لعبة مستباحة ، يتناولونها بالعزل والتولية ، وأيضاً بالسجن ، بل وبالسم والقتل لمن غضبوا منه أو عليه من الخلفاء ! . .

---

(١) انظر (فضل الاعتزال وطبقات المعتـزلة) ص ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٦٧و : المقريزي (الخـطط) ج ٣, ٢٧١ طبعة دار التحرير القاهرة .

(٢) آدم مـتز (الحضارة الاسـلامية في القـرن الرابـع الهجـري) ج ١ ص٣٨١ ـ ٣٨٣ .ط . بيروت سنة ١٩٦٧ .

وبعد المتوكل ولي الخلافة المنتصر بالله ، محمد بن جعفر بن محمد بن هارون الرشيد (٢٤٧ ـ٢٤٨هـ ٨٦١-٨٦٢م) . . وكان شاباً في الخامسة والعشرين من عمره ، ذا طموح لاستعادة سلطات الخليفة والعودة بالخلافة إلى سلطانها وسلطاتها . . وبعبارات المسعودي : « فلقد كان المنتصر واسع الاحتمال ، راسخ العقل ، كثير المعروف ، راغبا في الخير ، سخيا ، أديباً ، عفيفا وكان يأخذ نفسه بمكارم الأخلاق ، وكثرة الانصاف ، وحسن المعاشرة ، بما لم يسبقه خليفة إلى مثله ! . . »[1]

وكان المنتصر يدرك جيدا أن أية سلطة يرغب في استردادها لنفسه كخليفة لا بد من انتزاعها من بين قبضة قادة العسكر الأتراك ، وأنه ، لكي يصنع ذلك ، لا بد له من قوى بديلة يعتمد عليها ويستمد منها العون والتأييد . . فشرع يتقرب إلى العلويين ، ورفع عنهم مظاهر المحنة التي كانوا يعيشون فيها منذ انقلاب المتوكل ، فلم تعد زيارة قبر الحسين ، وغيره من مشاهدهم ، امرا محرما ، ورد اقطاع « فدك » ـ بالقرب من المدينة ـ إلى ذرية الحسن والحسين ، بعد أن كانوا قد حرموا منه ، واعاد أوقاف آل أبي طالب إلى ذويها . . واعلن في الناس ، عامة ، « الأمان » ! . . وحتى عندما انتصر جيشه على الخوارج الذين ثاروا وسيطروا على اليمن والبوازيج والموصل[2] ، وجاءوا إليه بقائد الخوارج ، أبو العمود الشاري ، أسيرا ، عفا عنه ، « وأخذ عليه العهد وخلى سبيله . . وقال : ان لذة العفو أعذب من لذة التشفي ، وأقبح أفعال المقتدر الانتقام ! » . .

وسار المنتصر ، في جمهور الناس ، سيرة العدل والانصاف ، فحقق الكثير من الأهداف التي ابتغاها من وراء هذا الانعطاف الجديد ، وبعبارة المسعودي ، فإنه « أظهر الانصاف في الرعية ، فمالت إليه قلوب الخاصة والعامة ، مع شدة الهيبة منها له ! » . .

---

(١) (مروج الذهب) ج ٢ ص ٤٢٦ .

(٢) البوازيج بلد بالقرب من تكريت ، قريب من مصب نهر الزاب الأسفل .

ولقـد بلغ من وضوح هـذا التحول الـذي أحدثـه المنتصر إلى الحـد الذي أصبح فيه موضوعا لمدائح الشيعة العلوية ، الذين كانوا بالأمس خصوما للخلافة وثوارا عليها . . وشاعرها يزيـد بن محمد المهلبي يعبـر عن ذلك عنـدما يخـاطب المنتصر فيقول :

ولقـد بـررت الـطالبيـة بعـدمـا ذمـوا زمـانـا بـعـدهـا وزمـانـا
ورددت إلـفـة هـاشـم فـرأيتـهـم بـعـد الـعـداوة بـينـهـم اخـوانـا
آنـسـت لـيـلهـم وجـدت عـليهـم حتى نسـوا الأحـقـاد والأضغـانـا
لـو يعلم الأسـلاف كيف بـررتهـم لـرأوك أثـقـل مـن بهـا مـيـزانـا

ولقد أراد المنتصر أن يستثمر تلك القوة التي حققها له «السلام» مع المعارضين والثـوار ، والعدل مـع الرعيـة في تحريـر جهاز الـدولـة من استبـداد قـادة الجنـد الأتـراك . . فطلب إلى « وصيف » ـ وهـو أحد أثنـين تركـزت بـأيـديهـما السلطة والسلطان ـ أن يترك العاصمة ، على رأس جيش ، لقتال الروم ! . . وأسـرّ إلى خاصته أنه عازم على التخلص من قادة الجنـد الأتراك ، وعنـدما أبصـر « بغا » ـ صنـو « وصيف » وشريكـه ـ يختال في قصـر الخلافـة ومن حولـه الأتـراك ، قـال للفضل بن المأمون : « قتلني الله إن لم أقتلهم وأفرق جمعهم !(1) . . هؤلاء قتلة الخلفاء(2) ! . .

ولكن الأتـراك عاجلوا الخليفـة المنتصر قبـل أن يعـاجلهم . . وكـما يقـول المسعودي : « فلما نظرت الأتراك إلى ما يفعل بهم ، وما قد عزم عليـه ، وجدوا منـه الفرصـة » بـأن أوعـزوا إلى طبيبه (الـطيفوري) فقتله بـاستخـدام مشـرط مسموم في اجراء « حجامة » له ، فلقي مصير المتوكل في ربيـع الآخر سنـة ٢٤٨ هـ بعد ، خلافة لم تتعد ستة أشهر؟(3).

وبعـد التخلص من المنتصر ، أجلس الأتـراك على عـرش الخلافـة خليفة

---

(١)(مروج الذهب) ج ٢ ص ٤٢٦ ـ ٤٢٨ .
(٢) (تاريخ الطبري) ج ٩ ص ٢٥٢ .
(٣) (مروج الذهب) ج ٢ ص ٢٢٦ .

ضعيفا مستسلما هو المستعين بالله ، أحمد بن محمد بن محمد بن هارون الرشيد (٢٤٨ ـ ٢٥٢هـ ٨٦٢ ـ ٨٦٦ م) واستعادوا تحت رايته ما حاول المنتصر أن ينتزع منهم من السلطة والسلطان ، حتى لقد وصف الشاعر الخليفة المستعين ، وصور مكانه بين « وصيف » و « بغا » فأجاد عندما قال :

خليفة في قفص بين وصيف وبغا
يقول ما قالا له كما يقول الببغا !

ولقد امتدت يد الأتراك بالاضطهاد ، قتلا ونفيا وسجنا وحرمانا ، إلى حاشية الخليفة السابق ، المنتصر ، وتصاعدت مظالمهم وزاد استبدادهم بالخلفاء . . فلم يكفهم ما اظهره الخليفة المستعين من ضعف وخضوع ، فخلعوه ، ثم قتلوه فشاع في الناس رعب وفزع ، عبر عنهما الشاعر البحتري (٢٠٦ ـ ٢٨٤هـ ٨٢١ ـ ٨٩٨ م) عندما قال :

لله در عصابة تركية ردوا نوائب دهرهم بالسيف
قتلوا الخليفة أحمد بن محمد وكسوا جميع الناس ثوب الخوف
وطغوا فأصبح ملكنا متقسما وأمامنا فيه شبيه الضيف ![1]

فالملك قد إقتسمه كل من « وصيف » و « بغا » ، أما نصيب الخليفة (الإمام) فهو نصيب الضيف ! . . أما الرعية فنصيبها الرعب والفزع والحرمان ! . .

وبعد المستعين تولى الخلافة : المعتز بالله ، الزبير بن جعفر المتوكل (٢٥٢ ـ ٢٥٥ هـ ٨٦٦ ـ ٨٦٩م) فكان مصيره نفس مصير المستعين ، خلعوه، وسجنوه ، ثم قتلوه في سجنه بعد خلعه بستة أيام ! . . وقال الشعراء في رثائه ، ضمن ما قالوا :

أصبح الترك مالكي الأمر والعالم ما بين سامع ومطيع ![2]

---

(١) (مروج الذهب) ج ٢ ص ٤٣٣ ، ٤٥٠ ، ٤٥١ .
(٢) المصدر السابق . ج ٢ ص ٤٥٧ ، ٤٦١ .

وبعد المعتز ولي الخلافة : المهتـدي بالله (٢٥٥ ـ ٢٥٦هـ ٨٦٩ ـ ٨٧٠م) فراودته مطامح التغيير والعدل التي راودت الخليفة المنتصر ، بل لقد تطلع إلى أن يكـون في بني العبـاس كـما كـان عمـر بن عبـد العـزيـز (٦٢ ـ ١٠١هـ ٦٨١ ـ ٧٢٠م) في بني أميـة ! وقـال لخاصـة أقـربائـه : « يـا بني هـاشم ، دعوني حتى أسلك مسلك عمر بن عبد العزيز ، فـأكون فيكم مثـل عمر بن عبـد العزيـز في بني أمية ! » . .

لكن عمر بن عبد العزيز قد سلك مسلكه بالتغيير الجذري العميق ، على حين كان المهتـدي أسير الاستبـداد الذي جعـل السلطة حكراً عـلى قادة الجنـد الأتـراك . . ولقد جـادلـوه ، محـذرين ايـاه من السعي في هـذا السبيـل ، لأنهم وجنودهم لا يرغبون في العدل ولا يبيحـون لأحد السعي نحـو تحقيقه ! . . ودار بينهم وبينه حوار بدأوه متسائلين :

ـ أتريد أن تحمل الناس على سيرة عظيمة لم يعرفوها ؟ ! .

ـ أريد أن أحملهم على سيرة الرسول وأهل بيته والخلفاء الراشدين !

ـ ان الرسول كان مع قـوم قد زهـدوا في الدنيـا ورغبوا في الآخـرة ، كأبي بكر وعمر وعثمان وغيرهم ، وانت إنما رجالك ما بـين تركي وخـزري وفرغـاني ومغـربي وغير ذلـك من أنـواع الأعـاجم ، لا يعلمـون مـا يجب عليهم من أمـر آخرتهم ، وإنما غـرضهم ما استعجلوه من هـذه الدنيـا ، فكيف تحملهم على مـا ذكرت من الواضحة »[1] . .

ولمـا استشعر النـاس بما يبيت قـادة الأتراك ضـد المهتدي حـاولوا الحـركـة لمساندة الخليفة الراغب في العدل والتغيير ، وكان توزيع الرقاع ـ (المنشورات) ـ الـداعية لمسـاندة الخليفـة واحد من مـظاهر حـركتهم هذه ، وفي واحـد من هذه المنشورات التي وزعت عندما شرع الأتراك في خلعه وتعذيبه كتبوا :

بسم الله الرحمن الرحيم. يا معشر المسلمين، ادعوا الله لخليفتكم العدل

---

(١) (مروج الذهب) ج ٢ ص ٤٦٦ ، ٤٦٣ .

الرضي ، المضاهي لعمر بن الخطاب ، أن ينصره على عدوه ، ويكفيه مؤنة ظالمه ، ويتم النعمة عليه وعلى هذه الأمة ببقائه ، فان الموالي قد أخذوه بأن يخلع نفسه ، وهو يعذب منذ أيام .. رحم الله من أخلص النية ، ودعا وصلى على محمد ، صلى الله عليه وسلم ! » ..

بل ان قطاعاً كبيراً من عامة الجند قد حاولوا الدفاع عن الخليفة المهتدي ، ضد قادتهم الذين استأثروا ، دونهم ، بالعطاءات والاقطاعات ، ووجه هؤلاء الجنود رسالة إلى المهتدي شكوا فيها سوء حالهم ، وتأخر أرزاقهم ، وما صار من الاقطاعات إلى قوادهم التي أجحفت بالضياع والخراج ، وما صار لكبرائهم من المعاون والزيادات من الرسوم القديمة مع أرزاق النساء والدخلاء الذين استغرقوا أكثر أموال الخراج ! ..

ثم تجمهروا وتقدموا بمطالبهم :

* رد السلطة للخليفة .

* ورد رسومهم إلى ما كانت عليه أيام المستعين بالله .

* ووضع نظام جديد لتنظيمهم .

* واسقاط أنصبة النساء والزيادات والمعاون من عطاء القواد .

* وأن لا يدخل الموالي في سلك « الملتزمين » - (القبالات) - أي الوسطاء بين الدولة والفلاحين ، وكانوا بمثابة الاقطاعيين .

* وأن يكون عطاء الجند كل شهرين .

* وابطال الاقطاعات التي منحت للقواد .. [1]

لكن قادة الترك نجحوا ، فأوقفوا تحرك العامة ، واحتووا حركة الجند وتجمهرهم .. ثم قتلوا الخليفة المهتدي بالله بعد خلافة لم تتعد أحد عشر شهراً ؟ ! .

---

(١) (تاريخ الطبري) ج ٩ ص ٤٤٣ - ٤٤٦ .

على هذا النحو كانت حال الدولة . . وإلى هذا الحد بلغ تجبر قادة الأعاجم الأتراك . . لقد سدوا على الخلفاء المصلحين مسالك الاصلاح ، واغلقوا السبل أمام كل من راودته آمال الاصلاح من خلال جهاز الدولة ، بعد أن سيطروا عليه السيطرة كلها واستبدوا بشؤونه كل الاستبداد ! . .

وعندما اغلقت الأبواب أمام الاصلاح ودعاته فتحت السبل الكثيرة أمام الثورة والثوار ؟ ! . . لقد بدأت ساحات المجتمع وأقاليمه تشهد ، منذ تخلص الأتراك من الخليفة المنتصر ، اندلاع الانتفاضات والتمردات والثورات التي قادها ، على وجه الخصوص ، ثوار علويون . .

* ففي سنة ٢٤٨ هـ ثار ، بالكوفة ، أبو الحسين يحيى بن عمر بن يحيى ابن الحسين بن عبد الله ابن إسماعيل بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب .

* وفي سنة ٢٤٩ هـ بدأت الجولة الأولى للثورة التي قادها علي بن محمد - ثورة الزنج - والتي استمرت حتى سنة ٢٧٠ هـ .

* وفي سنة ٢٥٠ هـ ثار ، بطبرستان ، الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، وامتدت ثورته إلى جرجان ، واستقرت دولته بها حتى سنة ٢٧٠ هـ .

* وفي سنة ٢٥٠ ثار ، بالري ، محمد بن جعفر بن الحسن ، كي يضم « الري » إلى الدولة العلوية التي تأسست بطبرستان . .

* وبعد فشل ثورة الري ، التي تزعمها محمد بن جعفر بن الحسن ، ثار بها ، ثانية ، أحمد بن عيسى بن علي بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب . .

* وفي سنة ٢٥٠ هـ ثار ، بقزوين ، الكركي (الحسن بن اسماعيل بن محمد بن عبد الله بن الحسين بن علي بن أبي طالب . .)

* وفي سنة ٢٥٠ هـ ، ثار ، بالكوفة ، الحسين بن محمد بن حمزة بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب . .

ولقد أدى اندلاع هذه الثورات ، من جانب ، وانتشار ظاهرة التجزئة

والاقليمية وانسلاخ الولايات والأقاليم عن الخلافة المركزية من جانب آخر ، إلى ضعف الحركة التجارية الداخلية ، والدولية التي تتخذ المنطقة طريقا لها ، الأمر الذي اضعف قواها الاجتماعية ، التي كانت تاريخيا ، وبحكم المصالح والاستنارة واتساع الأفق ، طليعة القوى العاملة على وحدة الدولة واستكمال قسمات الشخصية القومية لرعيتها ، فترك ذلك آثاره السلبية على المد القومي ، وتحول بخطه البياني من حركة الصعود إلى حركة الهبوط . . ونفس الشيء قد حدث مع القسمة العقلانية للحضارة العربية الاسلامية ، ففي ظل دولة العسكر الأتراك ، الغريبة عن روح القومية العربية ، انتكس الطابع العقلاني مع انتكاسة الوجه الثاني للعملة ، وهو الطابع القومي . . فبدأت بذلك مرحلة التوقف ، فالجمود ، فالتراجع للحضارة العربية الاسلامية ، وانفتحت في جبهتها الثغرات التي أغرت بها أعداءها التاريخيين التقليديين . .

ومر قرنان من الزمان ـ الرابع والخامس الهجريين ـ العاشر والحادي عشر الميلاديين ـ قبل أن تبدأ ثانية الغزوات الخطيرة والطويلة والعنيفة التي شنها الغرب الأوربي على الوطن العربي ، تحت شعارات المسيح وأعلام الصليب . . وفي هذين القرنين كانت بعض الدويلات الاقليمية ـ والعربية منها بخاصة ـ قد عوضت ، بقوتها وطابعها القومي وعمقها الحضاري وقسمتها العقلانية ، بعض ما افتقدته الامة نتيجة ما أصاب السلطة المركزية في بغداد من ضعف وعجمة وتخلف وجمود بلغ ذروته عندما خضعت هذه السلطة ، واقعياً وعملياً ، وحتى رسمياً ، لتسلط دويلات انفصالية ، مثل البويهيين (٣٣٤ هـ ٩٤٥م) والسلاجقة (٤٤٧ هـ ١٠٥٥م) . . وفي مقدمة هذه الدول العربية التي أبطأت بدخول الحضارة العربية الاسلامية دور الانحطاط ، وناوشت الغزاة المتأهبين فأجلت اجتياحهم لقلب الوطن العربي : الدولة الفاطمية (٢٩٧ ـ ٥٦٧ هـ ٩٠٩ ـ ١١٧١م) والدولة الحمدانية (٣٣٣ ـ ٤٠٦ هـ ٩٤٤ ـ ١٠١٥م) في الشام . . لكن هذا الأمر كان في اطار التأجيل والابطاء ، لا في اطار التجديد والانبعاث الذي يعيد الخط البياني لظاهرة الحضارة العربية الاسلامية ودولتها من الهبوط إلى الصعود ، والصعود المستمر . . لأن الدولة الحمدانية لم تعد أن تكون

امارة صغيرة وقفت بها طاقاتها عند حدود الصحوة الفكرية القومية ، ومناوشة البيزنطيين واستنزافهم وتأخير اجتياحهم للشام . . أما الفاطميون ، فرغم امكاناتهم العظيمة ، وانجازاتهم الكبيرة ، والطابع القومي والعقلاني لتجربتهم ، الا أن مذهبهم الشيعي قد جعل اجتماع الأمة ـ وأغلبها سنية المذهب ـ حولهم أمراً بعيد الاحتمال . . وهكذا كان الفاطميون والحمدانيون ، ودويلات أخرى لعبت أدواراً مشابهة وقريبة ، بمثابة الصحوة التي تسبق الاحتضار ! . .

وفي هذه الصحوة واصل السلاجقة (٤٧٠ ـ ٧٢٨ هـ ١٠٧٧ ـ ١٣٢٧م) مهمة الحمدانيين في قتال البيزنطيين ، وأحرزوا انتصارا كبيراً ضدهم في معركة « منزكرت » ـ (ملاذكرد) ـ (٤٦٣ هـ ١٠٧١م) وأسروا يومها الامبراطور البيزنطي «رومانوس ديوجنس» ١٠٦٨ ـ١٠٧١م) . . كما عاد الفاطميون فواصلوا تهديد ايطاليا ، بعد أن اتخذوا من « صقلية » (٣٠٤ هـ ٩١٧م) قاعدة لهجماتهم البحرية ضد الشواطىء الجنوبية لأوربا ، فوصلت حملاتهم إلى « البندقية » و« جنوى » (٣٢٣ هـ ٩٣٥ م) .

ووجدت أوربا ، وعلى رأسها البابا والكنيسة الكاثوليكية ، انهم أمام خطر ذي شعبتين : مناوشات حربية وغزوات بحرية متقطعة . . وهم قد أفلحوا في صدها . . ولكن الذي لم يفلحوا في صده كان ذلك الخطر المتمثل في الفكر العربي الاسلامي العقلاني والمستنير . . فلقد كانت الدوائر الكنسية الكاثوليكية في أوربا ـ وهي وحدها دوائر الفكر والثقافة هناك ـ تقيم أمنع الحواجز ضد ما كانت تزخر به المنطقة العربية من علوم وفنون وأفكار ونظريات . . كانت اوربا تعيش قمة ظلام عصورها المظلمة على حين كانت القاهرة تنعم بأضخم مكتبة عرفتها عواصم تلك القرون ، وبدور الحكمة والمراصد والفكر العقلاني والجدل النظري الذي يعلي من قدر العقل فيحقق المعنى الحقيقي لانسانية الانسان . .

ولكن هذه الدوائر الكنسية ، التي افلحت في صد جيوش العرب الغازية ، قد اخفقت في تحصين العقل الأوربي ضد الفكر العربي ، فحدثت وعملت عملها قوانين تلك « السنة » الكونية التي تكررت على مر العصور :

تحدث الصراعات المسلحة وتنتهي ، وتنجح الحملات الحربية وتخفق ، وتقوم الدول وتضمحل . . ولكن الأبقى والأدوم والأفعل هو ، دائماً وأبدا ، التأثيرات الفكرية والحضارية التي تستفيدها الأمم والشعوب من خلال عنف هذه الصراعات ! . . ولذلك فان التاريخ يسجل أن النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي هو الذي شهد طلائع التأثير الأوربي بالفكر العربي ، وهو التأثر الذي أصبح المنطلق الحقيقي الذي انطلقت منه أوربا ، عبر قرون عدة وأحداث كبرى ، إلى عصر النهضة والتنوير . .

* فقسطنطين الافريقي (المتوفي سنة ١٠٨٧م) هو الذي ارتاد حركة ايقاف الأوربيين على الثمار العقلية للحضارة العربية الاسلامية . . وهو مفكر طلائعي ، خلف وراءه أربعة وعشرين كتاباً . .

ولقد جاء قسطنطين الافريقي وفكره ومصنفاته ثمرة لعاملين رئيسين :

أ ـ رحلته التعليمية والعلمية التي زار فيها كلا من : خراسان ، والهند ، وبغداد ، والشام ، ومصر ، والقيروان ، حيث درس وتعلم ووقف على البناء الفكري والحضاري العملاق .

ب ـ الدراسة والتخرج في أول مدرسة طبية قامت بايطاليا ، وهي مدرسة (سالرنو) التي تأسست في القرن التاسع الميلادي ، والتي كان تأسيسها بداية اسهام العرب المسلمين في ايقاظ أوربا ، عن غير طريق الأندلس ، فلقد أسس هذه المدرسة ـ التي التحق بها قسطنطين الافريقي سنة ١٠٦٠م ـ أربعة رجال : لاتيني ، ويوناني ، ومسلم ، ويهودي ! . فكانت أول مدرسة خارج الاندلس تعلم الناس الطب في أوربا .

* وفي تلك الفترة اقتحمت علوم العرب على الايطاليين أسوار جامعة « بولونيا » ، فبدأت عنايتها بهذه العلوم سنة ١٠٧٦م . .

ووجدت الرجعية الكنسية في أوربا نفسها ودولتها مهددة بخطر عظيم . . فالجيوش العربية تترى على ايطاليا وتهدد روما ذاتها . . والفكر

العربي ، العقلاني والمستنير ، يقتحم الأسوار التي فرضتها على العقل الأوربي لعدة قرون ، وهو يفعل ذلك من الأندلس ، غربا ، ومن الجزر التي احتلها العرب في البحر المتوسط تجاه الشاطىء الجنوبي . . ولاح في الأفق أن روما وأوربا تواجه المأزق الذي واجهته مكة يوم أن زحف عليها الأحباش لاحتوائها عام غزوة الفيل . . ويومئذ استجمعت الكنيسة ما لديها من طاقات ، وشحذت ما في جعبتها من أسلحة واستنهضت اوربا الاقطاعية لانتهاز الفرصة ، ومواجهة العرب ، قبل أن تتحول الصحوة التي يعيشونها إلى نهضة تتجدد بها حضارتهم إذا هم أطبقوا على ما بين آسيا الصغرى والأندلس ، وحولوا البحر المتوسط إلى بحيرة عربية ، واقتلعوا الخطر التاريخي الذي احترف تهديدهم عبر تاريخهم الطويل . .

ومع ايماننا بأن صراعات الأمم والشعوب والحضارات لا تقف أسبابها عند ردود الأفعال ـ والذين يفسرونها هذا التفسير السطحي لا يبصرون ما في الأعماق ـ لكننا ، في ذات الوقت ، يجب أن نعطي اهتماماً كبيراً لما تولده المخاطر عندما تحيق بالأمم الأصيلة ذات الحضارة والتراث ، ما تولده هذه المخاطر من طاقات تجعل هذه الأمم ، التي تمتحنها هذه المخاطر ، تستجمع عناصر قوتها وتجدد شباب حياتها ، ثم تنهض لتحدي الخطر وكسر الطوق الملتف حول عنقها والمهدد لها بالفناء . .

ونحن نتخذ من هذا العامل نموذجا وسبيلا يعفينا من سرد أسباب كثيرة ، لا يتسع لها المقام ، وقفت خلف المد الأوربي الذي تمثل في الحروب الصليبية على الشرق العربي ، ذلك المد الذي أرادت به أوربا أن تسترجع ما تحرر من الشرق تحت رايات الاسلام . .

* فالجيوش العربية بأساطيلها قد حولت البحر المتوسط إلى بحيرة عربية خاصة وخالصة ، ثم هي قد شرعت تحتل وتهدد شاطئه الأوربي ، بعد أن استقرت في جزره الأوربية الكبرى . .

* والمدن التجارية الأوربية ـ وخاصة الايطالية منها ـ لم تحرم فقط من

امتيازاتها التقليدية في التجارة العالمية عبر طرقها الشرقية والعربية ، وإنما وطئت أرضها بأقدام الفاتحين العرب المسلمين . .

* والنمط الفكري المتخلف الذي سجنت فيه الكنيسة الكاثوليكية قارتها الأوربية قد سددت العقلانية العربية الاسلامية إليه السهام .

ومن هنا كان نهوض الكنيسة الكاثوليكية ، خاصة في عهد البابا الذهبي اربانيوس الثاني (١٠٤٢ ـ ١٠٩٩م) لقيادةأوربا في زحف تاريخي بربري استهدفت من ورائه ، لا هزيمة العسكرية العربية فحسب ، بل واطفاء المنارات الفكرية العقلانية التي ترسل الضوء المقض لمضاجعها من مراكز البحث ودور العلم والحكمة في ديار الاسلام . .

* فبدأت طلائع الحروب الصليبية على أرض الأندلس ، وسقطت « طليطلة » بيد الفونسو السادس (٤٧٨ هـ ـ ١٠٨٥م) . .

* وبعد خمس سنوات سقطت « صقلية » بيد النورمان (٤٨٣ هـ ـ ١٠٩٠م) . .

* وفي نفس التاريخ ـ (سنة ١٠٩٠م) سقطت « مالطة » . . وانحسر عنها الحكم العربي . .

* وفي (٤٨٨ هـ ـ ١٠٩٥م) اكتمل للكنيسة تجميع عناصر قوتها : فالدعاة شحنوا العامة بمشاعر مجنونة عن الحرب المقدسة ضد المسلمين « الوثنيين » الذين يعبدون الحجر الأسود ويسجدون لمحمد ، ويدنسون مهد يسوع وقبره ؛ . . وفرسان الاقطاع الأوربي أطمعتهم الكنيسة بملك الشرق وخيراته إن هم وجهوا فروسيتهم وبأسهم لقتال المسلمين ، بدلاً من حروبهم المحلية التي لا تنتهي . . والمدن التجارية الأوربية قد تعهدت بتمويل الجيوش مقابل امتيازات التجارة الدولية التي حرمها العرب منها منذ أن توحد العرب تحت رايات الاسلام . .

ولقد دشنت الكنيسة نصرها الاستعدادي هذا في « المجمع » الذي عقدته

سنة ١٠٩٥م بمدينة « كليرمونت » بجنوبي فرنسا ، وهو المجمع الذي خطب فيه البابا الذهبي اربانيوس الثاني ، فخاطب فرسان الاقطاع الأوربي بقوله : « . . أنتم فرسان أقوياء ، ولكنكم تتناطحون وتتنابذون فيما بينكم . . ولكن ، تعالوا وحاربوا الكفار - (المسلمين) - : . . يا من تنابذتم اتحدوا . . يا من كنتم لصوصا كونوا الآن جنودا ! . . تقدموا إلى بيت المقدس . . انتزعوا تلك الأرض الطاهرة ، واحفظوها لأنفسكم ، فهي تدر سمناً وعسلاً ! . . انكم إذا انتصرتم على عدوكم ورثتم ممالك الشرق ! . . »

وشهدت العصور الوسطى أعجب وأبشع وأطول حملات الغزو والاستيطان التي عرفها ذلك التاريخ ، ففي خلالها قذفت أوربا أرض الشرق العربي بخمس وعشرين حملة حربية موَّلها التجار وقادها فرسان الاقطاع وزحف في ركابها الغوغاء ، وتضامنت في قذف الشرق بها الممالك والامارات والولايات . .

ولقد نجحت هذه الحملات حيناً، فكونت الدول والامارات الاستيطانية اللاتينية، بأرض الشام وفلسطين، حتى استطاعت ، زمناً، تحقيق الهدف الاستراتيجي للغزاة فشقت الوحدة الأرضية للوطن العربي وعزلت مشرقه عن مصر - القلب - والمغرب، بكياناتها التي احتلت الأرض الفلسطينية التي تصل ما بين البحر المتوسط وخليج العقبة ، ثم أخذت تهدد مصر ، حتى لقد فرضت الجزية عليها زمناً ، وأقامت لفرسانها مركزا على أبواب القاهرة وبيدهم مفاتيح لها ، مستغلين في ذلك ومستفيدين من صراعات وزراء الدولة الفاطمية على السلطة والسلطان !

نجحت هذه الحملات عندما نفذت إلى الوطن العربي من تلك الثغرة التي أفقدته التوازن الحضاري الضروري والمطلوب . . فالعرب قد نجحوا في التحرر من البيزنطيين ، بل وفي تهديد أوربا في مواطنها عندما امتلكوا : السيف والقلم ، ودان لهم : العقل والقوة ، ووظفت القوة طاقاتها في خدمة العقل . . فلما اعتمد العباسيون على القوة غير العربية ، وتكَّون الجيش من المماليك ، زال الانسجام بين العقل والقوة ، فتحولت القوة الضاربة - وهي

غير قومية - إلى قيد على العقل العربي ، فكانت السلطة العسكرية المحافظة فكريا والمستبدة سياسياً ، والتي أصابت المد الحضاري وعصره الذهبي بانتكاسة لم يتخلص العرب من آثارها حتى الآن . .

وعندما عالج الفاطميون بعض أسباب ذلك التحلل العباسي ، نجحوا بعض النجاحات ، خصوصاً عندما أقاموا في قلب الوطن العربي عاصمتهم - القاهرة - التي صارت القلب والقاعدة لوطن اكتملت في جناحيه عملية التعرب وتوحدت هويته الحضارية إلى حد بعيد . .

ولكن جيوش الفاطميين البدوية انعزلت عن الطابع الحضاري العقلاني الراقي الذي تمثل في الأزهر ودور الحكمة والمراصد والمكتبات . . فحدث الانفصام بين العقل وبين القوة ، وانشغلت القوة بصراعاتها القبلية ، الأمر الذي أفقد العقل درعه وحرم القلم سيفه ، فكانت الثغرة - ثغرة فقدان الحضارة العربية الاسلامية الطابع المتوازن الذي تميزت وامتازت به - التي نفذ منها الصليبيون عندما نجحوا في تحقيق ما حققوا من انتصارات . .

* * *

ولم تستطع ثياب الكهنة ولا أردية الرهبان ولا الصلبان التي حملها الفرسان الإقطاعيون أن تخفي المطامع الحقيقية ، والأسباب الموضوعية التي حركت أوربا الاستعمارية في هذه الحملات . .

فالذين حملوا انجيل ديانة السلام والتسامح والمحبة ، كتبوا هم أنفسهم إلى البابا الذهبي يباهون بالمجازر التي صنعوها بالعرب والمسلمين ، بعد دخولهم القدس ، فقالوا : « . . إذا أردت أن تعرف ما يجري لأعدائنا ، فثق انه في معبد سليمان - (جامع عمر بن الخطاب) - **كانت خيولنا تغوص إلى ركبها في بحر من دماء الشرقيين !** » . . . . . والشرقيون هؤلاء كانوا هم العرب ، مسلمين ومسيحيين ! ! .

* وهذه الحرب التي صورتها الكنيسة على انها مهمة دينية مقدسة يبتغون بها وجه الله ورضاء يسوع ، تكشفت عن حرفة دمار هدفها المال ، وانجاز بربري

يبتغون من ورائه أرض العرب وخيرات الشرق الدنيوية . . ووفق كلمات أحد البطاركة الذي يقول عن غايات فرسان الاقطاع الأوربي من حملاتهم الحربية هذه ضد العرب : « . . فكثيرون من الأشراف والعظماء صاروا يعتبرون الحروب بمنزلة مهنة صناعية لجمع الأموال الغنية ، بل أن التعطش نحو أخذ الغنائم وحده كان يجذب الجيش إلى المحاربة ! . .[1]

* وأرض الشرق التي وعد البابا الذهبي فرسانه بها ، وقال لهم عنها : إنها تدر سمناً وعسلاً ! . . بدأ هؤلاء الفرسان يوزعونها على أنفسهم اقطاعات، حتى قبل أن تقع في أيديهم ممالك وامارات . . فعندما عزموا على غزو مصر ، « مسحوا » أرضها ، ووزعوها على الأمراء والفرسان . . وبعبارة المؤرخ « أبو شامة » (٥٩٦ ـ ٦٦٥ هـ) : « . . وكان ملكهم ـ لعنه الله ـ لما دخل ديار مصر قد أقام من أصحابه من كتب له أسماء قرى مصر جميعها ، وتعرف له خبر ارتفاعها ـ (دخلها) ـ وأحضر وزيره **وأمره باقطاع بلاد مصر لخيالته ـ (فرسانه) ـ وفرق قراها على اجناده** » ! . .[2]

* والتمويل الذي قدمته مدن أوربا التجارية ـ خاصة : جنوه ، ونابلي ، وبيزا ، والبندقية ـ لهذه الحملات ، أخذت تسترد أضعاف أضعافه باحتكارها السيطرة على طرق التجارة ، وجلب الأرباح حتى من تجارة الأقاليم التي نجت من الاحتلال المباشر . . و « وغليوم الصوري » يصف ثراءهم من تجارة مصر فيقول : « كانت خزائن مصر تحت تصرفنا . . كما أن مواني أقاليم مصر كلها كانت مفتوحة لقبول مراكبنا ، وتجارها كانوا ينقلون إلى مواني بلادنا غلات أراضيها ، وهذه المتاجر كانت كلية الفوائد لنا . . وكانت الجزية والخراجات توفى لنا بانتظام ! »[3] هكذا تكشفت المطامع عارية ، ولم تفلح في سترها

---

(١) مكيسموس مونروند (تاريخ الحروب المقدسة في المشرق) ج ١ ص ٨٠ ، ٨١ . ترجمة مكيسموس مظلوم . طبعة القدس سنة ١٨٦٥م .

(٢) ابو شامة (الروضتين في اخبار الدولتين : النورية والصلاحية) ج ١ ص ٣٤٠ ط . القاهرة سنة ١٢٨٧ هـ .

(٢) (تاريخ الحروب المقدسة في الشرق) ج ٢ ص ٧٦ .

وأمام هذا الخطر المدمر والبربري لهذا الاستعمار الاستيطاني انتفض كيان الشرق العربي فأفرز عوامل القوة والمقاومة التي تصدت لفرسان الاقطاع الأوربي حتى هزمتهم وقذفت بهم وبكياناتهم الغربية إلى مواطنهم الأصلية . .

وخلف هذه الانتفاضة وفيها كان الفعل والتأثير لتلك القسمة التي ميزت شخصية الانسان العربي أمام المخاطر والتحديات ،وهي القسمة التي بلغت مبلغ القانون الذي حكم صراعاته ضد أعدائه . . **فهو يبصر سر تفوق الخصم، ثم يسعى لامتلاك هذا السر ، فيضيف فاعليته وتأثيره إلى سلطان الحق المتمثل في عدالة قضيته . . وبذلك تجتمع لديه امكانيات النصر في هذه الصراعات . .**

ولقد كانت الفروسية الاقطاعية الأوربية في مقدمة أسباب التفوق الصليبي على العرب في ذلك الصراع . . فأوربا المتخلفة حضاريا كانت تمتلك مؤسسات للفروسية ، أفرزها عصرها الاقطاعي ، ورسخت تقاليدها في الحرب ، وبرزت وحشيتها في حملاتها ضد العرب والمسلمين . كان شرف الفروسية والفارس عندهم يتمثل في **الاخلاص والطاعة والشجاعة** . . وكانت أهدافها : **حماية السادة ، والكنيسة ، وقتال الكفار - (المسلمين) - ! !** . . ولقد ساعدت الحروب الصليبية على اعلاء شأن الفارس والفروسية لدى أوربا في ذلك العصر، حتى لقد أصبح الفارس عندهم وفي مجتمعهم يمثل كل شيء وكل قيمة . . وبعبارة المؤرخ الناقد أسامة بن منقذ [٤٨٨ - ٥٨٤ هـ ١٠٩٥ - ١١٨٨م] وهو معاصر لتلك الأحداث - : **فان « الفرنج - خذلهم الله - ليس فيهم من فضيلة من فضائل الناس سوى الشجاعة ، ولا عندهم تقدمة ولا منزلة عالية الا للفرسان ، ولا عندهم ناس الا الفرسان ، فهم أصحاب الرأي وهم أصحاب القضاء والحكم ! . . »**[1] .

ومن هنا صحت عزيمة الشرق ، في انتفاضة ضد هذا الخطر ، على امتلاك

---

(١) (الاعتبار) ص ٦٤ ، ٦٥ تحقيق : فيليب حتي . طبعة برنستون سنة ١٩٣٠م .

سلاح الفروسية واقامة مؤسساتها حتى يقهر بها خصومه ويجلي بواسطتها غزاته ، فلا يفل الحديد الا الحديد ! .

ولكن الشرق ذا الحضارة والتراث الاسلامي لم يكن ، وما كان له ، أن يصنع فروسيته على النمط الوحشي الذي ميز فروسية أمراء أوربا الاقطاعيين . . فهؤلاء ، كانوا نتاج اقطاع أوربا المظلمة ، بينما كان للشرق العربي والمسلم تراث في الفروسية تميز بالقيم النبيلة منذ أن ظهر فيه الاسلام . .

ومنذ قرون كانت قد استكنت في ضمير هذه الأمة القيم السامية التي علّمها أبو بكر الصديق قائد جيشه يزيد بن أبي سفيان عندما قال له : « اني موصيك بعشر : **لا تقتل امرأة ، ولا صبيا ، ولا كبيرا ، ولا هرماً**[1]**، ولا تقطعن شجرا مثمرا ، ولا تخربن عامرا ، ولا تعقرن شاة ولا بعيرا الا لمأكلة ، ولا تحرقن نخلا ولا تغرقنه ، ولا تغلل - (تخن) - ، ولا تجبن ! . .** » .

ولقد تحول هذا التراث الشرقي في الفروسية ، عند مواجهة الخطر الصليبي ، الى الخصال والسجايا العشر التي أصبحت دستور مؤسسات الفروسية الاسلامية التي شرع العرب في اقامتها كي يدفعوا بواسطتها غزاة أوربا الصليبيين .

فنشأت في الوطن العربي أنظمة للحكم كان قوامها مؤسسات الفروسية وعمادها الجيش الذي تكون في معسكراتها . . تلك المعسكرات التي كان يجلب إليها المماليك الصغار، حيث ينشأون نشأة حربية صرفة وكاملة ، لاصلة بينها وبين حياة المدنيين بشواغلها ورفاهيتها ، ومع حياة الحرب وتدريباتها كانوا يتعلمون سجايا الفروسية العشر : **التقوى . . والشجاعة . . ورقة الشمائل . . والصبر . . ومراعاة الجوار . . والمروءة . . والكرم . . وحسن الضيافة . . ومساعدة النساء والأرامل . . والوفاء بالعهود .**

ولقد أصبحت مؤسسات الفروسية العربية الاسلامية هذه دولا ، ثم نمت من خلال دولها . . وكانت طلائعها هي الدولة الزنكية التي أسسها عماد الدين ابن محمود زنكي (٥٢١ - ٥٤١ هـ ، ١١٢٧ - ١١٤٦م) بالموصل (٥٢١ هـ

(١) الكبير : الطاعن في السن ، والهرم : هو من بلغ أقصى الكبر .

١١٢٧م) . . وبفرسانها بدأ الخط البياني في الصراع « العربي - الصليبي يتجه إلى صالح العرب والمسلمين . . فلقد أحرز هؤلاء الفرسان أولى الانتصارات العربية ضد الصليبيين عند « حصن الأثارب » - بين حلب وانطاكية - و« حصن حارم » - تجاه انطاكية - . . وفي عهد السلطان نور الدين الشهيد (٥٤١ - ٥٦٩ هـ - ١١٤٦ - ١١٧٣ م) - الذي خلف عماد الدين - واصلت الدولة انتصاراتها ، فحررت إمارة « الرها » الصليبية ، ونقلت عاصمتها إلى حلب ، كي تكون على مشارف الأرض المحتلة ، واستطاعت تطويق الكيانات الصليبية من الشرق والشمال . .

وبمساعدة هذه الدولة هزمت مصر غزوات الجيش الصليبي أواخر الحكم الفاطمي ، وعندما انفرد جيشها ، وقائده صلاح الدين الأيوبي (٥٣٢ - ٥٨٩ هـ ١١٣٧ - ١١٩٣م) بحكم مصر ، تم تطويق الكيانات الصليبية من الجنوب أيضاً ، ولم يبق امام هؤلاء الغزاة المستوطنين ، دون حصار ، سوى شاطىء البحر المتوسط ، الذي منه وفدوا غزاة لقلب الوطن العربي فلسطين . .

وعلى امتداد سنوات الحكم الأيوبي والمملوكي تواصلت المعارك التي حولت أرض الوطن العربي إلى بؤرة دائمة التفجر والغليان . . وتحولت أسماء قرى صغيرة وبقاع مجهولة إلى نجوم وشهب لمعت في صفحات التاريخ بما دار عليها وفيها من معارك وملاحم في هذا الصراع الحضاري والطويل . . وكما شاركت أوربا جمعاء في هذا الغزو فلقد أسهم العرب جميعاً في التصدي ، وامتدت ساحات اللقاء من « الرها » إلى « الكرك » إلى « حطين » و « القدس » و« عسقلان » و « الاسكندرية » و « المنصورة » و « دمياط » و « قلعة بانياس » الخ . . الخ . . الخ . . كان الصليبيون يريدون اعادة امبراطورية الغرب التي أقامها الاسكندر المقدوني (٣٥٦ - ٣٢٣ ق . م) بالشرق ، قبل الميلاد ، ويجاهدون لمحو الانتصار التحرري الذي أحرزه العرب بفتوحات الاسلام . . على حين كان العرب يواجهون التحدي بروح المدافع عن كيانه وبقائه امام الاستعمار الصليبي الاستيطاني . . وسيطرت على جو المعارك وسمائها علامات استفهام ، لدى الفريقين : نكون ؟ أو لا نكون ؟ ! . . وبلغة مؤرخ ، وشاهد

عيان ، هو ابن شداد (٥٣٩ ـ ٦٣٢ هـ ١١٤٥ ـ ١٢٣٤) : « **فلقد علمت كل طائفة أن المكسورة منها مدحورة الجنس ، معدومة النفس !** » . .

وبعد قرابة القرنين من الصراع المشتعل والمتواصل أخذت مؤسسات الفروسية العربية الاسلامية تقطف ثمار النصر النهائي في هذا الصراع الطويل . . فاقتحم الجيش المصري بقيادة السلطان الأشرف بن قلاوون (٦٨٩ ـ ٦٩٣ هـ ١٢٩٠ ـ ١٢٩٣ م) أسوار عكا في ١٧ يونية سنة ١٢٩١ م . . ١٧ جماد ثاني ٦٩٠ هـ . . ثم سقطت صوروصيدا وبيروت وانطرطروس . . وكان سقوط آخر قلاع الفرسان الداوية الصليبيين في « عتليت » منتصف أغسطس سنة ١٢٩١م نهاية واحدة من أطول وأعنف جولات الصراع التاريخي والحضاري بين العرب والغرب ! . . وهي الجولة التي جاءت أوربا فيها آمله باحتواء الشرق حضاريا ، وطامعة باستغلاله اقتصاديا ، وساترة هذه الآمال والمطامع برداء الدين وصلبان المسيح عليه السلام ! . .

وفي هذه الجولة أكدت هذه الأمة ، مرة أخرى ، بمؤسسات الفروسية ودولها التي أفرزتها ودفعت بها إلى ساحة الصراع ، أكدت صدق القانون الذي حكم هذا الصراع التاريخي الحضاري ، عبر كل عصوره ، وفي جميع ميادينه ، وهو القانون الذي أصبح قسمة من قسمات شخصية هذه الأمة : **فأمام الخطر ، وفي مواجهة المخاطر ، وتجاه التحدي ، يبحث الانسان العربي ويفتش حتى يبصر سر تفوق الخصم ، فيسعى لامتلاك هذا السر ، ويضيف قوته إلى قوة الحق المنبعثة من عدالة قضيته ، ثم يقتحم ميدان الصراع لينتزع حقه من غاصبيه . . مثبتا ، دائماً وأبداً ، أنه ايجابي ، يجدد ذاته ، ويتجاوز سلبياته أمام المخاطر والتحديات** ! . .

الفصل الخامس

العرب يستيقظون ويواجهون:
التخلف العثماني .. والتقدم الأوربي

عجيب وغريب ـ أو هكذا يبدو ـ ذلك الذي حدث لكل من الشرق العربي والغرب الأوربي خلال القرون الخمسة التي فصلت نهاية الغزوة الصليبية بالعصور الوسطى عن بداية الغزوة الاستعمارية في مطلع العصر الحديث! فهذه القرون الخمسة التي تبدأ بانهيار آخر المعاقل الصليبية على الساحل الشامي سنة ١٢٩٠م ، والتي تنتهي ببدء طلائع الغزوة الاستعمارية الأوربية ، بقيادة بونابرت ، سنة ١٧٩٨م ، قد بدأت بنصر للعرب ، ثم انتهت ببداية مرحلة من هزائمهم أمام عدوهم المهزوم ! . . وفيها حدث ذلك الذي يبدو عجيبا وغريبا . . فلقد حدث ان انهزم المنتصر ؟ ! . . وانتصر المهزوم ! ! .

فالعرب ، في سنة ١٢٩١م ، قد توجوا انتصاراتهم العسكرية ، وبلغوا بمسيرتهم الحربية ضد الغزوة الصليبية الذروة ، عندما طهروا وطنهم من بقايا المستعمرين المستوطنين اللاتين . . لكن القوى التي أحرزت هذا الانتصار العسكري كانت في الأساس مؤلفة من جند المماليك ، ومن ثم فلقد كانت قوة غريبة قوميا وحضاريا ، عن الأمة والشعب والتراث والتاريخ ، وهي لو وقفت عند حدودها ، حدود الأداة التي تحمي بها الأمة وطنها وتدفع بها الأخطار عن حضارتها ، لأثمر النصر العسكري ثماره المرجوة على مختلف الجبهات . . لكنها لم تقف عند هذه الحدود ، حدود الجيش والأداة المسلحة التي تحرس الأرض وترعى الحمى ، وإنما استأثرت ـ وهي الغريبة عن روح الحضارة قوميا ، وغير

المؤهلة لأن ترتفع إلى مستويات الطابع العقلاني لفكرها ـ استأثرت بكل شيء . . فحدث ذلك الذي حذر منه فيلسوف مثل ابن رشد عندما شبه الجيش بالراعي ، وحذر من تجاوزه لحدوده متسائلاً ، وان يكن في قسوة : « وماذا لو أكلت كلاب الراعي غنمه ؟ !»[1] .

نعم . . لقد تحولت الأداة والوسيلة إلى العقل والقيادة . . وانتصرت القوة الضاربة فاحتلت مكان العقل والفكر . . واختل التوازن بين السيف والقلم ، لحساب السيف وحده تقريبا . . وزاد الأمر سوءاً أن « القوة والسيف والعضلات » كانت غريبة قوميا وحضاريا عن الأمة التي استأثرت بحكمها . . لقد بدأت القصة بمؤسسات الفروسية التي لجأت إليها الأمة كي تتخذ منها اداة تفل بها فروسية امراء الاقطاع الصليبيين ، فإذا الأداة تصبح هي الأصل ، وإذا الأمة تتحول إلى اداة ، بل وألعوبة في يد المماليك . . وهؤلاء الجنود الذين اشترتهم الأمة رقيقا ، ثم دربتهم وسلحتهم ، ليدافعوا عنها ، تحولوا ، بعد النصر العسكري ، إلى سادة ، واستعبدوا الأمة ، سيدة الأمس ، فتحولت عندهم إلى رقيق ؟ ! . .

ولقد وقفت هذه الحقيقة ، القاسية والمرة ، خلف الهزيمة الحضارية التي اصابت الشرق العربي ، على الرغم من انتصاره العسكري ضد الصليبيين ! . .

ففي ظل هذه النظم، وبدءاً من الدولة الأيوبية تحولت الأرض الزراعية إلى « اقطاع حربي » لرؤساء الأجناد وامراء المماليك . . لقد منعوا هذه الأرض من أن تصبح اقطاعا حربيا للفرسان الصليبيين ، وكان هذا انجازا تاريخيا وعسكريا باهرا ، ولكنهم أقطعوها لأنفسهم مقابل هذا المنع وهذه الحماية ! . . لقد كان جوهر علاقات الانتاج في الأرض الزراعية قائما على نظام الالتزام ، وكان الالتزام مباحا للقادرين . . أما في ظل دول الجند ـ الغز والترك والمماليك ـ فان الأرض قد اقطعت ، اقطاعا حربيا ، لرؤساء الأجناد وامراء العسكر المماليك ، وتحول الفلاحون إلى « أقنان » ! . . صحيح انهم لا يباعون ،

---

(١) (مسلمون ثوار) ص ٩٨ . .

ولكنهم ايضاً لا يعتقون ! . . لقد ربطوا بالأرض ، التي غدت اقطاعا حربيا للجند ، وغدوا بعضاً من أدوات فلاحتها واستزراعها لحساب المماليك . . والمقريزي ينبه على هذا التغير الذي حدث فيقول : . . «**واعلم أنه لم يكن في الدولة الفاطمية ، ولا فيما مضى قبلها من دول ، لعساكر البلاد اقطاعات ، بمعنى ما عليه الحال اليوم في أجناد الدولة التركية ، وإنما كانت البلاد تضمن بقبالات معروفة لمن شاء . . ولم يعرف ما يسمى اليوم بالفلاحة ، والذي يسمى فيه المزارع المقيم بالبلد فلاحا قرارا - (أي مربوطا بالأرض مقيداً بها) - فيصير عبداً قنا لمن اقطع تلك الناحية ، إلا أنه لا يباع ولا يعتق ، بل هو قن ما بقي ، ومن ولد له كذلك ؟!**»[1]

ولقد دخل هذا الاقطاع الحربي بالبلاد إلى رحاب نمط من الاقطاع يقترب من ذلك الذي عرفته أوربا ، عندما كانت الامارة الاقطاعية فيها تمثل وحدة اقتصادية وادارية وسياسية ، فضعفت في البلاد السلطة المركزية من الناحية الفعلية ، وهي المركزية التي أثمرتها ضرورات المجتمعات النهرية منذ زمن موغل في التاريخ ، وانعكس هذا الأمر على السمات القومية الموحدة للأمة الواحدة ، كثمرة لقيام الحواجز بين الامارات الاقطاعية ، التي كانت تسمى « السنجقيات » و « الكشوفيات » ، وجبيت « المكوس » على التجارات العابرة لهذه الحواجز ، مما أضعف دور التجارة كرباط توحيدي قومي للأمة والوطن ، وغدت للكثير من هذه « السنجقيات » أجهزتها المتميزة والمستقلة عن السلطة المركزية[2] وحتى نعرف مبلغ الجراح التي أصابت قسمات الأمة القومية وسماتها الوحدوية ، بسبب الاقطاع الحربي ، يكفي أن نعرف أن بلدا كمصر ، وهو من أقدم المجتمعات الانسانية التي عرفت المركزية ، قد افتقد ، مع الوحدة الادارية ، وحدة العملة ، والمكاييل ، والموازين ، والمقاييس ، ولم يستردها إلا في عصر محمد علي (١١٨٤ - ١٢٦٥ هـ ١٧٧٠ - ١٨٤٩ م)[3]! . .

ولقد كانت هذه الردة القومية تحدث للشرق العربي الذي انتصر

---

(١) (خطط المقريزي) ج ١ ص ١٥٧ . طبعة دار التحرير . القاهرة .

(٢) (فجر اليقظة القومية) ص ٢٧٣ - ٢٧٧ .

(٣) د . محمد عمارة (العروبة في العصر الحدث) ص ١١٢ - ١١٤ . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م .

عسكريا ، وبسبب تعدي الجند المملوكي الذين حققوا هذا النصر لحدود دورهم واختصاص مؤسستهم ، على حين كان الغرب الأوربي ، الذي انهزم عسكرياً ، قد بدأ السير صوب عصر الإحياء واليقظة ، وبدأت حواجز إماراته الاقطاعية تتخلخل وتتهاوى أمام احتياجات السوق الواحدة وسمات الأمة وقسمات القومية ودولها . .

وهكذا سار المنتصر في طريق الهزيمة ! . . وسار المهزوم في طريق الانتصار ! . .

* وبسبب من غربة السلطة العسكرية المملوكية ، حضاريا ، عن الأمة العربية ، تحول « التوقف » و « الجمود » الذي أصاب الحضارة العربية الاسلامية لاستبدادهم وتسلطهم في العصر العباسي الثاني ، ولتطاول القرون . . تحول هذا « التوقف » و « الجمود » إلى « تراجع » و « انحطاط » . .

فبعد الخلق والابداع والاضافات التي تميزت بها وشهدتها مختلف جبهات الفكر وفروع العلم والمعرفة ، والتي مثلت وجسدت العصر الذهبي لحضارتنا ، وقف الجهد عند « الجمع » و « التصنيف » و « التدوين » و « الإعداد » و « التهذيب » و « التنقيح » . . وتميز العصر « بالحفظ والتقديس » للتراث ، والتراث غير العقلاني بالذات ، ولم تتعد الاضافات نطاق « الشروح والحواشي » التي وضعت على « المتون » ، وسادت الدوائر « الفكرية » تلك الحكمة التي تقول : « من حفظ المتون حاز الفنون » ! . .

فبدلا من الابداع والاضافة في الفكر الاسلامي وعلومه العقلية ، بنى المماليك روائع عصرهم المعمارية ، مساجد ومدارس وتكايا ، ليجلس فيها الفقهاء والدراويش بدلا من الفلاسفة والعلماء والمتكلمين ! . . وحتى هؤلاء الفقهاء والدراويش حوّل المماليك غالبيتهم إلى موظفين يحصلون على نفقات معيشتهم من « الأوقاف » التي صادروها من الناس ثم رصدوها لهذه المؤسسات ، بعد أن بنوها « بالسخرة . »[1]

(١) د . محمد عمارة (بناء المساجد وبناء الأهرامات) مجلة (قضايا عربية) ص ٤٣ ـ ٥٢ ، عدد أغسطس ـ سبتمبر سنة ١٩٧٧م .

ومـا كان لهـذه « الدول » العسكـرية ، الغـربية حضـاريا عن روح الأمـة وفكرها القومي والعقلاني الا أن تصل « بالتـوقف والجمود » الحضـاري إلى طور « الانحطاط » . . ففاقد الشيء لا يعطيه ، والانسان عدو مـا يجهل ، وتلك هي النهاية إذا ما حدث وقاد الأعمى البصير ! . .

وزاد المفارقة وضوحا وبروزا أن أوربـا كانت في طريقها لليقظة ، واليقظة النابعة من الاحتكـاك العنيف بالعـرب المسلمين ! . . فلقـد بدأت تتعـرف على تراثها الفلسفي من خـلال الفلسفة العـربية الاسـلامية ورأت أرسـطو في شروح ابن رشد ، وجالينوس في الرازي ، وأفلاطون في ابن سينا والفارابي . . الخ . . وأخـذت ـ رغم الكنيسـة والكهـانـة ـ تنهـل من ابـداعـات العـرب واضـافـات المسلمـين ، ثم خطت خـطواتها إلى النضـج عندمـا ازعجتها وزادت من يقظتها فتوحات العثمانيين في أوربـا ، وخاصة للقسطنـطينية سنـة ١٤٥٣م (سنة ٨٥٧ هـ) فـأخذت تتعـرف على تـراثهـا القـديم مبـاشـرة ، وتـطوره ، وتضيف إليـه الجـديد . . عـلى حين استبـدلت بلادنـا « تكايـا » الـطرق الصـوفية بـالتصوف الفلسفي ، واستعاضت « بخوانق » الـدراويش عن « دور الحكمة » وبيـوتها . . وحـج الناس إلى المـزارات والأضرحـة ، بعد أن تبـددت المكتبات ! . . ومن ذا الذي لا يأسف ، بل ويحزن ، عندما يعلم أن دولة الجند الغز والمماليك قد بددت مكتبة القاهرة الفاطميـة التي كانت تضم ـ حتى بعـد ما أصابها في المجـاعة التي حـدثت أيـام المستنصـر (٤٢٣ ـ ٤٨٧ هـ ١٠٣٦ ـ ١٠٩٥م) ـ ٠٠٠ر٦٠٠ر٢ كتابا ، ومن كتبهـا ما تـزيد مجلداتـه على الستـين مجلدا ، ومن هذه الكتب يبلغ عدد نسخه المخطوطة ـ فلم تكن الـطباعـة قد عـرفت بعد ـ كتـاريخ الـطبري ـ ٢٠٠ر١ نسخة ؟ ! . . وككتاب (العين) للخليل بن أحمد ، الذي بلغت عـدة نسخه الثلاثين ، وككتاب (الجمهرة) لابن دريد ، الذي بلغت عدة نسخـه بها الخمسين ! . . تبددت هذه المكتبة ، التي لم يكن لها نظير في المعمـورة ويومئـذ ، تحت إشراف الامير بهاء الدين قراقوش ، الذي يتحدث عنه ، في هذا الصدد ، المؤرخ أبو شامة فيقول : « انه تركي ، لا خبرة له بالكتب ، ولا دربة له بأسفار الأدب ! . . »

فكانت هذه الكنوز على يديه كالميرات مع ابناء الايتام ، يتصرف فيها بسرة الانتهاب والالتهام[1] . . ولقد حدث ذلك سنة ٥٧٢ هـ سنة ١١٧٦م . . أي قبل تدمير مكتبة بغداد على يد هولاكو سنة ٦٥٦ هـ سنة ١٢٥٨م بأكثر من ثمانين عاما ؟ ! . .

هكذا سارت الأمور ، وتطورت الأحداث . . فالفرسان الذين حققوا ، على الجبهة العسكرية ، اعظم الانتصارات ، قد صنعوا ـ لغربتهم الحضارية عن الأمة ، ولتعديهم نطاق « السيف والقوة » إلى حيث جعلوا من أنفسهم « القلم والعقل » ـ صنعوا أكبر قدر من الجمود والمحافظة والتخلف على الجبهة الحضارية وفي الواقع الفكري للأمة العربية . .

ولم يكن العثمانيون بأحسن حالا في هذا الميدان ، بل لقد افتقدوا بعض ميزات الأيوبيين والمماليك ، اذ بينما تعرب الأخيرون ، أو حاولوا ، احتفظ العثمانيون بعجمتهم ، بل وحاولوا تتريك العرب ، وزادوا في محنة القسمات القومية للأمة العربية ، ووقفوا منها موقف الأعداء الألداء ! . .

ولذلك فان هذا الذي بدا غريبا وعجيبا ـ وهو هزيمة المنتصر . . وانتصار المهزوم ـ ليس ـ عند النظر والتأمل ـ بغريب ولا عجيب ! . . ولذلك ، أيضاً ، كان منطقيا ومبررا تماما ذلك المشهد الذي استيقظ له الشرق العربي وفتح بسببه عقله وعيونه ، مشهد الغرب الذي عاد في صورة بونابرت ومن بعده من تلاه من الغزاة ، لينتصر عسكريا ، بعد أن انتصر في بلاده حضاريا . . ينتصر عسكريا على المماليك والعثمانيين الذين أضاعوا ـ عندما فرطوا في الحضارة ، وتنكروا للعقل ، وذبلت على ايديهم القسمات القومية للأمة ـ أضاعوا حتى الثمرات التي أحرزوها على الجبهة العسكرية عندما هزموا موجة الغزاة الصليبيين . .

وعندما أدهش هذا المشهد عقل العرب وقلبهم ، حرك فيهم ما يحركه « مس » الكهرباء ، إذا هي لم تصعق فتميت ، وإذا هي وقفت عند حد الايقاظ والتنبيه . .

---

(١) (كتاب الروضتين) ج ١ ص ٥٠٧ ، ٥٠٨ ، ٦٨٦ ، ٦٨٧ .

ومع بداية هذه الجولة الجديدة من هذا الصراع القديم سمعنا تلك الصيحة التي أطلقها الشيخ حسن العطار (١١٩٠ ـ ١٢٥٠ هـ ١٧٧٦ ـ ١٨٣٥م) ذلك الشيخ الأزهري الذي اقترب من علماء الحملة الفرنسية ، فعلمهم العربية وأبصر ما لديهم من علوم : « **ان بلادنا لا بد أن تتغير ، ويتجدد بها من العلوم والمعارف ما ليس فيها ! . .** »

وفي هذه الجولة من جولات هذا الصراع الحضارية القديم بدأ القانون الذي حكم مراحله وجولاته يعمل عمله من جديد . . وبدأت طلائع الأمة تبحث عن التحديات الرئيسية التي غدت في أقدامها قيودا وفي اعناقها أغلالا ولعقولها أقفاصاً من المحافظة والخرافة والجمود تحول بينها وبين النمو والتحليق . . بدأت تبحث عن هذه التحديات ، وتسعى سعياً حثيثاً لاقتلاعها من واقعها . . وأخذت ، كذلك ، تسعى لاستكشاف اسرار التفوق الجديد الذي اكتسبه العدو « الجديد ـ القديم » من التطور الحضاري الذي احرزه وتسلح به ، ثم تبحث عن سبلها الذاتية والخاصة لامتلاك هذه الأسرار والتسلح بأسلحتها ، مستعينة في ذلك كله بما في ترسانة تراثها وحضارتها مما يسهم في المواجهة التي فرضها عليها الغزاة . .

وفي عملية البحث والمعاناة هذه ، وضعت الأمة يدها على أبرز ثلاث تحديات :

أولاها : فكرية العصور الوسطى والمظلمة ، التي تجاوزها العصر ، التي غدت قيدا على حركة الأمة يعجزها عن مواجهة التحدي الحضاري للغرب المتقدم . .

وثانيها : السلطة التي اصطبغت بالصبغة الدينية ، فجعلت سلطنتها « خلافة » ، كي تتخذ من الدين رباطاً يربط الأمة العربية بالحكم التركي ، بعد أن افتقدت إلى الرباط القومي الذي يربط المحكوم إلى الحاكم . . وهي السلطة التي فقدت القدرة العسكرية إلى جانب افتقادها المنعة والمناعة الحضارية ، فغدت ثغرة تتيح للغرب الاستعماري التسلل إلى الشرق والالتهام لأقاليمه وأجزائه . .

وثـالثها : الحضـارة الغربيـة التي بلغت فتـوة الشبـاب ونضـج الحكـماء ، فجـاءت تحاول إنهاء ذلـك الصراع التـاريخي لحساب قـومها ، بـاحتواء العـرب حضاريا ، مرة بالعنف المتمثـل في السحق القومي والمسـخ الحضاري ، وأخـرى بالإغراء وتشجيع المهزوم على تقليد المنتصرين . .

وأمام هذه التحديات الثلاثة . . وبسببها . . وتصديا لها . . أو دورانا من حولها . . كانت حركـات اليقظة والنهضـة والاصلاح والتجـديد ، التي تفجـرت من واقع هذه الأمة وانبثقت من عقلها وقلبها منذ أن تصـاعد المـد بمخاطـر هذه التحديات . . ومن هذه الحركات والدعوات :

١ ـ الوهابية : الاسلام العربي . . والخلافة العربية

ولد محمد بن عبد الوهاب ، وعاش ومات قبل أن تبدأ الجولـة الحديثـة في الصراع العربي الغربي بحملة بونـابرت . . فهـو قد ولـد (١١١٥ هـ ١٧٠٣م) وتوفي (١٢٠٦ هـ ١٧٩٢م) . .

وهو قد ولـد ونشأ في بيئـة نجد العـربية البـدوية ، التي ظلت بمعـزل عن التأثيرات الحضرية والحضـارية إلى حـد كبير ، والتي استمـرت الامتداد لبسـاطة الحياة العربيـة البدويـة القديمـة ، فلم تهضم ، أو لم تعرف العلوم والفنـون التي أثمـرتها احتكـاكات العـرب الأوائل بـالامم التي فتحـوا بـلادهـا ، وصـراعـات الاسلام السلفي والبسيط مع الأبنية الفكرية والديانات التي تحدته وتحـداها بعـد انجاز الفتوحات . .

وكان ابن عبد الوهاب سليل أسرة من الشيـوخ الفقهاء ، أخـذ عنهم فقه الاسـلام الواضـح والبسيط . . وعندمـا رحل إلى المـدينـة ، طلبـاً للمـزيـد من العلـم ، تقبل ما وافق بساطة البادية ، ورفض ما نحا نحو الفلسفة وجـدل علماء الكلام . . فلما ذهب إلى البصرة، ومدن أخرى غيرها، أنكر ما رآه أو سمعه فيها من بدع وخـرافات ومن علوم لا تتفق مـع النمط الفكري الـذي استراحت إليه نفسه ، والذي كان الامتداد لاسلام العـرب في بداواتهم الأولى ، قبـل نشأة علم الكلام وترجمة الفلسفة اليونانية ، وتأثر المسلمين بما لشعوب البلاد المفتوحـة

من عـادات وقيم وعقائـد وأنماط في السلوك . وهـو الاسـلام السلفي البسيط ، الذي اعتصم أمام التطور وعلومه بتلك الحصون الفكرية التي صنعها كـوكبة من العلماء ، أشهرهم أحمد بن حنبـل (١٦٤ ـ ٢٤١ هـ ٧٨٠ ـ ٨٥٥م) وابن تيمية (٦٦١ ـ ٧٢٨ هـ ١٢٦٣ ـ ١٣٢٨م) وابـن قيـم الجـوزيـة (٦٩١ ـ ٧٥١ هـ ١٢٩٢ ـ ١٣٥٠م) . . ومن هنا كان التحـدي الأول والأساسي الـذي نهض لمواجهته ابن عبد الوهاب هو ما طرأ على الاسلام ، كـما فهمه العـرب الأوائل ، وكما وعته البيئة العربية في طور بداوتها ، من بـدع واضافـات ومحدثـات ، سواء أكـانت وليدة الخـرافة والشعـوذة ، أو ثمـرة للمجتمعـات المتمدنة ذات الحيـاة الفكرية المعقدة والمركبة ، أو مزيجاً من هذين المصدرين معاً . .

وكـما سبقت اشارتنـا ، فإن السلطة « المملوكيـة ـ العثمـانيـة » كـانت قـد أهملت ، في عـالم الاسـلام السنّي ، العلوم العقلية اهمـالاً شـديـداً ، ومـلأت الفراغ الفكري الذي نشأ بعد ذهاب الـدولة الفـاطمية ومؤسسـاتها « بـالطرق » الصوفية ، التي أخذت من التصوف نسكه وشكله وطقوسـه ، وطرحت فلسفتـه وعقـلانيته . . فبعـد أن كان التصـوف العقـلاني يعني ، ضمن مـا يعني ، عنـد الشيخ الأكبر محي الـدين عربي انكـار الوسـائط بين الانسـان والذات الإلهيـة ، والنهي عن أن « يتوسل أحد إلى الله بغيره ، لأن التـوسل إنمـا هو طلب القـرب منه ، وهو قد أخبرنا أنه قريب ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان ﴾[1] » . . بعد هذا وجدنا الطريق الصوفية قـد مـلأت طريق المسلم إلى ربـه بالـوسـائـل والوسـائط والحواجـز والأبواب التي لا بـد من سلوك « الطريق » لعبورهـا ، وصولاً إلى الله . . ووجـد ابن عبد الـوهاب ، بـالاسلام السلفي البسيط ، كما وعاه ، وبطبيعة البيئة البدوية البسيطة التي نشأ فيها ، إن الزمن قد عاد سيرته الأولى ، وأن « الشرك » قـد تسرب إلى عقـائد المسلمـين ، وأنهم قد غدوا يتخذون من هذه الوسائط والوسائل « زلفى » يتقربون بها إلى الله الواحد ، وأنهم قد عادوا إلى موقف الجاهلية الأولى عندما اتخذوا الأوثـان وسائط

---

(١) انـظر (الأعمال الكـاملة للامـام محمـد عبـدة) ج ٣ ص ٥١٨ . (والآية في سـورة البقـرة : ١٨٦) .

تقربهم إلى الله ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾[1] .. فحكم الرجل على أولئك الذين سلكوا هذه السبل بالشرك ، لأنهم وإن « وحدوا الألوهية » إلا أنهم « أشركوا في العبادة » عندما اتخذوا الوسائط كي تقربهم إلى ذات الإلـه الواحد .. بل لقد رأى في شرك معاصريه كفرا أعظم من ذلك الذي قاتل الرسول ، ﷺ، بسببه أصحاب الجاهلية العربية الأولى ، لأن معاصريه يلجأون إلى وسائطهم في السراء والضراء ، على حين كان مشركو الجاهلية الأولى لا يلجأون إليها إلا في السراء ! .. ومن ثم فلقد قرر ، بعد أن حكم بكفرهم وشركهم ، ان قتالهم واجب ، بحكم وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على كل من يؤمن بالله . وكتب في احدى رسائله يقول : « إن كفر المشركين ، من أهل زماننا ، أعظم كفراً من الذين قاتلهم رسول الله ، قال الله تعالى : ﴿ وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الانسان كفورا ﴾[2] . فقد سمعتم أن الله سبحانه ذكر عن الكفار أنهم إذا مسهم الضر تركوا السادة والمشايخ ، ولم يستغيثوا بهم ، بل اخلصوا لله وحده لا شريك له ، واستغاثوا به وحده ، فإذا جاء الرجاء أشركوا . وأنت ترى المشركين ، من أهل زماننا ، ولعل بعضهم يدعي أنه من أهل العلم ، وفيه زهد واجتهاد وعبادة ، وإذا مسه الضر قام يستغيث بغير الله ، مثل معروف الكرخي ، أو عبد القادر الجيلاني ، وأجل من هؤلاء ، مثل زيد ابن الخطاب ، والزبير ، وأجل من هؤلاء ، مثل رسول الله . وأعظم من ذلك وآثم أنهم يستغيثون بالطواغيت والكفرة والمردة ، مثل شمسان وادريس ويونس وأمثالهم ![3] » ..

لقد أراد ابن عبد الوهاب أن يجدد الاسلام ، والتوحيد هو جوهر عقائده ومحورها ، فركز الجهد الفكري كله على تنقية عقيدة التوحيد الاسلامية مما شابها

---

(١) الزمر : ٣ .

(٢) الاسراء : ٦٧ .

(٣) ابن عبد الوهاب (مجموعة التوحيد) ـ رسالة : هدية طيبة ـ ص ١٥٦ . طبعة المكتبة السلفية ، القاهرة .

وطرأ عليها بعد عصر الاسلام العربي ، أو اسلام العرب الأوائل قبل عصر الفتوحات ، صحيح أن عقيدة التوحيد هذه قد بلغت قمة التنزيه في « التجريد » المعتزلي الذي بلغ حد نفي الصفات والقول بخلق القرآن وحدوثه حتى لا تكون هناك شبهة لتعدد القدماء تشوب وحدانية القديم سبحانه . . لكن فكر المعتزلة الفلسفي كان وليد مجتمعات متحضرة ، واستجابة ايجابية لتحديات فكرية فلسفية تميزت بها بيئات ذات أنماط فكرية معقدة ومركبة ، ومن هنا كان هذا « التنزيه » المعتزلي غريباً ومرفوضاً من ابن عبد الوهاب ، الذي رفض حتى الاستدلال « بالقياس » ؛ حتى لو كان قياساً صحيحاً ، ووقف عند ظواهر النصوص القرآنية والنبوية ، ورفض أن يلجأ في فهمها إلى التأويل . .[1] واستقر الرأي في الوهابية على أن « الرأي » « لا وزن له بجانب النص » ! . .[2] .

ولم تكن دعوة ابن عبد الوهاب إلى تجديد التوحيد الاسلامي ، والعودة إلى فهم الاسلام كما فهمه سلف الأمة ، وبعبارة الدكتور طه حسين : الدعوة إلى « احياء الاسلام العربي ، وتطهيره مما أصابه من نتائج الجهل ، ومن نتائج الاختلاط بغير العرب . . »[3] . . لم تكن هذه الدعوة جديدة تماماً على تاريخ فكر الاسلام ، فلقد سبقه إليها ، كما أشرنا ، كثيرون ، أصبحت لهم مذاهب متبلورة في تراث المسلمين ، ومن ثم فإن ابن عبد الوهاب وإن انكر « المذهبية » و « المذاهب » أحياناً ، إلا أنه قد كان بدعوته انحيازاً وامتداداً لقطاع من المذهبية الاسلامية ، وبالتحديد امتداداً للحركة السلفية كما تمثلت في ابن حنبل ، وابن تيمية ، وابن قيم الجوزية ، على وجه الخصوص . . بل إن الجبرتي (١٠٦٧ - ١٢٣٧ هـ ١٧٥٤ - ١٨٢٢ م) يحكي لنا قصة ذلك الواعظ التركي الذي قدم إلى مصر في رمضان سنة ١١٢٣ هـ (سنة ١٧١١ م) فدعا الناس إلى توحيد الله في العبادة ، وأنكر على المصريين إقامة الأضرحة والقباب على قبور الأولياء ، وحكم بكفر الذين يتوسلون إلى الله بالوسائط ، أحياء كانوا

---

(١) المصدر السابق . . رسالة : هذه مسائل الجاهلية - ص ٨٧ .

(٢) من كلمات حفيد ابن عبد الوهاب « الشيخ عبد العزيز محمد بن إبراهيم » . انظر : عبد الكريم الخطيب (الدعوة الوهابية) ص ١٢ طبعة القاهرة سنة ١٩٧٤م .

(٣) المرجع السابق . ص ١٠٩ .

أم من الأموات ، وكادت أن تحدث لذلك فتنة عندما اجتمعت الجماهير خلف هذا الواعظ ، وشرعوا يطبقون أفكاره بأيديهم ، كما هو واجب المسلمين إذا هم رأوا المنكر ! . .[1]

لكن ابن عبد الوهاب كان أكثر من « شيخ » وأعظم من « فقيه » . . ومن ثم فإنه لم يشأ أن يقف بدعوته عند رسائل يؤلفها أو مواعظ يلقيها ، أو حتى حلقه أو حلقات من الأتباع والمريدين ، وإنما أراد لهذه الدعوة أن تكون أكثر وأكبر من مجرد « دعوة » أو « مذهب » يستقر في مجرى التاريخ ومتحف التراث . . **لقد ابصر دور « الدولة » و « السلطة » في وضع الدعوات موضع الممارسة والتطبيق ، ووعى جيداً الحكمة التي تقول : إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن !** . . ومن هنا كانت مغادرته لبلدة « حريملا » ، التي بدأ دعوته بها ، إلى « العيينة » حيث عرض دعوته على رئيسها عثمان بن أحمد بن معمر ، الذي اقتنع بها . . فدعاه ابن عبد الوهاب إلى أن يسخر سلطته وسلطانه لنشر دعوة التوحيد ، وتجديد عقائد الاسلام ، ومناه بأنه إن فعل ذلك ، ونصر (لا إلّه إلا الله) فإن الله سبحانه وتعالى « سيملكه نجداً وأعرابها . . »[2] . . فسار أمير العيينة بجيشه ، وفي مقدمته ابن عبد الوهاب إلى الاماكن التي اتخذ الناس فيها القبور أو الرموز أو الاشجار للتوسل والتعظيم ، فهدموها وقطعوها ، حتى كان اليوم الذي أمسك فيه ابن عبد الوهاب بالفأس وقاد الجيش في هدم قبة زيد ابن الخطاب (١٢ هـ-٦٣٣م) في بلدة « الجبيلة » ، وكانت مزاراً يعظمه الناس ويتبركون بزيارته ، وكادت أن تحدث حرب بسبب ذلك مع أهل « الجبيلة » وأعرابها . . ثم أعقبت هدمها هزة نفسية في صفوف الأعراب ، هددوا لها حاكم « العيينة » بالتمرد على سلطانه إن هو ناصر دعوة ابن عبد الوهاب ، فوازن الحاكم بين ما بيده من السلطة وبين ما وعده ابن عبد الوهاب منها في المستقبل ومن الثواب عند الله ، فاختار العاجل على الآجل ، والدنيا على الآخرة ، وتخلى عن نصرة التجديد والتوحيد ، أو بالأحرى تخلى عن الأسلوب العنيف لابن عبد

(١) تاريخ الجبرتي . ج ١ ص ١٣١ وما بعدها . طبعة القاهرة سنة ١٩٥٨م .
(٢) (الدعوة الوهابية) ص ٦٤ .

الوهاب في نصر الدعوة ، وطلب إليه أن يغادر « العيينة » فراراً بنفسه قبل أن يفتك به الغاضبون لهدم قبة زيد بن الخطاب ! . .

حدث ذلك سنة ١١٥٨ هـ (سنة ١٧٤٥م) . . فغادر ابن عبد الوهاب « العيينة » إلى « الدرعية » ، حيث لقي أميرها محمد بن سعود (١١٧٩ هـ ١٧٦٥م) الذي استجاب لدعوته ، ورحب به ، ودار بينهما حوار كان بمثابة التعاقد على تأسيس ملك جديد ودولة جديدة على فكر توحيدي نقي وجديد . . قال الأمير للشيخ :

ـ أبشر ببلاد خير من بلادك ، وأبشر بالعز والمنعة . .

ـ وأنا أبشرك بالعز والتمكين ، وهذه كلمة (لا إله إلا الله) من تمسك بها وعمل على نصرها ملك بها البلاد والعباد! . .

وبفكر ابن عبد الوهاب ، وبتنظيمه أيضاً ، وبجيش ابن سعود وسلطانه ، تجاوزت الدعوة حدود « الرعية » ، واستجابت كل نجد والجهات المتاخمة لها لدعوة التجديد الديني ودانت بعقيدة التوحيد على هذا النحو النقي الذي بشر به ودعا إليه ابن عبد الوهاب . . وخلال هذه العملية النضالية كان الشيخ محور النشاط ، فهو الذي يجهز الجيوش ، ويبعث البعوث والسرايا ، ويكاتب أهل البلاد الأخرى داعياً وواعظاً ومنذراً ، ويستقبل الوفود والضيوف ، بل ويشرف كذلك على بيت المال وينظم مصارف المغانم والزكاة ! . .[1] .

وبهذه الامارة الوهابية السعودية التي اتخذت من « الدرعية » عاصمة لها ، قامت للتجديد الديني دولة في شبه الجزيرة العربية ، جاورت مقدسات الاسلام والمسلمين في مكة والمدينة ، وشرع ابن عبد الوهاب يتصل بعلماء المسلمين ووجوههم في مواسم الحج ، ويعرض عليهم افكاره في التوحيد ، ويجري معهم الحوار . . ووضح للعيان أن شبه الجزيرة قد شهدت قيام نمط من الفكر الديني يتحدى فكرية العصور الوسطى وينكر خرافاتها ، بل ويحكم بالكفر على كل

---

(١) المرجع السابق . ص ٦٥ ـ ٦٧ ، ٨١ .

المسلمين المعاصرين ، وعلى رأسهم « ظل الله في الأرض » خليفة آل عثمان ؟ ! . .

وبعد عشر سنوات من وفاة ابن عبد الوهاب وضحت مخاطر دعوته ودولتها على السلطنة العثمانية وفكريتها أكثر وأكثر ، فلقد زحف ابن سعود سنة ١٢١٦ هـ (سنة ١٨٠١م) على رأس جيش من أهل نجد وبواديها والجنوب والحجاز وتهامة إلى « كربلاء » ، بالعراق ، فقاتل أهلها ، واقتحمها ، وقتل من أهلها قرابة الألفين ، وهدم قبة قبر الامام الحسين ، وانتزعوا واستولوا على كل ما وصلت إليه أيديهم من كنوز كربلاء ومشهد الحسين ، الذي كان مزداناً بنصبة مرصعة بالزمرد والياقوت والجوهر ! . .

وبعد أربع سنوات (سنة ١٢٢٠ هـ سنة ١٨٠٥م) دخل جيش ابن سعود المدينة المنورة ، وهدم قباب قبورها ومزاراتها ، وفي العام التالي خضعت له مكة ، وبايعه شريفها عندما ذهب إليها حاجاً ، ويومئذ طرد ابن سعود من كان بمكة من رجال دولة الأتراك ، فتمت له السيطرة على الحرمين ونجد وتهامة والحجاز . .

وعندئذ وضحت للعيان ، كذلك ، أن الدعوة الوهابية ، وهي حركة فكرية سلفية ، ترى رأي ابن حنبل في ضرورة أن تكون الخلافة في قبيلة قريش وحدها ، أي في العرب ، لا تمثل فقط تحدياً لفكرية الدولة العثمانية ومذهبية العصور الوسطى ، وإنما تمثل أيضاً تحدياً للخلافة العثمانية ذاتها ، وتعني ضمن ما تعني تمرداً عربياً على استئثار الأتراك بالسلطة والسلطان على العرب المسلمين ، وتحمل في فكرها ودولتها دعوة لعروبة الدولة كما تحمل دعوة إلى عروبة الاسلام ! . .

ولقد صمدت الدولة الوهابية للجيوش العثمانية ، بل وألحقت بها الهزيمة تلو الهزيمة ، حتى استعان السلطان العثماني بمحمد علي وجيشه المصري ، فانهزمت الدولة عندما سقطت الدرعية (في ٧ ذي القعدة سنة ١٢٣٣ هـ ٨ سبتمبر سنة ١٨١٨م) بعد ثلاثة ارباع قرن ظهرت فيها بجزيرة العرب هذه

الدعوة موقفاً ايجابياً يرفض فكرية العصور الوسطى ويتحدى سلطان الأتراك العثمانيين . .

لكن دعوة ابن عبد الوهاب لم تمت بهزيمة دولتها ، فلقد عاشت ، بل وعادت في مرحلة تالية فأقامت دولتها من جديد ، ولكنها ظلت ، دعوة ودولة ، في شبه الجزيرة العربية وحدها ، ودون أن تتعداها ، لأنها وإن مثلت الرد العربي الايجابي على بعض التحديات التي واجهت الانسان العربي المسلم في ذلك التاريخ ، إلا أنها كانت رد عرب البادية البسطاء ، في الأساس وبالدرجة الأولى ، وليس رد عرب البلاد التي قطعت في التحضر والتمدن شوطاً أبعد مما قطعه أهل نجد وتهامة والحجاز . . لقد كانت تجديداً للاسلام ، وطليعة يقظة أهله على عتبة العصر الحديث ، والدعوة إلى عروبة الخلافة والدولة بعد أن استأثر بها الأتراك قرابة ثلاثة قرون . ولكن آفاقها المحدودة ، وفكريتها المحافظة ، وأساليبها البدوية العنيفة ، قد أبقت عليها حركة تجديد ويقظة لأعراب شبه الجزيرة وحدهم ، فاختصت بهم ، واختصوا بها ، وانفردوا وحدهم بهذا الشرف من دون المسلمين ! .

٢ ـ السنوسية : والتحديات الثلاثة

ولد محمد بن علي السنوسي (١٢٠٢ ـ ١٢٧٦ هـ ١٧٨٧ ـ ١٨٥٩م) . . وكان عربيا ، ولد في بيئة عربية ، غير بدوية ، فلقد ولد بالجزائر ، في قبيلة مجاهر ، وسط عصبية تبعث على القوة والاعتزاز . . فالحي الذي ولد فيه قد بلغ تعداده ٧٠,٠٠٠ نسمة يتبعهم وينضوي حولهم ٢٠٠ر٠٠٠ نسمة في مقاطعة وهران الجزائرية . . وكانت ولادته بقرية الواسطة ، قرب مستغانم . .

ومنذ صباه سلك الطريق الذي قدر له أن يصنع عليه الانجاز الكبير الذي حققه لأمته ودينه الطريق الذي برز عليه ابن السنوسي قديساً ، فارساً ، عربياً ، مجدداً ، معادياً للاستعمار ! . . فهو منذ الصبا ، يقسم يومه إلى نصفين ، أحدهما لطلب العلم وتحصيله وثانيهما للتدرب على الفروسية وركوب الخيل واستعمال أدوات القتال ؟ ! . . وهو يتنقل ، طالبا للعلم ، في أبرز

حواضر العلم العربي والاسلامي في ذلك التاريخ . . فهو قد درس في جامعة القرويين بفاس . . ثم جاء إلى القاهرة (١٢٣٩هـ ١٨٢٤ م) فدرس بالأزهر . ثم ذهب إلى الحجاز (١٢٤٠ هـ ١٨٢٥م) فأخذ عن بعض شيوخ مكة والمدينة . . وفي رحلاته هذه لتحصيل العلم اخذ ورفض ، ونظر وانتقد ، حتى لقد اعلن رفضه لدعوى اغلاق باب الاجتهاد ، وقدم هو ذاته اجتهادات في اطار المذهب المالكي ، الذي تمذهب به منذ صباه ، الأمر الذي جلب عليه غضب شيوخ الأزهر المحافظين ، حتى لقد هم الشيخ عليش ١٢١٧ - ١٢٩٩ هـ ١٨٠٢ - ١٨٨٢م) أن يقتله بحربته ، لولا أن السنوسي كان قد غادر البلاد! . . وأيضاً . . ففي رحلات السنوسي هذه إلى العلم لقي الكثير من شيوخ التصوف ، وانتسب إلى العديد من « طرقه » . . وهنا نجده ، أيضاً ، يأخذ ويرفض وينظر وينتقد ، حتى استقر به اليقين على طريقه ابتكرها ، جاءت مزيجا من الفقه والتصوف ، ولقاء بين الشريعة والحقيقة ، ومزاوجة بين النص والذوق ، ففيها رأينا السلفية التي تعتمد على براهين الكتاب والسنّة وتنكر الوسائط ، ورأينا التصوف الشرعي الذي يقصد إلى مجاهدة النفس وتزكيتها ، فكانت طريقته مزيجاً من الطريقة البرهانية والطريقة الاشراقية - أي الاعتماد على البرهان - مع ميل أكثر إلى البرهانية . . بل ورأيناها لا تقف عند حدود علوم الشرع ، علوم : الذات والصفات ، والفقه ، والحديث ، والدلالات . . وإنما تدرس العلوم الطبيعية : الفلك (الهيئة) ، وتقتني أدوات لها مثل الاسطرلاب ، والكرات ، والازياج . . الخ . . الخ!

ولقد غادر السنوسي المغرب ، للمرة الأولى ، سنة ١٨٢٩ م بعد أن قتل الوالي التركي حسن بك ، أحد اساتذته ! فغادر المغرب غاضبا ، وقاصدا الحج إلى بيت الله الحرام في مكة . . وفي العام التالي (سنة ١٨٣٠م) بدأ احتلال الفرنسيين لشمال بلاده ، الجزائر ، حيث ولد ، وحيث يعيش أهله ، فلم يستطع دخولها ، ولكنه رحل وطاف بجنوب الجزائر ، حيث لم تكن قد سقطت بعد في يد الفرنسيين . . ثم غادرها إلى القاهرة ، فالحجاز مرة ثانية ، وهناك

تبلورت في عقله أسس الطريقة التي قرر الدعوة إليها ، واغلب الظن أنه قد استشعر ، بعد احتلال الجزائر ، الذي كان أول نجاح أصابه الاستعمار الغربي في جولته الحديثة من صراعه التاريخي ضد العرب والمسلمين ، استشعر عظم المخاطر وشدة التحديات ، واستلهم فكرة « المرابطة » والتربص والإعداد والاستعداد للجهاد ، وليس الفورة المتعجلة ، المتسمة بالبداوة . لقد كان السنوسي أمام تحديات كبرى : استعمار أوربي مسلح بحضارة حديثة وعملاقة ، وسلطنة عثمانية أصبحت قيدا على الأمة العربية يعوق انطلاقها ، ومن ثم فلقد غدت ، بما تمثله من جمود ومحافظة وخرافة ومظالم ، ثغرة واسعة تتيح للاستعمار أن يلتهم بلاد العرب وأوطان الاسلام . . وأمام مثل هذه التحديات ، فلا بد من الفكر والتجديد - (الشريعة) - ولا بد من إعداد الذات العربية للصبر والمصابرة والجهاد والمقاومة - (الفروسية ومجاهدة النفس وتقويتها وتقويمها) - اذن لا بد من « المرابطة » ، فرباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها ، كما يقول الحديث الشريف[1] ومن هنا كانت فكرة « الزاوية » - وهي نموذج جديد « للرباط » القديم - التي ابتكرها السنوسي ، والتي كانت نموذجا للمجتمع الجديد الذي استهدفه ، والانسان الجديد الذي اراده ، والتي كانت واحة يحقق فيها تجربته وسط محيط قد رفضه وعزم على تغييره في المدى الطويل !

وفوق جبل أبي قبيس ، بمكة ، أقام السنوسي أول زاوية لطريقته (١٢٥٢ هـ ١٨٣٧م) . . وبعد ثلاث سنوات غادر الحجاز إلى المغرب ، واستقر في فاس ، يمارس التدريس ، ويدعو إلى طريقته الجديدة ، لكن حكومة مراكش خشيت مذهبه ، فضيقت عليه الخناق ، فغادرها إلى طرابلس الغرب (سنة ١٢٥٧ هـ سنة ١٨٤١م) . ومن طرابلس أخذ يسهم في ثورات الجزائر ومقاومتها للاحتلال الفرنسي ، فساعد ثورة تلمسان والصحراء (١٨٤٨ - ١٨٦١م) التي قادها محمد بن عبد الله ، وعصيان الظهرا الذي تزعمه محمد بن تكوك ١٨٥١م . . وفي الزاوية البيضاء ، على الساحل الليبي ، كانت « الزاوية » الثانية التي أقامها السنوسي (سنة ١٢٧١ هـ سنة ١٨٥٥م) . . وبعد ان

---

(١) رواه البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجة والدارس وابن حنبل .

استقرت طريقته في برقة ، عاد إلى الحجاز للمرة الثالثة ، فأقام بها ثماني سنوات ، ومنها نشر طريقته في أنحاء عدة من الحجاز واليمن ، وتأسست لها « الزوايا » في المدينة والطائف والحمراء وينبع وجدة ورباح ووادي فاطمة والمضيق واصفان وابان . . ثم غادر الحجاز عائدا إلى الجبل الأخضر ، بليبيا ، فاستقر هناك (١٢٧١ هـ ١٨٥٤م)(١) .

قلنا أن محمد بن علي السنوسي كان : قديسا وفارسا عربيا ، وعالما مجددا ، وعدواً للاستعمار . . والناظر في تعاليم طريقته وتربيتها لأعضائها يجد هذه الصفات هي المبادىء والأفكار المحورية التي قامت لها وبها هذه الطريقة ، كما يجد « الزاوية » هي النموذج لذلك المجتمع الذي أخذ السنوسي يعد نفسه وأتباعه لاقامته . .

ولقد بلغ عدد الزوايا السنوسية التي أحصاها المؤرخون مائة وثمان وثمانين زاوية ، خمس وعشرون منها في شبه الجزيرة العربية، ومائة وثلاث وستون في افريقيا ، في ليبيا ٩٧ : وفي مصر : ٤٧ ، وفي السودان الافريقي : ١٧ ، وفي تونس : ٢ . ونحن إذا شئنا أن نستخدم لغة عصرية في وصف « الزاوية » والحديث عن وظائفها قلنا انها : مؤسسة الحكومة - (الطريقة) - ، ومزرعة الدولة ، ونموذج المجتمع الجديد الموعود . . فغير المسجد ، نجد فيها منزلا لقائدها - (المقدم) - وللوكيل ، وللشيخ . . وفيها بيوت للضيوف وعابري السبيل ، وللفقراء الذين لا مأوى لهم ، وفيها مساكن للخدم ، ومخازن للمؤن ، واصطبل ، ومتجر ، وفرن ، وسوق . . وتحيط بهذه المباني « العامة » المساكن الخاصة بالقبائل التي تقوم الزاوية في منطقتهم . . وللزاوية ارض زراعية خاصة

(١) انظر لوثروب ستودارد (حاضر العالم الاسلامي) ج ٢ ص ١٤٠ ، ٣٩٨ ، ٤٠١ . ترجمة عجاج نويهض ، وتعليق شكيب ارسلان . طبعة بيروت سنة ١٩٧١م . و : د . أحمد صدقي الدجاني (الحركة السنوسية . نشأتها ونموها في القرن التاسع عشر) ص ٣٧ ، ٣٩ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٥٧ . طبعة بيروت سنة ١٩٦٧م . و : سيرتاموس . و . ارنولد (الدعوة إلى الإسلام) ص ٣٧١ . ترجمة : د . حسن إبراهيم حسن ، ، د . عبد المجيد عابدين ، إسماعيل النحراوي . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠م .

بها ، وآبار جوفية ، وصهاريج لحفظ المياه . . وأرض الزاوية وحدائقها تزرع جماعيا ، إذ يأتي كل من يقطن في منطقتها يوم الخميس من كل أسبوع إلى هذه المزرعة يعملون عملا جماعيا بلا أجر . . أما محصول أرض « الزاوية » فانه ينفق على احتياجات فقرائها ، وضيوفها ، غذاء وكساء وتعليما وزواجا . . الخ . . وما بقي يذهب إلى مركز الطريقة الرئيسي . .

ومقدم الزاوية هو ممثل شيخ الطريقة فيها ، وقائد قبائلها عند الجهاد . . ووكيلها يشرف على الزراعة وشؤون الادارة والمال والاقتصاد . . وشيخها يتولى تعليم الصغار وعقود الزواج . . ومع المقدم والوكيل والشيخ كان رؤساء القبائل المجاورة ووجوهها ، يكونون مجلس ادارة الزاوية .

وكانت لمواقع الزوايا فلسفة تحكمها . . فكثير منها قد أقيم على مواقع منشآت يونانية ورومانية قديمة ، وحكمت الاختيار لمواقعها اهداف اقتصادية وسياسية ، مثل طرق القوافل الهامة ، ونقاط الدفاع الحصينة ، والغايات المرجوة من نشر الاسلام في قلب القارة الافريقية ، والبعد عن مواطن الصدام بقوات الاستعمار قبل التمكن والاستعداد !

ولقد حولت هذه الزوايا التي تناثرت في الصحراء وعلى مشارفها الأرض القاحلة إلى جنات مثمرة ، وكان السنوسي قدوة لطائفته في الانخراط بالعمل اليدوي ، زراعة وصناعة حرفية . . وعندما كان بعض تلامذته يطلبون منه أن يعلمهم « الكيمياء » ـ وكانت تعني عندهم تحويل المعادن غير النفيسة إلى معادن نفيسة بتلاوات وطلمسات ـ كان يسخر من هذه الأوهام ، ويعلمهم أن الانتاج الزراعي في أرض الزوايا هو المصدر الحقيقي للثروة ، فيقول : « الكيمياء تحت سكة المحراث ! . . إنها كد اليمين وعرق الجبين !» وكان يعلم تلاميذه أن العاكفين على الأوراد والأوراق والمسابح لن يتقدموا أهل الزراعة والحرف عند الله أبداً . . هكذا كانت الزوايا ، وهكذا وصفها السنوسي فتحدث عن أن « الأرض تبتهج من حولها بأنواع الأشجار ، ويكثر بها السكان لكثرة الثمار ، وتنتشر فيها العمارة ، وتتسع بها الإدارة ! . .»

وكما كان للعمل الجماعي بأرض الزاوية وصناعاتها الحرفية يوم من كل أسبوع ، هو يوم الخميس ، فلقد كان يوم الجمعة خاصا بالتدريب على الفروسية واستخدام السلاح ، والمران على فنون الحرب والقتال . .(1)

ومن هذه الزوايا انطلق الرجال ينشرون الاسلام ، كما تفهمه الطريقة السنوسية . . ينشرونه بين أعراب الصحراء وقبائلها الذين كانوا مسلمين سلفا ، ولكن اسلامهم لم يكن يتعدى في الأغلب الأعم التدين ببعض شكليات الاسلام ، حتى لقد كان الكثيرون منهم يعجزون عن تلاوة آية قرآنية ، بنصها ، أثناء الصلاة ، فيتلفظون بمعاني بعض الآيات حاسبين أنها هي نصوص الآيات ! . .

ناهيك عن العادات والتقاليد والأعراف التي كانت أقرب إلى الجاهلية هي منها إلى الاسلام . وينشرون الاسلام أيضاً - وذلك هو الأهم - بين القبائل الوثنية في قلب افريقيا . . وإذا كانت للاسلام اليوم دول ولعقائده أتباع في قلب افريقيا وغربها فان مرجع الكثير من ذلك كله إلى الطريقة السنوسية ، فهي التي بشرت بالاسلام بين القبائل الوثنية التي كانت تدين « بالفتيشية » . . وكانوا يقطعون الطريق على النخاسين تجار الرقيق ، ويخلِّصون الأطفال الزنوج المخطوفين ، ثم يحملونهم إلى « الزوايا » حيث ينشأون على الاسلام ويفقهون تعاليمه ، ثم يبعثون بهم إلى أبناء جلدتهم في مواطنهم الأصلية يبشرون بالاسلام . . . وبفضل حركة التبشير السنوسية هذه دخل الاسلام واكتسب أنصارا في « واداي » و « الباقري » و « بوركو » و « النيجر الأدنى » و « برنو » و« الكونغو » و« الكاميرون » و « كانم » و« الداموا » و« الداهومي » وحول «بحيرة تشاد»، التي أصبحت ، بفضل جهد السنوسية ، مركز الاسلام في وسط افريقيا ، ودان بتعاليمه من حولها أربعة ملايين من السكان الافريقيين . . وعلى يديهم كذلك دخل الاسلام السودان الاوسط ، حتى لنستطيع ان نقول انهم هم الذين صنعوا الحزام الاسلامي لأفريقيا جنوبي الصحراء من سواحل الصومال شرقاً إلى سواحل السينغامبية في الغرب . . ويترجم عن حجم الجهد السنوسي

(1) (الحركة السنوسية) ص ٢٣٧ - ٢٤٢ - ٢٨٢ - ٢٨٥ . و(حاضر العالم الاسلامي) ج ١ ص ٢٩٧ ، ج ٢ ص ١٦٣ ، ١٦٤ .

في هذه المنطقة عدد الزوايا الهامة التي ذكرها الرحالة والمؤرخون لهم في هذه البلاد ، فلقد بلغت سبعة عشر زاوية ، أي انها تأتي في المرتبة الرابعة بعد ليبيا ـ وهي المركز ـ ومصر ، وشبه الجزيرة العربية . . ولكنها تأتي في مقدمة المناطق التي نهضت فيها السنوسية بنشر الاسلام والتبشير بعقائده وتعاليمه . .

والسنوسية لم تنشر ، في هذه المناطق ، تعاليم الاسلام وعقائده وحدها ، بل لقد أقامت حيثما نشرت الدين ، ومع الزوايا ، دولا وممالك وسلطنات ، منها سلطنة « رابح » و « احمدوا » و « ساموري » . . والرحالة كوبولاني Copoulani يتحدث عن اسلوبهم في التبشير الذي اثمر تأسيسهم لهذه السلطنات فيقول : « انهم كانوا يدخلون هذه المناطق تارة بهيئة تجار ، وطورا بهيئة مبشرين ، يهدون إلى الاسلام القوم الفتيشيين ، ونجدهم يبنون زوايا جديدة في هذه الأقطار الشاسعة الممتدة من شمالي افريقيا إلى اقصى أقاصي السودان . . . »[١]

والسنوسية كانت تنهض بهذه المهمة في القرن التاسع عشر ، قرن المد الاستعماري الأوربي لابتلاع القارة الافريقية ، والسيطرة على اقطارها واستغلال أهلها ونهب كنوزها ومواردها ، الأمر الذي يجعل لعمل السنوسية هذا معنى أكثر من مجرد نشر عقيدة دين سماوي بين أقوام وثنيين ، ويعطيه بعدا يتعدى الهدى والوعظ والارشاد بتعاليم الاسلام . . فلقد كانوا كتيبة الصدام العربية الاسلامية التي تصدت ، في شمالي افريقيا وقلبها للزحف الاستعماري الأوربي الجديد . . وهنا يتضح معنى الاهتمام في الزوايا بالتدريب الاسبوعي على الفروسية والحرب والقتال ، ومعنى اعتناء التعاليم السنوسية بفكرة الجهاد في الاسلام . . فهم قد جعلوا أبناء الطريقة في افريقيا في حالة استعداد دائم للجهاد ، كالجيش في حالة الاستنفار ، بينما جعلوا واجب أبناء الطريقة في آسيا المعاونة المادية لاخوانهم الافريقيين[٢] . .

ونحن إذا شئنا شواهد وأمثلة على تصدي السنوسية في افريقيا للزحف

---

(١) (حاضر العالم الاسلامي) ج ٢ ص ٤٠٠ .

(٢) (الحركة السنوسية) ص ٢٥٥ .

الاستعماري الأوربي وصداماتها الفكرية ، بل والحربية المسلحة معه ، وجدنا الكثير . . .

* فهم قد حاربوا الفرنسيين في مملكة « كانم » ومملكة « واداي » ، بالسودان ، قرابة الخمسة عشر عاما (١٣١٩ ـ ١٣٣٢ هـ ١٩٠١ ـ ١٩١٤م) .

* وهم قد قاوموا الغزو الايطالي لليبيا ، الذي بدأ سنة ١٩١١م ، ودامت مقاومتهم البطولية له عشرين عاما . .

* ولقد استغاثت جمعيات التبشير الأوربية ، التي كانت طلائع للمد الاستعماري الأوربي ووظفت الدين في خدمة النهب الاستعماري، استغاثت بحكوماتها الاستعمارية ، فضغطت على السلطان العثماني كي يحد من نشاط السنوسيين . . وقاوم السلطان هذا الضغط حينا ، ثم خضع له أخيراً ، وحاول أن يستقدم إلى الآستانة المهدي السنوسي (١٢٦٠ ـ ١٣٢٠ هـ ١٨٤٤ ـ ١٩٠٢م) الذي قاد الطريقة بعد أبيه ، أن يستقدمه إلى الآستانة كي يعيش هناك في « القفص الذهبي » ، كما صنع السلطان ذلك مع جمال الدين الافغاني ، حول نفس التاريخ تقريبا ؟ ! . . ولكن السنوسي رفض ، وأجاب رسل السلطان بكلمات لا تحمل معنى محددا ، وتلا آيات قرآنية تتحدث عن التوكل على الله ! . وقرر نقل مركزه من واحة « جغبوب » إلى مكان موغل في الصحراء أكثر هو « الكفرة » ، كي يبتعد عن متناول السلطان ، والانجليز الذين احتلوا مصر ، والايطاليين الذين كانوا يسعون إلى شمال ليبيا ، حتى يقترب أكثر فأكثر من منطقة الصدام مع طلائع الاستعمار في قلب افريقيا . . وبعد سنوات أربع من هذا الانتقال ، عاد فأوغل في قلب الصحراء مرة اخرى ، واستقر في « قرو » بالسودان الأوسط ، في الصحراء الافريقية ! . .[1] . .

* والحكومة الفرنسية ـ وكانت قد احتلت المغرب العربي ـ قد جعلت من « الطرق » الصوفية هناك ـ (الطرقية) ـ ركيزة كبرى لتأييد احتلالها وتأبيده ، بل

---

(١)(حاضر العالم الاسلامي) ج ٢ ص ١٦٢ ، ١٦٣ . و (الحركة السنوسية) ص ٢٢٥ ـ ٢٢٧ .

ولتحويل بلاد مثل الجزائر إلى امتداد فرنسي عبر البحر المتوسط في افريقيا . . ووجدنا من زعماء تلك « الطرق » من يبرر ، بأسم الدين ، حملة فرنسا لسحق الشخصية القومية للجزائريين ، ودمجهم في فرنسا ، وتحويلهم إلى فرنسيين ، يبرر ذلك بقوله : « اننا إذا كنا قد أصبحنا فرنسيين ، فقد أراد الله ذلك ، وهو على كل شيءقدير ، فإذا أراد الله أن يكسح الفرنسيين من هذه البلاد فعل ، وكان ذلك عليه أمراً يسيراً ، ولكنه كما ترون ، يمدهم بالقوة وهي مظهر قدرته الإلهية ، فلنحمد الله ولنخضع لارادته ؟ !(1)

وهذا النوع من الصوفية هم الذين سمحت لهم فرنسا بمزاولة النشاط ، بل وباحتكار ميادينه ، وهم الذين تحدث عنهم السياسي الاستعماري جابرييل هانوتو G. Hanotaux (١٨٥٣ ـ ١٩٤٤م) وزير خارجية فرنسا في مقاله : (قد أصبحنا اليوم ازاء الاسلام والمسألة الاسلامية) فقال : « . . إن من بين تلك الطرائق والطوائف من يخلد أعضاؤه إلى السكون ، وربما كانت علاقتهم مع رجال حكومتنا في الجزائر وتونس على أحسن ما يرام ، وما ذلك إلا لأن الرابطة التي تربطهم ببعضهم قد اعتراها الوهن ، لأن الفوضى التي أصابت الاسلام الافريقي قد أخذت نصيبها منهم »(2) !

ولكن هانوتو ، نفسه ، يستثني السنوسية من هذه الطرائق والطوائف ، ويتحدث عن عدائها لغير المؤمنين بالاسلام ـ وهو مصطلح استعماري صليبي يعني العداء للاستعمار الأوربي الصليبي ـ ويشكو مر الشكوى من أن السنوسية قد أصبحت سدا منيعا يفسد على الاستعمار مخططه الافريقي الرهيب ، فيقول ، مواصلا حديثه عن الطرق الصوفية في افريقيا : . . ولكن توجد طوائف بلغت شدة العصبية منها مبلغا عظيما ، **لأنها مؤسسة على مبدأ كفاح غير المؤمنين وعلى كراهية المدنية الحاضرة . فقد أسس الشيخ السنوسي ، وفي جبهة ليست بعيدة من الأصقاع التي تلي أملاكنا في الجزائر ، مذهبا خطيراً ، له**

---

(1) (مسلمون ثوار) ص ٢٦٣ .

(2) (الاسلام والرد على منتقديه) ص ١٨ ـ مجموعة أبحاث ودراسات ـ طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨م .

أشياع وأنصار . . ومن مذهبهم التشدد في رعاية القواعد الدينية . . ولقد لبثوا زمناً مديداً لا يرتبطون بعلاقة ما مع الدولة العلية - (العثمانية) - بسبب ما بينها من العلاقات وبين الدول المسيحية . . وهم يطرحون حبائل الدسائس التي أوقفت رجال بعثاتنا عن كل عمل مفيد لصالحها في افريقيا الجنوبية . . فهناك ، في قرانا وبلداننا - (كذا) ؟ ! - نرى درويشاً فقيراً ، متدثراً بأرديته البيضاء المعلمة بخطوط سوداء ، يلهج لسانه بذكر الله والصلاة على نبيه ، لا يلويه عن ذلك شيء . . هذا الدرويش - الذي ينتقل من خيمة إلى خيمة ومن قرية إلى قرية ، راوياً حوادث الاقطاب الأولياء من مشايخ الاسلام - إنما يبذر في القلوب ، حيثما حل وأينما توجه ، بذور الحقد والضغينة علينا . . انهم يخترقون ، بلا انقطاع ولا توان ، مستعمراتنا الافريقية ، فيستقبلهم أهلوها بالترحاب ، ويحسنون وفادتهم ، ويكرمون مثواهم ، حتى ان الفقير منهم لا يرى في اكرامه له أقل من أن ينحر له شاة ، هذا عدا ما يجمعه له من صدقات ذوي البر والاحسان أو من المرتبات المالية السنوية التي يبلغ ما يدفعه أهالي الجزائر وحدهم منها ثمانية ملايين من الفرنكات كل عام ! . . وهذا مما يستوجب العجب والدهشة ، لأن مقدار ما نجبيه من الضرائب كل سنة من أهالي الجزائر لا يتجاوز ضعف هذا المبلغ » ؟ ! . . (١)

هكذا تصدت السنوسية للتحدي الاستعماري الذي فرضته أوربا على العرب والمسلمين ، فكان للجهاد في طريقتها معنى ووظيفة ، وكان للقوة والاستعداد للقتال مكان ملحوظ في « الزوايا » والتعاليم ، وفي الممارسة والتطبيق . .

وقد استتبع عداء السنوسية للاستعمار ، وتصديهم لزحفه على افريقيا العربية، شمالاً ووسطاً ، إعلاء شان العروبة في طريقتهم وتعاليمهم ونشاطهم العملي ، وما كان منه ذا طابع سياسي على وجه الخصوص . . ومن هنا كانت السنوسية واحدة من حركات اليقظة العربية ، كما كانت مجابهة وتصديا لفكرية العصور الوسطى ولزحف الاستعمار . .

(١)المرجع السابق . ص ١٧ - ١٩ .

فمحمد بن علي السنوسي ، مؤسس الطريقة ، عربي أصيل ، فكرا ونسبا، بل هو نموذج للقائد العربي الذي تستدعيه المرحلة التاريخية والبيئة التي ظهر فيها . . وكما يقول عنه الرحالة هاملتون Hamilton فلقد تحلى « بكل ما ينبغي أن يتصف به القديس العربي من صفات ، فهو دقيق في فهم الدين ، مرح ، يركب فرساً من أنقى سلالة ، ويلبس بفخامة ، ويكحل عينيه بالكحل كما يصبغ لحيته بالحناء ، وهو شديد الكرم لضيوفه ، وتزيده مواهبه واخلاصه احتراماً فوق احترام ! »[1]

والسنوسيون كانوا ينشرون العربية مع نشرهم للاسلام .

ثم انهم ـ وهذا هام جداً ـ قد رفضوا سلطة الدولة العثمانية وسلطانها وتسلطها على العرب المسلمين ، وأعلنوا ، بلسان شيخهم وقلمه أن الخلافة لا بد وأن تكون عربية قرشية ـ والقرشية كانت دائماً رمزاً لرفض حكم غير العرب للعرب ـ فلقد كتب السنوسي في كتابه (الدرر السنية في أخبار السلالة الادريسية) أن الامامة والخلافة لا بد وأن يليها عربي قرشي ، واستشهد على ذلك بآراء الماوردي ، ورفض قول الذين يشيعون هذا المنصب في المسلمين من غير العرب[2] . . ولهذا الموقف الفكري دلالته التي لا تنكر في رفض خلافة آل عثمان . .

ويزيد قسمة العروبة وضوحاً في الحركة السنوسية ما أدركوه من أن الخلافة العثمانية قد غدت من الضعف والهزال والتفريط في مصالح العرب إلى الحد الذي أصبحت معه « ثغرة » كبرى يتسلل منها الاستعمار الغربي لالتهام بلاد العرب واقتطاع أقطار الإسلام . . بل لقد قطعوا بأن الأتراك قد أصبحوا « مقدمة النصارى ـ (أي المستعمرين الأوربيين) ـ ما دخلوا محلاً إلا ودخله النصارى ؟! » كما يحكي أحمد الشريف السنوسي ـ ابن مؤسس الطريقة ـ في كتابه (الدر الفريد الوهاج في الرحلة من الجغبوب إلى التاج) . .[3] . أما

(١) (الحركة السنوسية) ص ٩٥

(٢) المرجع السابق . ص ١٠٧ .

(٣) المرجع السابق . ص ٢١٦ .

المهدي السنوسي فإنه هو القائل : « الترك والنصارى ، إني أقاتلهم معاً»! . .[1].

وتجدر الإشارة والتنبيه إلى أن حديث السنوسية عن عدائهم للترك والنصارى إنما يعني العداء لكل من الاستعمار والتسلط العثماني والأوربي . . فلقد هادنوا الأتراك وتعاونوا معهم عندما تناقضت مصالح الدولة العثمانية مع الاستعمار الايطالي اثناء الحرب الطرابلسية . . ثم هم لم يعرفوا التعصب الديني ضد أتباع الديانات الأخرى . . والرحالة هاملتون يقول عنهم : « أنهم أقل تعصباً من عامة العرب ». والتاريخ يحكي كيف أن السنوسي الكبير قد عزل قيادة احدى الزوايا ، لأنهم طردوا سائحاً وأمه من منطقتهم ، لأنهما من النصارى[2] . . . فلقد كان التمييز مطلوباً بين المخالفين في الدين وبين المستعمرين . . والمهدي السنوسي هو الذي يحدث أخاه الشريف فيقول له : « لا تحقرن أحداً ، لا مسلماً ولا نصرانياً ولا يهودياً ولا كافراً ، لعله يكون في نفسه عند الله أفضل منك . إذ أنت لا تدري ماذا تكون الخاتمة ![3] » فعداؤهم للترك ، كعدائهم للأوربيين ، قد وقف عند حدود العداء للاستعمار . . فهم قد رأوا خطر الزحف الاستعماري الأوربي ، وتصدوا له . . ورأوا في دولة الرجل المريض - علاوة على اغتصابها الخلافة من العرب - ثغرة ينفذ منها النهب الاستعماري ، ومقدمة لهذا الاستعمار ، فحكموا بأن الترك مقدمة الاستعمار الأوربي ، وأنهم ما دخلوا بلداً إلا ودخله الاستعمار . . ولقد صدقت وقائع التاريخ وتطورات الصراع في المنطقة كلمات السنوسيين ! . .

هكذا كانت الحركة السنوسية . . واحدة من حركات اليقظة العربية الاسلامية ، التي واجهت بها الأمة التحديات التي فرضها عليها الأعداء . .

---

(١) (حاضر العالم الاسلامي) ج ١ ص ٢٩٩ .
(٢) (الحركة السنوسية) ص ٩٥ ، ١٥٥ .
(٣) (حاضر العالم الاسلامي) ج ٢ ص ١٦٤ .

* فبالسلفية المعتدلة ، التي تنقي العقيدة من شوائب الشرك وشبهات الوسائط بين الإنسان وخالقه . . وبالتصوف الشرعي . . وبفتح باب الاجتهاد ، ورفض دعوى اغلاقه . . صنعت مزيجاً فكرياً رفضت به فكرية العصور الوسطى والمظلمة . . عصور المماليك والعثمانيين . .

* وبالجهاد . . وتربية المريدين والأنصار على الفروسية وأدوات القتال . . وبنشر الاسلام والعروبة في أفريقيا ، جنوبي الصحراء . . أعاقت زمناً طويلاً زحف الاستعمار الأوربي ، وقاتلت جيوشه ، وأفشلت خطط مبشريه السنين الطويلة . . وحتى عندما هزمت أمام تفوقه ، فإنها قد تركت فكراً وتنظيماً لعب دوراً في المد التحرري الذي شهدته هذه المنطقة ضد سيطرة الاستعمار .

* وبالإنحياز إلى عروبة الخلافة . . والحذر ، ثم العداء تجاه الأتراك العثمانيين . . برزت السنوسية واحدة من حركات اليقظة والتجديد التي تصدت لأبرز التحديات التي فرضها على هذه الأمة أعداؤ ها في العصر الحديث .

٣ ـ المهدية : الشعب يقاوم بالأسطورة ؟!

قبل إلحاق السودان بمصر (١٨٢٠-١٨٢٣م)، في عصر محمد علي، لم يكن الشعب السوداني قد حقق وحدته الوطنية ، فوطنه من حيث الإدارة والسياسة ينقسم إلى ممالك وسلطنات ، أهمها سلطنة الفونج في الشرق وسلطنة الفور في الغرب ، والنوبيون في الشمال . . كما أن الأعراق المختلفة لسكانه : عرب ، ومستعربون ، ونيليون ، وحاميون ، كانت تسهم هي الأخرى في تمزق البلاد . . وإذا كان الفتح المصري للسودان قد ألحقه بحكومة واحدة ، وجعل له « حكمدارية » واحدة في العاصمة الجديدة : الخرطوم ، فإن التمزق الواقعي لم يختف تماماً ، وظل متجسداً في الأقاليم والسلطنات ، تزكيه اختلافات القبائل والاعراق .

لكن هذا القدر من الوحدة السياسية والإدارية ، وما استتبعه من تطور حضاري محدود وبطيء قد نبه السودانيين إلى روابط المصالح المشتركة بينهم

جميعاً . . ثم كانت السلبيات التي وقعت من الإدارة الجديدة طاقة محركة لنمو هذا الأحساس المشترك الجديد . .

* فبعد مقتل اسماعيل ، بن محمد علي ، قائد الجيش الفاتح ، محترقاً . . انتقم جيش محمد علي من السودانيين انتقاماً شديداً . .

* والضرائب التي فرضت على السودانيين ـ والتي كانوا يسمونها « الجزية » ـ كانت باهظة ، وفي طريقة تحصيلها الكثير من الشدة ، وغير قليل من الإذلال . .

* وبعد أن دخلت حكومة القاهرة في إطار النفوذ الأوربي منذ اتفاقية لندن سنة ١٨٤٠ م ، وبالذات منذ عصر الخديوي سعيد (١٨٥٤ ـ ١٨٦٣ م) والخديوي اسماعيل (١٨٦٣ ـ ١٨٧٩ م) ، وخصوصاً في عهد الخديوي توفيق ، الذي خلف اسماعيل . . أخذ السودانيون يرون في هذه الحكومة سلطة ينقصها الطابع الوطني المصري . . وزاد من هذا الاحساس لديهم أنها قد استعانت في حكم بلادهم بالعديد من العسكريين والمغامرين والمرتزقة الأوربيين . . فحاكم بحر الغزال هو الإيطالي « جيسي » ، وعندما ذهب خلفه الانجليزي « لبتون بك » ! . . وحاكم دارفور هو النمساوي « سلاطين » . . وحاكم كوبي هو « اميلياني »ـ وفي الفاشر يحكم « مسيداليا » . . وفي لادو يحكم الألماني « سنتزر » . . وفي فاشوده يحكم النمساوي « أرنست مانرو »؟! . .

* وزاد من إحساس السودانيين هذا علاقة الخديوية المصرية بالاتراك العثمانيين ، فكانوا يسمون الحكم المصري بالحكم التركي ، ويصفون حكامهم بالأتراك ! . . ولما وقفت هذه الخديوية ضد الثورة الوطنية المصرية ، ثورة عرابي (١٨٨١ ـ ١٨٨٢ م) منحازة في ذلك للمستعمرين الأوربيين والسلطان العثماني ، رسخ يقين السودانيين بغربة هذه الحكومة عنهم ، وانقطاع الروابط التي تربطهم بها إلى حد كبير . .

ولقد حدثت بالسودان في تلك الحقبة تمردات وانتفاضات ، ولكنها كانت ذات طابع محلي ، وأغلبها كان بقيادة زعماء عشائريين وعدد من النخاسين وتجار

الرقيق الذين قاوموا سعي الحكومة المصرية المتعجل لالغاء تجارة الرقيق . .

ولقد أصبح واضحاً أن المجتمع السوداني قد زخر بالعوامل والأسباب التي تهيئه للثورة والانقضاض على أسباب شكواه ، لكنه ، لتخلفه وتمزقه ، يحتاج إلى عامل أسطوري ومعجزة خارقة تجمع شتات أبنائه وتضم مختلف أقاليمه في موقف ثوري واحد ، ومسيرة نضالية متحدة ، تخلق منه كياناً وطنياً واحداً ، وتمكنه من تحقيق بعض ما يريد ! . .

وكانت الحياة الفكرية في السودان ـ على فقرها ـ يتوزعها المتصوفة والفقهاء . . وكان الفقهاء ، في الأغلب الأعم ، قد ارتبطوا بالحكومة ووظائفها وعطائها . . على حين ظل المتصوفة ، أو قطاع منهم ، أقرب إلى الجمهور ، لأن « طرقهم » إنما تقوم وتنمو وتعيش بقدر ما يجتمع لها من مريدين وأتباع . . وفي التراث الفكري للصوفية كان هناك مكان ملحوظ بل وبارز لفكرة « المهدي المنتظر» ، ذلك القائد الأسطوري ، الذي يظهر فيحجب الزمان بأن يحيل ما بين عصره وعصر النبي ، ﷺ ، إلى زمن ساقط من الحساب ، وذلك بجعل زمانه موصولاً بزمان النبي ، وتجربته تالية لتجربة النبي . . كما يحجب المكان ، بتغيير واقعه الظالم ، وذلك عندما يملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً ، ويعمها أمناً بعد أن طفحت رعباً ، حتى ليحرس الذئب الغنم ، ويضع الصبي يده في فم الأسد فلا يصيبه الأذى؟! . . وفي (الفتوحات المكية) لشيخ الصوفية الأكبر محي الدين بن عربي (٥٦٠ ـ ٦٣٨هـ ١١٦٥ ـ ١٢٤٠ م) حديث طويل عن « المهدي المنتظر » ، بل لقد خص هذا الأمل بكتاب كامل خاص سماه (عنقاء مغرب) . . ولقد كان لفكر ابن عربي هذا انتشار وجمهور بين متصوفة السودان ، شيوخاً ومريدين . . وفي هذا الواقع الذي يتطلع للمخلّص ، ومن خلال هذا التراث الفكري الذي يجعل هذا المخلّص هو « المهدي المنتظر » ، وفي مجتمع تفاقمت مشكلاته ، وزادت آلامه ، واستفحلت تناقضاته ، وضح بجلاء أن سبيله إلى الالتحام والانتفاض هو الأسطورة ، والأسطورة المقدسة ، التي تفجّر في إنسانه من الطاقات الخلّاقة ما يستطيع بها علاج ما تراكم وتزاحم من مشكلات ومعضلات . .

هكذا اشرأبت الاعناق ، وتعلقت الأبصار ، واستشرقت البصائر ، وأرهفت الأسماع والأحاسيس الى ذلك القادم المنتظر . . إلى المهدي . . حدث ذلك بالنسبة للجميع ، الكبار منهم والصغار ! . . حتى ليحكي المؤرخ يوسف ميخائيل (١٢٤٤ ـ ١٣٣٠ هـ ١٨٢٨ ـ ١٩١٢ م) في كتابه (غوردون والسودان) أن الصبيان في مدينة الأبيض ـ قبل ظهور مهدي السودان ـ كانوا يجعلون في ألعابهم صفاً لأنصار المهدي وصفاً آخراً لأعدائه ، ثم يديرون بين الفريقين الصراع ؟![1].

* * *

وفي ١٢ أغسطس سنة ١٨٤٤ م ، وفي جزيرة « لبب » ، التي تبعد عن دنقلة خمسة عشر كيلو متراً ولد محمد أحمد (١٢٦٠ ـ ١٣٠٢ هـ ١٨٤٤ ـ ١٨٨٥ م) الذي سيصبح مهدي السودان المنتظر ، وقائد الثورة التي صهرت السودانيين في بوتقة واحدة ، فخلقت منهم شعباً واحداً للمرة الأولى في التاريخ . .

ولفقر أسرته ، التي كانت تحترف النجارة في السفن ، لم يستطع السفر للدراسة في الأزهر ، لكنه حصَّل علوم الدين كما يحصلها الفقهاء الفقراء المحليون ، فدرس في بربر والخرطوم ، وأصبح فقيهاً في سنة ١٨٦٨ م . . وقبل هذا التاريخ ، في سنة ١٨٦٣ م ، أنشأ بالخرطوم مدرسة مارس فيها التعليم[2] . . ثم اتجه إلى التصوف ، وظهرت عليه أمارات التقوى والزهد والصلاح ، فانخرط في سلك الطريقة « السمانية » . . وفي التصوف علا نجمه ، بعد أن أنشأ لنفسه خلوة خاصة في جزيرة « أبا » (١٢٨٦ هـ ١٨٧١ م) ذاعت شهرته منها وقصد إليه الناس فيها ، حتى أصبح (١٢٩٢ هـ ١٨٧٥ م) خليفة ، له رأيه ، وقد أذن له شيخه أن يجوب أرجاء البلاد ، يأخذ العهود على الاتباع ويقبل ويعتمد انضمام المريدين . .

وفي (١٢٩٧ هـ ١٨٨٠ م) توفي الشيخ القرشي ود الزين ، شيخ محمد

---

(١) د . محمد إبراهيم أبو سليم (الحركة الفكرية في المهدية) ص ٦ طبعة الخرطوم سنة ١٩٧٠م .
(٢) د . محمد فؤاد شكري (مصر والسودان) ص ٢٦٠ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٣م .

أحمد في الطريقة السمانية ، فأصبحت لـه القيادة فيها . وهنا بـدأ أولى محاولاتـه المنظمة لتكوين جماعة دينية صوفية تـدعو إلى الإصـلاح ، فاتصـل بالعـديد من الحكام ومن الفقهاء ، داعياً إلى العودة للدين ، وتكوين مجتمع مسلم عـلى غرار المجتمع الذي بناه الرسول ، عليه الصـلاة والسلام . . غـير أن الصدى لم يكن كما أمل ، والاستجابة كانت دون ما أراد . . لكنه لم ييأس . . حقاً لقد يئس من الأمراء والحكام والفقهاء ، ولكنه نظم من أتباعه نواة الجمـاعة التي عـزم على أن يسعى بها لاقامة المجتمع الجديد . . وهو يتحدث عن هذه البداية ، التي سبقت مرحلة « المهدية » ، فيقول : « . . ثم إني نبهت على بعض المشايـخ وما أدركت من الأمراء فلم يساعدني على ذلـك أحد ، حتى استعنت بـالله وحده عـلى إقامـة الدين والسنن ووافقني على ذلك جمع من الفقراء الأتقياء . . الذين لا يبالـون بما لقوه في الله من المكروه ! »[1] .

وسواء أكان محمد أحمد قد أدرك أن تحقيق غاياته لابد له من طاقة عاطفية وشحنة روحية تهـز قلوب المؤمنين وتـذهلهم عن الروابط والقيـود التي تشدهم إلى الـدنيا ومتـاعها فيسـرعون بسـوط الخارق المعجـز إلى الانخراط في حـركته الإصلاحية ، فاخترع أنه هو « المهدي » المنتظر اختـراعاً . . أو أن الـرجل قـد امتزجت في عقله وقلبه ونفسه معاناة شعبه وأمته بالصـوفية التي صنعت لـروحه شفافية زادت منها رياضاته الروحية ، ففجرت فيه كـإنسان طـاقات غـير عاديـة ولا منظورة ، فرأى ما لا يراه الآخرون ، وما أنكـره عليـه الكثيرون ، رأى رسول الله ، صلّى الله عليه وسلم ، يعهد إليه « بالمهـدية » ويكلفـه بالجهـاد . . سواء أخذنا بالتفسير الأول ، أو اعتمدنـا التفسير الثـاني ـ وهو الـذي نميل إليـه ـ فلقد أعلن محمد أحمد في الأول من شعبان ١٢٩٨ هـ ٢٩ يونيو سنـة ١٨٨١ م أنه هو « المهدي » ، ودعا النـاس إلى الإيمان بـه ، والهجرة اليـه ، والجهاد معـه لإقـامة الـدين ، وتحريـر البلاد من الأتـراك والأجانب ، وإنقـاذ ديـار الإسـلام قاطبة ـ من « غانة إلى فرغانة »! ـ من خطر الاستعمار والأتراك! . .[2] .

---

(١) (منشورات المهدية) ص ٢٤ تحقيق : د . محمد إبراهيم سليم . طبعة بيروت ١٩٦٩م .
(٢) الصادق المهدي (يسألونك عن المهدية) ص ١٦٦ طبعة القاهرة سنة ١٩٧٥م .

ونحن عندما ننظر في وثائق المهدي ومنشوراته التي تتحدث عن « الحضرة » التي نصبه فيها الرسول مهدياً ، نجد أثر التراث الصوفي واضحاً وقوياً ، بل وطاغياً ـ فمع النبي قد شهد هذه « الحضرة » جمع من شيوخ التصوف والأولياء . . كما شهدها « الخضر » و« عزرائيل » ، الذي سيقبض أرواح الذين يحاربون المهدي ! . . وفي هذه « الحضرة » يؤكد الرسول على كفر من لم يصدق بمهدية محمد أحمد . . ويعلمه امتياز « المهدية » على « التصوف » . . ففي التصوف : الذل ، والانكسار ، وقلة الطعام ، وقلة الشراب ، والصبر ، وزيارة السادات (السادة ـ الأولياء ـ) أما المهدية ففيها ، غير هذه : الحرب ، والحزم ، والعزم ، والتوكل ، والاعتماد على الله ، واتفاق القول . . ولأن من ميزات المهدية « اتفاق القول » ، فلقد أسقطت المذهبية والمذاهب ، وألغت الطرق الصوفية ، وأعلنت للناس أن عهدها موصول بعهد الرسول ، فما بينهما ساقط لا حجة فيه . . فهي سلفية ، تقف عند الكتاب والسنّة فقط ، وتعتبر أن المذاهبْ كانت صالحة لأزمانها السابقة على المهدية فقط ، وهي تجدد وتشرع وفق المصلحة المتجددة على ضوء الكتاب والسنّة وحدهما . . « لا تعرضوا لي بنصوصكم وعلومكم عن المتقدمين ، فلكل وقت ومقام حال ، ولكل زمان وأوان رجال . . ولقد كانت الآيات تنسخ ، في زمن النبي ، على حسب مصالح الخلق ، وكذلك الأحاديث ينسخ بعضها البعض على حسب المصالح » . .

وأعلن المهدي ، كذلك ، أن « المهدية » ليس مما يسعى المرء اليه ، فهو قد كان سائراً في طريق الاصلاح ، على العادة ، حتى « هجمت عليه المهدية من رسول الله » ، بحضرة الأولياء والصالحين « يقظة ، في حال الصحة » ، في وقت لم يكن يطمع أن ينالها ، بل لقد كان راغباً في الانضواء تحت لواء المهدي السنوسي ![1] . .

وبعد هذا الاعلان ، كاتب المهدي أنصاره ، ودعاهم إلى الهجرة إلى

(١) (منشورات المهدية) ص ١٣ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٧١ ، ٢٢٨ ، ٢٦٥ . .

جزيرة « أبا » في شهر رمضان ، ثم انحاز بمن هاجر إليه إلى جبل قدير ، استعداداً للجهاد ، الذي قدمه على فريضة الحج[1] ، لأن الحج قد وقعت مشاهده تحت حكم الكفار الاتراك ، ولأن « سَيْفَاً سُلَّ في سبيل الله هو أفضل من عبادة سبعين سنة »![2] . . وفي « أبا » حقق المهدي أول انتصار عسكري على قوات الحكومة في ١٦ رمضان سنة ١٢٩٨ هـ ٢ أغسطس سنة ١٨٨١ م . .

ثم عاود انتصاره عليها ثانية في جبل قدير - (٧ ذي الحجة - أول نوفمبر من نفس العام) . ومن ذلك التاريخ بدأ ينشىء جهاز دولته الجديدة ، بادئاً ببيت المال ، ومنصِبَيْ : قاضي الإسلام ، وأمين السلاح ، ثم جعل له خلفاء أربعة ، يخلف كل واحد منهم واحداً من الخلفاء الراشدين الأربعة ، كما يخلف هو الرسول ، عليه الصلاة والسلام ! . . ثم توالت المعارك بينه وبين الحكومة ، التي استعانت بعدد من القادة العسكريين الأوربيين لقتاله ، من أشهرهم غوردون GORDON (١٨٣٣ - ١٨٨٥ م) حتى انتهت الأحداث باقتحام الأنصار ، أنصار المهدي للخرطوم في ٢٦ يناير سنة ١٨٨٥ م ومقتل غوردون ، وتمام السيطرة للمهدي على كل أجزاء السودان . .

.

ولقد أكدت هذه الانتصارات العسكرية التي أحرزها المهدي ، ضد حكومة كانت مشغولة بأحداث الثورة العرابية في مصر ، أكدت لدى أتباعه ما حدثهم به من أنه منصور أبدا ، وأن أعداءه مدحورون لا محالة . . فهو « المهدي »، وليس طالباً للملك أو ساعياً إلى السلطان . . وعندما عرض عليه غوردون سلطنة كردفان أجابه : « إن مهديتي من الله ورسوله ، ولست بمتحيل ، ولا مريد ملكاً ولا جاهاً . . فأنا خليفة رسول الله ، ولا حاجة لي بالسلطنة ولا بملك كردفان ولا غيرها ، ولا في مال الدنيا ولا زخرفها . . »[3] وأخذ الناس

---

(١) (الحركة الفكرية في المهدية) ص ٣٥ . .

(٢) (يسألونك عن المهدية) ص ١٧٦ . .

(٣) (منشورات المهدية) ص ٢٢٠ ، ٢٢٢ « هامش » .

يتحدثون عن الخوارق ، التي يرونها . . فاسم المهدي مكتوب على أوراق الأشجار ، وعلى بيض الدجاج ! . .[1] وهم قد شاهدوا النار تشتعل في جثث القتلى من أعدائه! - (وهي نار جهنم ، ولا بد !)- . . وهو في غدوه ورواحه معه ملك من الله يلهمه ويسدده[2] ، وفي قتاله معه عزرائيل يقبض أرواح أعدائه ! . .

وفي مجتمع كالمجتمع السوداني فعلت هذه المرويات والروايات والمأثورات والحكايات ما لا تفعله الفلسفات وبراهينها ولا المنطق وقضاياه . . لقد فجرت كل طاقات المجتمع فصبت في نهر الثورة المهدية ، وأذهلت النساء عن أزواجهن فهاجرن إلى المهدي دون الرجال الجاحدين ، وجعلت الرجال يفارقون زوجاتهم إذا هن لم يستجبن للدعوة ، وقدم المالكون أموالهم والفقراء أرواحهم لهذا القائد الأسطورة ، الذي صنع بالأسطورة ما لا تصنعه الحقائق في مجتمع مثل الذي ظهر فيه ! . .

وأخذ المهدي يكاتب القادة والملوك والرؤساء ، يدعوهم إلى تصديقه والتعاون معه . . كتب إلى خديوي مصر ، وامبراطور الحبشة ، وكتب إلى أهالي : مراكش ، وفاس ، ومالي ، وشنقيط (موريتانيا) ، وكتب إلى حياتو بن سعيد (سوكوتو) وإلى المهدي السنوسي في ليبيا ، طالباً منه أن يكون واحداً من خلفائه ، وعرض عليه أما أن يأتي إلى السودان أو ينهض للجهاد ضد الانجليز الذين احتلوا مصر بعد هزيمة العرابيين . . وبلغت أصداء دعوته أرجاء الوطن العربي ، وجاء وفد من الحجاز لمبايعته ، فعين واحداً منهم والياً على الحرمين ! . . [3]

* * *

وكانت الحياة الفكرية في السودان فقيرة ، تتقاسمها فكرية القرون

---

(١) المصدر السابق . ص ٣١٥ .
(٢) المصدر السابق . ص ٣٠٣ .
(٣) المصدر السابق . ص ٧٥ . و (الحركة الفكرية في المهدية) ص ٢٩ ، ٣٠ .

الوسطى المحافظة والجامدة لدى الفقهاء الذين ارتبطوا بالدولة والنمط العثماني، وفكرية الطرق الصوفية المليئة بالخرافات . . ولقد زادت المهدية هذه الحياة الفكرية فقرا ، إذا نحن نظرنا إلى « الكم » ، ذلك أن الفكر في سودان المهدية قد أصبح وقفا على المهدي ، فهو خليفة الرسول ، ﷺ ، وإليه وحده المرجع في الفكر والتشريع ، كما كان الحال في مجتمع الرسول . . وهو قد ألغى تراث المذاهب الفقهية ، ودوّن للشعب أحكاماً فقهية لم تلتزم بمذهب واحد ، وإن وضح فيها أثر المذهب الشافعي أكثر من غيره ، كما ألغى طرق الصوفية وتراثها ، إلا ما استكن من عقائدها في فكره ، بحكم التكوين السابق على ظهور المهدية وادعائها . .

لكن هذا الفكر القليل ، من حيث « الكم » ، كان أكثر تقدماً ، من حيث « الكيف » ، فلقد اتسم بالسلفية ، بمعنى العودة إلى النصوص الأصلية ، كتاباً وسنّة ، وأسقط خرافات العصور الوسطى واضافاتها التي حجبت الجوهر البسيط والمتقدم للدين ، ثم إنه قد أعلى من قدر « المصلحة » وفتح الباب واسعاً للاجتهاد المحكوم بالمصالح المتجددة ، على هدى من الكتاب والسنّة .

فهو يعلن أنه « يقفو آثار من سلف من المهتدين السالفين ، على نهج محمد ، ﷺ » . . ويدعوا إلى عقيدة السلف في التوحيد ، وهي التي تنكر الوسائط والتوسل بالأولياء والصالحين ، أحياء كانوا أم من الأموات . . ويتحدث إلى أتباعه في (منشور البيعة) فيقول : « إن الله قد ابتلى عباده واختبر توحيدهم ، فثبتوا ولم يتزلزلوا منه إلى من لا يملك نفعاً ولا ضرا ، فانظروا ابتلاء إبراهيم ، عليه السلام ، في توحيد الله تعالى واكتفائه به فإنه كثير ، ومن جملته أنه قذف في النار ، فعارضه جبريل في الهواء فقال له : ألك حاجة ؟ فقال : أما إليك فلا ، وأما إلى الله فبلى ! . . فلما وقع في النار صارت عليه برداً وسلاماً . فكذلك من يبتليه الله ، فيصبر على رؤية توحيد الله مكتفياً به عن الاستغاثة بغيره ، يسلم كما سلم إبراهيم ، فقد أمرنا الله أن نتبع سنة إبراهيم فقال : ﴿ ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين ﴾[1] يعني اتبعوا ملة أبيكم . .

(١) الحج : ٧٨ . .

فاتبعوا ، أحبابي ، كلام الله في القرآن ولا تتبعوا ترهات فايت الزمان ، وقد بايعتموني على أن لا تشركوا بالله شيئاً . . » . .[1].

لكن التكوين الصوفي للمهدي ترك بعض عقائد الصوفية بمثابة الشوائب في هذا الفكر السلفي المتخفف من بدع القرون الوسطى وخرافاتها . . فهو يؤمن بالنور المحمدي ، الذي وجد أولاً ، ومنه كان خلق كل شيء! . .[2] بل ويؤمن أنه هو مخلوق من « نور عنان قلب الرسول » ، عليه الصلاة والسلام ، وأن الرسول قد أخبره بذلك ! . .[3]

لكننا إذا وازنا بين هذه البقايا للفكر الصوفي ، والتي ترفضها السلفية ، وبين الطابع السلفي والتجديد وفق المصالح المتجددة ، كما تجلى وطبع فكر المهدي ، رأينا السلفية المجددة هي الطابع الغالب على قسمة المهدية الفكرية ، ومن ثم رأيناها ، في هذا الميدان ، رفضاً لفكرية العصور الوسطى ، وتحدياً لنمط الفكر الذي ساد في عصر المماليك والعثمانيين، الأمر الذي يجعلها ، في الفكر ، إلى التجديد أقرب منها إلى التقليد ، ويسلكها في سلك المواقف الايجابية التي تصدت للتحدي الفكري المتخلف الذي هدد حياة الأمة في ذلك التاريخ . .

أما عداء المهدية للأتراك العثمانيين فإنه واضح وشديد . .

* فهو يطلب من أتباعه أن يتميزوا عن الاتراك في كل أمور المعاش والزي والسلوك ، ويقول لهم : « . . كل ما يؤدي إلى التشبه بالترك الكفرة اتركوه ، كما قال تعالى في الحديث القدسي : « قل لعبادي المتوجهين إليّ لا يدخلون مداخل أعدائي ، ولا يلبسون ملابس أعدائي ، فيكونوا هم أعدائي ، كما هم أعدائي » . . فكل الذي يكون من علاماتهم ولباساتهم فاتركوه !»[4] . .

(١) (منشورات المهدية) ص ٣١ .
(٢) (يسألونك عن المهدية)،و ص ٢٠٩ .
(٣) (منشورات المهدية) ص ٣٣٢ .
(٤) المصدر السابق . ص ١٦٦ .

فهنا طابع قومي لا شك فيه ، يطلب المهدي من أتباعه الرجوع إليه والتشبث به ، والتميز فيه عن الأتراك . .

* وهو يجعل قتاله للترك تنفيذاً لأمر الرسول وتحريضه ، فيقول : « لقد أخبرني سيد الوجود ، ﷺ ، أن من شك في مهديتي فقد كفر . . **وحرضني على قتال الترك . . وجهادهم**[1] . . ويفند حجج الذين يقولون أن جنود الدولة الذين يقتلهم في حروبه هم مسلمون ، وأنه سيحاسب عن قتلهم يوم القيامة ، لأن هؤلاء الجند ، جند الدولة المصرية ، التي كان يسميها « دولة الأتراك » ، إنما هم ساعون لتحقيق أهداف قيادتهم في جمع المال بالظلم والاكراه . . وكما يقول « فإن القطب الدردير قد نص في باب المحاربة على أن امراء مصر وعساكرهم وجميع أتباعهم محاربون لأخذ أموال المسلمين منهم كرها ، فيجوز قتلهم كما قال تعالى : ﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ﴾[2] الآية . . على **أن النبي أمرنا أمراً صريحاً بقتال الترك** ، وأخبرنا بأنهم كفار ، لمخالفتهم أمر الرسول باتباعنا ، ولارادتهم اطفاء نور الله تعالى الذي أراد به إظهار عدله . فكيف نسأل عنهم بعد هذا ؟! . . »[3]

وفي موطن آخر يحكي المهدي كيف أن الله قد أطلعه على مشهد من مشاهد يوم القيامة ، وأن الترك الذين قتلهم في مواقعهم القتالية قد شكوه إلى الله ، وقالوا :

ـ يا إلهنا ومولانا ، الإمام المهدي قتلنا من غير انذار ! . .

وأنه أجاب :

ـ يا رب ، أنذرتهم وأعلمتهم فلم يقبلوا قولي ، واتبعوا قول علمائهم ، وصالوا عليّ ! . .

---

(١) المصدر السابق . ص ٧٤ .

(٢) المائدة : ٣٣ .

(٣) (منشورات المهدية) ص ٣١١ ، ٣١٢ .

وكيف أن الرسول قد شهد بصدقه ، وقال للجند القتلى :

ذنبكم عليكم ، الإمام المهدي أنذركم وأعلمكم ، فما قبلتم له، وسمعتم قول علمائكم! . .

ثم يمضي فيذكر أن الرسول قد أعلمه « **أن الترك لا تطهرهم المواعظ ، بل لا يطهرهم إلا السيف** ، إلا من تداركه الله بلطفه! . . »[1]

وفي منشور آخر يتحدث عن اغتصاب الترك للدولة والسلطة دون استحقاق ، وعن طغيانهم وجبروتهم واذلالهم الناس ، ويحدث قومه فيقول : « ان الترك قد وضعوا الجزية في رقابكم ، مع سائر المسلمين . . وكانوا يسحبون رجالكم ويسجنونهم في القيود ، ويأسرون نساءكم وأولادكم ، ويقتلون النفس التي حرم الله بغير حقها ، وكل ذلك لأجل الجزية التي لم يأمر الله بها ولا رسوله . . فلم يرحموا صغيركم ، ولم يوقروا كبيركم » . .

ثم يحدثهم عن انتصاراتهم ، بقيادته ، على هؤلاء الترك الذين سبق وأهانوهم وأذلوهم . . ويطلب منهم أن لا يتخلفوا عن فريضة الجهاد[2] . .

ونحن إذا تجاوزنا عن القوالب الأسطورية التي صبت فيها هذه الأفكار ، وعن الخلاف في تعليل قوالبها هذه ، وهل كانت « رؤية » صوفي ، أم أداة واعظ لا سبيل لاستنهاض قومه بغيرها من الأدوات . . إذا تجاوزنا ذلك ، فإننا واجدون أنفسنا أمام فكر إسلامي قومي وطني ، يرفض السلطة العثمانية ، ويؤكد على أن السودانيين هم قوم غير الأتراك . . وهنا ، ومن هذا الباب ، تدخل المهدية إلى ساحة الفكر القومي الذي تصدى « للعثمانية » و« التتريك » فيما تصدى له من تحديات . .

* * *

على أن الحديث عن المهدية، ومكانها من حركة اليقظة للانسان العربي

---

(١) المصدر السابق . ص ٣٣١ ، ٣٣٢ .

(٢) المصدر السابق . ص ٤١ ، ٤٢ .

في العصر الحديث ، لا يمكن أن يكتمل إلا إذا نحن عرضنا لفكرة شاعت ، رغم خطئها ، في كل الدراسات التاريخية التقليدية ، عن السبب الأساسي في قيام هذه الحركة . . ففي المدارس يتعلم التلاميذ ، وفي المصادر يقرأ الباحثون أن سعي الحكومة المصرية - مدفوعة بعوامل دولية - إلى الإلغاء الفوري لتجارة الرقيق ، قد كان واحداً من أهم أسباب قيام الثورة المهدية ، فهي - في هذا الرأي - قد كانت ثورة النخاسين وتجار الرقيق ، الذين استثمروا سلبيات الحكم ومظالم السلطة لحشد الشعب حول الثورة التي أرادوها سبيلاً لاطلاق يدهم في النخاسة وتجارة الرقيق من جديد . .[1]

لكن هذا الرأي الخطير ، والشائع ، فضلاً عن خطئه ، فأنه يحجب عن القارىء والباحث قسمة نراها من أهم وأبرز قسمات الحركة المهدية . . لأنه يقدمها : ثورة نخاسين وأثرياء ، بينما كانت ، في الأساس وقبل كل شيء ، ثورة شعب ، وانتفاضة المعدمين والفقراء من هذا الشعب بالدرجة الأولى . . وهو يطمس كذلك نظامها الاجتماعي وفكرها في قضايا الثروة والأموال ، الذي ندهش عندما نستخلص معالمه وقسماته من واقع التطبيق الذي أقامته الثورة ، ومن وثائقها الأصلية المتمثلة في منشورات المهدي بالذات . .

* فكما نعلم . . لقد بدأ المهدي صوفيا . . والنواة التي تبعته في البداية كانت من عامة الناس وجمهور الفقراء . . والذين هاجروا إليه في جبل قدير قد تركوا ما يملكون ويحوزون ، أما الذين تشبثوا بالثروات والوظائف والرواتب ، فانهم كانوا هم أعداء المهدي والمهدية . . ولقد كان خصومه يعيبون عليه ، في مناظراتهم معه ومراسلاتهم إليه ، أن عامة أنصاره هم الفقراء والمساكين ، وكان يرد عليهم مفاخراً بذلك ، ومقارناً حاله في هذا بحال الدعوة الإسلامية على عهد الرسول ، عليه الصلاة والسلام . . ومن كلماته في ذلك : « . . إن حب الوظائف والأموال والمتع هو الذي عطل الدين واستقامة المسلمين . . ولولا الفقراء والمساكين والأغنياء الذين تجردوا عن الدنيا لما تقوم هذا الأمر . . ولقد

(١) (مصر والسودان) ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ .

جعـل الله المزيـة للفقراء دون الأغنيـاء . . وبيّن أنهم هم الشـاكـرون لنعمتـه ، حيث آثروا نعمة الدين بفوات أموالهم وفراق أحبابهم وتحمل الشـدائد . . » . . وهؤلاء « الفقـراء ، الحافـون ، ذوي الثياب غـير النظيفـة ، والشعر الأشعث ، الجياع . . هـم المقدمون عند الله ، يلحقون النبي قبل غيرهم ، ويدخلون الجنـة قبل الأغنياء بخمسمائة سنة ، وتعلو درجاتهم في الجنة درجات الأغنيـاء كما تعلو عن الأرض نجوم السماء !. . » .

وللذين قالوا : إن أتباع الثورة هم من « البقارة والجهلاء والأعـراب » قال المهـدي : « إن أتباع الـرسل من قبلنـا وأتبـاع نبينـا محمـد كـانـوا هم الضعفـاء والجهـلاء . . أما الملوك والأغنيـاء وأهل التـرفّه فلم يتبعـوهم إلا بعد أن خـربوا ديارهـم وقتلوا أشرافهم وملوكهم بالقهر ، كما قال تعالى ، حاكيا عن قوم نـوح: (وما نراك اتّبعك إلا الذين هم أرذالنا بادي الرأي﴾[١] وقال تعالى ﴿ وما أرسلنا فـي قريـة من نذير إلا قال مترفـوها أنـا بما أرسلتم بـه كافـرون وقالـوا نحـن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين ﴾[٢] . . . ولقد قـال أهل الغنى والـطغيان عن اتبـاع نبينا : انهم الأجـلاف الاعراب ، عـراة الأجساد ، جيـاع الأكباد . . فلم ينفعهم غناهـم ، بـل ضـربت عليهم الذلة والمسكنة . . وجعلهم الله غنيمة لضعفاء الأعراب الـذين كانـوا يستهزئـون بهم . . وكذلـك نرجـو الله أن يكون الأغنياء ، ومن وراءهـم ، غنيمة للبقارة والجهلاء والأعراب !. . »[٣] .

* لكن خصوم المهدي يجـادلونـه ويقولـون له أن من صحـابة الـرسول ، ﷺ ، من كانوا أغنيـاء ، ومن كانت بيـدهم تجارات و« أسبـاب » تسبب ثروات وأموالاً . . وهو يرد عليهم بأن من حصّل الغنى والثروة من الصحابة إنمـا حدث له ذلك بعد أن ترك الغنى وأسبابه ، وانخرط ، فقيراً ، في الـدعوة ، وهـاجر ، فقيراً ، في سبيلها ، فهو قد تطهر وتعمد بالفقر أولاً . . ثم باشـر نفر منهم بعـد ذلك « الأسباب » . . ثم أنهم بعد تحصيل المال قد جعلوه فـي « أيـديهم »، ولـم

(١) هود : ٢٧ .
(٢) سبأ : ٣٤ ، ٣٥ .
(٣) (منشورات المهدية) ص ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٤ .

يجعلوه في « قلوبهم » ، وظلوا حريصين على انفاقه في مواطنه على النحو الذي يؤكد أن علاقتهم به هي علاقة « الخلفاء » « المستخلفين » فيه ، لا المالكين له ، الأحرار في انفاقه كما يهوون ويشتهون . . بل لقد روى المهدي أحاديث تتحدث عن المصاعب التي سيلاقيها صحابي جليل كعبد الرحمن بن عوف في الدخول إلى الجنة ، لا لشيء إلا لغناه ! . . يقول المهدي حول هذه القضايا : « وأما الصحابة الذين باشروا الأسباب ، فلم يدخلوا فيها إلا بعد الخروج عن كل شيء ، حتى تمكن نور الإيمان في قلوبهم . . ومن كانت عنده منهم أسباب فهي إنما كانت في أيديهم ، لا في قلوبهم . . وكانوا عليها كالوكلاء ، ينفقونها حسب أوامر موكلهم ومولاهم ، ولذا قال لهم ربهم : ﴿ وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ﴾[1] ولم يقل : وانفقوا مما ملكتموه! . . وقال ﷺ : آخر أصحابي دخولاً الجنة عبد الرحمن بن عوف ، لمكان غناه . . وهو أول من يدخل الجنة من أغنياء أمتي ! . . »[2]

فهي ، إذن ، حركة فقراء ، وثورة معدمين ، وليست ثورة النخاسين وتجار الرقيق . .

* وفي البيعة التي عقدها الناس للمهدي كانوا يعطونه أنفسهم ، تتصرف قيادته فيها ، مثلما كانت بيعة الناس للرسول ، عندما أصبح أولى بأنفسهم منهم ! . . وكانوا يعطونه أيضاً حق الملكية فيما لديهم من أموال ، قلت أو كثرت ، أما الانتفاع فإن حقهم فيه يقف عندحدود الاحتياجات دون اسراف أو تبذير . . وهو يحدثهم عن الحقوق المالية التي ترتبها البيعة له ، أي لدولته ، فيقول : « لقد علمتم أن من صدق مع الله في بيعته في نفسه وماله . فبمجرد بيعته خرج عن حكم نفسه ، فضلاً عن ماله . . والمال تحت يده أمانة لله ورسوله ، حيث بذله لله وصار ملكاً لنا . . فالبيعة أخذت منه نفسه وماله لله ، باعهما بالجنة . . وبائع السلعة لا يلتفت اليها بعد أن عين له الثمن ورضي به ! . . فلا تمسكوا شيئاً من أرزاق الدنيا لتكنزوه وتدخروه . . بل ابذلوها في

---

(١) الحديد : ٧ .

(٢) (منشورات المهدية) ص ٣٣ ، ٣٤ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ . .

الله ، وتجهزوا بها للجهاد . . وإن خطر ببالكم خلاف ذلك ، وأبت نفوسكم أن تطمئن بالبذل فليكتب كل منكم ما ملكت يداه ويسلمنا جريدة أمواله ! . . »[1]

* أما الأرض الزراعية ـ (الطين) ـ في مجتمع السودان الزراعي ، فلقد أقر المهدي حق الملكية فيها ، على أن لا يتجاوز ذلك القدر الذي يستطيع الفلاح أن يفلحه بنفسه ، وطلب من أتباعه أن يتنازلوا عن ما زاد عن هذا القدر لمن يستطيع زراعته من اخوانهم ، ومنع بيعه ، وحرم اجارته ، وقالت منشوراته في ذلك : « . . فمن كان له طين فليزرع فيه ما استطاع زرعه ، وإذا عجز أو لا احتياج اليه ، فلا يأخذ فيه « دقندي » ـ (وهي ضريبة عينية يدفعها الزارع لصاحب الأرض) ـ لأن المؤمنين كالجسد الواحد . . وإن كل مؤمن ملكه من الطين له ، ولكن من باب احراز نصيب الآخرة ، فما لا يحتاج إليه يعطيه لأخيه المؤمن المحتاج . . »[2]

* وغير الأموال والثروات المنقولة ، والأرض الزراعية الواقعة في حيازة الأفراد وملكيتهم ، كانت هناك مصادر الثروة ذات الأهمية العامة ، والتي ترتبط بها احتياجات جمهور الأمة وعامة أهلها . . وهذه قرر المهدي أن تكون ملكية عامة للأمة ، ترصد مواردها على الانفاق العام . . ولقد شمل ذلك ، بيْن ما شمل : الدكاكين ، والوكالات التجارية ، والقيصريات ، والمعاصر ، والطواحين ، والبنوك التي كانت بالبحر[3] ، ومواني السفن ـ (المشارع) ـ والحدائق . . وما ماثلها . . وعن مصادر الثروة العامة هذه ، وقرار المهدي جعل ملكيتها عامة للأمة تتحدث منشوراته فتقول : « . . إن المقصد هو إقامة الدين ، وإزالة الضرورة عن كافة المسلمين . . **فيلزم لذلك أن يفرغ الاخوان جميع المواضع التي تنتج منها المصالح جميعاً ، ولا يعرض لها أحد من الانصار ، وذلك : جميع الدكاكين ، والوكالات ، والقيصريات ، والعصاصير ، والطواحين ، والبنوك التي كانت بالبحر للايجار . ولو كانت مسكونة فيخرج**

(١) المصدر السابق . ص ٢٢٨ ، ٢٤٥ ، ١٦٤ .
(٢) المصدر السابق . ص ١٩٦ ـ ١٩٧ .
(٣) لعلها الأرصفة ، فلم يكن بالسودان يومئذ بنوك (مصارف) .

منها من هو ساكن بها، لما يترتب عليها من مصلحة عامة المسلمين من ضعفائهم ومجاهديهم . . حيث أن كل من هو ساكن بتلك المحلات يمكن أن يتدارك له مسكناً . . ولا يؤخر مصلحة المسلمين . . وأنه ، أيها الأحباب ، لما كانت المشارع - (مرافىء السفن) - بهذا الزمن في هذه الجهات كالفيء ، ونحن لا نريد بالأفياء إلا مصلحة المجاهدين والمساكين ، ولا نرضى لمسلم أن يكون همه الدنيا والجمع لها . والمعلوم أن المشارع فيها أموال جسيمة ، وكل من استولى على مشرع جمع فيه مالاً كثيراً ، ولا يجهز فيه غزوة ولا سرية ، واستضر بكنزه ، فلذلك استصوب عندنا ، مع المشورة المسنونة ، أن نكتب إلى كافة المحبين أن يرفعوا أيديهم عن المشارع . . فلا نريد لمسلم بعد هذا أن يستخدم المشارع لنفسه ، وإذا كانت له مركب فلا سبيل عليه . . **ومن انضم للجهاد معنا فله ضرورته، والزائد على الضرورة إنما هو على العبد لا له!** . . وحيث أن من الذي رزقه الله لنا : الجناين . . فيجب أن يقوم الولاة بنظارتها، ويعين لكل جنينة قيّم يقوم بشأنها ، وذلك بالتشاور مع أمين بيت المال . . وكذلك ، فقد جعل الرسول ، ﷺ ، لنا : **أن ما هو من الميري وبيوت الكبار والذوات من التجار ومستخدمي الديوان - (اتباع الحكومة السابقة) - جعله لخصوص بيت المال (العام)** . . وأظن أن الحكمة في ذلك : أنه كانت الآيات ، في زمن النبي ، تنسخ الأيات ، على حسب مصالح الخلق ، وكذلك الأحاديث ينسخ بعضها البعض على حسب المصالح . **فلأجل أن مصالح الخلق الآن كلها متعلقة ببيت المال** . . وما دام النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، فقد أمر النبي بذلك . . »[1]

تلك هي قسمة الفكر الاجتماعي في الثورة المهدية ، تؤكد إنها ثورة فقراء ، صنعت بما فجرته من طاقات روحية في الشعب السوداني أشياء يدهش لها الباحث فيما خلفت من وثائق ومنشورات . . وهي تؤكد في كل جوانبها أنها كانت واحدة من أبرز حركات اليقظة التي تصدت بها الأمة ، في السودان ، للتحديات التي فرضها عليها أعداؤ ها في ذلك التاريخ . .

* * *

(١) (منشورات المهدية) ص ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٨ - ٢٧١ . .

لكن المهدية انتهت كدولة بعد خمسة عشر عاماً من موت المهدي ، عندما هزم جيش خليفته أمام الاستعمار الانجليزي في موقعة « كرري » في ٢ سبتمبر سنة ١٨٩٨م ، فسقطت عاصمتها أم درمان ، ثم كان مقتل الخليفة في موقعة « أم دبيكرات » في ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٩٩م . . لكنها بقيت كفكر وطريقة صوفية ، وحركة سياسية . . وإن يكن قد أصابها ما أصاب الحركة السنوسية من ابتعاد ، قليل حينا وكثيراً أحياناً ، عن فكرها البكر وتطبيقات القادة المؤسسين . .

٤ ـ النهضة المصرية . . والاستقلال الحضاري

الأمر الذي لا شك فيه أن النهضة المصرية ، التي قادها محمد علي باشا الكبير (١١٨٤ ـ ١٢٦٥هـ ١٧٧٠ ـ ١٨٤٩م) هي التي دخلت بعالمنا العربي وشرقنا الإسلامي إلى رحاب عصر اليقظة والبعث والاحياء . . العصر الحديث ! . .

لقد تطلعت مصر إلى هذه النهضة على عهد حكم علي بك الكبير (١١٤٠ ـ ١١٨٧هـ ١٧٢٨ ـ ١٧٧٣م) . . ثم جاءت الحملة الفرنسية (١٢١٣هـ ١٧٩٨ م) لتنبه الأذهان بواسطة الخطر القادم في ركاب الغزو الاستعماري ، ولتلعب دور « الماس الكهربائي » ، الذي لم يصعق ضحيته فيميتها ، ولم يكن المصدر الحقيقي ليقظتها ومبعث حياتها ، وإنما كان « المنبه » لها كي تستيقظ ، فتعي العصر وتدخل فيما يدخل فيه الأحياء المعاصرون ! . . ولقد تجسد هذا الأثر في كلمات شيخ الأزهر ، الذي خالط علماء الحملة الفرنسية الشيخ حسن العطار (١١٨٠ ـ ١٢٥٠هـ ١٧٦٦ ـ ١٨٣٥ م) التي تقول : « إن بلادنا لا بد أن تتغير ، ويتجدد فيها من العلوم والمعارف ما ليس فيها ؟! » . . ثم جاءت التجربة الاصلاحية التي قادها محمد علي لتضع أمنية الشيخ العطار في الممارسة والتطبيق ! . .

صحيح أن دعوات دينية سلفية قد سبقت النهضة المصرية هذه في بلادنا العربية ، وحاولت التصدي لخطر (التخلف الذاتي القديم) الموروث عن

العصر « المملوكي ـ العثماني » ، والذي يشلّ خطو الأمة ويكبل عقلها ، فيحول بينها وبين النهوض . . ولخطر « التقدم الغربي الحديث » ، الذي جاء في ركاب الغزوة الأوربية الحديثة ، يريد نهب خيرات الأرض ، واحتلال مواقعها الاستراتيجية وتأييد ذلك وتكريسه بمسخ شخصيتها القومية المتميزة ، وسلخها عن قسمات حضارتنا العربية الإسلامية الخاصة بها . .

لكن هذه الدعوات الدينية السلفية ، التي سبقت النهضة المصرية في الزمن ، أو واكبتها ، قد سلكت طريقاً متميزاً عن ذلك الذي سلكه محمد علي وهو يسعى ، بمصر ، في طريق النهضة والاصلاح . .

● فـ « الوهابية » ، مثلاً ، قد كانت لها الريادة ، من حيث الزمن المبكر والتوقيت الذي سبق النهضة المصرية بأكثر من نصف قرن . . فلقد تبلورت ـ كما قدمنا ـ حول داعيتها محمد بن عبد الوهاب (١١١٥-١٢٠٦هـ ١٧٠٣ ـ ١٧٩٢م) في نجد بشبه الجزيرة العربية ، وأقامت « دولتها » منذ أن تحالف ابن عبد الوهاب مع أمير « الدرعية » محمد بن سعود (١١٥٨هـ سنة ١٧٤٥م) .

● أما « السنوسية » ، فانها عاصرت نهضة محمد علي . . ثم استمرت بعدها . . فهي قد تبلورت ـ كما سبق وأشرنا ـ حول داعيتها ومؤسسها محمد بن علي السنوسي (١٢٠٢ـ ١٢٧٦هـ ١٧٨٧ ـ ١٨٥٩م) . . وأقامت « زواياها » وكونت قادتها ومريديها ، وأنجزت أعظم انجازاتها خلال القرن التاسع عشر والعقود الأولى من القرن العشرين . .

لكن . . لا السبق التاريخي ، الذي كان « للوهابية » على نهضة محمد علي . . ولا الاستمرارية التي تحققت « للسنوسية » بعد حصار أوربا والعثمانيين لنهضة مصر الحديثة ، يمكن أن يعقدا لواء ريادة الشرق إلى عصر النهضة والاحياء لهذه الدعوات . . وإنما يظل لواء هذه الريادة معقوداً لمصر ، فهي التي دخلت بأمتها العربية ، بل وبعالمنا الإسلامي إلى رحاب العصر الحديث ، وخطت لها معالم اليقظة والتنوير . .

أما سبب هذه الريادة ، فهو ما تميزت به وامتازت تلك النهضة عن تلك

الحركات التجديدية الدينية السلفية من خصائص ومميزات وفي مقدمتها :

أ ـ أن هذه النهضة المصرية قد نشأت وتبلورت في مجتمع متحضر نسبياً ، وفي مناخ يأتي ، بمقاييس التمدن والتحضر ، في طليعة دول الوطن العربي وأقاليم عالم الإسلام . . « فالدولة » ـ بل والدولة المركزية القوية ـ لها في مصر أطول عمر في تاريخ « الدولة » على الاطلاق ! . .

والطبقات الاجتماعية متبلورة إلى حد كبير . . والمواريث الفكرية قد تجاوزت « التبسيط » إلى « التركيب » . . والأزهر ـ رغم ما شابه من جمود العصور الوسطى ـ قد حفظ شعلة العلم والتعليم موقدة ومضيئة في ليل العصر « المملوكي ـ العثماني » البهيم والطويل ! . .

والوضع القائد لمصر ـ كمركز خلافة أو سلطنة ـ أو المتميز ، على الأقل ـ كولاية تتمتع بالاستقلال الذاتي ـ قد ثبت ، وفرض نفسه ، وأحدث آثاره على وضع البلاد وعلاقاتها بأقاليم الدولة الإسلامية وولاياتها منذ أن أستقل بها الطولونيون ، في عهد مؤسس دولتهم أحمد بن طولون (٢٢٠ ـ ٢٧٠هـ ٨٣٥ ـ ٨٨٤م) وألحقوا بها أقاليم أخرى في المشرق العربي . .

فلم تكن مصر : « نجد الصحراء ! . . ولا هي كانت : الصحراء الليبية؟! . .

ب ـ كما تميزت هذه النهضة المصرية ، التي قادها محمد علي باشا ، بكونها حركة « **اصلاح مدني** » قادها « **مصلحون مدنيون** »ونهضت بأعبائها كوكبة من المثقفين والعلماء والقادة والمدراء الذين تميزوا عن « المصلحين الدينيين » ، والذي لم يتقدموا إلى الأمة « كفقهاء وعلماء دين » . . فالمنطلقات للاصلاح كانت « مدنية » . . والمعايير في هذا الاصلاح كانت « مصلحة الأمة » . . والموقف من الدين ، في هذه التجربة ، قد تمثل في :

● تجنب الاصطدام « بممثليه » ، الذين رفضوا « الإصلاح المدني » ، أو تحفظوا ازاءه . . مع تركهم لعالمهم ، وترك عالمهم لهم يعيشون فيه ويفكرون له ، على نحو ما كان الحال قبل عصر النهضة والإصلاح ! . .

● وتجنب أن يأتي « الإصلاح المدني » ـ الذي سعت إليه التجربة ،

وطبقته ـ ماسا بشيء من المسلمات الدينية التي أجمع الناس على قدسيتها ، أو منكراً لأمر من الأمور التي عرفت من الدين بالضرورة ، أو مصطدماً بتصور من التصورات التي اكتسبت قداسة الدين ، وذلك حتى لا تتاح الفرصة لأعداء الاصلاح ، من علماء الدين ، لاستنفار العامة ضد هذا الاصلاح ! . .

ولم يكن موقف محمد علي هذا من الدين وعلمائه اختياراً فكرياً حراً . . فهو لم يعتمد على الإسلام في نهضته الاصلاحية ، ولم يؤسس هذه النهضة على التجديد الاسلامي والسلام المتجدد ، لا لأنه ضد الإسلام ، وضد أن ينهض الدين بدور الأساس والحافز في النهضة ، على نحو ما صنع « العلمانيون » في النهضة الأوربية ، وإنما الذي حكم موقف محمد علي هذا ، وحدد له « المصلحة المدنية» ، لا « السلفية الدينية » معياراً وإطاراً للاصلاح هو :

١ ـ أن الرجل لم يكن من علماء الدين . . وفاقد الشيء لا يعطيه ! . . ثم إنه هو الذي بدأ الاصلاح وقاده ، ولم يكن « سيفا » بيد « العمامة » كما كان حال ابن سعود مع ابن عبد الوهاب ! . .

٢ ـ أن صورة القيادات الدينية قبيل عصره ، وفي السنوات الأولى من حكمه على وجه الخصوص ، لم تكن ـ في جملتها وأغلبيتها ـ لتفرض الاحترام على من هو في مثل طموح هذا الرجل ! . . فالكثيرون من شيوخ الأزهر كانوا قد شغلتهم عائداتهم المالية من « دوائر الالتزام » و« نظارات الأوقاف » ، حتى عدوا رجال دنيا ، إن لم نقل طلاب ترف دنيوي ، يقترفون في سبيل تحصيله ما لا يليق بعلماء الدين، فضلاً عن من يتصدى منهم لقيادة الاصلاح ! . . وفي وصف الجبرتي (١١٦٧ ـ ١٢٣٧ هـ ١٧٥٤ ـ ١٨٢٢ م) لحالهم هذا يقول ـ وهو الشيخ في الدين . . وفي التاريخ الصادق ! ـ : « أنهم افتتنوا بالدنيا ، وهجروا المسائل ومدارسة العلم إلا بمقدار حفظ الناموس ، مع ترك العمل بالكلية ، وصار بيت أحدهم مثل بيت أحد امراء المماليك ، واتخذوا الخدم والمقدمين والأعوان ، وأجروا الحبس والتعذيب والضرب ، وصار دينهم واجتماعهم ذكر الأمور الدنيوية ، والحصص ، والالتزام ، وحساب الميري والفائض والمضاف ، والرماية ، والمرافعات والمراسلات . . زيادة عما هو بينهم من التنافر والتحاسد

والتحاقد على الرياسة والتفاقم والتكالب على سفاسف الأمور ، وحظوظ الأنفس على الأشياء الواهية ؟! . .[1].

وتلك حال قوم لا تغري أي مصلح أن يلتمس لديهم منطلقات الاصلاح ولا أدواته ! . .

٣ ـ وحتى الرجل الذي تميز عن هؤلاء العلماء والشيوخ بالثورية ، والارتباط بالجماهير ، وهو السيد عمر مكرم (١١٦٨ ـ ١٢٣٧ هـ ١٧٥٥ ـ ١٨٢٢ م) كان حاله وحال محمد علي باشا على نحو يجعل التعاون بينهما شبه مستحيل ، فطموحهما معاً كان بلا حدود ، الأمر الذي جعل صدامهما يأتي مبكراً جداً . . ! . . فلما خذل الشيوخ زميلهم السيد عمر ، وباعوه « بالجرايات » ونظارات الأوقاف ، مال هو الآخر إلى نصرة المماليك . كشركاء في « لعبة السلطة » ، كي يحول دون انفراد محمد علي بها ، فحدثت المفارقة العجيبة عندما انتصر الشيخ الثائر لأركان النظام الظالم القديم ـ وهو الذي سبق له وقاد الأمة ضد هذا النظام القديم ؟! ـ . . فكان أن تخلص منه محمد علي بقرارات وافق عليها « العلماء »، و« محاضر » تطوع بتزييفها هؤلاء « العلماء »! . .[2].

٤ ـ والفكرية المحافظة والجامدة التي كان عليها هؤلاء الشيوخ ، فكرية العصور الوسطى ، التي استنامت الى غلق باب الاجتهاد واستمرأت الكسل العقلي عن معاناة الخلق والابداع ، واكتفت بالحكاكات اللفظية في ترديد « المتون » و« الحواشي » و« الشروح » و« التعليقات » و« التلخيصات » و« الاعتراضات » . . الخ . . الخ . إنهذه الفكرية ما كان لها ولا لأصحابها أن يكونوا شرارة الاصلاح ولا قادته الذين يجعلون من فكرهم « ايديولوجية » النهضة ، ومن قائد مثل محمد علي اليد التي تزرع الاصلاح الاسلامي في تربة مصر وعقل الأمة ووجدانها . . **لقد كان هؤلاء الشيوخ يعيشون أسرى فكرية العصر القديم . . بينما كانت البلاد تتطلع إلى عصر**

(١) « عجائب الآثار في التراجم والأخبار » ج ٧ ص ١٤ . ١٥ ـ طبعة القاهرة ١٩٥٨ م .
(٢) المصدر السابق ج ٧ ص ٦٧ ـ ٧٦ .

جديد ، فكان الانفصام بينهم وبين هذه النهضة قدراً مقدوراً . . وصدق عليهم ، إزاء « الاصلاح المدني » ، ما صدق على محمد علي ، إزاء « الاصلاح الديني » ، فاقد الشيء لا يعطيه ! . .

هكذا تميزت نهضة محمد علي عن حركات الإصلاح الديني ودعواته . . لأنها لم تجد المصلح الديني ، الذي تواكب استنارته الدينية مجتمعاً متحضراً كمصر . . فكان أن بدأت نهضة « اصلاح مدني » إن في المنطلقات أو المعايير أو الغايات أو الأدوات . .

* * *

● في القاعدة المادية « للتمدن » ، انتقلت نهضة محمد علي بمصر إلى مرحلة جديدة ، وبلغت بها « كمية » الاصلاحات إلى حال « كيفي » جديد . .

ففي الزراعة : ألغي نظام « الالتزام » (سنة **١٢٢٩** هـ . سنة **١٨١٤** م) . . ووزعت الأرض على الفلاحين « تكليفاً » ـ من ثلاثة أفدنة إلى خمسة أفدنة ـ . . وسيطرت الدولة ، بالتخطيط ، على الانتاج الزراعي ، وتطورت المحاصيل . . وحدثت ثورة في الري والصرف ، وزادت الرقعة المزروعة أفقياً ، إلى نحو ثلاثة أمثالها . . وتحول أهل الريف من « أقنان » إلى فلاحين ! . .

وفي التجارة : أنهت سيطرة الدولة سيادة التجار الأجانب على السوق الداخلي والخارجي للتجارة المصرية . . وسدت ثغرة ضعف البورجوازية التجارية الوطنية ، التي نفذ منها التجار الأجانب للسوق التجاري . . وتطورت التجارة كمّا وكيفا . . وخضعت للمشروع الاقتصادي المستقل . .

وفي الصناعة: أقامت النهضة قاعدة صناعية ، كبرى وحديثة ، ومرتبطة بالانتاج الوطني ـ عسكرية ومدنية ـ برأسمالية الدولة وتخطيطها ، وإدارتها . . وكانت سابقة في ذلك ، كمّا وكيفا ، لليابان ، وللولايات الألمانية مجتمعة ـ ولم تكن قد اتحدت هذه الولايات الألمانية بعد ـ ؟ ! . .

وفي جهاز الدولة : بدأت البعثات العلمية ، التي درست « التمدن

الأوربـي » في النهوض بتكوين جهاز دولة حديث . . وفي تطوير الثقافـة العربيـة الاسلامية ، وزيادة بعث التراث وإحيائه ، ومواصلة المسيرة التي تـوقفت بسيادة عصـر الانحـطاط الحضـاري . . ووضـح لـرواد الثقـافـة والفكـر هؤلاء أنهم يواصلون ، في عهد محمد علي ، مهام نظرائهم في عصر الخليفة العباسي المأمون (١٧٠-٢١٨ هـ ٧٨٦ - ٨٣٣ م) كما تكوّن الجيش الحديث سنة ١٢٣٥ هـ سنـة ١٨٢٠ م لحماية النهضة وتمهيد السبيل أمامها كي تأخذ مداها .

وفي الفكر : بدأت العربية تتجاوز منحدر الـركاكـة وتتجه ، عـائدة ، إلى الفصاحة . . وشرعت المكتبة العربية تزدان بذخائر التراث العربي الاسلامي التي جاورت المترجمات الحديثة في مختلف العلوم والفنون . . وتحركت طاقات الابداع الفكري لتصنع - على الجبهة الفكرية - شيئاً عظيماً ومتميزاً . .

فكان هذا جميعه - وهو مجرد اشارة لصـرح عملاق - انجازاً غير عـادي على درب التمدن الحديث . .

* * *

● وانتقلت النهضة من « الإطار العثمـاني » إلى « الدائـرة العربيـة » ببطء وتـدريج . . فمحمـد علي والعـديد من كبـار معاونيـه هم « عثمـانيـون »، غـير عرب ، إن بالجنس أو بالثقافة . . لكنهم تناقضـوا مع الـدولة العثمـانية ، ورأوا أن ضعفهـا ، المستعصي عـلى العـلاج ، يغـري حـراس هـذا الضعف من المستعمرين الأوربيين بوراثة تركتها ، فسعوا إلى تجديدها ، فتحالفت مع حراس ضعفها ، الطامعين بوراثتها ، ضد محاولات الاصلاح ؟! . .

ثم هي قـد استعانت بمحمـد علي وجيشـه لمحاربـة الوهابيين، فـانغمس بجيشـه هذا في حـرب عربيـة ، ببلاد عـربية تسـع سنوات (١٢٢٦ - ١٢٣٤ هـ ١٨١١ - ١٨١٨ م) . . وأصبح ، بانتصاره في هذه الحرب ، هو الحامي الحقيقي للحـرمين الشـريفين ! . . **فتطلع إلى الشـام ، ولاحت في الأفق خـريـطة دولـة صـلاح الـدين الأيـوبي (٥٣٢ - ٥٨٩ هـ ١١٣٧ - ١١٩٣ م) التي كـانت طـوق النجاة من خطر قديم عاد الآن من جديد ؟! . .**

ثم إن البعثات العلمية قد كوّنت كوادر عربية للدولة ، أخذت تزامل كوكبة القادة الذين أتوا مع محمد علي إلى مصر صغاراً ، فنشأوا فيها نشأة عربية ، جعلتهم يعتزون بالعروبة ، وينفرون من الانتساب إلى الاتراك . . وفي مقدمة هؤلاء القادة ابن محمد علي ، إبراهيم باشا (١٢٠٤ ـ ١٢٦٤ هـ ١٧٩٠ ـ ١٨٤٨ م) الذي كان يستنكر نسبته التركية ، ويقول : « أنا لست تركياً ، فإني جئت مصر صبياً ، ومنذ ذلك الحين مصرتني شمسها ، وغيرت من دمي ، وجعلته دماً عربياً ! »[١] . . ومصطفى مختار بك (١٢٥٤ هـ ١٨٣٨ م)ـ أحد كبار مستشاري إبراهيم باشا العسكريين . . وناظر المعارف ، الذي يعبر عن هذه « الهوية العربية » عندما يقول : « إننا وإن كنا في الغالب مولودين في تركيا ، لكننا قد اكتسبنا الجنسية ـ (القومية) ـ المصرية بحكم التوطن . . فقد جئنا مصر قبل أن نتجاوز سن الصبا ، فلسنا الآن أتراكاً ، ولم يبق فينا ما يربطنا بهذا الشعب الذي لا يترك في طريقه أينما سار سوى دلائل الخراب . . **وقد اندمجنا في أمة أخرى أرقى وأنبل وأذكى من الأمة التركية ، اندمجنا في تلك الأمة العربية ، التي سبقت أوربا إلى الحضارة ، وازدانت أيام عزها وسؤددها بذلك العمران الذي يتجلى للناظرين في المدن الزاهرة التي أنشأتها ، والعمائر الجميلة التي أقامتها** . . »[٢] .

وبذلك تهيأت لهذه النهضة عوامل الانتقال من « الدائرة العثمانية » إلى « الدائرة العربية » ، فسعت إلى قيام الدولة العربية بإحياء القومية العربية ، وجعل العربية هي الخط الذي يحدد حدود هذه الدولة ! . . لتنقذ وطنها وأمتها من الخطر المتربص بوفاة دولة الرجل المريض ! . . »[٣] .

* * *

وكانت فتوحات محمد علي في السودان (١٢٣٥ ـ ١٢٣٧ هـ ١٨٢٠ ـ ١٨٢٢ م) . . والحملة على الشام (١٢٤٧ هـ ١٨٣١ م) وشمول

(١) د . محمد عمارة «العروبة في العصر الحديث» ص ١٤٦ طبعة بيروت ١٩٨١ م .
(٢) المرجع السابق . ص ١٤٦ ، ١٤٧ .
(٣) المرجع السابق : ص ١٣٥ ـ ١٤٧ .

النهضـة ودولتها : مصـر والسودان ، والأجـزاء العربيـة على السـاحـل الشـرقي لافريقيا ، مع الشام ، وأغلب أجزاء شبه الجزيرة العربية . . وامتداد نفوذها إلى العراق والخليج . . كان ذلك أول « إنجاز عربي » في عصرنا الحديث ! . .

● لكن . . ماذا عن علاقة هذه النهضة بالإسلام : الرسالة الخالدة لأمتنا الـواحـدة ؟ . . هـل انقـطعت الـصلة بـين « تمـدنها » وبـين « الـتمـدن الاسلامي » ؟ . . وهل كانت صورة « للتمـدن الغربي » ، أدخـل بها محمـد علي بلادنا وأمتنا في إطار « التغريب » ؟

إن البعض يرى ذلك ، فيجيب على هذا التساؤ ل بالإيجاب . . لكنه ـ في رأينا ـ يجانب الواقع ، ويجانبه الصواب ! . .

فمنذ البداية كان واضحاً أن **محمد علي باشـا يأخـذ عن أوربا « التمـدن » المـلائم لمجتمعـه الشـرقي . . ولا يـأخـذ عنهـا « القيم » أو « الثقـافـة » أو « النـظريـات » ! . . والبعثـات العلميـة التي ذهبت إلى أوربـا ، وتعلمت ، ثم عـادت لتصنع الانجـاز العـظيم ولتعـطي النهضـة روحهـا الفكـري ـ ورفـاعـة الـطهطاوي (١٢١٦ ـ ١٢٩٠ هـ ـ ١٨٠١ ـ ١٨٧٣ م) نمـوذج لها ـ قـد رأت أوربا بعين اسلامية مسلمة . . فسعت إلى « التمدن العملي » وإلى « العلوم العمليـة » وإلى « المعارف البشرية المدنيـة » وإلى « فنون الصنـاعة » ثم جـاءت بها لتجـدد « دنيـا » الأمة ، مجتهـدة في إثبات عـدم مناقضـة هـذه العلوم لما نختص بـه من « قيم » و« عقائد » وقسمـات حضاريـة مميزة لنـا . . بل وأعلنت أن أصـل هذا «التمدن البشري» هو من علوم حضارتنا في عصر ازدهارها ، أخذه الأوربيون فنهضوا به ، ثم طوروه . . وهم عندما أخذوا منا لم يأخذوا «القيم» ولا « الـدين » ولا خصائصنـا الحضاريـة ، بـدليـل أنهم استعـانـوا « بـالتمـدن الاسلامي والعربي » في نهضتهم ، ومع ذلك ظلوا متميزين حضاريـاً . . فنحن إذ نـأخـذ اليـوم « التمـدن الأوربـي » لننهض بـه لن نصبـح ، في الحضـارة ، أوربيين . . وما هي إلا بضاعتنا قد ردّت إلينا . . كما يقول الطهطاوي** ! . .

ويشهد على أن هذا كان موقف هذه النهضـة من هذه القضيـة ذلك الحكم الذي شاع في كتـابات تيـار « التغريب »، عنـد تقييم نهضة محمـد علي . . فلقـد

انعقد اجماعهم على نقده لأنه قد أخذ عن أوربا فقط « علوم الصنعة »، ولم يأخذ « القيم » و« النظريات »، ونظروا في تخصصات البعثات العلمية التي أرسلها لتتعلم هناك فوجدوا ذلك شاهداً لهم على هذا الاتجاه ، فزادوا من نقدهم هذا ؟! . .

وهذا الذي نقدوه وانتقدوه ، هو ما يشهد عندنا للرجل والنهضة التي قادها ، دون أن يشهد عليهما ! . .

وغير هذا الدليل ، الذي يشهد ، « بالسلب » على ما نقول . . نجد رفاعة الطهطاوي ـ الذي كان النموذج المجسد لنوعية العلاقة بين « تمدننا الاسلامي » وبين « التمدن الأوربي » ـ نجد فكر الطهطاوي يشهد على ما نقول « بالايجاب »! . .

لقد انفتح الرجل على « التمدن الأوربي » كل الانفتاح ، وأنجز على درب الاستفادة منه أعظم الانجازات ، وذلك دون أن يفقد هويته القومية والشرقية ، وقيمه الإسلامية الخاصة ـ بل والأشعرية المحافظة ! ـ أو يفقد خصائصه الحضارية العربية الاسلامية . .

فهو يتحدث عن أن « البلاد الأفرنجية مشحونة بأنواع المعارف والآداب التي لا ينكر انسان أنها تجلب الأنس وتزين العمران»![1]

. . ويدعو ، حتى طلاب الأزهر الشريف ، إلى دراسة ما تتيحه لنا الحضارة الأوربية من « **معارف بشرية مدنية** » و« **علوم حكمية عملية** » ، **لأن النهضة الحقيقة لابد** لها من هذا « التمدن المدني » ، الذي سيصبح « تمدنا اسلامياً » عندما يجاور ، في أرض الواقع الناهض ، عقائدنا وقيمنا وخصائصنا الحضارية . . يدعو رفاعة الطهطاوي الأزهريين إلى ذلك ، بل ويرى هذا الأمل معقوداً على انخراطهم في هذا الميدان ،فهم، بعلومهم الإسلامية ـ لغوية، ، ودينيةوأدبية ـ الذين سيحققون التوازن ، فلا تميل الكفة بالتدرج إلى صالح « التغريب الحضاري »! . .

(١) الأعمال الكاملة ج ١ ص ٩١ دراسة وتحقيق د . محمد عمارة . طبعة بيروت ١٩٧٣ م .

يقول الطهطاوي : « إن مدار سلوك جادة الرشاد والإصابة منوط بعد ولى الأمر ، بهذه العصابة - (أهل الأزهر) - التي ينبغي أن تضيف إلى ما يجب عليها من نشر السنّة الشريفة ، ورفع اعلام الشريعة المنيفة : معرفة سائر المعارف البشرية المدنية ، التي لها مدخل في تقدم الوطنية . . وإن هذه العلوم الحكمية العملية ، التي يظهر الآن أنها أجنبية ، هي علوم اسلامية نقلها الأجانب إلى لغاتهم من الكتب العربية ، ولم تزل كتبها إلى الآن في خزائن ملوك الإسلام كالذخيرة ! . . »[1] .

لقد سمع الطهطاوي ، في باريس ، ووعى قول المسيو جومار E F .Jomard (١٧٧٧-١٨٦٢م) - الذي أشرف على بعثات مصر العلمية في فرنسا - عندما خطب في البعثة التي ضمت رفاعة ، فقال لطلابها : « إنكم منتدبون لتجديد وطنكم ، الذي سيكون سبباً في تمدين الشرق بأسره . . فيا له من نصيب ترقص له طرباً القلوب التي تحب الفخر وتدين بالاخلاص للوطن . . أمامكم مناهل العرفان ، فاغترفوا منها بكلتا يديكم . . وبذلك تردون إلى وطنكم منافع الشرائع والفنون التي ازدان بها عدة قرون في الأزمان الماضية . فمصر التي تنوبون عنها ، ستسترد بكم خواصها الأصلية . وفرنسا ، التي تعلمكم وتهذبكم ، تفي ما عليها من الدين الذي للشرق على الغرب كله !؟ . . »[2] .

سمع الطهطاوي هذا القول ووعاه . . فكان ، مع جيله من بناة الحضارة المجددين لدنيا الوطن ، والباعثين لمجده ، « والمستردين لخواصه الأصيلة » . . على حد تعبير « جومار » . .

ولهذا وجدنا الطهطاوي - في ذات الوقت الذي يدعو فيه إلى هذا « التمدن المدني » - يتحفظ كل التحفظ على ما يناقض مميزاتنا الحضارية في

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٥٣٣ ، ٥٣٤ .

(٢) عمر طوسون « البعثات العلمية في عهد محمد علي ، ثم في عهدي عباس الأول وسعيد » ص ٣٣ ، ٣٤ طبعة الاسكندرية ١٩٣٤ م .

حضارة أوربا . . فحضارتنا، مثلاً، قد وازنت بين «العقل» وبين «النقل» . . بين « التوحيد » - الألوهية - وبين « الطبائع » - العلية والسببية - . . لكن عقلانية الحضارة الأوربية و« الحق الطبيعي » فيها لا يعرف هذا التوازن ، الذي هو روح حضارتنا ومزاجها . . ومن هنا كان رفض الطهطاوي لتلك « القسمات الحضارية » الأوربية . . وهو يحكي كيف أن للأوربيين في العلوم الفلسفية « حشوات ضلالية ، مخالفة لسائر الكتب السماوية . ويقيمون عليها أدلة يعسر على الانسان ردها ! . . إن كتب الفلسفة بأسرها محشوة بكثير من هذه البدع . . وليس لنا أن نعتمد على ما يحسنه العقل أو يقبحه إلا إذا ورد الشرع بتحسينه أو تقبيحه . . **فتحسين النواميس الطبيعية لا يعتد به إلا إذا قرره الشرع** ! . . »(1).

فـ « العقل » الذي يتحفظ الطهطاوي ، هنا ، على تحسينه أو تقبيحه للأشياء - ما لم يؤيد الشرع حسنها أو قبحها - هو « العقل » في الحضارة الأوربية ، المنكر « للنقل » ، والذي لا يقيم من « الوحي » اطاراً يتحرك فيه . . أما « العقل » في حضارتنا العربية الاسلامية ، ذلك الذي زامل « النقل» وتآخى معه في الهداية للانسان ، بالتوازن الذي أثمره اخاؤهما ، فهو ما تتميز به حضارتنا وتمتاز . . ولسنا مدعوين ، من قبل الطهطاوي والنهضة التي كان علماً عليها ، إلى التخلي عن هذا الذي يميزنا حضارياً ، عن الأوربيين .

* * *

لكن . .

لابد من الاعتراف بأن الأمور لم يكتمل سيرها في هذا الاتجاه . .

« فالمؤسسة الدينية » - رغم شذوذ هذا التعبير عن مقاييسنا الاسلامية ! - قد تحصنت بفكرية العصور المظلمة ، ورفضت النهضة وتمدنها . . والدولة الحديثة قد خشيت فرض الاصلاح والتطوير داخل صحن الأزهر وحصنه . . فتركت أهله وشأنهم ، وأقامت «التعليم المدني » ، الذي ابتعد شيئاً فشيئاً عن

---

(1) الأعمال الكاملة ج ١ ص ١١٤ ، ١١٥ .

الصلات القوية والخيوط المتينة التي تشده إلى الإسلام وتراثه . .

والغرب قد رمى بكل ثقله في بث اشعاعاته الفكرية ، فازداد تأثير « قيمه » و« ثقافته » وحضارته على مؤسسات الفكر والعلم والتعليم في بلادنا . . بل لقد تحالف العثمانيون مع الغرب ضد طموح نهضتنا إلى استكمال مقومات استقلالها الحضاري ،عندما استعانوا بالاستعمار على ضرب استقلال **« المشرع المصري ـ العربي » منذ سنة ١٨٤٠ م؟!. .**

ثم كانت منعطفات حاسمة ، ومراحل تحولات أساسية احتاجت فيها « الدولة » ـ كي تستجيب لضرورات الواقع الجديد ـ إلى تجديد الفكر الإسلامي ، بالاجتهاد ، وإلى تطوير « الفقه » ـ فقه المعاملات ـ لتتمكن « المؤسسة القانونية » من الفصل في المعاملات التي استجدت ، كما حدث في عصر الخديوي اسماعيل (١٢٨٠ ـ ١٢٩٦ هـ ١٨٦٣ ـ ١٨٧٩ م). . ويومها جمد أركان « المؤسسة الدينية » ، فلم يستجيبوا لرغبة « الدولة »، بل لقد اعتبروا ذلك مما لا يحل ولا يجوز ؟!. . فكان أن لجأت « الدولة » إلى القوانين الوضعية الغربية فاستوردتها ، الأمر الذي أفقد مؤسساتنا القانونية استقلالها ، وأفقد حضارتنا شرطاً من شروط الاستقلال . . وكان ذلك نموذجاً لميل الكفة ، في هذه النهضة ، نحو « التغريب » ، وبعدها عن الوفاء الحق بمتطلبات الاستقلال الحضاري الحق !. .

إن المفكر السلفي ابن قيّم الجوزية (٦٩١ ـ ٧٥١ هـ ١٢٩٢ ـ ١٣٥٠ م) يحكي لنا عن عصره المملوكي موقفاً مماثلاً ؟!. . فيصور في كتابه (أعلام الموقعين) كيف ألجأ جمود القائمين على الشريعة الاسلامية الملوك والولاة إلى التشريع للناس وفق الهوى والشهوات ؟!. . [1].

ولقد تكرر هذا المشهد في عصر الخديوي اسماعيل. .وظل يتكرر كلما **تحصن «أهل الذكر » ـ من علماء الشرع ـ بالجمود** فعاشوا خارج العصر. على

(١) اعلام الموقعين ج ٤ ص ٣٧٢ ، ٣٧٣ . طبعة بيروت سنة ١٩٧٣ م.

حين أخذ الغرب الاستعماري يسارع في **تقديم بضاعته الجاهزة والمنسقة للحكام الشرقيين ، ويبذل قصارى جهده لتكون هذه البضاعة هي البديل الذي يوضع في التطبيق !..**

* * *

هكذا سارت الأمور .. حتى دخلت أمتنا إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر ..

● **الحركات الاصلاحية الدينية السلفية : منعتها البداوة .. بداوة البيئة من أن تولي « التمدن » ما يجعله النموذج الصالح للتعليم** والوافي باحتياجات النهضة الكفيلة بمواجهة الغزوة الأوربية المسلحة بحضارتها الحديثة ، وأيضاً الوافي باحتياجات أمة تريد تعويض التخلف **وتحصين وطنها لمجابهة ما يأتي به المستقبل من تحديات .**

● **ونهضة محمد علي ـ وخاصة بعد حصارها ، وفرض القيود على استقلاليتها ـ قد حرمتها المحافظة الدينية والجمود الأزهري من فرصة تأسيس** « تمدنها » على أسس اسلامية خالصة .. فنفذ الغرب **من هذه الثغرة ، فمال « تمدن » هذه النهضة ناحية « التغريب » فلم يكن الاستقلال الحضاري الذي نريد !..**

فكان أن ظلت الأمة تبحث عن التيار الفكري الذي يجمع ، في أطروحته ، كل فضائل النهضة الحضارية ، وجميع شروط استقلالها وعندما تبلور هذا التيار في دعوة (الجامعة الاسلامية) وحركتها ، التي قادها جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ، حاربه دعاة « التغريب » ،وأنصار « الجمود » معاً ؟!.. وحالوا بين فكره في النهضة وبين أن ينتشر أو يوضع في التطبيق !..

لكن ذلك لم يمنع من أن يكون هذا التيار ـ «السلفي ـ العقلاني المستنير»ـ هو أكثر تيارات التجديد ، التي عرفتها أمتنا حديثاً ، استجابة لمتطلبات الاستقلال الحضاري لأمتنا العربية الإسلامية ..

٥ ـ وتيار : فلنبدأ من حيث انتهت أوربا في التمدن المدني

وعلى حين جاءت حركات اليقظة والتجديد الدينية في إطار سلفي ، منه تصدر وتنطلق ، وبالعودة إليه تبشر ، على تفاوت بينها اقتضته البيئة وطبيعة التحديات التي واجهت كلا منها . . فإننا واجدون بمجرى تيارات اليقظة والتجديد التي واجهت بها أمتنا التحديات التي فرضت عليها ، تياراً آخراً متميزاً عن هذه الحركات والدعوات والسلفية إلى حد كبير ، ووثيق الصلة بنموذج محمد علي باشا في النهضة والتجديد . . ذلك هو التيار الذي اقترب رواده وأعلامه من الحضارة الأوربية الحديثة ، فتأملوها بعقولهم ولمسوا الروعة والعظمة فيما حققته لأهلها من انجازات ، وخاصة في ميادين التمدن المدني وعلوم التقدم الدنيوي وفنون العمران . . .

ورواد هذا التيار وأعلامه في الوطن العربي كثيرون ، ويمثلهم ـ إذا وقف بنا المقام عند الأمثلة ـ رفاعة رافع الطهطاوي . . وخير الدين التونسي . .

* رفاعة رافع الطهطاوي (١٨٠١ ـ ١٨٧٣م) :

هو شيخ من صعيد مصر ، درس في الأزهر ما بين عامي ١٨١٧ و١٨٢٢م . . واشتغل بالتدريس بالأزهر أيضاً من سنة ١٨٢٢ حتى سنة ١٨٢٤م . . وكان واحداً من المقربين إلى شيخه حسن العطار ، ذلك الشيخ الذي اقترب من علماء الحملة الفرنسية على مصر ، وأبصر امتلاكهم لعلوم غريبة عن الواقع العربي المعاصر ، وان لم تكن أصولها غريبة عن تراث الأجداد ، فأدرك أن التصدي للتحدي المفروض لا بد له من تغيير عميق وشامل تمتلك فيه الأمة وبه أسلحة هؤلاء الخصوم ، وعبَّر عن ذلك في كلماته الموجزة : « ان بلادنا لا بد أن تتغير ، وأن يتجدد بها من العلوم والمعارف ما ليس فيها ! » .

فلما طلب محمد علي باشا من الشيخ العطار أن يرشح له واعظا للجيش ، رشح له تلميذه رفاعة الطهطاوي ، فشغل هذا المنصب من سنة ١٨٢٤م حتى سنة ١٨٢٦م . . . ولما استعدت أهم البعثات العلمية المصرية للسفر إلى

باريس ، كي تدرس علوم الحضارة الأوربية وفنونها في أكثر مراكز أوربا تطورا واستنارة يومئذ ، طلب محمد علي تعيين واعظ يعظ أعضاءها ويؤمهم في الصلاة ، فرشح الشيخ العطار لهذه المهمة الشيخ رفاعة . . وأوصاه أن يفتح عقله وعينه على ما يشاهد في بلاد الفرنجة ، وأن يدون مشاهداته على نحو ما صنع الأسلاف من كتّاب الرحلات : ناصري خسرو (٣٩٤ - ٤٥٣ هـ ١٠٠٣ - ١٠٦١م) وابن جبير (٥٤٠ - ٦١٤ هـ ١١٤٥ - ١٢١٧م) وابن بطوطة (٧٠٣ - ٧٧٩هـ ١٣٠٤ - ١٣٧٧م) وغيرهم من جوّابي الآفاق ! . .

وفي باريس مكث الطهطاوي من سنة ١٨٢٦ حتى سنة ١٨٣١م . . لكنه لم يقف عند إمامة الصلاة والدين ، بل درس الفرنسية منذ أن وطئت قدمه أرض السفينة التي أبحرت به من الاسكندرية ، وانخرط في سلك طلاب البعثة ، ودرس علوم الحرب والهندسة والمعادن والقانون ، وتخصص وبرع في الترجمة ، وألف كتاب رحلته (تخليص الابريز في تلخيص باريز) الذي صار أشهر كتب الرحلات العربية في العصر الحديث ، وأول نافذة أطل منها العقل العربي على الحضارة الأوربية الحديثة . .

وبعد عودة الطهطاوي إلى مصر تكونت ونمت من حوله مدرسة الفكر المصري الحديث ، وصبّت في مجراها المؤسسات التعليمية التي أقامها أو أشرف عليها . . وبدأت ثمار فكر هذه المدرسة ، ترجمة وتأليفا وتحقيقا ، تعرف طريقها إلى المكتبة العربية بواسطة مطبعة بولاق ، حتى لقد قدموا لهذه المكتبة خلال أربعين عاما أكثر من ألفي كتاب ، فيها قسم كبير من عيون الفكر الفرنسي المتقدم ، بينما لم تتعد المطبوعات العثمانية خلال أكثر من قرن (١٧٢٨ - ١٨٣٠م) الأربعين كتابا ، أغلبها في الشعوذة والخرافات ! . .[١] كما قدم رفاعة ومدرسته الفكرية نموذج « المثقف - رجل الدولة » الذي مارس كل نشاطاته التنويرية من خلال الدولة وأجهزتها ، لأن دولة محمد علي كانت يومئذ هي جهاز

---

(١) انظر الدراسة التي قدمنا بها (الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي) ج ١ ص ٦٩ ، ٧٠ . طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م .

التنوير الوحيد في البلاد ! . . ومن ثم فلقد جاء فكر هذه المدرسة ، إلى حد كبير ، تعبيرا عن اتجاهات هذه الحركة التنويرية والتحديثية التي بدأت بالشرق العربي مع قيام الدولة المصرية المدنية الحديثة سنة ١٨٠٥م ، وهو التاريخ الذي دخل بالمنطقة إلى رحاب العصر الحديث . .

ولقد كان نصيب الطهطاوي ، الكاتب والمترجم ، في هذا البناء كبيرا . . فهو قد ألف عشرين كتاباً، وترجم ستاً وعشرين ، وفيها ارتاد الآفاق الجديدة ، وبها عبرت الثقافة العربية من العصور الوسطى إلى عصر اليقظة والتنوير .

وعلى عكس حركات التجديد السلفية ، التي كانت تحذر مخالطة الأوربيين ، فضلا عن التفاعل معهم والأخذ عنهم ، لأنها كانت تعيش في اطار الفكر القديم الذي استقر منذ العصور الوسطى ، والذي يقسم الناس إلى : « مؤمنين » و « كفار » ، على عكس هذا الموقف دعا الطهطاوي إلى مخالطة الأوربيين والتفاعل مع حضارتهم ، والاقتداء بهم والأخذ عنهم فيما لا يخالف الشريعة والدين . . ولقد قدم لهذه النتيجة بمقدمات قسم فيها البشر تقسيما جديدا ، لا يقوم على معايير ، « الكفر » و « الايمان » ، وإنما يقوم على معايير « التحضر » « والخشونة » ! . . فالناس عنده مراتب ثلاث : -

١ - الهمل المتوحشون .

٢ - والبرابرة الخشنون . .

٣ - وأهل الأدب والظرافة والتحضر والتمدن والتمصر . .[١].

وهو يضع عددا من الشعوب « المؤمنة » بالاسلام في مرتبة « البرابرة الخشنين » ، بينما يضع الأوربيين في مرتبة أهل الأدب والظرافة والتحضر والتمدن والتمصر . . وهو يعتبر مخالطتهم والتفاعل معهم « المغناطيس الذي يجلب المنافع . . فمخالطة الأغراب ، لا سيما إذا كانوا من أولي الألباب ، تجلب للأوطان من المنافع العمومية العجب العجاب» . .[٢] . . وهو يعتبر أن الصلات

(١) (الاعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي) ج ٢ ص ١٦ .
(٢) المصدر السابق . ج ١ ص ٣٩٨ .

التي عقدت بين مصر وبين الحضارة الأوربيـة ، في عهد محمد علي ، واحدة من أهم الانجازات ولو لم يكن لمحمد علي فضل سواهـا لكفاه بها فخرا ، لأنها هي التي جددت شباب الأمة ، وأعانتها على الانتصار على ذلـك التحدي المتمثـل في فكـر العصور المظلمة » . . فلو لم يكن لمحمـد عـلي مـن المحاسن إلا تجـديـد المخالطات المصرية مع الدول الأجنبية ، بعد أن ضعفت الأمة المصريـة بانقطاعها المـدد المديـدة والسنين العـديدة ، لكفـاه ذلك ، فلقـد أذهب عنها داء الـوحشة والانفـراد ، وآنسها بـوصـال أبنـاء الممـالـك الأخـرى والبـلاد ، لنشـر المنـافـع العمومية ، واكتساب السبق في ميدان التقدمية . . »[1]

والطهطاوي إذ يواجه فكرية العصـور الوسـطى ، بالتفـاعل مـع الحضارة الأوربيـة ، والأخذ عنها ، يمضي ناقدا قيم تلك الفكرية القديمـة . . فهو يـدعو إلى حماية الدين ، والاعتزاز به ، ولكنه يكره التعصب له ، وخاصة إذا كان هذا التعصب من الدولة ، ذلك « أن الملوك إذا تعصبوا لدينهم ، وتداخلوا في قضـايا الأديان ، وأرادوا قلب عقائد رعاياهم المخالفين لهم ، فإنما يحملون رعاياهم على النفاق ، ويستعبدون من يكرهونه على تبديل عقيدته ، وينـزعون الحـرية منـه ، فلا يوافق الباطن الظاهر ، فمحض تعصب الانسان لـدينه ، لإضـرار غيره ، لا يعدو إلا مجرد حمية ، أما التشبث بحماية الدين لتكون كلمـة الله هي العليا فهـو المحبوب المرغوب » .[2]

والأمر الذي لا شك فيه أن الطهطاوي ، وهو يبشر بهذا الفكر ، إنما كان يدين فكرية العصور الـوسطى وسلوك سـلاطينها ، ويعبـر عن تأثـره بالليبـرا الأوربيـة ، وان يكن فكره هـذا ، عند التـأمل ، هـو الفكر الأصيـل لشـريـ الاسلام المنحازة تماما إلى حرية الضمير في الاعتقاد ، والمعـادية تمـاما لـلإكراه في الدين ! . .

وهو يحدث قومه عن قضية أنستهم اياها عصورهم المظلمة . . قضيـة من

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٤٤١ ، ٤٤٢ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٥٥٦ ، ٥٥٧ .

هم « العلماء » ؟ ! . . فهم لم يعــودوا يعـرفــون من العلم إلا علم الـدين ، و « العلماء » عندهم هم شيوخ الأزهـر فقط ، وهؤلاء الشيوخ لا يـدرسـون إلا العلوم الأدوات ، ولا حظ لهم من علوم المقاصد والغايات ، وخاصة العقليـة منها . . وهو يستخدم ابراز الواقع الحضاري للحضارة الفرنسية في هـذه القضية لنقد الواقع المحلي ، والاشارة إلى ما هو أمثل ، فيقول لقارئه : « . . ولا تتوهم أن علماء الفرنسيين هم القسوس ، لأن القسوس إنما هم علماء الدين فقط ، وقد يوجد من القسوس من هو عالم أيضاً ! . . وأمـا ما يطلق عليه اسم العلماء فهـو من له معرفة في العلوم العقلية . . فإذا قيل في فـرنسا : هـذا الانسان عـالم ، لا يفهم منه أنه يعرف في دينه ، بـل أنه يعـرف علما من العلوم الأخر . . وسيظهر لك فضل هؤلاء النصارى في العلوم عمن عداهم ، وبذلك تعـرف خلو بلادنـا عن كثـير منها ، وأن الأزهـر وجامـع بني أمية ، بـالشام ، وجـامع الـزيتـونـة ، بتونس ، وجامـع القرويـين ، بفاس ، ومـدارس بخارى ، ونحـو ذلك ، كلهـا زاخرة بالعلوم النقليـة ، وبعض العلوم العقلية ، كعلوم العـربية والمنـطق ونحوه من العلوم الآلية . . »[١]

ويقتحم الطهطاوي على الشرق عالم « الحريم » ! . . فيبشر بتساوي المرأة والرجل إلا في ذلك « الفرق اليسير الذي يـظهر في الـذكورة والأنـوثة ومـا يتعلق بهـما . . »[٢] . . ويـطلب تعليم المـرأة منـذ سنـة ١٨٣٦م . . بـل ويـدعـو إلى اشتراكها في العمل الذي تطيقه ، مثلها في ذلك مثل الرجال، لأن عملها يصونها عن الانحراف ، ويقربها من الفضيلة ، على عكس فكرية العصـور الوسـطى في هـذا المـوضـوع « . . فيمكن للمـرأة ، عنـد اقتضـاء الحـال ، أن تتعـاطى من الاشغال والاعمال ما يتعاطاه الرجال ، على قدر قوتها وطاقتها ، فكل ما يطيقـه النسـاء من العمل يبـاشرنـه بأنفسهن ، وهـذا من شأنـه ان يشغـل النسـاء عن البطالة . . فالعمل يصـون المرأة عـما لا يليق ، ويقربهـا من الفضيلة ! » . .[٣]

---

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٦١ .
(٢) المصدر السابق . ج ٢ ص ٣٥٦ .
(٣) المصدر السابق . ج ٢ ص ٣٩٣ .

بل لقد جعل الطهطاوي من احترام المرأة في المجتمع ، وحصولها على حقوقها كانسانة ، معيارا لما عليه المجتمع من التمدن والتحضر ، « فكلما كثر احترام النساء عند قوم كثر أدبهم وظرافتهم . فعدم توفية النساء حقوقهن ، فيما ينبغي لهن الحرية فيه ، دليل على الطبيعة المتبربرة ! . . »

ومن نظم العصور الوسطى وقيمه ، التي كانت تمثل تحديا لحركة الاستنارة والتطور يومئذ : النظام الاقطاعي ، الذي كانت تتربع على قمته بمصر يومئذ طبقة الشراكسه المعادية للعروبة والعنصر الوطني . . ولقد كانت قيم هذه الطبقة عقبة في طريق حركة التنوير واليقظة ، كما كان الاقطاع كنمط انتاجي في الزراعة ، وما يرتبط به من علاقات ظالمة بين الفلاح المصري الكادح وبين الاقطاعي المتبطل ، كان هذا الاقطاع عقبة امام دخول المجتمع إلى رحاب النمو الرأسمالي ، الذي عرفته أوربا ، والذي صنع ، بروح العلم والعقلانية والاستنارة ، الحضارة التي أعجب بها الطهطاوي . . وعلى الرغم من أن الطهطاوي قد امتلك من الأرض مساحة كبيرة إلا انه انحاز إلى صف العمل الزراعي ورجح كفته على كفة « حق الملكية » الزراعية ، فتساءل : « هل منبع الغنى والثروة هو الأرض ؟ . . أو أن الشغل هو أساس الغنى ومنبع الأموال المستفادة ؟ وكانت اجابته حاسمة في الانحياز إلى العمل ، الذي رآه العنصر الذي يعطي الاشياء قيمتها : « . . **ان الشغل يعطي قيمة لجميع الاشياء التي ليست متقومة بدونه . . فالمدار على العمل في الرواج . . وهو منبع السعادة الأولى . . ولو زرعنا أرضا خصبة ، وميزنا ما يمكن ان ينسب من ايرادها للعمل ، وما ينسب للخصوبة منه ، وفرزنا كلا على حدة وجدنا العمل أقوى من محصول الخصوبة . .** »[1]

ولم يكن الطهطاوي ، بهذا الحديث المنحاز للعمل الزراعي ضد عائد الملكية الزراعية ، مفكراً اشتراكياً ، كما توهم البعض ، لأنه قد انتقد ، صراحة ، الفكر الاشتراكي عندما هاجم سان سيمون Saint

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٣١٠ - ٣١٢ .

Simon (١٧٦٠ ـ ١٨٢٥م) وأفكـاره ، وعندمـا عمم هجومـه على كـل الفكر المماثل في التـاريخ ، عنـد القرامـطة والمزدكيـين . . [١] وإنما كـان داعية لازاحـة الاقطاع ، الذي أصبح عقبة في طـريق النظام الـذي رآه ـ بصدق ـ أكـثر النظم تقدما يومئذ بالنسبة للمجتمع ، وهو التنمية على أساس رأسمالي فهـو يدعـو إلى اقامة الشركات المسـاهمة « الشـركات السُّلْمِيَّة » ، وإلى انشاء البنـوك « جمعيات الاقتـراضات العمـومية » التي « بهـا تتقدم التجـارة والزراعـة ، وترتقي الـدولـة والملة . . [٢] . . » كما يعتبر الحرية الاقتصـادية ـ (الليبـرالية الاقتصـادية) ـ كـما كانت عليها في أوربـا يومئذ أعظم الحريات التي يطمح إليها المجتمع ، فيقول : « ان أعظم حرية في المملكة المتمدنة : حرية الفلاحة ، والتجارة ، والصناعـة . فالترخيص ـ (الاباحة)ـ فيهـا من أصول فن الادارة الملكيـة ، وقد ثبت بـالأدلة والبراهين أن هذه الحرية من أعظم المنـافع العمـومية ، وأن النفـوس مائلة اليهـا من القرون السالفة ، التي تقدم فيها التمدن ، إلى هذا العصر . . »[٤]

فهـو مع « العمـل » أكـثر ممـا هـو مـع « الملكيـة » إذا كـان الحـديث عن « الأرض » ، لأنه ضد الاقطاع ، يريد أن يزيحه من الطريق بعد أن أصبح عقبة أمام التطور الرأسمالي الذي دعا إليه ، قاعدة مادية للمجتمع في الاقتصاد ، وإلى التنـوير الـذي صاحبـه ، قيما وبنـاء علويا للمجتمـع الحـديث . . وهـو ، بهـذه الدعوة ، إنما كان مبشـرا بعصر جـديد ، وداعيـة لازالة آثـار العصور الـوسطى والمظلمة ، في الاقتصاد وفي القيم والافكار . . وعندما دعـا بدعـوته هـذه كانت التجربة الأوربيـة تمـلأ منه السمع والعقل والفؤاد .

وتبعـا لهذه الليبـرالية الاقتصـادية ، ولـزومـا لهـا ، دعـا الـطهـطاوي إلى الليبرالية السياسية، وهو في هذا الميـدان قد تصدى ـ وإن على استحيـاء ـ لنمط الحكم الشـرقي في التفـرد بـالسلطة والاستبـداد بمقـاليـد الأمـور . . فهـو يغـري الحـاكم بحكم شعب من الأحرار الـطائعين اختيـارا ، لأنهم أفضـل من العبيـد الذين يخضعهم الخوف للسلطان « فمن ملك احراراً طائعين كان خيـرا ممن ملك

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ٥٣٦ ، ٥٣٧ .
(٢) المصدر السابق . ج ١ ص ٥٧٩ .
(٣) المصدر السابق . ج ٢ ص ٤٧٥ .

عبيدا مروعين ! . .[1] » ـ وهو يدعو قومه إلى نمط الحرية كما عرفته المجتمعات الأوربيـة المتحضرة والمتقـدمة يـومئذ ، « ذلـك لأن حقوق جميـع أهـالي المملكـة المتمدنة ترجع إلى الحرية . . والانسان الحر يبـاح له أن ينتقـل من دار إلى دار ، ومن جهة إلى جهة ، بدون مضايقة ولا اكراه مكره ، وأن يتصرف كـما يشاء من نفسه ووقته وشغله ، فلا يمنعه من ذلك إلا المانع المحدود بالشرع ـ (القانون) ـ أو السياسة ، مما تستدعيه أصول مملكته العادلة . . ومن حقوق الحرية الاهلية : ان لا يجبـر الانسـان أن ينفى من بلده ، أو يعـاقب فيهـا إلا بحكم شـرعي ـ (قانوني) ـ أو سياسي ، مطابق لأصول مملكته ، وأن لا يضيق عليه في التصرف في مـاله كـما يشـاء ، ولا يحجـر عليـه إلا بـأحكـام بلده ، وأن لا يكتم رأيـه في شيء ، بشرط أن لا يخل بما يقوله أو يكتبه بقوانين بلده . . » .

ثم يمضي الـطهطاوي فيقسم الحـرية إلى حـرية طبيعيـة ، في أمـور الفـرد المعاشية الخاصة ، كالأكل والشـرب . . وحريـة سلوكية ، تتعلق بـالأخلاق . . وحرية دينيـة ، في العقيدة والمذهب . . وحريـة مدنيـة ، تحكم علاقـات أعضاء المجتمع بعضهم مع بعض . . وأخيرا الحرية السياسية ، التي تنظم علاقة الرعية بالدولة والمحكومين بالحكام . . وهو في حديثه عن هـذه الحريـة السياسيـة يربط بين أساسها الاقتصادي وبين مظاهـرها وقـواعدهـا القانـونية . . « . . فـالحريـة السياسية هي : تأمين الدولة لكل أحد من أهاليها على أملاكه الشرعية المرعية ، وإجراء حريته الطبيعية بدون أن تتعدى عليه في شيء منها ، فبهذا يباح لكـل فرد أن يتصرف فيها يملكه جميع التصرفات الشرعية . . »

والطهطاوي عندما يبشـر بالنمط الأوربـي المتحضـر ، ويدعـو إلى أن نبدأ من حيث انتهت أوربـا ، في علوم التمدن المدني ومؤسساته لا يغلف دعوته هذه ولا يداريها . . فهو يريـد أن « يوقظ سـائر أمم الاسـلام من نوم الغفلة . . كي يبحثوا عن العلوم البرانية ، والفنون والصنائع ، وهي التي كمالها ببلاد الافرنـج ثابت شائع ، والحق أحق أن يتبع ؟ ! . . »[2]

(١) المصدر السابق . ج ٢ ص ٤٧٤ .
(٢) المصدر السابق . ج ٢ ص ١٢ .

والذين يرفضون الأخذ عن أوربـا بحجة رفض الاستيراد للعلوم الاجنبية واهمون ، لأن الحضارة دورات وأطوار ، وهذه العلوم قد كانت اسـلامية عنـدما كنا نعيش عصر نهضتنا ، فأخذتها أوربـا وطورتها وواجبنا الآن أن نتتلمذ عليهم كما تتلمذوا على أسلافنا . . وهو يطلب إلى الأزهر أن يضيف إلى علوم الشـريعة « معرفة سائر المعارف البشرية المدنية ، التي لها مدخل في تقدم الوطنية . . فهذه العلوم الحكمية العملية ، التي يظهر الآن أنها أجنبية ، هي علوم اسلاميـة نقلها الأجانب إلى لغاتهم من الكتب العربية ، ولم تزل كتبها إلى الآن في خزائن ملوك الاسلام كـالـذخيـرة! . . »[1].

والدستور الفرنسي ، وان لم يكن مستلهما من القرآن والسنة إلا أن قـاعدة العدالة التي حكمت مواده وأصوله ، قدجاءت به عـلى وفاق الكتـاب والسنّـة . . « فلقد حكمت عقولهم بأن العدل والانصاف من أسباب تعمـير الممالـك وراحة العبـاد ، وانقـادت الحكـام والـرعـايـا لـذلـك حتى عمـرت بـلادهم ، وكثـرت معارفهم ، وتراكم غنـاهم ، وارتاحت قلوبهم ، والعـدل أساس العمـران . وما يسمونه الحرية هـو عين مـا نسميه العـدل والانصاف ، وذلـك لأن معنى الحكم بـالحريـة هو إقـامـة التسـاوي في الاحكام والقـوانين بحيث لا يجـور الحاكم عـلى انسان ، بل القوانين هي المحكمة والمعتبـرة . . »[2].

ومثل الدستور في ذلك مثل القوانـين والتشريعـات . . فالحقـوق الطبيعيـة والنواميس الفطرية التي حكمت قوانين أوربـا وتشريعاتهـا توازي عنـدنا أصـول الفقه وفروعه ، وهم قد تأثروا بتراثنا في التشريع أيضـاً ، ذلك « أن الـذي جاء به الاسلام من الأصول والأحكام هو الذي مـدَّن بلاد الـدنيا عـلى الإطلاق . . ومـن زاول علم أصـول الفقه ، جـزم بأن جميـع الاستنباطـات العقليـة التي وصلت عقول أهالي باقي الأمم المتمدنة إليها ، وجعلوها أساسـا لوضـع قوانـين تمـدنهم وأحكامهم ، قـل أن تخرج عن تلك الأصـول التي بنيت عليهـا الفـروع

---

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٥٣٤ .

(٢) المصدر السابق . ج ٢ ص ١٠٢ .

الفقهية التي عليها مدار المعاملات ، فما يسمى عندنا بأصول الفقه يسمى ما يشبهه عندهم بالحقوق الطبيعية أو النواميس الفطرية ، وهي عبارة عن قواعد عقلية ، تحسينا وتقبيحا ، يؤسسون عليها أحكامهم المدنية ، وما نسميه بفروع الفقه يسمى عندهم بالحقوق أو الأحكام المدنية ، وما نسميه بالعدل والاحسان يعبرون عنه بالحرية والتسوية . . »[1]

* * *

لكن الطهطاوي ، وهو يغري قومه بأن يبدأوا من حيث انتهت أوربا يومئذٍ ، في علوم التمدن المدني ومؤسساته ، قد وضع عدداً من التحفظات ، ونبه على فروق بيننا وبين أوربا ، وحدد أن ميدان الأخذ والاستلهام هو علوم الدنيا وفنونها ، دون علوم الدين والقيم والخصائص الحضارية . .

* فإعجابه بالعلوم والمعارف الأوربية لم ينسحب على فلسفتهم ، فتحفظ عليها قائلاً : « غير أن لهم في العلوم الحكمية - (الفلسفية) - حشوات ضلالية مخالفة لسائر الكتب السماوية ، ويقيمون على ذلك أدلة يعسر على الإنسان ردها ؟! . .[2] » وهو يعبر بهذا التحفظ الرافض عن تكوينه السلفي ، فيما يتعلق بعلوم الدين ، وهو تكوين لم يكن يستعين يومئذٍ بما في تراث الاسلام من فكر عقلاني ، ولو أن الطهطاوي قد درس ما في التراث الاسلامي من قسمات للفكر العقلاني لما وقف هذا الموقف العاجز أمام الفلسفة الأوربية . .

* وترجمة الطهطاوي للقوانين الأوربية - والفرنسية خاصة - بطلب من الدولة ، لم تجعله يغفل عما في تراث المسلمين من فقه في المعاملات ، جدير بأن نحييه ، ونطوع قواعده لظروف الزمان والمكان وما حملت من تجدد في المصالح وتغيرات في العادات والأعراف . . فيتحدث عن هذا الجانب من تراث الأمة فيقول : « . . والمعاملات الفقهية ، لو انتظمت ، وجرى عليها العمل ، لما أخلت بالحقوق ، بتوفيقها على الوقت والحال ، مما هو سهل العمل على من وفقه

---

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٤٦٩ .

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ١١٤ .

الله لذلك من ولاة الأمور المستيقظين . . ذلك أن من أمعن النظر في كتب الفقه الإسلامية ظهر له أنها لا تخلو من تنظيم الوسائل النافعة من المنافع العمومية ، حيث بوّبوا للمعاملات الشرعية أبواباً مستوعبة للاحكام التجارية ، كالشركة ، والمضاربة ، والقرض ، والمخابرة ، والعارية ، والصلح ، وغير ذلك » . .[1].

* ثم . . وهذا هام جداً ـ **فإن إعجاب الطهطاوي بنمط التطور والتحضر الأوربي ، لم يحمل شبهة دعوة إلى أن يتبع الشرق الغرب . . بل لقد كان الرجل يقظاً إلى تلك النغمة الاستعمارية التي تريد احتواء الشرق واستعماره بواسطة التبعية الحضارية . . وهو وإن لم يرفض حضارة الغرب تبعا لرفض استعماره ، فإنه ميّز بين العلاقات الحضارية ، وبين الضم والتبعية والإلحاق** . . لقد دعا إلى التفاعل مع أوربا في الحضارة ، وتخيل الرابطة الحضارية « جنسية » ـ (قومية) ـ قسماتها « الود والصفاء »، وفي ذات الوقت رفض أن تكون العلاقات الحضارية علة وسبباً للضم والالحاق الاستعماري . . وحذر أبناء الغرب الذين يمنون أنفسهم بذلك من أن الشرق لن يستسلم ، بل سيقاوم ، فعنده هو الآخر رماح يحمي بها حماه . . ولقد عرض الطهطاوي لهذه القضية وهو يعقب على كلمات أحد علماء الحملة الفرنسية الذي علق تطور مصر ونهضتها على سيطرة فرنسا على مقدراتها . . فقال الطهطاوي : « إن كلامه مبني على شبهة واهية ، يريد أن يسوغ بها امتلاك فرنسا أو أي مملكة تكون مضاهية لها لمصر، وهذا الاعتقاد هو من باب التشبيهات الفاسدة، وإنما يقتل النفوس التشهي!

نعم ، بيننا جنسية الود والصفا   ولكني لم ألفها علة الضم »

ثم يحذر الغرب من مقاومة الشرق لأطماعه ، فيورد قول الشاعر :

جاء شقيق عارضاً رمحه   صوب بني عم يروم الكفاح
قيل : أما تخشى انكسار القنا؟   إن بني عمك فيهم رماح![2]

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٣٦٩ .
(٢) المصدر السابق ج ١ ص ٤٧٧ .

فهـو يدعـو قومـه إلى أن يبـدأوا من حيث انتهى الغـرب الأوربي في علوم « التمدن المدني » كما بدأ هذا الغرب من حيث انتهى أسـلافنا الـذين أخذ عنهم علوم حضارتنا المزدهرة وفنونها . . مع تحديد ميـدان التأثر بعلوم الدنيـا ، دون علوم الدين وفلسفته . . داعياً كذلك إلى استلهام تراثنا الصـالح للعـطاء ، بعد ملاءمته لـظروف الزمـان والمكـان . . ومنبهـاً عـلى أن التتلمـذ عـلى الغـرب في الحضارة لا يعني ، ولا يمكن أن يبرر ، التبعيـة له أو التفـريط في أي جانب من جـوانب الحريـة والسيادة والاستقـلال . . بل لقـد رأيناه يؤكـد على أن الحـرية الحقيقية للأمة لا يشهد بها تمتعها هي بالحريـة ، بل أن الشـاهد الأصـدق عليها هو احترام هذه الأمة لحريات غيـرها من الأمم والشعـوب . . « . . فمن محاسن حرية الأمة أنها تفرح أيضـاً بحريـة غيرهـا من الأمم ، وتتأذى من استعبـاد أمم الممالك الذين لا حرية لهم ! . . »[1].

* * *

ولقد كانت « الرابطة العثمانية » واحـدة من العلائق التي تشـد العرب إلى فكرية العصور الوسطى ، وتحول بينهم وبين الانعتاق من آسار التخلف واللحاق بالعصر الحديث ، ولذلك لم يكن غريباً أن نلمح لدى الطهطاوي ـ رغم علاقتـه العضوية بجهاز الدولة الذي كان مرتبطاً ، على نحـو ما ، بـالسلطنة العثمـانية ـ أن نلمـح لديـه تزكيـة للعـروبـة ، وثنـاء كثيـراً عـلى العـرب ، ونقـدا للرابـطة العثمـانيـة ، وفـرحـاً بـالضـربـات التي وجههـا محمــد عـلي والجيش المصـري للعثمانيين . .

* فيـوم كـان العثمـانيـون يسعـون إلى « تتـريـك » العـرب الخـاضعـين لسلطانهم ، كتب رفـاعة : « إن العـرب هـم خيار النـاس . . وقبـائلهم أفضـل القبـائل . . ولسـانهم أفصح الألسن . . ولقـد أشتهرت أمـة العرب ، جـاهليـة واسـلاماً ، بـالفضائـل . . » . . ولقد استشهـد على فضـل العرب بكلمات عميقة للامام الشافعي (١٥٠ ـ٢٠٤ هـ ٧٦٧ ـ ٨٢٠ م) تجعل الشريعة عربية ، والدين

---

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٤٧٥ .

عربياً ! . . « إن أمة العرب أولى الأمم ، لأنهم المخاطبون أولاً ، ولأن الشريعة عربية ، والدين عربياً »![1] . . ولعمري ، ماذا يبقى للعثمانيين رباطاً يشدون به الأمة العربية إلى قوائم سلطنتهم ؟ . . لقد كان الدين هو هذا الرباط . . لكن رفاعة يجعل الدين عربياً ، وكذلك الشريعة أيضاً . .

* وهو ينبه على المضمون الحضاري ، وليس العرقي ، للعروبة ، وذلك عندما يتحدث عن أن علماء مثل سيبويه (١٥٢ هـ ٧٦٩ م) وأبو علي الفارسي (٢٢٩ - ٣٧٧ هـ ٨٤٣ - ٩٨٧ م) والزمخشري (٤٤٩ - ٥٣٩ هـ ١٠٥٧ - ١١٤٤ م) إنما هم عرب ، لتحصيلهم ملكة البلاغة العربية ، وذلك على الرغم من أنسابهم الأعجمية « فهم وإن كانوا عجماً في النسب ، فليسوا بأعجام في اللغة والكلام . . ».

* وأخيراً نراه فرحاً بانتصارات الجيش المصري ضد العثمانيين ، تلك الانتصارات التي كانت جزءاً من عملية قومية كبرى استهدفت قيام دولة عربية ، تجدد شباب هذه الأمة ، وتسد الثغرات التي أتاحها التخلف العثماني للاستعمار الأوربي كي ينفذ منها فَيَلْتَهِم بلاد العرب وأقطار الاسلام . . فعنده أن فتوحات محمد علي باشا في المشرق العربي « لم تكن من محض العبث ، ولا من ذميم تعدي الحدود ، إذ كان جل مقصوده : تنبيه أعضاء ملة عظيمة ، تحسبهم أيقاظاً وهم رقود ؟! . . »[2].

كما نقرأ له شعراً يشيد فيه بانتصار الجيش المصري على جيش العثمانيين ، الذين يسميهم : الأروام ! . .

وتقلب الأروام عدل شاهد ... كم منه قد نالوا شديد طعان
حتى لقد باؤوا بسوافر خزيهم ... وتقاسموا حظاً من الخسران ![3]

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ٥٨٦ .
(٢) المصدر السابق ج ١ ص ٤١٤ .
(٣) المصدر السابق ج ٢ ص ٧٢.

هكذا كان رفاعة : رأس تيار متميز واجهت به الأمة ، في مطلع عصرها الحديث ، ما فرضه عليها أعداؤ ها من التحديات . .

* خير الدين التونسي (١٨٢٠ - ١٨٩٠ م) :

وفي تونس ، بالمغرب العربي ، كان خير الدين التونسي أصدق ممثل لذلك التيار الذي قاده رفاعة الطهطاوي . . ولقد جمع هذا المصلح ، في حياته وجهوده الاصلاحية ، شبهاً من النبي يوسف الصديق ، ومن المفكر عبد الرحمن ابن خلدون؟! . . فهو قد ولد في إحدى القرى الصغيرة بجبال القوقاز ، بقبيلة « أباظة » الشركسية ، واختطفه تجار الرقيق صغيراً ، وجاءت به قافلتهم إلى الآستانة حيث بيع كما يباع الرقيق ، وتناقلته الأيدي إلى أن وصل الى قصر حاكم تونس الباي أحمد باشا (١٨٣٦ - ١٨٥٦ م) فتعلم القراءة والكتابة ، وفرائض الدين ، وفنون العسكرية والسياسة والتاريخ ، وأجاد الفرنسية مع العربية والتركية . . وتدرج في المناصب حتى أصبح الوزير الأكبر في البلاد ! . . وفي أزمة من أزماته مع الباي محمد الصادق (١٨٥٩ -١٨٨٢ م) اعتزل خير الدين مناصبه (١٨٦٢ - ١٨٦٩ م) واعتكف في بستان له - كما اعتزل ابن خلدون من قبل في احدى قلاع تونس فكتب مقدمته - اعتزل خير الدين فكتب كتابه (أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك) الذي طبع بتونس سنة ١٨٦٧ م ، والذي أودع مقدمته خلاصة آرائه في التمدن والإصلاح ؟!

وفي عصر خير الدين ، وموقعه ، كان تجاهل التأثير الأوربي ضرباً من المحال . . ففرنسا كانت قد بدأت احتلال الجزائر منذ سنة ١٨٣٠ م ، وشرعت تمد نفوذها الاقتصادي ، وتقدم قروضها لتونس ؛ وتتداخل في شؤونها المالية تمهيداً للسيطرة فالاحتلال . . والباي أحمد باشا كانت له محاولات للاصلاح يترسم فيها خطى محمد علي باشا ، فأنشأ في « باردو » بفرنسا سنة ١٨٤٠ م « مكتب العلوم الحربية » ليتعلم فيه الجنود التونسيون علوم الهندسة والمساحة والحساب ، وغيرها ، وعهد إلى خير الدين بالاشراف على هذا المكتب (المدرسة) ، الذي رأسه المستشرق الإيطالي كاليفاريس ، وهناك عايش خير

الدين الحضارة الأوربيـة ولمس تأثيراتها ، ولقـد اكتملت معرفتـه بها في سفـاراته للبـاي لدى عـديد من ممالك أوربـا ، مثل فـرنسا والسـويد وبـروسيا وبلجيكـا والدانمارك وهولندا[1] . .

وكان خير الدين ، مثل الطهطاوي ، من دعـاة الخروج بـالبلاد من عـزلة القرون الوسطى وكسر حاجز العزلة عن الحضارة الحديثة ، ونصيراً للتتلمـذ على الحضارة الأوربيـة فيما لا يتعارض مع أصول الشريعة الإسلامية ، التي يجب أن تـواكب المصالـح المتجددة للمسلمـين . . فهو يـدعو إلى الاختـلاط بـالأوربيـين والتعلم منهم ، لأنه « لا يتهيأ لنا أن نميز ما يليق بنا إلا بمعـرفة أحـوال من ليس من حـزبنا ! . . فـالدنيـا بصورة بلدة متحـدة ، تسكنهـا أمم متعـددة ، حـاجـة بعضهم لبعض متأكدة . . »[2] . . بـل لقد كـان خير الـدين يرى أن لا مفـر ولا منجاة من التأثير بالحضارة الأوربية ، فلقـد خرجت هـذه الحضارة ، بعـد الثورة الصناعية ، في ركاب المد الاستعمـاري زاحفة عـلى البلاد الأخـرى ، وكاسحـة أنماط الحضارات الأخـرى من طريقهـا ، ومهما يكن في ذلـك من مدعـاة للحزن والأسى فـلا سبيل الى تجـاهله كحقيقة ظـاهرة للعيـان . . فهـو يقـول : « لقـد سمعت من بعض أعيان أوربا مـا معناه : أن التمـدن الأورباوي تـدفق سيله في الأرض ، فـلا يعارضـه شيء إلا استأصلتـه قوة تيـاره المتتـابـع ، فيخشى عـلى الممـالكِ المجـاورة لأوربا من ذلـك التيار ، إلا إذا حـذوا حذوه وجـروا مجراه في التنظيمات الدنيوية ، فيمكن نجاتهم من الغرق ! . . وعلى هذه الكلمات يعقّب خـير الدين فيقـول : « . . وهذا التمثيـل ، المحزن لمحب الـوطن ، مما يصـدقه العيان والتجربة . . »[3]

لكن خير الدين لا يدعو إلى الاستسلام أمام هذا التيار الحضـاري الأوربي الزاحف . . وإنما يطلب لقومه أن يقفوا منه موقفاً انتقائياً ، يأخذون به عن أوربا

(١) المنجي الشملي (خير الدين باشا) طبعة تونس سنة ١٩٧٣ م .
(٢) (أقـوم المسـالـك) ـ المقـدمـة ـ ص ٨٢ . تحقيق : د . المنصف الشنـوفي . طبعـة تـونس سنـة ١٩٧٢ م .
(٣) المصدر السابق ١٦٦ .

ما لا يتعارض مع الشريعة وما يحقق المصالح المتجددة . . وغير العلوم والمعارف نجده يلح على أن نأخذ عن أوربا :

١ ـ تنظيماتها السياسية :

التي هي في الحقيقة السبب في تقدمهم في المعارف . . وهذه التنظيمات لا بد وأن تكون مؤسسة على العدل والحرية . . وهو ، لذلك ، يدين الاستبداد بالسلطة ، وحكم الفرد ، ويدعو في كتابه إلى إحياء هيئة أهل الحل والعقد الاسلامية ، وفي مذكراته يزكي صراحة تكوين المجالس النيابية بالانتخاب العام . . ويلح على تقييد جهاز الدولة بالقوانين ، سواء منها تلك التي تنظم علاقة الرعية بالدولة ، أو العلاقة بين المواطنين وبعضهم البعض . . ويطلب أن تكون مباشرة الحكم التنفيذي من اختصاص الوزراء ، لا الحاكم الأعلى ، وأن يكون الوزراء مسؤولين أمام وكلاء الأمة المنتخبين . . ويقول أن أوربا إذا كانت قد صنعت ذلك انطلاقاً من القوانين العقلية غير الإلهية ، فإن المسلمين أولى منها بذلك ، لأن هذه التنظيمات مما يحقق غاية الشريعة الاسلامية ومقاصدها . . « فالشريعة لا تنافي تأسيس التنظيمات السياسية المقوية لأسباب التمدن ونمو العمران . . وإن ملك الاسلام مؤسس على الشرع ، الذي من أصوله وجوب المشورة ، وتغيير المنكر . والعلماء أعرف الناس به ، كما أن الوزراء أعرف بالسياسة ومقتضيات الأحوال » « . . وأن الذين يطلبون من الدولة اطلاق الحرية ، بمقتضى قوانين يكون تأسيسها وحمايتها من مجلس مركب من أعضاء ينتخبهم الأهالي ، ويلحون في ذلك . . إنما يطلبون أمراً هو أعظم الوسائل في حفظ نظام الدول ، وقوة شوكتها ، ونمو عمران ممالكها ، ورفاهية رعاياها ، خصوصاً في هذه الأزمان . ونحن نسلم بأن مقصد هذا الحزب ، بطلبهم لما ذكر ، إنما هو إصلاح حال الدولة والرعية . . »[١].

وخير الدين ، وهو يتحدث عن التنظيمات السياسية للدولة لم يتناول

---

(١) المصدر السابق . ص ٨١ ، ٩٤ ، ١٣٧ ، ١٣٩، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٦٥ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ .

بالحديث ، صراحة ، منصب الحاكم الأعلى للبلاد ، من حيث كونه ملكاً أو سلطاناً أو خليفة أو « الباي » ـ كما كان في تونس يومئذ ـ وما كان له أن يصنع ذلك وهو الذي شغل منصب الوزير الأكبر في تونس ، وشغل في الآستانة بعد أن هاجر إليها من تونس ، منصب « الصدر الأعظم (١٨٧٨ ـ ١٨٧٩ م) . . ولكنه عندما عرض فكر منتسكيو . . Montesquieu (١٦٨٩ ـ ١٧٥٥ م) وتقسيمه لنظم الحكم عرضه عرضاً موحياً ، فلقد قال أن مونتسكيو قد قسم حالة الدول إلى ثلاثة أقسام :

الأول : الدولة الوراثية المطلقة التصرف بلا قيد .

والثاني : الدولة الوراثية المقيدة بالقوانين .

والثالث : الدولة الجمهورية المقيدة بالقوانين .

ثم عقب بقوله : « والجمهورية عندهم كناية عن انتخاب الأمة رئيساً لدولتهم ، يتصرف في إدارتها بمقتضى القوانين ، مدة حياته ، أو لمدة معلومة ، ثم ينتخب غيره » .

وعلى كل فخير الدين لم يدخر وسعا ، في الفكر والممارسة ، لادانة الاستبداد من قبل الفرد بالسلطة والسلطان ، فهو يورد التمثيل البديع الذي ذكره مونتسكيو عندما شبه المستبد ، في تصرفاته ، « **بمن يتوصل لاجتناء الثمرة بقطع الشجرة من أصلها** ؟! . . »ويورد قول الحكيم اليوناني الذي خرج من وطنه مهاجراً عندما عزّت الحرية فيه ، فلما سألوه : أين تصلح السكنى ؟ أجاب : « في بلد تكون الشريعة فيه أقوى من السلطان » . . ولا شك أنه قد أدان نمط الحكم العثماني ، في الآستانة وولايتها ، عندما قال : « هذا زمان : قل فيه العرفان ، وكثر الطغيان »! . .[1].

٢ ـ الحرية السياسية :

والغاية من التنظيمات السياسية ، عند خير الدين التونسي ، هي تحقيق

---

(١) المصدر السابق . ص ١٨١ ، ١٨٢ ، ٢٢٤ ، ١١١ .

العمران للبلاد ، وأساس هذا العمران هو العدل ، أي الحرية السياسية للمواطنين . . كما أن اتساع نطاق المعارف في المجتمع إنما يرجع كذلك إلى اتساع نطاق الحرية . . وإذا كانت الحرية الشخصية ضرورية ، ليتصرف الانسان في ذاته وكسبه وهو آمن على نفسه وعرضه وماله ، مطمئن إلى تساويه مع أبناء جنسه . . فإن الحرية السياسية أدخل في الضرورة واللزوم ، لأنها هي التي تحقق اشتراك الرعية في توجيه سياسة الدولة ، كي تأتي على وفق المصلحة العامة للمجموع . . ويدخل في الحرية السياسية حرية نشر الأفكار ، التي يسميها التونسي « حرية المطبعة » حيث لا يمنع الانسان من أن يكتب ويذيع ما يعتقده صواباً ومصلحة ، أو يعرض ذلك على أجهزة الدولة ومجالسها ، حتى ولو تضمن ذلك الاعتراض على منهاجها . . »[1] .

٣ ـ والحرية الاقتصادية :

وكما هو الحال عند رفاعة الطهطاوي ، فقد ارتبطت عند خير الدين كذلك الحرية السياسية بالحرية الاقتصادية ، على النحو الذي تكاملت به الليبيرالية في أوربا القرن التاسع عشر . . فلقد ربط بين نمو المعارف ، المؤسسة على الحرية السياسية ، وبين نمو الصنائع التي تعود إلى الأنشطة الاقتصادية الحرة في الفلاحة والتجارة والأعمال البدنية والفكرية . . فالرخاء لا يتحقق بالخصوبة وتوافر الإمكانيات وحدها ، وإنما بالحرية الاقتصادية التي تجعل أرباب النشاط الاقتصادي والاستثمار المالي آمنين على ثرواتهم وأموالهم « فكمال الحرية هو الذي يجعل المحترف آمناً من اغتصاب شيء من نتائج حرفته . . فما ينفع الناس كون أرضهم خصبة كريمة المنابت إذا كان الباذر فيها لا يتحقق حصاد ما زرع . . ولاشك أن العدوان على الأموال يقطع الآمال ، وبقدر انقطاع الآمال تنقطع الأعمال ، إلى أن يعم الأختلال المفضي إلى الإضمحلال » . أما الحرية الاقتصادية فإنها تفضي إلى « تعاضد الجمعيات المتجرية ـ (الشركات التجارية) ـ والاقبال على تعلم الحرف والصنائع . . فبالجمعيات ـ (الشركات)

---

(١) المصدر السابق ص ٢٠٦ ـ ٢٠٨ .

تتسع دوائر رؤوس الأموال ، فتأتي الأرباح على قدرها » أما غياب هذه الحرية فإنه يفضي إلى الانكماش الاقتصادي « فإن الناس إذا فقدوا الأمان على أموالهم يضطرون إلى اخفائها فتعذر عليهم تحريكها . . وبالجملة ، فالحرية إذا فقدت من المملكة تنعدم منها الراحة والغنى ، ويستولي على أهلها الفقر والغلاء ، ويضعف ادراكهم وهمتهم ، كما يشهد بذلك العقل والتجربة»(١) .

٤ ـ والتقدم في المعارف والعلوم :

وكما حدث في التجربة « الليبرالية » الأوربية عندما تكاملت الحرية السياسية التي جسدتها ونظمتها المؤسسات السياسية ، والحرية الاقتصادية الرأسمالية ، وحرية التفكير والتعبير والبحث العلمي ، التي أسهمت إسهاماً خلاقاً في تنمية المعارف وتقدم العلوم . كما حدث في هذه التجربة المتكاملة أراد خير الدين لدعوة الحرية التي بشر بها أن تكون متكاملة كذلك . . بل لقد جعل نمو المعارف وتقدم العلوم ثمرة طبيعية لقيام الحرية السياسية والاقتصادية المستقرتان بواسطة التنظيمات الدستورية والقانون . . وضرب للناس مثلاً طريفاً ، وبالغ الدلالة في ذات الوقت ، عندما حدثهم عن (المكتبة القومية في باريس) وكيف ارتبط غناها بالكتب أو فقرها منها بسيادة الحرية أو غيابها في فرنسا ! . . فقبل الثورة الفرنسية التي جاءت بالحرية إلى فرنسا ، وخلال أربعمائة وعشرة أعوام (١٣٨٠ ـ ١٧٩٠ م) لم يزد رصيد هذه المكتبة عن ٢٠٠,٠٠٠ مجلد ، أما بعد الثورة ، وخلال أربع وسبعين سنة فقط (١٧٨٩ ـ ١٨٦٣ م) فلقد بلغ رصيد هذه المكتبة ٨٨٠,٠٠٠ مجلد وذلك غير الرسائل الصغيرة ، وبهذا التفاوت الكبير ، الواقع في مواد المعارف ، يعلم مقدار تأثير الحرية في الممالك . . وعلى هذا يقاس سائر أسباب التمدن »(٢) . .

هكذا أراد خير الدين التونسي لأمته أن تواجه التحدي الحضاري لأوربا المنتصرة ، بأن تتسلح بسلاحها ، وأن تبدأ المسيرة الناهضة من حيث انتهى

(١) المصدر السابق ص ٢٠٩ ـ ٢١١ .
(٢) المصدر السابق ص ٢٠٢ .

الأوربيون ، فتغادر بالاصلاح ، عصور الاقطاع ، وتدخل ، بالاصلاح أيضاً إلى رحاب التطور الرأسمالي ، بما يستلزمه من حرية في الأقتصاد . والسياسة ، والتفكير والتعبير .

وإذا كان هذا هو الموقف من « أوربا الحضارة » ، فلقد اختلف الحال إزاء « أوربا الاستعمار » . . فهنا لا بد من اليقظة للاطماع ، والحذر من الشراك ، والتصدي للزحف الاستعماري . . **بل لعل مذهب خير الدين في الأخذ عن أوربا حضارتها إنما كان محاولة للتجديد والبعث القومي حتى لا نقع في قبضة أوربا الاستعمار . .**

ولقد كان الرجل ـ وهو رجل دولة بارز ، في تونس حيث حبائل الديون والقروض الأوربية تسعى لسلب استقلال البلاد ، كان داعية لرفض الإقتراض من الأجانب ، وأن تتجه الحكومة إلى الاقتراض الداخلي ، حتى ولو زاد سعر « الفائدة » ، لأن الممولين الوطنيين لن يمثلوا خطراً استعمارياً خارجياً ، كما أن أرباحهم لن تغادر السوق الوطني الداخلي ، ولقد صارع الرجل التيار المناهض لمذهبه هذا ، وهو التيار الذي كان يقوده الوزير مصطفى خزنه دار ، ومن كلمات خير الدين في هذا المقام : « إن من الأفضل أن ندفع غالياً ثمن اقتراض نقترضه في بلدنا ، ونحافظ بذلك على حريتنا من أن نربح بعض الفوائد المادية على حساب استقلالنا ! »[1] . .

بل لقد أدرك خير الدين وعي الاستعمار بأن أخذنا تجربة « أوربا النهضة » سيجعلنا نفلت من « أوربا الاستعمار » ، فكشف عداء الاستعمار الأوربي لأخذنا تنظيماته السياسية والدستورية ، فالمستعمرون الأوربيون لا يرحبون بأن نقلدهم فيما يفيد ، وخاصة إذا كان أخذنا وتقليدنا سيسد الثغرات التي حرصوا على بقائها وتوسيعها كي ينفذوا منها إلى الاحتلال ، وهي ثغرات كان حكم الفرد والاستبداد من أهمها ، لأنه هو الذي ضمن لهم ضعفنا، فأتاح لهم التهام استقلالنا الوطني . . تنبه خير الدين لهذه الحقيقة الهامة ، فأشار إلى دور

(١) المصدر السابق ص ٣٦ .

المستعمرين الطامعين في إعاقة قيام التنظيمات السياسية والدستورية بتونس حتى تظل الثغرات أمامهم مفتوحة لاحتلالها[1] . . وهو نفس الشيء الذي صنعوه بمصر . . فعندما نهضت لتسد ثغرة تدخلهم وتداخلهم بالدستور والمجلس النيابي ، على عهد العرابيين، أسرعوا باحتلالها قبل أن تفلت الفرصة ، فيعز عليهم ، ويستحيل ، تنفيذ المخطط المرسوم . . !

وغير الاستعمار الأوربي ، كان هناك التحدي المتمثل في فكرية العصور الوسطى ، والتي مثّلها جمود الجامدين من علماء الدين . . فهم يعيشون عصرهم ماديا ، وبالأجساد ، أما في الفكر فتراهم أسرى خرافات العصور المظلمة وجمودها ، ولذلك تراهم معرضين عن وعي حقائق العصر ، سياسية كانت أو اقتصادية ، فإذا استشارهم الحاكم أشاروا بما يوافق هواه ، أو بما لا يمكن الأخذ به من الآراء ! . . وعن هؤلاء يقول خير الدين : « . . ومما يسوء المرء أن يرى بعض علماء الاسلام معرضين عن استكشاف الحوادث الداخلية ، وأذهانهم عن معرفة الخارجية خلية . . أفيحسن من أساة الأمة الجهل بأمراضها ؟ ! » . .

وهو يعيب عليهم الجمود عند نصوص عالجت مصالح عصور خلت ، والاحجام عن الاجتهاد بأحكام تعالج المصالح التي جدت بعد عصر الأسلاف . . فليس كل ما جد في واقع الحياة المعاصرة له نصوص وأحكام في الكتب القديمة ، بل « هناك شؤون كثيرة لا يشهد لها من الشرع أصل خاص ، كما لا يشهد بردها ، بل أصول الشريعة تقتضيها اجمالا ، وتلاحظها بعين الاعتبار . . وادارة احكام الشريعة ، كما تتوقف على العلم بالنصوص ، تتوقف على معرفة الأحوال التي تعتبر في تنزيل تلك النصوص . . ومن العيب على العالم ، شرعا وعقلا ، التكلف في الدين ، والتمحل في النصوص ! » . .

وهو يضرب لعلماء الشرع في عصره أمثلة من السلف الصالح المجتهد كي يحتذوها . . فالشيخ محمد بيرم الأول (١١٣٠ ـ ١٢١٤ هـ ١٧١٨ ـ ١٨٠٠م)

---

(١) المصدر السابق . ص ١٤٦ ـ ١٤٨ .

قد عرّف السياسة الشرعية بأنها : « **ما يكون الناس معه أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد ، وان لم يضعه الرسول ولا نزل به الوحي** » . . - **وهو تعريف مأثور من تراثنا القديم** - .

وعندما قال قائل : « لا سياسة إلا ما وافق الشرع » أجابه ابن عقيل (٤٣١ - ٥١٣ هـ ١٠٤٠ - ١١١٩م) « ان أردت : ان السياسة الشرعية لا تخالف ما نطق به الشرع ، فصحيح . . أما ان قصدت أن السياسة الشرعية هي فقط ما نطق به الشرع ، فغلط وتغليط للصحابة » فالنصوص لم تحط بكل شيء . .

وابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١ هـ ١٢٩١ - ١٣٣٠م) هو القائل : « ان **امارات العدل إذا ظهرت بأي طريق كان فهناك شرع الله ودينه** ، والله تعالى أحكم من أن يخص طرق العدل بشيء ثم ينفي ما هو أظهر منه وأبين . . »[1]

فهو قد دعا علماء الشرع المعاصرين له - ونحن نعلم ما بلغوه في ظل التخلف العثماني - إلى أن يواكبوا العصر ، ويجتهدوا لمصالحه المتجددة ، ويشاركوا الساسة في اتخاذ التنظيمات السياسية والدستورية سبلا لتحقيق الحرية ، بكل صورها ، للعرب والمسلمين . .

* * *

بقيت نقطتان ، لا بد من الاشارةإليهما ، كي لا يظن ظان أن دعوة خير الدين لأن نبدأ من حيث انتهت أوربا كانت تعني التخلي عن مميزات هذه الأمة ، أو ما نسميه « أصالتها » ، أو أنها كانت تعني الأخذ عن الأوربيين في كل الأمور .

ذلك أن الرجل ، كما سبقت اشارتنا ، قد جعل الشريعة الاسلامية ، المتطورة مع المصالح المتجددة ، معيارا لما نأخذ وما ندع من الحضارة الأوربية . . وأكثر من هذا ، فهو قد نبه على أن بتراث أمتنا في التمدن عناصر أصيلة ، صالحة للاستلهام ، ومن المفيد والضروري أن تفعل فعلها في النهضة

---

(١) المصدر السابق . ص ٨٣ ، ١٥١ - ١٥٥

الحديثة المبتغاة ، وكما يقول « **فان الأمة الاسلامية تقتدر أن تكتسب بما بقي لها من تمدنها الاصلي ، وبعاداتها التي لم تزل مأثورة عن أسلافها ما يستقيم به حالها ، ويتسع به في التمدن مجالها . ويكون سيرها في ذلك المجال أسرع من غيرها كائناً من كان ، إذا أزكيت حريتها الكامنة بتنظيمات مضبوطة تسهل لها التداخل في أمور السياسية . .** »[1] **فالعناصر الأصيلة في التمدن الأصلي ، والحرية الكامنة التي اقرتها وقررتها الشريعة ، مع التنظيمات التي لا بد من أخذها عن أوربا ، كفيلة بجعل هذه الأمة تخطو على درب النهضة بأسرع مما صنع ويصنع الآخرون .**

والنقطة الثانية تتعلق بتحذير خير الدين من أن نقف بالأخذ عن أوربا عند حدود الاستهلاك والاستمتاع بثمرات فكرها وحضارتها من المصنوعات والأدوات ! . . فالذين يتصدرون موكب المعارضة للأخذ عن أوربا هم أكثر الناس إقبالا على سلع الصناعات الأوربية وأدواتها ،انهم نهمون لاقتناء الثمار دون الأصول ، والمسببات ، والأعراض دون الجواهر ، والسلع دون الفكر . . وعن هذا الفريق يتحدث خير الدين فيقول : « . . **على أننا إذا تأملنا في حالة هؤلاء المنكرين لما يستحسن من أعمال الافرنج نجدهم يمتنعون فيما ينفع من التنظيمات ونتائجها ، ولا يمتنعون منها فيما يضرهم ؟ ! . . وذلك انا نراهم يتنافسون في الملابس وأساس المساكن ونحوها ، وكذا الأسلحة وسائر اللوازم الحربية ، والحال أن جميع ذلك من أعمال الافرنج ! . .** »

وينبه خير الدين إلى خطر هذا « التتلمذ السلعي ـ الاستهلاكي » ـ ان جاز التعبير ـ على الاقتصاد الوطني ، ومن ثم على استقلاله ، لاننا إذا وقفنا عند الاستيراد السلعي ، ولم نتمثل الفكر والحضارة ، فسنظل سوقا استهلاكية ، غير صانعة ولا منتجة ، ومن ثم سنظل مربوطين بأسواق أوربا ، لا في الاستيراد فقط ، وإنما في تصدير خاماتنا بأرخص الأسعار « **نبيع ما ننتجه للأفرنجي بثمن يسير ، ثم نشتريه منه بعد اصطناعه ، في مدة يسيرة ، بأضعاف ما بعناه**

---

(١) المصدر السابق . ص ١٥٨ .

به » . . وهذا الخلل سيقودنا إلى وضع اقتصادي تزيد فيه قيمة ما نستورده على قيمة ما نصدره « وإذا زادت قيمة الداخل على قيمة الخارج فحينئذ يتوقع الخراب لا محالة ! » . . وهذا الخلل الاقتصادي سيؤدي حتما إلى خلل سياسي ، يتمثل في رباط الحاجة ، ومن ثم التبعية ، لهذه البلاد المتحضرة الصناعية ، فتقع الكارثة ، وهي فقدان الاستقلال ، ذلك « لأن احتياج المملكة لغيرها ـ وهو الخلل السياسي ـ موهن لقوتها ومانع لاستقلالها »[1] !

هكذا فكر خير الدين التونسي . . وهكذا مثل في المغرب العربي الامتداد للنهج الذي بشر به رفاعة الطهطاوي في النهضة والاصلاح . .

* ان نبدأ من حيث انتهت أوربا في علوم التمدن المدني ، آخذين في الاعتبار أصول شريعتنا ، وما هو أصيل للعطاء من عناصر تمدننا القديم . .

* وأن تكون الأسباب الحضارية للتمدن الأوربي هي غايتنا ، وليس الثمرات والنتائج والمصنوعات .

* وأن نزواج بين ما هو كامن في النفس العربية ، وصادقت عليه الشريعة الاسلامية ، من عشق للحرية ، وبين التنظيمات السياسية والدستورية التي أبدعتها الحضارة الأوربية ، حتى تشترك الأمة في ادارة شؤونها السياسية ، فتخرج من استبداد الفرد إلى عالم الحرية ، الذي يفجر طاقات الأمة في ميادين الاقتصاد والمعارف والعلوم والفنون والآداب . .

* وفي كلمات : ان نحذو ـ في أمور الدنيا ـ حذو أوربا ، فنخرج ، كما خرجت ، من عصر الاقطاع لندخل عصر التطور الرأسمالي ، بما ارتبط به من يقظة وتقدم وتنوير . .

« فأهل الغفلة وحدهم هم الذين يعرضون عما يحمد من سيرة الغير لمجرد ما انتقش في عقولهم من أن جميع ما عليه غير المسلم ينبغي أن يهجر . . فكل مستمسك بديانة ، وان كان يرى غيره ضالا في ديانته ، فذلك لا يمنعه من

---

(١) المصدر السابق . ص ٩٢ ـ ٩٤

الاقتداء به فيما يستحسن في نفسه من أعماله المتعلقة بالمصالح الدنيوية » .[1]

فلنقتد بأوربا المتحضرة في أمور الدنيا ، وان خالفناها واعتقدنا ضلالها في أمور الدين ! . .

٦ ـ وتيار : السلفية . . العقلانية . . المستنيرة

وهذا التيار هو الذي بدأه فيلسوف الاسلام وموقظ الشرق جمال الدين الأفغاني (١٨٣٨ ـ ١٨٩٧م) وتجسد فكره ، وخاصة ما تعلق منه بتحرير العقل والاصلاح الديني في الآثار الفكرية والجهود العملية للامام محمد عبده (١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م) وكان جناحه في المشرق العربي المفكر عبد الرحمن الكواكبي (١٨٥٤ ـ ١٩٠٢م) وفي المغرب العربي عبد الحميد بن باديس (١٨٨٩ ـ ١٩٤٠م) . . ومن حول هؤلاء جميعا عرفت الأمة أقوى تيارات التجديد واليقظة في عصرها الحديث ، وأكثرها أصالة ، ومستقبلية أيضاً ! . .

لكن . . قبل الحديث عن المعالم البارزة والقسمات الأساسية لفكرية هذا التيار ، لنسأل : ألا يبدو العنوان الذي عقدناه له غريبا ومتناقضا ؟ ! . . إن الناس قد اعتادوا أن يفهموا من مصطلح « السلفية » معاني كثيرة ، منها : المحافظة ، والجمود ، والاكتفاء بالنصوص والمأثورات ، والوقوف عند ظواهر النصوص ، ورفض التأويل ، أو الاقتصاد فيه إلى حد كبير . . فكيف يكون هذا التيار « سلفيا » و « عقلانيا » في ذات الوقت ؟ ! . . والعقلانية ، كما لا يخفى ، وكما يتفق عليه الأكثرون ، تعني النقيض لكل تلك المعاني التي اعتدنا فهمها من مصطلح « السلفية » ؟ !

ثم . . كيف يكون هذا التيار الفكري « سلفيا » و « مستنيرا » في ذات الوقت ؟ والاستنارة تعني ، ضمن ما تعني ، المستقبلية ، وهو ما يبدو نقيضا للسلفية ، بل وإياها على طرفي نقيض ؟ !

ونحن نعتقد أن جلاء هذا الأمر من الأهمية بمكان ، خصوصا وأن

(١) المصدر السابق . ص ٩٠.

الكثيرين قد التبس عليهم التمييز والتحديد بين معالم هذا التيار الفكري وغيره من تيارات التجديد والاصلاح ، فرأينا من يتحدث عن حركة الأفغاني ومحمد عبده ، ومن نهجوا نهجها باعتبارها الامتداد للحركة السلفية والمحافظة[1] ، ومن يجعلون الشيخ رشيد رضا (١٨٦٥ ـ ١٩٣٥م) والشيخ حسن البنا (١٩٠٦ ـ ١٩٤٩م) ، والاخوان المسلمين ، جميعا في نفس التيار . . وهو خلط وتعميم يطمس فروقا أساسية وهامة بين هذه التيارات ـ التي تمثل فصائل في إطار حركة الجامعة الاسلامية ـ ومن مخاطر هذا الخلط والتعميم أنه يلبس المتخلف ثوب المتقدم ، ويزين بعباءة العقلانية والاستنارة قوما وقفوا فقط ، أو وقفت بهم قدراتهم ، عند ظواهر النصوص . . وينزع صفات الاستنارة والمستقبلية عن مصلحين عظام لا لشيء إلا لأنهم قد دعوا إلى « السلفية » في فهم أمور الدين . . وكل ذلك خلط للأوراق ، علاوة على ضرره ، فإنه لا يليق ! . .

ونحن إذا أردنا أن نوجز الحديث الذي يميز هذا التيار عن التيارات الأخرى التي سبقته أو عاصرته من تيارات اليقظة والتجديد الاسلامي في عصرنا الحديث ، والذي يستبين منه الاتساق ، وعدم التناقض ، في العنوان الذي عنونا له به . . فإننا نعطي الأولوية لهذه النقاط :

١ ـ كانت « السلفية » المحافظة ، حديثا ـ كما كانت عند تراثها في فكر أحمد بن حنبل وابن تيمية ـ :

الوقوف عند ظواهر النصوص الدينية ، وجعل المعاني المستفادة من هذه الظواهر المرجع في كل من أمور الدين وأمور الدنيا . . فهي قد وقفت عند مفهوم الاسلام ، كدين ، كما كان حال هذا المفهوم في عصر البداوة والبساطة للأمة العربية ، وقبل التطورات العلمية والاضافات العقلية التي استدعتها صراعات الأمة الفكرية مع الملل والنحل غير الاسلامية بعد عصر الفتوحات . . ومن ثم فان السلفية ، بهذا المعنى ، تسقط من تراثها العلوم العقلية والفلسفية

---

(١) عبد الكريم الخطيب : (الدعوة الوهابية) ص ١١٨ ، ١١٩ . . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٤م .

والتصوف الفلسفي ، وتعتبر كل ذلك « بدعا » طرأت على الاسلام كما فهمه السلف الصالح . .

أما « السلفية » لدى التيار الذي تزعمه الأفغاني ومحمد عبده ، فانها ليست كذلك تماما . . لأنها تأخذ « **عقائد الدين وأصوله** » على النحو النقي ، المبرّأ من الخرافات والاضافات . . وهي هنا « سلفية » تتفق مع غيرها ، وخاصة في ازالة شبهات الشرك والوثنية والتوسل والوسائط من عقيدة التوحيد . . لكنها لا تقتصر في فهمها للاسلام « **كحضارة وتراث** » ، على فهم السلف الصالح له ، لأن الاسلام ، كحضارة ، وعلومه العقلية والفلسفية ، ومذهبه في التصوف الفلسفي ، كل ذلك قد حدث بعد عصر السلف ، وهو قد حدث لأن ضرورات موضوعية قد اقتضته ، ومن ثم فان هذا التيار لا يسقط هذا التطور من تراث الاسلام ، وهو لا يعتبره « بدعا » سيئة ، لأنه يحدد اطار « البدع السيئة » بما يجعلها خاصة بأصول الدين وعقائده الجوهرية . . ففي هذه الاصول ثبات ، لا ابتداع ولا تطوير ، مهما اختلف الزمان والمكان . . أما في الاسلام كحضارة وعلوم فان التطور دائم ، والاضافات مستمرة ، ومن ثم فان الابتداع هنا حسن ، وليس بالسيء كما هو الحال في أصول الدين . . ولذلك رأينا هذا التيار « سلفيا » تماما في تصوره للذات الإلٓهية ، ولا يختلف فهمه مع السلفية التقليدية لعقيدة التوحيد الاسلامية . . على حين رأيناه على النقيض منها في معظم الغايات ـ فضلا عن الوسائل ـ فهو يسلك سبيل « التصوف الفلسفي » ـ وليس الطرق الصوفية وشعوذتها ـ ويحله من العلوم والأنشطة العقلية مكانا علياً . . وهو يعلي من شأن العقل ، ويجعله معيارا وميزانا حتى بالنسبة للنصوص والمأثورات ، حتى لنستطيع أن نقول ان موقفه من العقل والفلسفة يجعله الامتداد المتطور لمدرسة المعتزلة ، فرسان العقلانية في تراثنا القديم ، ومن ثم فانه خصم للسلفية المحافظة وليس مجرد مخالف لها .

وإذا شئنا بعض الأمثلة ، قبل التفصيل الذي سيؤكد هذه المقولة ، فاننا نجد الامام محمد عبده يتحدث عن الغاية الأولى التي استهدفها من نشاطه الفكري فيقول انها : « تحرير الفكر من قيد التقليد ، **وفهم الدين على طريقة**

سلف الأمة ، قبل ظهور الخلاف ، والرجوع في كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى » . . وإلى هنا فهو متفق مع السلفية التقليدية ، ولكنه يستطرد في النص، فيتحدث عن الدين « باعتباره من ضمن موازين العقل البشري »[1] . . ثم هو يعتبر ـ مثل المعتزلة ـ ان العقل ، وليس النقل ، هو طريق معرفة الانسان لله وسبيله إلى الإيمان بوجوده وبارساله للرسل « فالعقل هو ينبوع اليقين في الإيمان بالله وعلمه وقدرته والتصديق بالرسالة . أما النقل فهو الينبوع فيها بعد ذلك من علم الغيب ، كأحوال الآخرة والعبادات »[2] . . إلى آخر ما سيأتي له ، ولأعلام هذا التيار ، من حديث عن مقام العقل يباعد بينهم وبين السلفية التقليدية ، في هذه القضية ، حتى ليجعلها فيها على طرفي نقيض . .

٢ ـ وسلفية التقليد المحافظة، التي وقفت عند المأثورات وحدها، وعند فهم السلف وحدهم لهذه المأثورات ، قد جعلت من المأثورات « الكل » الذي لا شيء وراءه ، ونقطة البدء والمنتهى ، سواء في عقائد الدين أو في أمور الدنيا . . وقد يكون لها العذر ، لأن بداوة مجتمعها لم تكن تطرح من القضايا والمعضلات ما يتجاوز إطار المأثورات . . أما التيار السلفي العقلاني المستنير ، فلم يكن ذلك حاله ولا موقفه ، لأنه قد نبت في أكثر البيئات العربية الاسلامية تطورا ، وأشد مجتمعات الأمة تعقدا ، وهو قد استشرف بناء مجتمع عربي مسلم أكثر تطورا وتحضرا ، ومن ثم أشد في درجات التعقيد . . ولذلك وجدناه ـ عند عبد الرحمن الكواكبي ـ يفهم قول الله سبحانه : ﴿ ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾[3] على أن المراد : ما فرطنا في الكتاب من شيء من أمور الدين ، وليس من أمور الدنيا ، لأنها متجددة ، ومن ثم فان أحكامها متجددة كذلك[4] . . ووجدناه عند محمد عبده يحدد أن مأثورات الدين هي المرجع في تجديد الدين ، على حين أن تجديد الحياة الدنيا يتطلب الاستعانة بكل التجارب والأفكار والعلوم والنظريات التي أبدعها الانسان ، سواء في عصور ما قبل الاسلام أو ما

(١) (الأعمال الكاملة للامام محمد عبده) ج ٢ ص ٣١٨ .
(٢) المصدر السابق . ج ٣ ص ٣٢٥ .
(٣) الأنعام : ٣٨ .
(٤) (الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي) ص ٣٠٩ .

بعده وسواء أكان المبدع لهذه العلوم مسلما أم غير مسلم . . فهو هنا يميز ، دون أن يفصل ، بين ما يصلح للمسلمين آخرتهم ، وما يصلح لهم دنياهم ، فيقول : « **لو رزق الله المسلمين حاكما يعرف دينه ، ويأخذهم بأحكامه ، لرأيتهم قد نهضوا والقرآن الكريم في احدى اليدين ، وما قرر الأولون وما اكتشف الآخرون في اليد الأخرى ، ذلك لآخرتهم ، وهذا لدنياهم ، ولساروا يزاحمون الأوربيين فيزحمونهم !** » . . (1)

٣ - و« التقليد » ، الذي يفضي إلى الجمود . . لقد عابته السلفية المحافظة ، ولكن غضها من قيمة العقل قد أوقعها في خطر التقليد وحبسها في اطاره ، على حين وجدنا اعلاء تيار الأفغاني وتلاميذه لشأن العقل قد جعلهم حربا معلنة وضارية ضد التقليد والمقلدين ، ولقد أشرنا إلى اعتبار الامام محمد عبده « تحرير الفكر من قيد التقليد » الهدف الاول لمدرستهم الفكرية . . بل لقد حكم بنقص ايمان المقلدين نقصا يخل بهذا الايمان !. . ثم رأيناه ينتقد موقف السلفية المحافظة ، من هذه القضية نقدا مباشرا ، عندما تحدث عنها باعتبارها « الفئة التي زعمت أنها نفضت غبار التقليد ، وأزالت الحجب التي كانت تحول بينها وبين النظر في آيات القرآن ومتون الأحاديث ، لتفهم أحكام الله منها » ثم يستطرد فيكشف كيف أنهم قد غرقوا إلى الآذان في التقليد ، فيقول : ولكن هذه الفئة أضيق عطنا ، (2) وأحرج صدرا من المقلدين ، وهي وان أنكرت كثيرا من البدع ونحت عن الدين كثيرا مما اضيف إليه وليس منه ، فإنها ترى وجوب الأخذ بما يفهم من لفظ الوارد ، والتقيد به ، بدون التفات إلى ما تقتضيه الأصول التي قام عليها الدين وإليها كانت الدعوة ولأجلها منحت النبوة فلم يكونوا للعلم أولياء ، ولا للمدنية أحباء ! »(3) .

٤ - وسلفية المحافظين ، وقريب منها - ولا نقول مثلها سلفية الشيخ رشيد رضا ، والشيخ حسن البنا - لاعتمادها على النقل دون العقل ، أو أكثر من

---

(1) (الأعمال الكاملة للامام محمد عبده) ج ٣ ص ٢٥١ ، ٢٥٢ .
(2) أي أضيق أفقا . والعطن معناه الاصلي : مبرك الجمل ومربض الغنم .
(3) (الأعمال الكاملة للامام محمد عبده) ج ٣ ص ٣١٤ (والنقد هنا موجه للحركة الوهابية) .

العقـل . ولتعميمها ذلـك في شؤون الدنيا أيضـاً ، جعلت من التجـديـد دعـوة للعودة إلى « مجتمع » السلف ونظمه وتشريعاتـه ، فضلا عن فكـره ، فهي عودة إلى السلف . . وإن تفاوتت صراحتهـا في هذه الـدعوة بـين دعاتهـا في الباديـة ، حيث كانت هذه العودة ليست بالامـر المستحيل ، وبـين دعاتهـا في الحضر ـ كـما عند الشيخ البنا ـ حيث جعلها الغاية التي تؤدي إليهـا وسائـل مغلفة ـ أحيـاناً ـ بالغموض والتعميم ! . .

أما سلفية التيار العقلاني المستنير فهي لا تدعو للعودة إلى مجتمع السلف ، لأنها تـدرك استحالـة ذلك ، فضـلا عن خطره وضـرره ، وإنما هي تـدعـو إلى استلهام ما هو جوهري ونقي ـ أي الدين الخالص ـ في تراثنـا ليكون نقـطة البدء والطاقة المحركة ، والنبع المقدس لـدفع عجلة التـطور إلى الأمام ، ولبنـاء مجتمع جـديد جـدة الواقـع والظروف والاحتيـاجـات والمـلابسـات . . فـالسلفيـة هنـا « أساس » نبني عليه البناء الجديد . . وليست هي البناء ، وهذا التيار يختـار هذا « الأساس » ، دون النمط الأوربـي في الحضارة ، ودون فكرية العصور الوسطى الجامدة المحافظة ، لأنه « أساس » قد جربته هذه الأمـة فأقـامت عليه حضـارتها التي ازدهـرت في عصرهـا الذهبي ، ولأن مكـانتـه في ضمـير الأمـة تجعله متينـا ومكينا ، فهو ليس فكر صفوة ولا عقيدة الطلائع والخاصـة ، حتى يكون محـدود الأثر محدد النطاق سهل الاقتلاع ، وإنما هو عقيدة الامة وفكر الجمهـور فـإذا مـا صقل بالعقل وأزالت الاستنارة عنه غبار خرافات العصور الوسـطى أصبح أمتن « أسـاس » يمكن أن يقـوم عليـه ، شـامخـاً ، البنـاء الحضـاري المنشـود للعـرب والمسلمين . . ولذلك ، فلقد قدم هذا التيار دعوته هذه بـاعتبارهـا دعوة متميـزة لبنـاء نمط حضاري متميـز ، لا هو النمط الغـربي كما كـانت دعوة انصـار جعـل الشـرق قطعـة من أوربـا ولا هـو نمط الماضي ، كـما كـانت دعـوة علماء الـدين التقليـديين . . . والامام محمد عبـده يشير إلى أن هـذا المذهب قـد خالف « رأي الفئتين العظيمتين اللتين يتركب منهما جسم الأمة : طلاب علوم الدين ومن على شاكلتهم ، وطلاب فنون العصر ومن هو في ناحيتهم . . »[1] .

---

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٣١٨ .

ومن هذه الأمثلة ، فضلا عما سيأتي في الحديث ـ عن قسمات هـذا التيار ـ تتضح معالم الفـروق بين « سلفيتـه » وسلفية الآخـرين . . وكيف أنها ، بحق ، سلفية عقلانية مستنيرة . . ومن ثم فلا تناقض في العنوان ! . .

* * *

أبرز الأعلام :

وأعلام هذا التيار كثيرون ، وانتشارهم ، بالـذات أو بالفكـر ، قد غـطى انحـاء العالمـين العربي والاسـلامي ، وقد يتميـز واحد منهم بقسمـة فكريـة عن آخر ، وقد تدعو البيئـة أو الأولويـات أو طبيعة التحـديات إلى أن يكـون تركيـز بعضهم على قضايـا بعينها دون القضـايا الأخـرى ، لكنهم ، في مجموعهم ، قـد جمعتهم القسمـات العـامـة التي ميـزت هـذا التيـار التجـديـدي عن غيـره من التيـارات ، وربطت السلفيـة العقلانيـة المستنيرة بـين ثمرات فكـرهم ونشاطهم العملي برباط واحد ووثيق . .

* وأول هؤلاء الأعـلام ورأس هذا التيـار هو جمـال الـدين الأفغـاني . . عربي النسب ـ وإن ولد ونشأ في بلاد الأفغان ـ فنسبه يرجع إلى الحسـين بـن علي ابن أبي طالب . . وعربي العقل والفكر منذ نشأتـه الأولى ، فقبل أن يبلغ الثـامنة عشرة من عمره كان قد درس : علوم العـربية ، والتـاريخ ، وعلوم الشـريعة ، من تفسير وحديث وفقه وأصول ، وكلام وتصوف ، والعلوم العقلية ، من منطق وحكمـة عملية سيـاسية ومنـزلية تهـذيبية ، وحكمـة نظريـة ، طبيعيـة وإلهيـة ، والعلوم الرياضية ، من حساب وهندسة وجبـر وهيئة أفـلاك ، ونظريـات الطب والتشريح ! . .

وهو سني ، توثقت عـلاقاتـه الشخصية والفكـرية بعلماء الشيعـة وفكرهـا ومراكزها ، بالعراق ، منذ صدر شبابه . . فلما تبلورت دعوتـه للتجديـد واليقظة كان عقله قد وصل به إلى حيث أصبح فوق المذاهب التي فرقت المسلمين ، لأن سلفيته في الدين تسبق المذاهب ، وعقلانيته ترفض البقاء في أسر خـلافاتهـا التي تجاوزها العصـر ، واستنارتـه تراهـا عقبة أمـام ما يـريد تحقيقـه لأمته من نهضـة وانطلاق . .

وكان عداؤه للاستعمار مبكرا . . ولم يكن بالعداء النظري فقط ، فلقد انخرط منذ شبابه في التيار الوطني الأفغاني الذي قاده الأمير محمد أعظم خان لمناوأة النفوذ الانجليزي الطامع في أفغانستان . . ووصل جمال الدين في هذا النشاط الوطني إلى منصب الوزير الأول في البلاد ، وقاد معارك حربية ضد المتعاونين مع الإنجليز ، الذين تزعمهم الأمير شير علي . . فلما انتصر خصومه ، اضطر إلى السفر للهند (١٨٦٨ م) . . فلما ضيق عليه الانجليز فيها الخناق ، بدأ رحلته إلى الوطن العربي . . فوصل إلى مصر سنة ١٨٦٩ . . ثم الآستانة . . ثم رجع إلى مصر فأقام بها قرابة التسع سنوات ـ (٢٣ مارس سنة ١٨٧١ ـ ٢٤ أغسطس سنة ١٨٧٩ م) ـ كانت أخصب فترات حياته الفكرية والنضالية ، وفيها تبلور تياره ومذهبه في اليقظة والثورة والتجديد .

ففيها أملى على تلاميذه الأمالي والتعليقات التي شرح بها كتبا قديمة في الفلسفة الاسلامية . . وكان عهد مصر قد انقطع بهذا اللون من ألوان الفكر منذ أن زالت الدولة الفاطمية وأحلت دول العسكر تكايا الصوفية وخوانقها والمدارس الأشعرية محل (دار الحكمة) و(مجالس الدعاة) ومنهاج (الأزهر) العقلاني . .

وفيها أنشأ ورعى تيار الصحافة غير الحكومية ، وكانت من قبله حكومية في الأساس ، فكانت صحف (مصر) التي رأسها أديب اسحاق (١٨٥٦ ـ ١٨٨٥) و (التجارة) التي رأسها سليم نقاش (١٨٨٤ م) و(مرآة الشرق) التي رأسها ابراهيم اللقاني طليعة الصحافة الشعبية ، غير الحكومية ، في البلاد . . وكان الأفغاني يكتب فيها بتوقيع « مزهر بن وضاح » . . كما كان يملي على تلاميذه مقالات ينشرونها بأسمائهم ، حتى نشأت من حوله كوكبة من الكتاب الشباب ، جددت أساليب العربية في الانشاء ، وخلصتها من السجع والمحسنات البديعية ، وادخلت إلى اللغة الحديثة فن المقال ، الذي جاء تطويرا عصريا لفن « الرسالة » الذي عرفه تراثنا القديم . .

وفيها تبلوّر من حوله التيار الشعبي في التنوير . . ومن قبله كان جهاز الدولة هو المصدر الوحيد للتنوير .

وفيها كانت التربة الخصبة التي استقبلت بذور أفكاره اطيب استقبال ، حيث نبتت ونمت وأينعت ، وآتت من الثمار ما لم تؤت في بلد آخر حل فيه هذا الفيلسوف العظيم . .

وفيها أنشأ (الحزب الوطني الحر) الذي جمع تلاميذه وأنصار دعوته ، وهو الحزب الذي قاد الثورة العرابية ، وبعد هزيمتها هيأ نفراً من بنيه لنشأة (الحزب الوطني) الذي قاده مصطفى كامل (١٨٧٤ ـ ١٩٠٨ م) ونفر آخر منهم انضم إلى جمعية (العروة الوثقى) السرية التي قادها الأفغاني وأصدر صحيفتها من باريس . .

ولما نفي جمال الدين من مصر ، بايعاز من القناصل الأوربيين للخديوي توفيق سنة ١٨٧٩ م ذهب إلى الهند . . وهناك منع من الحركة حتى تمت هزيمة العرابيين . . فسافر إلى باريس سنة ١٨٨٣ م . ثم إلى لندن . . ثم عاد إلى باريس ، فأصدر صحيفة (العروة الوثقى) ومعه الشيخ محمد عبده . . فلما توقفت ذهب إلى شبه الجزيرة العربية سنة ١٨٨٦ م . . فايران سنة ١٨٨٧ م . . فموسكو . . فميونخ . . فايران ثانية سنة ١٨٩٠ م . . فالعراق سنة ١٨٩١ م . . فلندن . .

وفي كل هذه المواطن لم يعرف الرجل لنفسه حرفة سوى حرفة الثورة على البالي ، والدعوة إلى اليقظة والتجديد ، ولم يتخذ لنفسه أسرة سوى الأنصار والتلاميذ الذين أعدهم ودفع بهم في الصراع ضد الزحف الاستعماري الغربي الذي كان يحث الخطى لالتهام بلاد العرب وأقطار الاسلام . . وظل ذلك شأنه حتى نجح السلطان العثماني عبد الحميد في استقدامه إلى الآستانة سنة ١٨٩٢م ، وهناك أحاطه بالعيون والجواسيس ، فعاش في « قفص السلطان الذهبي »! حتى فاضت روحه إلى بارئها في ٩ مارس سنة ١٨٩٧ م[1] . .

* وثاني أعلام هذا التيار : الامام محمد عبده (١٨٤٩ ـ ١٩٠٥ م) الذي تتلمذ على الأفغاني ، ففاقه في التركيز على الاصلاح الديني ، وإن لم يبلغ شأو

(١) في الطبعة الثانية من دراستنا وتحقيقنا للاعمال الكاملة للافغاني ـ بيروت ١٩٧٩ م ـ توسعنا في دراسة حياته بعد أن كنا قد أوجزناها في ص ١٠ ـ ١٨ من الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٦٨ .

استاذه في الفكر السياسي . . وهو فلاح مصري ، فقير ، بلغ بعقله وفكره إلى مكان هابته فيه الملوك ، فقال عنه خصمه الخديوي عباس : « إنه يدخل عليّ كفرعون ! » . . وداعبه استاذه الأفغاني متسائلاً : « قل لي : ابن أي ملك من الملوك أنت ؟ ! » . . . دخل الأزهر صغيرا ، فصده عن علومه جمود شيوخه وعقم وسائل التعليم فيه . . ثم أعانه نهج الصوفية المتنسكين على مواصلة الدراسة . . حتى كان لقاؤه بالأفغاني سنة ١٨٧١ م فحدث له به التحول الكبير . . فمن التصوف النسكي تحول إلى التصوف الفلسفي . . ومن أفق طلاب الأزهر المحدود انطلق إلى حيث استشرف الآفاق التي كان يستشرفها أستاذه . . وفي صحبة الأفغاني بمصر كان أبرز مريديه . . ثم أصبح ، بعد نفيه ، ووفق عبارته : « روح الدعوة » إلى التجديد . . وأسهم ، من موقع الاعتدال ، في الثورة العرابية . . ثم نفي فيمن نفي من قادتها . . فعاش زمنا في باريس ، يحرر (العروة الوثقى) ، وينوب عن الأفغاني في رحلات سرية لشؤون الجمعية التنظيمية . . ثم أقام في بيروت . . فلما سمح له بالعودة إلى مصر ، هجر العمل السياسي ، وركز على محاولة اصلاح القضاء والأوقاف والأزهر ، وتحرير العقل المسلم ، من أسر التقليد ، وتجديد اللغة العربية . . فأصاب الكثير من النجاح في العديد من الميادين ، وتبلورت من حوله معالم هذا التيار التجديدي ومدرسته . . لكن صدامه مع الخديوي عباس حلمي الثاني (١٨٧٤ - ١٩١٤ م) قد أعاق الكثير من اصلاحاته، كما أن جمود أغلب شيوخ الأزهر قد منع جهوده الاصلاحية من بلوغ ما أراد لها في إصلاح الأزهر ، حتى لقد مات كمدا بسبب هذا الاخفاق في ١١ يوليو سنة ١٩٠٥ م[1] .

* وفي المشرق العربي كان عبد الرحمن الكواكبي (١٨٥٤ - ١٩٠٢ م) من أبرز من مثلت أفكاره القسمات الفكرية لهذا التيار . . وهي الافكار التي خلفها لنا في كتابيه الفريدين (أم القرى) و(طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) .

---

(١) في الترجمة لحياة الاستاذ الامام أنظر دراستنا عنه من أعماله الكاملة ج ١ .

ولقد ولد الكواكبي في حلب ، لأسرة كانت فيها نقابة الأشراف قبل أن يغتصبها منها الشيخ أبو الهدى الصيادي (١٨٤٩ - ١٩٠٩ م) الذي برز في الدولة العثمانية كنموذج لفكرية العصور الوسطى المتخلفة ، وأداة للدس والتنكيل بالمجددين والثوار والمصلحين .

وفي سنة ١٨٧٨ م أصدر الكواكبي صحيفة (الشهباء) ، أول صحيفة عربية تصدر في ولاية حلب . . ولم يمهلها العثمانيون أكثر من خمسة عشر عدداً ، ثم منعوا صدورها . . فأصدر في العام التالي جريدة (الاعتدال) . . ولقد قاده نضاله إلى هجران الوظائف ، وافلاس التجارة ، وتعريض حياته للخطر . . ثم قاده إلى السجن في سنة ١٨٨٦ م ، فلما اضطر العثمانيون إلى الافراج عنه تحت ضغط جماهير الولاية ، أطلقوا سراحه ، ثم عادوا الالقاء القبض عليه ولفقوا له اتهاما بالاتصال بدولة أجنبية ، وحكموا باعدامه ! . . ولكن الجماهير عاودت ضغطها ، فأجبرت العثمانيين على اعادة محاكمته خارج الولاية ، فعرضت القضية على محكمة بيروت التي حكمت ببراءته ! . .

وفي تلك الأثناء كان الكواكبي قد أنشأ تنظيم (جمعية أم القرى) السرية ، وهي الجمعية التي عقدت مؤتمرها السري بمكة ، والتي أصبحت مداولات مؤتمرها هذا أساس كتابه (أم القرى) . وفي هذا المؤتمر حضر ممثلون عن الولايات العربية التي يحكمها العثمانيون ، وشاركهم المداولات ممثلون للبلاد العربية الأخرى ، وللجاليات الاسلامية خارج حدود الوطن العربي .

ولما أضحت حياة الكواكبي مهددة في حلب ، قرر الهجرة منها إلى مصر ، فوصل إليها سرا في سنة ١٨٩٩ م . . وفي مصر أفاد من تناقضات كانت بين حكومتها والدولة العثمانية يومئذ ، فنشر كتابيه ، فصولا في الصحف ، ثم جمع الفصول فصدرت في كتابين . . ومنهاقام برحلة لبلاد المشرق العربي ، والمناطق العربية والمسلمة في افريقيا . . وبعد نحو أربع سنوات فاضت روحه إلى بارئها ، بمؤامره دس فيها السم له جاسوس من جواسيس السلطان عبد الحميد ، فكان استشهاده في ١٤ يونيو سنة ١٩٠٢ م[١] .

(١) انظر تفاصيل حياته في تقديمنا لاعماله الكاملة . ص ٩ - ٣٢ .

* أما في المغرب العربي فإن عبد الحميد بن باديس (١٨٨٩ ـ ١٩٤٠ م) يعد أبرز ممثلي هذا التيار . . وهو قد ولد بقسطنطينة ، في الجزائر ، وفيها تعلم علوم العربية والاسلام ، ومن شيوخه في تلك الفترة : الشيخ حمدان الونيسي ، الذي أخذ عليه عهداً أن يقاطع الحكومة الاستعمارية ، فالتزم العهد ، وصار يأخذه على تلاميذه فيما بعد ! . . وفي التاسعة عشرة من عمره سنة ١٩٠٨ م ذهب إلى جامعة الزيتونة ، بتونس ، فدرس فيها ما لم يكن يستطيع أن يدرسه بالجزائر في ظل الاستعمار الفرنسي الذي كان يحرم العربية ويطارد السمات القومية للجزائريين كي يسحقها ، كي يجعل منهم فرنسيين ، ومن وطنهم الامتداد الفرنسي في القارة الافريقية عبر البحر المتوسط ! . .

وفي سنة ١٩١٢ م سافر حاجا إلى الحجاز ، وهناك التقى بعدد من الشيوخ الجزائريين الذين هاجروا وجاوروا بمكة والمدينة ، فعرض عليه بعضهم أن يجاور مثلهم الحرمين الشريفين ، ولكنه كان قد شرع التفكير في مقاومة الاستعمار الفرنسي بالجزائر ، فرفض الهجرة ، وقال : **نحن لا نهاجر . نحن حراس الاسلام والعربية والقومية في هذا الوطن ! . . وقبل عودته اتفق مع الشيخ « البشير الابراهيمي » على خطة لتنفيذ البرنامج الذي لخصته كلماته هذه وكانت الخطة هي إعداد جيل من الرجال يواجهون محاولة السحق القومي ، في الجزائر ، ويعيدون الجزائر إلى « العروبة والاسلام والقومية » . . رجال « يملكون وضوحا في الهدف ، وفكرة صحيحة توصل إليه ، حتى وإن كانوا ذوي علم قليل ! ويعرفون حدود غاياتهم ، التي تنتهي عند تسليم الأمانة لجيل ثان يعلن الثورة ويستخلص الاستقلال من المستعمرين ! . . ».**

ومكث ابن باديس ثمانية عشر عاما يعد هذا الجيل ، قائلا : أنا لا أؤلف الكتب ، وإنما أريد صنع الرجال ! فكان يعظ في المساجد ، ويفسر القرآن ، ويعلم العربية للأطفال ، ويجوب القرى والمدن ويصعد الجبال . . فاجتمع له من سنة ١٩١٣ حتى سنة ١٩١٨ م ألف من هؤلاء الرجال ! . . وعندما أقامت فرنسا احتفالاتها الصاخبة المجنونة بمرور قرن على احتلالها للجزائر سنة ١٩٣٠ م ، كان رد ابن باديس هو اعلان المشروع الذي خطط له سنة ١٩١٢ م ،

فقامت (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) في ٥ مايو سنة ١٩٣١ م حاملة رسالة العودة بالجزائر إلى هويتها القومية ، وممهدة الطريق لجيل الثورة المسلحة على الاستعمار . .

وكانت « الطرق الصوفية » سندا أساسياً للسلطة الاستعمارية بالجزائر ، فحاربها ابن باديس سنة ١٩٢٥ ، وتعرض بسبب ذلك لمحاولة اغتيال سنة ١٩٢٧ م .

وفي سنة ١٩٢٥ م بدأ نشاطه الصحفي . . فشارك في صحيفة (النجاح) . . ثم أصدر مجلة (المنتقد) سنة ١٩٢٦ م وكان شعارها : « الحق فوق كل أحد ، والوطن قبل كل شيء » ! فعطلها الاستعمار بعد ثمانية عشر عددا . . لكنه عاد فأصدر صحيفة (الشهاب) ، أسبوعية ، ثم شهرية . . كما أصدر صحفا أخرى تعرضت للمصادرة والالغاء ، منها (الشريعة) ، و(السنّة المحمدية) و(الصراط) .

وقبل أن ينتقل ابن باديس إلى جوار ربه في ١٦ ابريل سنة ١٩٤٠ م كان قد وضع وطنه بيد الجيل الذي أعاده إلى طريق العروبة ، والذي صنع الجيل الذي أعلن الثورة على فرنسا سنة ١٩٥٤ م وحقق بدماء المليون شهيد استقلال الوطن الجزائري العربي المسلم سنة ١٩٦٢ م . . فحقق الهدف الذي رسمه الشيخ ، بمكة ، قبل نصف قرن ، يوم قال : « نحن لا نهاجر . نحن حراس الاسلام والعربية والقومية في هذا الوطن ! » . . فأثبت أن الاسلام والعروبة والقومية لن تضيع إذا كان لها حراس من أمثال ابن باديس . . وأثبت أيضاً أنه أبرز ممثلي تيار التجديد والاصلاح ، السلفي العقلاني المستنير ، ببلاد المغرب العربي على الاطلاق[1] .

في مواجهة : فكرية العصور الوسطى :

كانت فكرية العصور الوسطى ، المحافظة والجامدة واللاعقلانية ، والتي

---

(١) انظر للمزيد من التفاصيل عن حياة ابن باديس دراستنا عنه بكتابنا (مسلمون ثوار) .

قنع أصحابها بالجمع والتصنيف والتدوين ، وخاصة للتراث غير العقلاني . . كانت هذه الفكرة واحدة من التحديات التي تصدى لها تيار التجديد العقلاني المستنير . . ولأنها كانت تحتكر الحديث باسم السلف الصالح ، وتقدم فكرها باعتباره فكر هذا السلف ، ومن ثم تضفي عليه قداسة الدين لهذه الاسباب ، واتساقا مع منهج هذا التيار الذي ينطلق ، في التجديد الديني ، من المنابع الأولى للدين ، كانت دعوته إلى السلفية الدينية الحقيقية . . **السلفية التي تعود لتأخذ « الدين » عن منابعه الأولى لأنها هي النقية ، وليس عن فكر العصور الوسطى ومتونها وحواشيها** . . فليست هذه هي منابعه ، ومن ثم فإن أصحابها ليسوا هم السلفيين ! . . ولذلك كانت سلفية هذا التيار تجديدا للدين ، وليست محافظة وجمودا عند فكرية العصور الوسطى كما كان حالها عند الآخرين . . فمحمد عبده يدعو إلى « فهم الدين على طريقة سلف الأمة ، قبل ظهور الخلاف ، والرجوع في كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى . . »[1] والكواكبي يجهر بضرورة تجديد الدين في الشرق بأجمعه ، اسلاما كان هذا الدين أو بوذية أو مسيحية أو يهودية ، فيقول : « ما أحوج الشرقيين أجمعين ، من بوذيين ومسلمين ومسيحيين واسرائيليين ، وغيرهم ، إلى حكماء لا يبالون بغوغاء العلماء المرائين الأغبياء ، والرؤساء القساة الجهلاء ، فيجددون النظر في الدين ، نظر من لا يحفل بغير الحق الصريح . . وبذلك يعيدون النواقص المعطلة في الدين ، ويهذبونه من الزوائد الباطلة ، مما يطرأ عادة على كل دين يتقادم عهده ، فيحتاج إلى مجددين يرجعون به إلى أصله المبين البريء . . »[2] .

ولتجديد الدين كان لابد من النظر في شأن المؤسسات التي تهيمن على تدريس الدين . . ومن هنا جاءت محاولات الإمام محمد عبده ، ومعاركه من أجل اصلاح التعليم في الأزهر ، وهي محاولات ومعارك تمثل فصلاً من فصول كتاب التجديد الذي سطره هذا التيار . . فلقد كانت لمحمد عبده ، بالذات ، اتجاهات فكرية تعلق الكثير من الآمال ، بل وأحياناً كل الآمال ، على التربية

---

(١) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ج ٢ ص ٣١٨.
(٢) الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي ص ١٨٦ -١٨٧.

والتعليم ، وكـان يرى أن الأمـة إذا امتلكت صفـوة مستنيـرة من أبنـائهـا ، ثم اتسع عدد هذه الصفوة ونطاقها ونفوذها حتى غلبت الهمـل والجهلاء ، فـإن كل مشـاكـل الأمـة ستـأخـذ طـريقهـا للحـل ، كثمـرة نضجت وحـان لهـا مـوعـد القطاف! . . ومن هنا كـان تخليه عن العمـل السياسي المبـاشر ، وتـركيزه عـلى إصلاح القضاء ، والأوقاف والأزهر . . والأزهر بالذات . .

ولقد خاض الرجل معـركة ضـارية ضـد الجامـدين عند فكـرية العصـور الـوسطى من شيـوخ الأزهر . . فكـان يطلب أن تـدخل العلوم الحـديثة ـ مثـل الحساب والجبر والتاريخ والجغرافيا ؟!ـ إلى مناهجه ، وكانوا يعارضون . . ولقـد دار بينه ، يوماً ، في مجلس إدارة الأزهر ، وبـين الشيخ محمـد البحيري ، حـوار بدأه البحيري بالاعتراض عـلى تدريس هـذه العلوم ، لعدم جـدواها ولأن عـلى طلاب اليوم أن يـدرسوا مـا درسه شيـوخهم وأسلافهم فعبـرت كلمات الأستـاذ الإمام ، بحدتها ، عن عنف المعركة وضراوة الصراع . .

البحيري : أننا نعلمهم كما تعلمنا !

محمد عبده : وهذا هو الذي أخاف منه!

البحيـري : ألم تتعلم أنت في الأزهـر ؟! وقـد بلغت من مـراقي العلم ، وصرت فيه العلم الفرد ؟!.

محمد عبده : إن كان لي حظ من العلم الصحيح ، الذي تذكر ، فإنني لم أحصله إلا بعد أن مكثت عشر سنين أكنس من دماغي مـا علق فيه من وسـاخة الأزهر ، وهو الى الآن لم يبلغ ما أريد له من النظافة ؟! . .[1].

ولقـد ارتبط سعي محمـد عبـده إلى إصـلاح الأزهـر بـنظرة عميقـة لخـطر الانقسـام الـذي يحـدثـه في شخصيـة الأمـة ذلـك الإزدواج التعليمي القـائم في مؤسسات العلم بها ، وهو الإزدواج الذي نشأ بنشأة المـدارس المدنيـة منذ عهـد محمـد عـلي ، بعـد عجـزه عن اصـلاح الأزهـر ، فلقـد خشي غضبـة شيـوخـه

(١) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ج ٣ ص ١٧٨ ، ١٧٩ .

واتهاماتهم ، فتخير نجباء طلاب الأزهر وأقام بهم مؤسسات التعليم المدنية ، وبقي الأزهر على ما كان عليه في العصور الوسطى ، فأصبح للأمة نمطان في التعليم يمزقان شخصيتها إلى حد كبير ، فكتب محمد عبده يشخص هذه الظاهرة ويقول : « إنه ليس أمام الناس من معاهد التربية إلا جهتان : المدارس الأميرية ، ومدرسة الأزهر الدينية ، وليس في الجهتين ما يهديهم لما يجعلهم رعية صالحة . . ففي الأزهر لا يتعلمون من الدين إلا بعض المسائل الفقهية وطرفا من العقائد ، على نهج يبعد عن حقيقته أكثر مما يقرب منها ! وجل معلوماتهم تلك الزوائد التي عرضت على الدين ، ويخشى ضرها ولا يرجى نفعها . . وأبناؤه المعروفون « بالعلماء » . . أقرب للتأثر بالأوهام ، والانقياد إلى الوساوس من العامة ، وأسرع الى مشايعتها منهم ، وذلك بما ينشأون عليه من التعليم الرديء والتربية التي لا ترجع الى أصل صحيح ، فبقاؤهم فيما هم عليه اليوم مما يؤخر الرعية . . والناس لا يختارون لأبنائهم الأزهر إلا لسوء ظنهم بالمدارس الأميرية ، أو لاعتقادهم أن الأزهر احفظ للدين منها ، فإذا حصل الاصلاح فيها وجدوها أدنى إلى المنفعة منه ، **فعند ذلك تنفرد بكونها معاهد التعليم ، ويصبح الناس كلهم في طريق واحد** »!.

ولقد يبدو هذا الرأي جريئاً إلى حد الغرابة . . فالشيخ محمد عبده يطلب اصلاح المدارس الأميرية ليضم منهجها اطلالة عقلانية على الصفحات المشرقة في التراث ، وتعمقاً في علوم العصر ، ويرى أن بلوغها هذا الهدف سيجعلها البديل الصالح للأزهر ، وليس مجرد المنافس له . . فهي إذن دعوة إلى إلغاء الأزهر الشريف ! . . ونحن نراه في مقام آخر يجهر بهذه الدعوة فيقول : « إن بقاء الأزهر متداعياً على حاله في هذا العصر محال ، فهو أما أن يعمر وأما أن يتم خرابه»! وكان محمد عبده يمارس التدريس في (مدرسة دار العلوم العليا) التي أنشأها علي مبارك باشا (١٨٢٤ - ١٨٩٣ م) لتجسد وحدة شخصية المثقف والمتعلم ، فهي تدرس علوم العصر ، وتطل من زاوية عصرية على التراث . . ويبدو أن تجربة محمد عبده في (دار العلوم) أقنعته ، عندما غلب عليه اليأس من اصلاح الأزهر ، أن (دار العلوم) يجب أن تكون البديل للأزهر ، فكتب

عنها يقول : « إن هذه المدرسة تصلح أن تكون ينبوعاً للتهذيب النفسي والفكري ، والديني والخلقي ، **ويمكن أن ينتهي أمرها إلى أن تحل محل الأزهر ، وعند ذلك يتم توحيد التربية في مصر** »[1].

بل لقد نعجب نحن في عصرنا ، فضلاً عن عصر الشيخ محمد عبده ، عندما نعلم أن الرجل كان من أنصار جعل التعليم العام في مدارس الدولة « مدنياً » خالصاً ، وتخصيص مدارس خاصة للتعليم الديني والتربية الدينية . . ولقد جهر برأيه هذا ، ولكنه اعترف بأن الأخذ به في مثل مجتمعاتنا الشرقية مستحيل استحالة «مجيء الألف على رأس المائة ! . . » كما قال . . وهو قد جهز بهذا الرأي وهو يحذر أبناء أمته من ارسال اولادهم إلى المدارس الأجنبية التي تمارس التبشير بواسطة التعليم الديني فتغير عقائد الأبناء المسلمين . . فكتب يقول : « إننا نعيد انذار الآباء . . أن لا يبعثوا بأبنائهم إلى المدارس الأجنبية التي تغير مشاريعهم ومذهبهم ، **حتى يأذن الله بمنع التعليم الديني في جميع مدارس العالم ، فتكون المدارس قاصرة على العلوم الغير الدينية والصنائع ، ويكون للدين مواضع مخصوصة لتعليمه والتربية بمقتضاه** . . وهذا ـ خصوصاً في مثل اقطارنا ـ أبعد من مجيء الألف على رأس المائة » ![2] .

فهو ، فيما استهدفه ، من جهود لاصلاح الأزهر إنما كان يستهدف تجديد الفكر الديني ، والتصدي لذلك التحدي الذي تمثل في فكرية العصور الوسطى ، فكرية العصر « المملوكي ـ العثماني »، التي قدست ما لا يستحق التقديس ، من الحواشي والمتون . . ولم تكن دعوته هذه محلية ، خاصة بمصر ، ففضلاً عن أن الأزهر ، وخاصة في عصره ، كان أبرز معاهد العلم في عالمي العروبة والإسلام ، التي لم تكن تعرف أغلب بقاعها يومئذٍ المدارس المدنية فإن الدعوة إلى إصلاحه كانت منطبقة تماماً وموجهة أيضاً إلى مؤسسات التعليم المناظرة له أو المقاربة : الجامع الأموي بدمشق والزيتونة بتونس ، والقرويين بفاس . .

---

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ١١٢ ـ ١١٤ ، ١٧٧ ، ١١٩ .
(٢) المصدر السابق ج ٣ ص ٦٠ ، ٦١.

وفي مواجهة التنكر للعقل :

وكانت فكرية العصور الوسطى هذه تتنكر للعقل ، وتنفر من العلوم العقلية ، وتقف عند العلوم الأدوات ، دون علوم المقاصد والغايات ، وكان عداؤها للفلسفة تجسيداً لهذا الموقف الذي تصدى له تيار التجديد العقلاني المستنير . .

فالدولة العثمانية ، مؤسسات وشيوخاً وسلاطين ، كانت تشجع الفكر المؤسس على الخرافة ، وتنفر من الفلسفة ، وتعادي أداتها في البحث ، وهو العقل . . وإذا كان المقام لا يتسع لاستقصاء أدلة هذا الحكم - الذي لا نعتقد أنه موضع خلاف بين أغلب الباحثين - فإن بعض الأمثلة تكفي في هذا المجال . . فالإمام الغزالي قد ألف كتابه (تهافت الفلاسفة) الذي شن فيه أكبر هجوم على الفلسفة والفلاسفة ، وعلى قوانين السببية وقوانين الطبيعة . . الخ . . الخ . . ورد عليه أبو الوليد بن رشد بكتابه (تهافت التهافت) الذي انتصر فيه للفلسفة والعقل والعقلانية ، فلما جاء الكاتب التركي العظيم حاجي خليفة (١٠١٧ -١٠٦٧ هـ ١٦٠٩ - ١٦٥٧ م) فصنف موسوعته (كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون) وهي التي أحصى فيها العلوم والفنون والكتب التي وضعت فيها كانت وقفته أمام هذين الكتابين تجسيداً لمكان كل منهما في المناخ العثماني . . فهو قد أفرد حديثاً (لتهافت الفلاسفة) استغرق مائة واثنين وثلاثين سطراً ، بينما لم يفرد (لتهافت التهافت) أي حديث ، وإنما عرض له في التذييل والتعقيب على حديثه عن كتاب الغزالي ، ولم يزد هذا التعقيب عن ستة أسطر فقط لا غير! » . .(١)

والأزهر لم يكن يطيق مجرد سماع مصطلحات وأسماء مثل : الفلسفة ، والمنطق ، والمعتزلة . . الخ . . ومن العبارات التي غدت حكماً على ألسنة عدد من شيوخه : « من تمنطق فقد تزندق » . . . وعندما جاء الأفغاني الى مصر ، وعقد بمنزله حلقة درس أملى فيها تعليقاته على (شرح الدواني للعقائد

---

(١) (كشف الظنون) ج ١ ص ٥٠٩ - ٥١٣ طبعة استانبول سنة ١٩٤١ م .

العضدية) وأفاض في الحديث ، باحترام وعمق ، عن فلسفة الاسلام وفلاسفته ، كان يذكر الناس بأشياء قد نسوها وأعلام كادوا أن يجهلوهم . . وكان محمد عبده ـ وهو لا يزال طالباً بالأزهر يومئذٍ ـ يخرج من بيت الأفغاني إلى الجامع الأزهر ، فيجمع نبهاء الطلاب ، ويعيد عليهم ما سمعه في بيت جمال الدين ، فلما علم الشيخ عليش (١٢١٧ ـ ١٢٩٩ هـ ١٨٠٢ ـ ١٨٨٢م) أن اسم « المعتزلة » قد تردد في جنبات الأزهر حمل عصاه الشهيرة وذهب ليكسر عظام محمد عبده ، ولكن الله سلم ، فلقد استعد محمد عبده للصدام ، فتراجع الشيخ عملا بقول القدماء : القتل أنفى للقتل . . وإعداد العدة يمنع الصدام ! . .

ذلك كان مناخ فكر الدولة العثمانية ، وموقف مؤسساتها من العقل والفلسفة . . فماذا صنع تيار التجديد هذا على هذه الجبهة ؟ . .

إن الأفغاني ، رأس هذا التيار ، قد قدم نفسه كفيلسوف ، ليس بما أحيا من دروس الفلسفة ومباحثها فقط ، ولكن بسلوكه وتصنيفه لنفسه . . فهو إذاً كان شجاعاً ولا يخشى أعداءه ، بل ولا يخشى الموت في سبيل غاياته ، فإن هذه الشجاعة أثر من آثار الفلسفة على ذاته ، وثمرة من ثمار نظرته للعالم كما ينظر الفيلسوف : « أيها الدرويش الفاني : مم تخشى ؟! . . اذهب وشأنك ، ولا تخف من السلطان ، ولا تخشى الشيطان ؟! . . كن فيلسوفاً ترى العالم ألعوبة ! ولا تكن صبياً هلوعا ؟! . . إنه سيان عندي طال العمر أو قصر . . فإن هدفي أن أبلغ الغاية ، وحينئذٍ أقول : فزت ورب الكعبة » . .

وهو أمام تلاميذه وبين مريديه صورة عصرية للفيلسوف المناضل ، لا الذي يعيش منعزلاً في خلوة أو فوق سطح منزل يتأمل النجوم ! ، بل وللفيلسوف المتصوف ، الذي جمعت العقلانية فيه بين الفلسفة والتصوف العقلي . . فهو صورة جديدة على عصره لكل من الفيلسوف والصوفي . . ومن تعريفاته الطريفة في هذا المقام : « الفيلسوف ، إن لبس الخشن وأطال المسبحة ولزم المسجد ، فهو صوفي . وإن جلس في قهوة « متاتيا » وشرب الشيشة ، فهو

فيلسوف ! . . »[1] قال ذلك وهو يشرب الشيشة في قهوة « متاتيا » بميدان العتبة الخضراء بالقاهرة ! .

وعلى حين كان موقف الدولة العثمانية من ابن رشد وفلسفته ما قد علمنا ، فإن هذا التيار قد أحل ابن رشد مكانا علياً ، بل لقد كانت فلسفة ابن رشد ، وتوفيقه بين العقل والنقل ، بتأويل النقل إذا تعارض ظاهره مع براهين العقل ، وبمؤخراته بين الحكمة (الفلسفة) ـ وبين الشريعة . . كانت هذه الفلسفة ، مع التصوف الفلسفي لابن عربي من بين المنطلقات التي انطلق منها هذا التيار التجديدي في هذا الميدان . .

ولقد دخلوا هذه الساحة داعين الناس إلى العودة للبديهيات « فلقد بدأ الإنسان بداية لا تميزه عن غيره من الحيوانات ! . . لكن نقطة الافتراق كانت قوته العاقلة . . والله قد جعل قوة العقل للانسان **محور صلاحه وفلاحه**[2] والعقل هو جوهر إنسانية الانسان . . وهو أفضل القوى الإنسانية على الحقيقة . .[3] «والحكمة ـ(أي الفلسفة) ـ وآلتها العقل ـ هي مقننة القوانين، وموضحة السبل ، وواضعة جميع النظامات ، ومعينة جميع الحدود ، وشارحة حدود الفضائل والرذائل ، وبالجملة ، فهي قوام الكمالات العقلية والخلقية . . فهي أشرف الصناعات[4]! ونقيض العقل وعدوه هو الجمود ، والصراع بينهما أزلي ، لكن النصر للعقل في هذا الصراع حتمي وأكيد . . والأفغاني يصور هذه المعركة ، التي كانت في الحقيقة معركة تياره التجديدي ، فيقول : « لبث الانسان يقلب طرفه في الفضاء وطبقات الهواء ، يتجادل عقله مع النسور والعقبان المحلقة ، ويهب لمجاراتها واللحاق بها ، ثم يقعده الجمود ، ويريه ذلك مستحيلاً ، فيرجع إلى الوراء ! والعقل ، وهو معتقل بذلك الجمود ، يحاول فك قيده ليسير إلى الأمام . . فإذا ظفر العقل في هذا العراك والجدال ، وتغلب

---

(١) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ج ١ ص ٢١ .
(٢) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني ص ٢٥٦ ، ٢٥٧ .
(٣) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ج ٥ ص ٤٢٨ ، ج ٣ ص ٢٩٨ .
(٤) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني ص ٢٦٠ .

إقدامه على الأوهام ، واستطاع فك قيوده ، ومشى مطلق السراح ، لا يلبث طويلاً إلا وتراه قد طار بأسرع من العقبان وغاص في البحار يسابق الحيتان ، وسخر البرق بلا سلك لحمل أخباره ، وتحادث عن بعد أشهر مع غيره كأنه قاب قوسين أو أدنى . وهل يبقى مستحيلاً إيجاد مطية توصله للقمر ، أو الأجرام الأخرى ؟! . . وما يدرينا بعد ذلك ما يأتيه الانسان في مستقبل الزمان إذا هو ثابر على هذا السير لكشف السر بعد السر من مجموع أسرار الطبيعة ، والتي ما وجدت إلا للانسان ، وما وجد الانسان إلا لها[1] ! . . إن الإنسان من أكبر أسرار هذا الكون ، ولسوف يستجلي بعقله ما غمض وخفي من أسرار الطبيعة ، وسوف يصل بالعلم وباطلاق سراح العقل إلى تصديق تصوراته ، فيرى ما كان من التصورات مستحيلاً قد صار ممكناً ، وما صوره جموده بأنه خيال قد أصبح حقيقة » . . . [2] .

على هذا النحو كانت الثقة في العقل وقدراته ، وكان التنبؤ ، قبل عصرنا ، بما تحقق في عصرنا من انتصارات ، وكان القطع بأنه سيحقق كل الانتصارات ، إذ لا سر في الطبيعة والكون سيستعصي على الكشف بواسطة هذا العقل الانساني ! . .

والأفغاني ، الذي يقول « أن الحكم للعقل والعلم »، لا ينكر أن للعقل نظرات ، ولنظراته ثمرات هي فوق ادراك العامة والجماهير . . وهنا نتذكر منهج ابن رشد عندما قسم الناس إلى مستويات ثلاثة :

العامة : وسبيلهم للمعرفة والإيمان : الوعظ والخطابة ، والأسلوب الشعري . .

وأوساط الناس : وسبيلهم : الجدل وحجج المتكلمين .

والخاصة : وسبيلهم : صناعة الفلسفة وبراهين العقل . .

وانطلاقاً من هذه النظرة يقول الأفغاني ، « أن العقل لا يوافق الجماهير ،

---

(١) (الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني) ص ٢٦٠ .
(٢) المصدر السابق ص ٢٦٥ .

وتعاليمه لا يفقهها إلا نخبة من المتنورين ، والعلم ، على ما به من جمال ، لا يرضي الانسانية كل الإرضاء ، وهي تتعطش إلى مثل أعلى ، وتحب التحليق في الآفاق المظلمة السحيقة التي لا قبل للفلاسفة والعقلاء بـرؤ يتها أو ارتيادها»؟! . . [1]

ومسرح العقل وميدانه ليس أمور الدنيا وعلومها فقط ، بل وعلوم الدين أيضاً ، والدين الاسلامي على وجه الخصوص ، فالإيمان ، يقين « ولا يقين مع التحرج من النظر، وإنما يكون اليقين باطلاق النظر في الأكوان طولها، وحتى يصل إلى الغاية التي يطلبها بدون تقييد. . فالله يخاطب في كتابه، الفكر والعقل والعلم ، بدون قيد ولا حد . . والوقوف عند حد فهم العبارة مضر بنا ومناف لما كتبه أسلافنا عن جواهر المعقولات ، التي تركنا كتبها فراشاً للأتربة وأكلة للسوس ، بينما انتفعت به أمم أخرى أصبحت الآن تنعت باسم : النور!».

وحتى « المعجز الخارق » الذي تحدى به الإسلام خصومه - « وهو القرآن وحده - قد دعا الناس إلى النظر فيه بعقولهم . . فهو معجزة عرضت على العقل ، وعرفته القاضي فيها ، وأطلقت له حق النظر في أنحائها ، ونشر ما انطوى في أثنائها . . **فالاسلام لا يعتمد على شيء سوى الدليل العقلي ، والفكر الإنساني الذي يجري على نظامه الفطري** ، فلا يدهشك بخارق للعادة ، ولا يغشي بصرك بأطوار غير معتادة ، ولا يخرس لسانك بقارعة سماوية ، ولا يقطع حركة فكرك بصيحة إلهية . . » .

والتقليد ، حتى في العمل الديني الصالح ، ليس من شأن المؤمنين « إذ المرء لا يكون مؤمناً إلا إذا عقل دينه وعرفه بنفسه حتى اقتنع به . . فمن ربي على التسليم بغير عقل ، والعمل ، ولو صالحاً ، بغير فقه فهو غير مؤمن ، لأنه ليس القصد من الإيمان أن يذلل الانسان للخير ، كما يذلل الحيوان ، بل القصد منه أن يرتقي عقله وتتزكى نفسه بالعلم بالله والعرفان في دينه ، فيعمل الخير لأنه يفقه أنه الخير النافع المرضي لله ، ويترك الشر لأنه يفهم سوء عاقبته ودرجة

(١) المصدر السابق ص ١٠٢ .

مضرته في دينه ودنياه ، ويكون فوق هذا ، على بصيرة وعقل في اعتقاده . . فالعاقل لا يقلد عاقلاً مثله ، فأجدر به أن لا يقلد جاهلاً هو دونه . . »[1].

ومن هذا المنطلق الفلسفي، المسترشد بالعقل، أبرز هذا التيار التجديدي العلاقة الضرورية بين الأسباب والمسببات . . وهي من الأفكار المحورية في معارضة فكرية التواكل التي لعبت دورها في تخلفنا بالعصور الوسطى . . فابن باديس يرجع نجاح الأمة في عصر حضارتها الذهبي إلى إيمانها بارتباط المسببات بالأسباب ، وهو الإيمان الذي أثمر الاعتقاد بحرية الانسان واختياره ، بأن للأشياء في ذاتها وبطبيعتها ، نفعاً أو ضرراً ، حسناً أو قبحاً ، بصرف النظر عن النصوص والنقل والمأثورات »[2].

وهذه القضية ، قضية ابراز ما للأشياء والعوامل والظواهر الطبيعية من خصائص وأفعال وتأثيرات قد وجدت لها حيزاً ملحوظاً في الفكر الفلسفي لهذا التيار التجديدي . . فالأفغاني يبدي اعجابه بتلك العبارات التي صاغ فيها المفكر العربي أبو بكر بن بشرون (قبل أكثر من ألف عام) أفكاره العلمية عن أصل الحياة ، والتي يقول فيها : « إن الحركة الأصل في توليد الحرارة ، وللحرارة خاصة نقل الأشياء وتحركها ، والكون ، بما فيه من رطوبة ويبس ليس لهما إلا البرودة والحرارة ، فالبرودة تيبس الأشياء وتعقد رطوبتها ، والحرارة تظهر رطوبتها وتعقد يبسها ، **والمرجع الكلي في الأشياء : الحرارة المنبعثة عن الحركة ، وهي أصل الحياة ، ومتى فقدت حرارة الكون تعذرت الحياة ، أو فقدت!** ».

ولقد قاد هذا الموقف ، المؤمن بالعلاقة الضرورية بين السبب والمسبب ، بين العناصر الطبيعية وبعضها ، قاد الأفغاني إلى الايمان بنظرية النشوء والإرتقاء ، بعد أن كان انتقدها في صدر شبابه بكتابه (رسالة الرد على الدهريين) بل وبحث عن تراث العرب فيها ، فلما سأله سائل عن مراد أبي العلاء المعري

---

(١) (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) ج ٣ ص ١٥١ ، ٢٧٩ ، ٢٨١ ، ج ٤ ص ٤١٤ .
(٢) (مسلمون ثوار) ص ٢٦٧ ، ٢٦٨ .

(٣٦٣ - ٤٤٩ هـ-٩٧٣ - ١٠٥٧ م) بقوله :

والـذي حـارت البــريـة فيــه   حيوان مستحدث من جماد

وهل مراد المعري هو « ما عناه «داروين » بنظرية النشوء والارتقاء؟» كان جواب الأفغاني : « . . . إن مقصد أبي العلاء ظاهر واضح ، ليس فيه خفـاء ، فهـو يقصـد الـنشوء والإرتقـاء ، أخـذاً بمـا قـالـه عـلمـاء العـرب قبلـه بهـذا المذهب ، إذ قال أبو بكر بن بشرون في رسالته « لأبي السمح »، عرضاً في بحث الكيميـاء : « أن التـراب يستحيـل نباتـاً ، والنبات يستحيـل حيوانـاً، وأن أرفع المواليد هو الإنسان « الحيوان » وهو آخـر الاستحالات الثـلاثة وأرفعهـا . . وأن أرفع مواليـد التراب (ومنـه المعادن) : النبـات ، وهو أدنى طبقـات الحيوان . . سلسلة تنتهي عند الإنسان . . الخ ». . « فإذا كان بناء مذهب النشوء والارتقاء عـلى هـذا الأسـاس ، فالسابـق فيـه علماء العـرب ، وليس « داروين » ، مـع الاعتراف بفضل الرجل وثباته وصبره على تتبعاته ، وخدمته للتاريخ الطبيعي من أكـثر وجوهـه ، وإن خالفتـه وخالفت أنصـاره في مسـألـة « نسمـة الحيـاة » التي أوجدها الخالق سبحانه وتعالى ، لا على سبيل الارتقاء»[١].

ولم يجد ممثلو التيار التجديدي - مثلهم في ذلك مثل ابن رشـد - أي حرج، في تقـرير عـلاقة السببيـة ، على الاعتقـاد والإيمان الـديني العميق بوجـود الخالق الفاعل في هذا الكون ، سبحانه وتعالى . . لأنه سبحانه هـو الذي خلق الكـون وخلق القـوانين والسنن التي لا سبيـل الى خرقهـا وتبديلهـا . . فعلى حـين تحرج الغـزالي من تقريـر علاقـة السببية حتى قـال إن الثلج ليس هو السبب في بـرودة المـاء ، والنار ليست هي السبب في احتـراق القطن ، والسيف الـذي جـز العنق ليس هو السبب في القتل ! . . لم يتحرج أعلام هذا التيار في تقرير هـذه العلاقـة الضرورية، بـاعتبارهـا سنن الكون وقـوانينه وقـوى المواد الـطبيعية وخصـائصها وفعل الظواهر المادية التي لا تتخلف عن الفعل إلا إذا عاقها سبب وقانون جديد . . ووجدنا الإمام محمد عبده يتناول هذه القضية في جلاء فيقول : « إن القول بنفي الرابطة بين الأسباب والمسببات جدير بأهـل دين ورد في كتابـه أن الإيمان وحـده

(١) (الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني) ص ٢٦٤ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ .

كـاف في أن يكون للمؤمن أن يقـول للجبـل : تحـول عن مكـانـك ، فيتحـول الجبل ؟ . . يليق بأهل دين يعد الصلاة وحدها ، إذا أخلص المصلي فيها ، كافية في إقداره على تغيير سير الكواكب وقلب نظام العـالم العنصري ! . . وليس هـذا الدين هو دين الاسلام . . دين الاسلام هو الذي جاء في كتابه : ﴿ وقل اعملوا فسيـرى الله عملكم ﴾[1] ﴿ وأعـدوا لهم مـا استـطعتم من قـوة ومن ربـاط الخيل ﴾[2] ﴿ سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنّة الله تبديلاً ﴾[3] وأمثالها . . **وليس من الممكن أن يذهب إلى ارتفاع ما بين حوادث الكون من الترتيب في السببية والمسببية إلا إذا كفر بدينه قبل أن يكفر بعقله !** . . إن الله في الأمم والأكـوان سنناً لا تتبـدل . . وهي التي تسمى شـرائـع ، أو نـواميس ، أو قوانين . . ونظام المجتمعات البشرية ، وما يحدث فيها ، هو نظام واحد لا يتغير ولا يتبدل ، وعلى من يطلب السعادة في المجتمع أن ينظر في أصـول هذا النـظام حتى يرد إليها أعماله ، ويبني عليها سيرته ، وما يأخذ بـه نفسه ، فـإن غفل عن ذلـك غافـل فلا ينتـظر الا الشقاء ، وإن ارتفـع في الصالحـين نسبه ، أو اتصـل بالمقربين سببه . **فمهما بحث الناظر وفكر ، وكشف وقرر وأتى لنا بـأحكام تلك السنن ، فهو يجري مع طبيعة الدين ، وطبيعة الـدين لا تتجافى عنـه ، ولا تنفر منه** »[4].

هذا عن مكان الفلسفة ـ (الحكمة) ـ وأداتها العقل ، في فكر هذا التيـار التجديدي الذي واجهوا به بناء فكريا ناصب الفلسفة والعقل والعداء . .

وتبعا لأفول نجم العقلانية والفلسفة في المناخ الفكري للعصور الوسطى ، « المملوكيـة ـ العثمـانيـة » ، كـانت السيـادة لتصـوف النسـك في مجـال خـاصـة المتصوفة ، وللشعوذة والخرافة بين الملايين التي انخرطت في « الطرق الصـوفية »، حيث تحولت الرياضيات الروحية الى طقوس شكلية ، ومزارات« الأقطاب » إلى

---

(١) التوبة : ١٠٥ .
(٢) الأنفال : ٦٠ .
(٣) الأحزاب : ٦٢ .
(٤) (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) ج ٣ ص ٥٠٢ ، ٢٨٤ .

وسائط بين الإنسان وربه شابت بالشرك نقاء عقيدة التوحيد . . وكان ذلك كله على حساب « التصوف الفلسفي » الذي نشأ وازدهر على يد فلاسفة من أمثال ابن عربي والحلاج (٣٠٩ هـ ـ ٩٢٢ م) ، فلما بدأ الأفغاني حركة تجديده وجدنا فيها لهذا التصوف الفلسفي مكاناً ملحوظاً وعزيزاً . . فعلى حين كانت السلفية التقليدية المحافظة تضع التصوف والصوفية في عداد الشرك والمشركين ، هكذا باطلاق ، رأينا الأفغاني ومحمد عبده يتحدثان عن ابن عربي بإجلال كبير ، فيلقبانه بـ« الشيخ الأكبر »[1] ووجدنا الأفغاني ـ كما سبقت إشارتنا ـ يحتل مكان الفيلسوف المتصوف ، الذي امتزجت فيه حكمة الفيلسوف برياضات الصوفي فهو صوفي خلع الملابس المرقعة وعدل عن حمل المسبحة الطويلة ، وانخرط في حركة التجديد والثورة والاصلاح ، وجعل من العقل ـ كما أراد له الله سبحانه ـ أفضل القوى الانسانية ، ومعيار انسانية الانسان . . فكان فيلسوفاً يسلك إلى التجديد والاصلاح والثورة ، للفرد وللأمة ، مجاهدات ورياضات هي أشبه ما تكون بمراقي الصوفية الحكماء على « الطريق »!

وكانت العصور الوسطى قد زخرت بصراع شديد وطويل بين المتصوفة والفقهاء ، ووجد كثيرون في اصطلاحات الصوفية ومقولاتهم « شطحات » خارجة عن اطار الشريعة ، فحكموا بكفرهم ، وصنفت في ذلك الرسائل والمجلدات . . لكن هذا التيار التجديدي كشف لنا عن الجذور الحقيقية لنشأة هذا الصراع ، وعن دور السياسة والسلطة السياسية فيه ، وكيف أن الفقهاء قد كانوا أدوات السلطة في اضطهاد فلاسفة الصوفية ، الأمر الذي ألجأهم إلى الرمز والألغاز ، حتى بدت اصطلاحاتهم هذه نشازا ـ إذا عرضت على الشريعة ـ في نظر غير العارفين . . ولقد كتب الامام محمد عبده ـ وهو العدو الأول « للطرق » الصوفية وبدعها ـ كتب مدافعا عن التصوف الفلسفي ، وصوفية الحكماء ، وكان في ذلك ، بالقطع ، يرد هجوم السلفية النصوصية التقليدية المحافظة ، فقال : « لقد اشتبه على بعض الباحثين السبب في سقوط المسلمين في الجهل . . وبحثوا في تاريخ الاسلام . . فظنوا أن التصوف من أعظم الأسباب في ذلك الجهل

(١) المصدر السابق ج ٤ ص ١٠ . وأعمال الأفغاني ص ٢٦٤ .

الذي أبعدهم عن التوحيد ، الذي هو أساس عقائدهم . . وليس الأمر عندنا كما ظنوا . . لقد ظهر التصوف في القرون الأولى للاسلام ، فكان له شأن كبير ، وكان الغرض منه في أول الامر تهذيب الاخلاق وترويض النفس بأعمال الدين ، وجذبها إليه ، وجعله وجدانا لها ، وتعريفها بأسراره وحكمه بالتدريج . ولقد ابتلى الصوفية ، في أول أمرهم ، بالفقهاء ، الذين جمدوا على ظواهر الأحكام المتعلقة بالجوارح والتعامل ، فكان هؤلاء ينكرون عليهم معرفة أسرار الدين ، ويرمونهم بالكفر ، **وكانت الدولة والسلطة للفقهاء ، لحاجة الأمراء والسلاطين إليهم ، فاضطر الصوفية إلى اخفاء أمرهم ، ووضع الرموز والاصطلاحات الخاصة بهم . . وكان قصدهم فيها صحيحا ، وما كانوا يريدون إلا الخير المحض ، لأن صحة القصد وحسن النية أساس طريقهم . .** » .

ثم يمضي فيميز بين هذا التصوف الفلسفي ، تصوف ابن عربي ، وعبد الكريم الجيلي (٧٦٧ ـ ٨٣٢ هـ ١٣٦٥ ـ ١٤٢٨ م) والحلاج . . الخ . . وبين خرافات « الطرق » الصوفية وبدعهم ، فيقول : « لكن مقاصد الصوفية الحسنة قد انقلبت ، ولم يبق من رسومهم الظاهرة إلا أصوات وحركات يسمونها ذكرا ، يتبرأ منها كل صوفي ، وإلا تعظيم قبور المشايخ تعظيما دينيا ، مع الاعتقاد بأن لهم سلطة غيبية . . **وهذا الاعتقاد هو عين اتخاذ الأنداد ، وهو مخالف لكتاب الله وسنة رسوله وسيرة السلف** » .

فهو يتفق مع السلفية التقليدية المحافظة في رفض البدع والوسائط التي شابت عقيدة التوحيد عند « الطرق » الصوفية ، ولكنه يختلف معها في تقييمه للتصوف ، كنمط تربية وسلوك ، وكحكمة فلسفية . . ثم يعرض لما يبدو في كلام الصوفية ، بالنسبة لغيرهم ، مخالفا للدين ، فيقول : « لقد صرح الصوفية بأن كلامهم رموز واصطلاحات لا يعرفها إلا أهلها ، كما صرّحوا بأن من أخذ بظاهر أقوالهم ضل . فإن كتب محيي الدين بن عربي مملوءة بما يخالف عقائد الدين وأصوله ، وهذا كتاب (الانسان الكامل) للشيخ عبد الكريم الجيلي ، هو ، في الظاهر ، أقرب إلى النصرانية منه إلى الاسلام . ولكن هذا الظاهر غير

مراد ، وإنما الكلام رموز لمقاصد يعرفها من عرف مفتاحها . . . »[1] .

ويتقدم الأفغاني ، من موقع الفيلسوف المتصوف ، فيكشف لنا المفاتيح التي تفسر بعض هذه الرموز، فيقول: **«إن التصوف هو مذهب حكماء وعقلاء «تريضوا»، أي هذبت ولطفت جسمانهم الرياضة ، وكثر منهم النظر في الأشياء والتطلع إلى حقائقها وفهم كنهها عن طريق الحس الروحي ، والانفعال في النفس المتعلقة في الجسم مؤقتا . فهم فيما كانوا يرون ويقولون في مواجدهم ومشاهدهم وذوقهم ، إما أن يراه من كان من غير طبقتهم غير معقول وغير مفهوم، وأما أن يسيء فهم معناه** إذا أخذه على ظاهر لفظه . . يقول الشيخ الأكبر في بعض صلواته : « اللهم يا من ليس حجابه إلا النور ، ولا خفاؤه إلا شدة الظهور ، أسألك بك في مرتبة اطلاقك عن كل تقييد ، التي تفعل فيها ما تشاء وتريد ، وبكشفك عن ذاتك بالعلم النوري ، وتحولك في صورة اسمائك وصفاتك بالوجود الصوري » .

ويقول السيد البكري : « نعم العبد الذي به كمال الكمال ، وعابد الله بالله بلا حلول ولا اتحاد ، ولا اتصال ولا انفصال » .

ترون هذه الكلمات المتناقضة ظاهرا ، إنما أراد نفي الحلول الذاتي ، فأتى لذلك بنفي الحلول أولاً ، وإلا فكيف يعقل لو بقينا على المفهوم الظاهر من معنى الكلمات ، أن المتصل ، في الوقت ذاته ، يكون منفصلا ؟ ! . . **فمعاني التصوف ، وإن كانت مغلقة في الغالب ، لا يفهمها إلا أصحاب الذوق والمواجد** ، ويعسر على غيرهم تناول فهمها ، فلا بأس من التقريب في التأويل ، لينتفي غير المعقول .

وخير مثال يقرب للعقل المفهوم في مثل هذه الحال والأقوال : « المرآة » التي تمثل الشيء تماما ، فيفتح بهذا المثل بعض ما ذكر من كلام المتصوفة . فإذا قابلت المرآة الشمس ، رأيتها في المرآة ، ولا يعتري انسان أدنى شبهة أنها ـ « الشمس » ـ على غير طريقة الحلول في المرآة ، ولا على صورة الاتحاد والاتصال

(١) (الأعمال الكاملة للامام محمد عبده) ج ٤ ص ٣٩٤ ، ٣٩٥ ، ج ٣ ص ٥٢٨ .

أو الانفصال . وحقيقة ذلك المرئي من الشمس إنما تجلى في المرآة « لشفافيتها » ، وبتلك الشفافية حصل ذلك الانطباع على تلك الصورة ، على غير حلول ، ولا ، ولا . . الخ .

ومن الأمثلة : قول ابن مشيش (كان حيا قبل ١١٣٦ هـ ١٧٢٤ م) ، « وانشلني من أوحال التوحيد ، وأغرقني في عين بحر الوحدة حتى لا أرى ولا أسمع ولا أجد ولا أحس إلا بها ، واجعل الحجاب الأعظم حياة روحي ، وروحه سر حقيقتي ، وحقيقته جامع عوالمي بتحقيق الحق الأول ، يا أول ، يا آخر ، يا ظاهر ، يا باطن . . الخ . .

وقول الحلاج : « ما في الجبة غير الله . . » .

فإذا علمنا أن تجلي الشمس في المرآة حصل لشفافيتها ، علمنا معنى تجلي الذات في خلقه ، عندما تتلطف الكثافة الترابية الجسمانية ، وتشف الروح ، وتتمكن من اتصالها بعالمها ، **فترى من الذوق في الشهود ما لا يسعه إلا التعبير بالمتناقضات ، وليس ثمة تناقض ! . .** [1] .

في الوقت الذي دافع فيه هذا التيار التجديدي عن « التصوف الفلسفي » ، من منطلق الدفاع عن العقلانية والفلسفة ، رأينا عداءه لتلك « الطرق » الصوفية التي شوهت صورة التصوف ، وجعلت جماهيرنا تستنيم للسلطة المستبدة تارة ، وللمستعمرين تارة أخرى ، وذلك بعد أن استنامت للتواكل الذي حل ما بين المسلمين ودينهم وما بينهم وبين بعضهم البعض من روابط القوة وعلائق التضامن والانتصار . فمحمد عبده هو الذي خاض أعنف المعارك ضد « الطرق الصوفية » وبدعها[2] . . وابن باديس شن عليهم حربا ضروسا عندما أصبحوا سندا رئيسيا للقهر الاستعماري الفرنسي ، وشراكا تدعو الجزائريين إلى التخلي عن ذاتيتهم القومية والاندماج في فرنسا ! . . ولقد كانوا يبررون فعلتهم هذه فيقولون : « إذا كنا أصبحنا فرنسيين ، فقد أراد الله ذلك ،

---

(١) (الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني) ص ٢٩٨ ـ ٣٠٠ .
(٢) (الأعمال الكاملة للامام محمد عبده) ج ٣ ص ٥١٦ ـ ٥٣٣ .

وهو على كل شيء قدير . . ولو أراد الله أن يكسح الفرنسيين من هذه البلاد لفعل ، وكان ذلك عليه أمر يسيرا ، ولكنه ، كما ترون ، يمدهم بالقوة ، وهي مظهر قدرته الإلهية ، فلنحمد الله ، ولنخضع لارادته ؟! . .[1] .

ولقد حارب ابن باديس هذه الطرق الضالة ، وكشف انحرافهم عن عقيدة التوحيد ، بالوسائط التي جعلوها بين الانسان وربه ، والقبور التي عظموها وتوسلوا بأصحابها . . ونجحت حملته ضدهم ، وضد من اندمج منهم في الشخصية الفرنسية خاصة ، حتى لفظتهم جماهير الشعب الجزائري ، وحكموا بكفرهم ، ورفضوا دفن موتاهم في مقابر المسلمين ! . . وكتبت الصحف الفرنسية شاكية من نجاح (جمعية العلماء) هذه فقالت : « لقد نجح هؤلاء المتعصبون في حمل الناس على البراءة من مواطنيهم الذين قبلوا أن يُعَدّوا من الفرنسيين ، وامتنعوا عن دفنهم في مقابر المسلمين . . وأضاعوا السلطان من أصدقائنا (الطرقية) ! . . » .

وكانت الاتهامات التي وجهها (الطرقية) إلى ابن باديس جميعها في اطار البرنامج الذي بشر به هذا التيار التجديدي . . فلقد اتهموه بأنه « عبداوي » ! . . أي من مدرسة الامام محمد عبده . . وبأنه من دعاة الوطنية وأعداء الاستعمار ؟ . . ومن أنصار الجامعة الاسلامية ! . . ومن الذين يجتهدون في الدين ! . . ومن منكري الولاية وكرامات الأولياء ؟ ! . .[2] .

هكذا زاوج التيار التجديدي العقلاني المستنير بين الفلسفة والتصوف الفلسفي ، لأنه انطلق من موقع اعلاء شأن العقل ، باعتباره الميزان الذي توزن به النصوص ، والحكم الذي تعرض عليه المأثورات . . فانتصروا لثمراته جميعا ، وناصبوا الخرافة وفكرية العصور الوسطى المتخلفة العداء الشديد . . وبذلك ، أيضا ، تميزت سلفيتهم عن سلفية الذين غضوا من شأن العقل واسترابوا في الفلسفة أو رفضوا براهينها ومقولاتها . .

---

(١) (مسلمون ثوار) ص ٢٦٣ .
(٢) المرجع السابق . ص ٢٦٣ - ٢٦٥ .

وفي مواجهة : السلطة الدينية :

وكان حلف ، غير مكتوب ، قد قام بين نفر من الفقهاء وشيوخ « الطرق » الصوفية وبين السلطة والسلاطين ، وخاصة منذ العصر المملوكي ، عندما طور المماليك عمارة المساجد فأصبحت من الضخامة والفخامة بحيث استدعت انفاقات الدولة وامكانياتها وعندما أوقفوا عليها الأوقاف الجمة ، ورصدوا الرواتب والمخصصات لشيوخها والمدرسين والدارسين بها ، وكذلك الحال لخوانق الصوفية وتكاياها . . فتحول بذلك ، هؤلاء الفقهاء والشيوخ إلى « موظفين » لدى الدولة ، الأمر الذي ربط مصالحهم بمصالح الحكام والسلاطين ، وأطلق في صفوف الكثيرين منهم الحسد والتنافس على الارتباط بالدولة . . وكما اعترفت الدولة بسلطتهم على العامة وعقائدها ، فلقد اضفوا هم الآخرون طابعا دينيا على سلطة الحكام ، الأمر الذي انتهى بالسلطان العثماني إلى أن يصبح في رأيهم « ظل الله على الأرض ، وسيفه المشرع على رقاب العباد ! . . الخ . . » .

وهو طابع في السلطة ، ليس له في السلفية الاسلامية النقية سند ولا نصيب ، ووجدنا نفرا من فقهاء الاسلام السنّي ـ وتلك مفارقة ـ يتبنون ، دونما وعي ، رأي الشيعة ، الذين انفردوا من بين فرق الاسلام بجعل السلطة في الدولة دينية ، وربط تصرفات الحاكم بأمر السماء ، وتحريرها من رقابة الأمة وسلطان الناس! . . ويزيد هذه المفارقة شذوذاً أنهم قد ساروا بذلك خلف الأمم التي سبقت الاسلام ، والتي حذرنا رسول الله ﷺ ، من تقليدها فيما انحرفت إليه . . فاليهود جعلوا : الملك نبوة . . وأوربا المسيحية جعلت قياصرتها وأباطرتها يحكمون بالحق الإلهي ، فلما أضفى هذا النفر من الفقهاء طابع السلطة الدينية على سلطان آل عثمان ، وضعوا أنفسهم حيث حذرنا رسول الله أن نكون ، عندما قال : « لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع ، حتى لو دخلوا جحر ضب لتبعتموهم ! »[1] . . وهكذا قام هذا الحلف غير

---

(١) رواه البخاري ومسلم وابن ماجه وابن حنبل .

المكتـوب ، وتبادل هؤلاء الفقهـاء مع سلطان الـدولة تـوزيع السلطة الـدينية ، فغدوا رقباء على العقائد والايمان وأصبح السلطان ذا سلطة دينية تجعـل عصيانـه كفرا وخروجا على الدين ! . .

وكانت هذه القضية واحدة من التحـديات التي تصـدى لها تيـار التجديـد العقلاني بالنقد والمعارضة والتفنيد . .

فلقد عرض أعلام هذا التيار ـ وخاصـة الامام محمـد عبده تلك القضيـة بـاعتبارهـا نبتا غـريبا عن روح الاسـلام وأصـولـه . . فهي عقيـدة من عقـائـد الكاثوليكيـة الأوربيـة ، جعلتهـا كنيستها أصـلا من أصول المسيحيـة ، وأتاحت بذلك لملوك أوربـا أن يجمعوا السلطتين « المدنية السياسية » و« الدينية » في نظام واحد وشخص واحد . . ذلـك هو المنشـأ الفكري لهـا ، والمناخ السياسي الـذي طبقت فيه ، أما الاسلام فإنه منها براء ، بل أنـه يرفضهـا ويعاديهـا ويهدمهـا من الأساس .

يقول الامام محمـد عبده : في أوربـا العصور الـوسطى « **كـانت السلطة الحقيقية مدنية سياسية دينية في نظام واحد ، لا فصل فيه بين السلطتين** . وهـذا الضرب من النظام هو الذي يعمل البابوات وعمالهم من رجال « الكثلكة » عـلى ارجاعه ، **لأنه أصل من أصول الديانة المسيحية عندهم ، وإن كان ينكر وحـدة السلطة الدينية والمدنية من لا يدين بدينهم** ! »[1] .

وهو يرد على الذين يزعمون أن الاسلام يشبه المسيحيـة في هذا ، ويقـول أن زعمهم هـذا ضلال منهم ، لأن الاسـلام لا يعرف هـذه السلطة الـدينيـة ، فيقول : « **أنهم يبهمون ـ (يضلون) ـ فيما يرمون به الاسلام من أنه يحتم قـرن السلطتين في شخص واحد . . وقـد علمت أنه ليس في الاسـلام ما يسمى عنـد قوم بالسلطة الدينية بوجه من الوجوه** . . . »[2] .

---

(١) (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) ج ٢ ص ١٧٥ .
(٢) المصدر السابق . ج ٣ ص ٢٨٦ ، ٢٨٨ .

وإذا كـان الاسـلام يـرفض وجـود سلطة دينيـة للسلطان ، فـإنـه يـرفض الكهنوت الذي عرفته المسيحية الكاثوليكية الأوربيـة لرجال الدين ، وهـو الذي جعل لهم سلطانا على العقائـد وقرارا في الايمـان ورقابـة على ضمـائر النـاس . . والاستاذ الامام يميز ما بـين « الوعظ والارشـاد » الذي يعتـرف به الاسـلام ، لا لفئـة محـددة ، بـل لعـامـة أمتـه ، وبـين السلطة الـدينيـة التي عـرفتهـا أوربـا لكنيستها ، والتي سار بعض المسلمين في طريق تقليدها ، فيقول : « أنه ليس في الاسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة ، والـدعوة إلى الخـير ، والتنفير عن الشر ، وهي سلطة خولهـا الله لأدنى المسلمين يقـرع بها أنف أعـلاهم ، كما خولها لأعلاهم يتناول بها من أدناهم . . ولمن يقولون : إن لم يكن للخليفة ذلك السلطان الديني ، أفلا يكون للقاضي ؟ أو للمفتي ؟ أو شيخ الاسلام ؟؟ . . . .

أقـول: إن الإسـلام لم يجعـل لهؤلاء أدنى سلطة عـلى العقـائـد وتقـريـر الأحكـام، وكـل سلطة تنـاولهـا واحـد من هؤلاء فهي سلطة مـدنيـة» . ويمضي الأستـاذ الامام فيجعـل من هـذه القـاعـدة الفكـريـة « أصـل من أجـلّ اصـول الاسلام » التي عرضها وهو يقارن بينها وبـين اصول المسيحيـة ، فيقول « اصـل من اصـول الاسلام » ـ ومـا أجلّه من أصل ـ قلب السلطة الـدينيـة ، والاتيـان عليها من أساسها . هدم الاسلام بناء تلك السلطة ، ومحـا أثرهـا ، حتى لم يبق لها عند الجمهور من أهله اسم ولا رسم ! [1] . . فالايمان بالله يرفع النفوس عن الخضـوع والاستعباد للرؤسـاء الذين استـذلـوا البشـر بـالسلطة الـدينيـة . . أو السلطة الدنيوية»[2] . . . وهذا النفي للسلطة الدينية ليس هو « علمانيـة الغرب » التي تفصل الدين عن الدولة ، فمحمد عبده هو القائـل : « إن الاسلام : دين وشـرع ، فقد وضـع حدودا ورسـم حقـوقا . . ولا تكمـل الحكمـة من تشـريـع الأحكام إلا إذا وجدت قوة لإقامة الحدود . . ».

ونفس المـوقف نجده عنـد الكواكبي ، فهـو قد صـارع السلطان العثماني

---

(١) المصدر السابق . ج ٣ ص ٢٨٥ .
(٢) المصدر السابق . ج ٣ ص ٢٨٧ ، ج ٤ ص ٤٣٠ .

الذي كان يحكم قبضة استبداده على رقاب الأمة بما أضفى على سلطته من طابع ديني ، يحرم عصيانه ، ويجرم الخروج عليه تجريما دينيا . . ولقد ذكر الشيخ رشيد رضا صراحة أن الكواكبي كان داعية « للفصل بين السلطتين الدينية والسياسية[1] ـ وهذا ـ في رأينا ـ شيء آخر غير فصل « الدين » عن « الدولة » كما عرفته ودعت إليه العلمانية الغربية ـ وفي الفصل الذي عقده في كتابه (طبائع الاستبداد) للحديث عن الاستبداد والدين أعلن صراحة ، « أنه لا يوجد في الاسلامية نفوذ ديني مطلقا في غير مسائل إقامة شعائر الدين »[2].

هكذا واجه تيار التجديد العقلاني المستنير ذلك التحدي ، تحدي السلطة الدينية ، التي تسربت عقيدتها إلى الفكر الاسلامي من الديانات والتجارب غير الاسلامية ، والتي كانت قسمة من قسمات فكرية العصور الوسطى ، في الدولة ودوائر الصوفية والفقهاء . .

ومع العروبة . . ضد التيار اللاقومي :

وعلى الرغم من أن أعلام هذا التيار التجديدي قد فكروا وعملوا تحت رايات دعوة (الجامعة الاسلامية) وحركتها ، إلا أنهم قد كانوا من أبرز طلائع الفكر القومي والفكرة العربية في ذلك التاريخ . . ومن الأمور المؤسفة أن هذه القسمة من قسمات هذا التيار التجديدي قد طمست أو شوهت في دوائر فكرية كثيرة ولدى عديد من المثقفين العرب والمسلمين ، وذلك بسبب الخلط بين « المضامين المتعددة » لشعار الجامعة الاسلامية ، والظن بأنه قد كان لهذا الشعار مضمون وحيد . . وإلا فمن يستطيع أن يزعم أن شعار الجامعة الاسلامية لدى السلطان العثماني عبد الحميد (١٨٤٢ ـ ١٩١٨ م) وهو الذي أراد منه أن يكون سبيلا لإحكام القبضة العثمانية على الأمة العربية ، بطمس قسماتها القومية المميزة لها ، والاستعاضة عنها برباط الملة والدين فقط . . من الذي يستطيع أن يقول إن مضمون هذا الشعار عند السلطان عبد الحميد كان هو

(١) (الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي) ص ٤٨ .
(٢) المصدر السابق . ص ١٤٨

ذات مضمـونه عند الكـواكبي الذي كـانت حياتـه وأفكـاره كتيبـة منـاضلة ضـد العثمـانيين وسلطانهم ؟ ! وكـذلك الأفغـاني ، الـذي ينسب إليـه البعض ريـادة الفكـر القومي بمصـر والشرق ؟[1] . . وأيضـا ابن باديس الـذي كانت العـروبة والقومية العربية طوق النجاة الـذي سبح بـه ضد تيـار « الفرنسـة » ، فأنقـذ به شعبه من السحق القومي الاستعماري ؟! . .

عـلى أن نظرة فـاحصة في الفكـر القومي لأعـلام هذا التيـار تظهـر بجلاء مكـان القسمـة القـومية العـربيـة في بنـائـه الفكـري العمـلاق . . صحيـح أن الأفغاني ، رائد هذا التيار ـ وهو عربي النسب والفكر والولاء ـ كـان من أبرز من دعا إلى شعار « الجامعة الاسلامية » ، وعمـل على إنهاض الشـرق بأجمعـه ، من أقصى المغـرب إلى حدود الصـين ، وكان حـديثـه عـامـا لكـل أبنـاء الشـرق ، وللمسلمين خاصة ، باعتبـارهـم الأغلبية السـاحقة للمـواطن التي يزحف عليهـا الاستعمار الأوربـي في ذلك التـاريخ . . لكن الأفغـاني بعد تجـارب وجولات ، وبالذات بعد أن خابت آماله في إنهاض الدولة العثمانية لتكون سدا منيعـا يحول بين ولاياتها العربية وبين السقوط بيد الاستعمار الغربي ، وعنـدما تـأكدت لـديه أن هذه السلطنة غير العربية قد غدت ثغرة كبرى أتاحت الفرصة واسعة للتسلل الاستعماري إلى أقطار العرب وبلاد الاسلام . . بعد هـذه التجارب المقنعـة زاد اهتمـام الأفغاني بـدور العرب في النهضـة واليقظة التي يبشـر بها ، وعليهم علق آماله ، ولهم أبصر مكانا متميزا بين « الأقوام » الـذين يدينـون بالاسـلام ، ومن هنا كان لمضمـون شعار الجامعة الاسلامية عنده تميز في هذا الشأن، وكان لفكره بعد قومي عربي ، وللتيار الذي قاده قسمة قومية يؤكدها الفكر ويبرزها النشـاط والنضال . .

فهو قد أدرك أن الدولة العثمانية قد فشلت في تطوير الأقاليم العـربية التي حكمتهـا ، لأن الأتـراك ، كقـوم وجنس ، لا يحسنـون التعمـير ، وهـم ليسـوا كـالعرب الـذين أجادوا ، كقـوم وجنس ، النهوض بهـذه المهمة فيـما فتحـوا من

---

(١) (حاضر العالم الاسلامي) ج ٤ ص ٩٢ .

أقاليم . . بل وأدرك أن هؤلاء العثمانيين قد غدوا عقبة أمام نهضة هذه الأقاليم وعمرانها . . « فالدولة العثمانية . . بقيت سدا منيعا للأمم المحكومة منها ، يحول بينها وبين الأخذ بأسباب الحضارة ومجاراة الأمم الراقية في مدنيتها وعلومها وصنائعها » . . [1] .

وهو ، رغم شعار الجامعة الاسلامية الذي رفعه ، يركز على السمات القومية ، وفي مقدمتها قسمة اللغة ـ (اللسان) ـ فيرى فيها المعيار الذي يميز أمة عن أمة ، والرباط الذي يحفظ وحدة الأمة ، والسبيل الذي يعيد هذه الوحدة إذا أصابها ما يصيب الأمم المجزأة والمقهورة من تفتت وشتات . . وأيضاً فهو يؤكد أن العرب أمة ، بصرف النظر عن المذاهب والأديان التي تربط بين بعضهم وبعض الأمم الأخرى ، والتي تميز بين بعضهم والبعض الآخر ، فيقول معلنا هذه الحقيقة القومية ، ومؤكدا على بداهتها ! : « **إنه لا سبيل إلى تمييز أمة عن أخرى إلا بلغتها . . والأمة العربية هي « عرب » قبل كل دين ومذهب . وهذا الأمر من الوضوح والظهور للعيان بما لا يحتاج معه إلى دليل أو برهان !** [2] .

ثم يفصل الحديث عن دور اللغة القومية ، وكيف أن لها تأثيرا معنويا ، بجانب تأثيرها المادي ودورها كأداة تخاطب . فهي وعاء الحضارة ، ومظهر الوحدة النفسية ، وقبلة الفخر والولاء ، ثم هي الرباط الذي يشد الوحدة القومية ويدعمها ، وييسر عودة هذه الوحدة في حال التمزق والتجزئة ، ذلك أن «**للسان ـ (اللغة) ـ غير تأثيره المادي، تأثير معنوي . . ويكفي أنه من أكبر الجوامع** التي تجمع الشتات ، وتنزل من الأمة منزلة أكبر المفاخر . فكم رأينا دولاً اغتصب ملكها الغير ، فحافظت على لسانها محكومة ، وترقبت الفرص ، ونهضت بعد دهر ، فردت ملكها ، وجمعت من ينطق بلسانها إليها ، والعامل في ذلك إنما هو اللسان قبل سواه ، ولو فقدوا لسانهم لفقدوا تاريخهم ، ونسوا

---

(١) (الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني) ص ٢٣٢ ، ٢٣٣ .
(٢) المصدر السابق . ص ٢٣٧ .

مجدهم ، وظلّو في الاستبعاد إلى ما شاء الله ! . .[1]

بل اننا إذا تأملنا أكثر فأكثر قيمة اللغة ـ (اللسان) ـ ودورها ، عندما تحدث الأفغاني عن اللغة العربية ، لوجدناه قد جعلها القاعدة الأولى التي يقوم عليها البناء القومي للقومية العربية . . وذلك ، عنده ، هو دور اللغة في أية قومية من القوميات . . فللغة آداب . . وهذه الآداب هي التي تثمر ملكة أخلاق الأمة وعاداتها وتقاليدها ، وما نسميه « تكوينها النفسي » ، وإذا ما حفظت الأمة خصائصها هذه وحافظت عليها امتلكت قوميتها وعصبيتها . . « **فلكل لسان آداب ، ومن هذه الآداب تحصل ملكة الأخلاق ، وعلى حفظها تتكون العصبية** . . »[2]

ولم تكن العروبة عرقا أو عصبية جنسية عند الأفغاني ، بل لقد خاض صراعا فكريا ضد المستشرق الفرنسي ارنست رينان Renan (١٨٢٣ ـ ١٨٩٢م) عندما انطلق من منطلق عرقي فزعم أن « أكثر الفلاسفة الذين شهدتهم القرون الأولى للاسلام كانوا ، كنابهي السياسيين ، من أصل حراني أو أندلسي أو فارسي أو من نصارى الشام . . **وليسوا عرباً** . . » خاض الأفغاني صراعا فكريا ضد هذا المفهوم العرقي ، وخلص ـ وهو العربي نسبا وفكرا ـ إلى أن كل الذين تعرَّبوا ، وأصبحت العربية لغتهم ، والولاء لحضارتها موقفهم ، هم عرب ، بصرف النظر عن الأصول العرقية لأسلافهم والمواريث الحضارية لأجدادهم ، فلفت نظر رينان إلى « أنّ الحرانيين كانوا عرباً ، وأن اللغة العربية كانت إلى ما قبل الاسلام بعدة قرون لغة الحرانيين ، **وكونهم قد حافظوا على ديانتهم القديمة ، وهي الصابئة ليس معناه أنهم لم ينتموا إلى الجنسية ـ (القومية) ـ العربية** . . وأن العرب لما احتلوا إسبانيا ظلوا عرباً . . وقد كانت اكثرية نصارى الشام عرباً غسانيين ، اهتدوا بالنصرانية . . أما ابن ماجة وابن رشد وابن طفيل ، فلا يمكن القول بأنهم أقل عربية من الكندي بدعوى أنهم لم

---

(١) المصدر السابق . ص ٢٢١ .

(٢) المصدر السابق . ص ٢٢٤ .

يولدوا في جزيرة العرب ، وخصوصاً إذا اعتبرنا أنه لا سبيل إلى تمييز أمة عن أخرى إلا بلغتها ».

ومضى الأفغاني ، في رده على رينان ، فكشف عن خطر تسويد المعيار العرقي في الحديث عن تكوين الأمم والقوميات ، ونبه على أن رينان يستخدم هذا المعيار ضدنا ولا يستخدمه عندما يقيم واقعهم القومي ، فتساءل قائلا : « .. ثم ماذا يكون لو قصرنا نظرنا على الأصل الذي ينتمي إليه العظيم ، ولم نأبه للنفوذ الذي سيطر عليه ، والتشجيع الذي لقيه من الأمة التي عاش فيها ؟ ! .. لو فعلنا ذلك لقلنا : ان نابليون لا ينتمي إلى فرنسا ! ولما صح لألمانيا أو انجلترا أن تدعّي كلتاهما الحق في العلماء الذين استوطنوها بعد أن رحل أصولهم إليها من بلدان أخرى ! ... »[1]

فالعروبة، إذن ليست عرقا ولا نسباً، وإنما هي لغة وآداب وتكوين نفسي وحضارة وولاء ، وذلك كله أمر مكتسب وليس وقفا على التوارث المحكوم بنقاء الدم الجاري من الأصول إلى الفروع ، وهذا الأمر المكتسب هو الذي نعبر عنه بالتعرب والتعريب والاستعراب .. وهو ما حدث لأبناء الشعوب التي قطنت في الوطن العربي ، من المحيط إلى الخليج ، بعد عصر الفتوحات ، سواء منهم من دان بالاسلام أو بقي على دينه القديم « فلقد سارعوا ، جميعا ، عن طيب خاطر وارتياح عظيم إلى التعرب .. **فمصر ، بينما هي هرقلية رومانية .. أصبحت في قليل من الزمن اسلامية في الأغلب ، عربية بالصورة المطلقة في كافة مميزات العرب ، وهكذا القول في سوريا والعراق ... وأصبح المسلم أو المسيحي أو اليهودي ، في مصر والشام والعراق ، يحافظ كل منهم قبل كل شيء على نسبته العربية ، فيقول : « عربي » ، ثم يذكر جامعته الدينية .. والأغرب أن التركي والجركسي والأرناؤوطي ، وغيرهم من العناصر ، يستعرب متى وجد أو سكن في بلاد العرب بأقرب الأوقات ، ويمتزج في المجموع ، حتى تخال أنه « عربي قح » !**[2] ..

---

(١) المصدر السابق . ص ٢٠٩ .

(٢) المصدر السابق . ص ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٣ .

فالرباط القومي ليس هو العرق ، والجامعة القومية ليست هي الدين ، وإنما هي العروبة ، بالمعنى الحضاري ، تلك التي جمعت أقواما مختلفي الأجناس والأديان فصهرتهم في بوتقتها حتى صاروا جميعا عربا في القومية والحضارة والولاء ، وأصبحوا « عربا أقحاحا » لا سبيل لتمييز من كانت أصوله غير عربية عن أولئك الذين ينتسبون إلى قحطان وعدنان ! . .

وعند ابن باديس نجد تأصيلا لهذا المعيار الحضاري ، غير العرقي ، للقومية والعروبة، فهو ينفي إمكانية وحدة الدم ونقائه في أمة من الأمم، ويخلص إلى أن اللغة والحضارة التي تتخذ منها وعاءها هي المعيار في تشكل الأمم وتمايزها ، فيقول « **تكاد لا تخلص أمة من الأمم لعرق واحد ، وتكاد لا تكون أمة من الأمم لا تتكلم بلسان واحد** ، فليس الذي يكوّن الأمة ويربط أجزاءها ويوحد شعورها ويوجهها إلى غاياتها هو هبوطها من سلالة واحدة، وإنما الذي يفعل ذلك هو تكلمها بلسان واحد . ولو وضعت اخوين شقيقين ، يتكلم كل واحد منها بلسان ، وشاهدت ما بينهما من اختلاف نظر ، وتباين قصد، وتباعد تفكير، ثم وضعت شامياً وجزائرياً مثلاً، ينطقان باللسان العربي ، ورأيت ما بينهما من اتحاد وتقارب في ذلك كله ، لو فعلت هذا لأدركت بالمشاهدة الفرق العظيم بين الدم واللغة في توحيد الأمة » .

ويمضي ابن باديس فيكشف عن اصالة هذا المعيار في تراث العرب القومي ، وكيف كانت له السيادة منذ بداية تبلور قوميتهم وأمتهم بعد ظهور الاسلام ونشأة دولتهم العربية التي أقامها الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، يوم أن اتخذ المسلمون هذا المعيار الحضاري ، غير العرقي ، بديلا عن عصبية الجاهلية العرقية ، فيورد الحديث الذي رواه ابن عساكر (٤٩٩ ـ ٥٧١ هـ ١١٠٥ ـ ١١٧٦م) في كتابه (تاريخ بغداد) عن مالك الزهري ، عن أبي سلمة ابن عبد الرحمن قال : « جاء قيس بن مطاطية إلى حلقة فيها سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي ، فقال : هذا الأوس والخزرج قد قاموا بنصرة هذا الرجل ـ (يعني النبي) ـ فما بال هذا ـ (يعني سلمان وصهيب وبلال) ؟ ما يدعوهم إلى نصره وهم ليسوا عربا مثل قومه ؟ ! . .

فقام إليه معاذ بن جبل ، فأخذ بتلابيبه ـ (ما على نحره من الثياب) ـ ثم

أتى النبي فأخبره بمقالته ، فقام النبي مغضبا يجر رداءه ، لما أعجله من الغضب ، حتى أتى المسجد ، ثم نادى : « الصلاة جامعة » ، ليجتمع الناس ، وقال : أيها الناس ، الرب واحد ، والأب واحد ، وان الدين واحد ، **وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم ، وإنما هي اللسان ، فمن تكلم بالعربية فهو عربي** » .

وهو يلفت النظر إلى دور « لغة » القرآن الأدبية في بلورة وحدة العرب القومية على عصر البعثة ، يوم كانت لهجات العرب اللغوية تجسد تمزق هويتهم القومية ، فنزول القرآن ، لغويا ، على « سبعة أحرف » ، أي قراءته التي راعت جميع لهجاتهم ، وأيضاً ما اشتهر عن النبي ، قائد وحدتهم القومية ، من مخاطبتهم بلهجاتهم ، ونطقه بالكلمات التي اختصت بها لهجات غير لهجة قريش ، كل ذلك قد جعل لغة القرآن ولغة رسوله سبيلا للتوحيد القومي ، كما كانت مضامينها سبيلا لتوحيد الألوهية والدين « الأمر الذي أشعرهم بوحدتهم ، بالتفافهم حول مركز واحد ، ينتهون كلهم إليه ، ويشتركون فيه » . .(1)

ولم يكن حديث هذا التيار التجديدي عن العروبة ، بمعيارها الحضاري ، غير العرقي ، حديثا نظريا ، ولا هو بالاجتهاد الفكري الذي يقف عند حدود النظريات ، وإنما كان سلاحا في معركة ، فلقد استهدف هذا التيار نهضة الشرق وايقاظه ، في مرحلة عجز فيها الأتراك عن قيادة المنطقة في التصدي للزحف الاستعماري الغربي ، ومن ثم كان الحديث عن العروبة اعلانا عن أن القيادة في هذا الصراع يجب أن تكون للعرب ، وأن قوميتهم ، التي يثبت هذا الفكر تميزها ، يجب أن يكون لها الدور البارز في قيادة المنطقة ضد الغزاة . . فلهذا الفكر القومي اذن بُعد سياسي ، يتمثل في ادانة الخلافة التركية والسلطنة العثمانية ، وهدف قومي ، يرمي إلى عقد ألوية القيادة في التجديد واليقظة الحديثة للأمة العربية ، كما كان الحال في عصر الازدهار الذي سبق عصور التخلف والانحطاط . . **فكما كانت الدولة العربية الأولى والتبلور القومي**

---

(1) ابن باديس (كتاب آثار ابن باديس) ج ٤ ص ١٩ ، ٢٠ . اعداد وتصنيف عمار الطالبي . طبعة الجزائر سنة ١٩٦٨م .

العربي الأول السبيل لانقاذ الشرق من الغزو البيزنطي بعد أن عجز الفرس عن قيادة المنطقة ، بل أصبحوا ثغرة تسهل غزو الغزاة ، فكذلك الحال الآن ، لا بد من وضع مقاليد الشرق بيد العرب ، بعد أن عجز العثمانيون عن القيادة وغدوا ثغرة زحف منها الأوربيون المستعمرون . انها المهمة التاريخية للأمة العربية ، والمضمون التحرري للعروبة والقومية العربية .

والعداء للأتراك لم يكن على أساس عنصري عرقي ، فهم مسلمون ، ولفترة ما كانت دولتهم سدا أمام التهام الغرب للشرق ، لكن الأتراك قد شذوا عن سياق الدول التي حكمت ولايات عربية ، عندما رفضوا أن يتعربوا ، وآثروا التمسك باللغة التركية ، وهي لغة لا حضارة لها ، إذا ما كانت المقارنة بينها وبين كنوز العرب وتراث لغتهم ، بل لقد أمعنوا في المخالفة والشذوذ إلى الحد الذي خيل إليهم فيه أن بالامكان « تتريك » العرب وتغيير هويتهم القومية ، ومن هذه المخالفة والمغايرة جاء الصراع العربي ـ التركي ، وكانت إحدى الثغرات التي تسلل منها الاستعمار .

فإيمانا من هذا التيار بالعروبة ، وبتفرد أمتها بحق القيادة في المنطقة ، واختصاصها بالصلاحية لهذه المهمة ، وانطلاقا من هذا الايمان كان هجوم هذا التيار على رفض الاتراك « للتعرب » كما تعربت قبلهم « دول » كثيرة حكمت أقاليم من هذه البلاد .

ولقد كان الأفغاني رائدا في الاهتمام الكبير بهذه القضية الكبرى . عرضها على السلطان عبد الحميد ، وحاول معه فيها ، وحكى له أن هذا الرأي ـ(تعرب الدولة العثمانية) ـ كان من رأي السلطان محمد الفاتح « **١٤٢٩م ـ ١٤٨١م** » والسلطان سليم « **١٤٦٧ ـ ١٥٢٠م** » . لكن السلطان عبد الحميد رفض مشورة الأفغاني ، فسجل الرجل موقفه الفكري في صفحات كثيرة ، قال فيها : « . . لقد أهمل الأتراك أمراً عظيما . . وهو اتخاذ اللسان العربي لسانا للدولة ولو أن الدولة العثمانية اتخذت اللسان العربي لسانا رسميا ، وسعت لتعريب الأتراك لكانت في أمنع قوة . . ولكنها فعلت العكس ، إذ فكرت بتتريك العرب ، وما

أسفهها سياسة وأسقمه من رأي ؟ ! انها لو تعربت لانتفت من بين الأمتين النعرة القومية ، وزال داعي النفور والانقسام ، وصاروا أمة عربية ، بكل ما في اللسان من معنى ، وفي الدين الاسلامي من عدل ، وفي سيرة أفاضل العرب من اخلاق ، وفي مكارمهم من عادات ، لكن ، مع الأسف ، كان عدم قبول فكرة تعميم اللسان العربي خطأ بيّنا . . لو أنصف الأتراك أنفسهم ، وأخذوا بالحزم، واستعربوا، واتخذوا بغداد عاصمة لهم . . فمن كان من دول الأرض أغنى منهم مملكة ؟ أو أعز جانبا ؟ أو أمنع قوة ؟ ! . . انني أحزن وأتأثر كلما افتكرت بما ارتكبوه من الخطأ في عدم قبولهم اللسان العربي ، لسان الدين الطاهر والأدب الباهر ، وديوان الفضائل والمفاخر، باللسان التركي !! ذلك اللسان الذي لو تجرد من الكلمات العربية والفارسية لكان أفقر لسان على وجه الأرض ، ولعجز عن القيام بحاجات أمة بدوية ، ولولا أنه خليط من ثلاثة ألسنة لما رأينا للأتراك شعرا يقرأ أو بيانا يترجم عن جنان ، وهو في حالته هذه إذا وزن مع لسان الألسنة الحية تجده قد خف وزنا وانحط معنى . . **فكيف يعقل تتريك العرب ، وقد تبارت الأعاجم في الاستعراب وتسابقت ، وكان اللسان العربي لغير المسلمين ، ولم يزل ، من أعز الجامعات وأكبر المفاخر ، فالأمة العربية هي « عرب » قبل كل دين ومذهب** . . لقد كاشفت السلطان عبد الحميد في أكثر هذه المواضيع في خلوات عديدة ، ولكنه كان قليل الاحتفاء بكل ما قلته له . . فحولت وجهي عن ما لا يمكن إلى ما يمكن ، وفيه وقاية ما بقي من أملاك السلطنة العثمانية في غير أوربا . . »(1)

فالأفغاني ، من منطلق الايمان بالعروبة ، وحتمية السيادة والقيادة في المنطقة للأمة العربية الواحدة ، سعى إلى تعريب الدولة العثمانية ، فلما رفض السلطان ، واستمرت المحاولة لتتريك العرب ، انصرف الأفغاني إلى انقاذ الممكن ، وهو وطن العرب ، الرازح تحت السيطرة العثمانية ، انقاذه من الزحف الاستعماري الأوربي .

---

(1) (الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني) ص ٢٢٤ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ .

والكواكبي يواصل نقد الأتراك وإدانتهم لشذوذهم عن «التعرب والاستعراب» فهم قد شذوا عن سيرة الدول السابقة، التي «تخلقت بأخلاق الرعية، وتكلمت بلغتها، فأخلاقها فجنسيتها.. كآل بويه، والسلجوقيين، والأيوبيين، والجراكسة، وآل محمد علي، فانهم ما لبثوا أن استعربوا وتخلقوا بأخلاق العرب، وامتزجوا بهم، وصاروا جزءاً منهم.. ولم يشذ في هذا الباب غير المغول الأتراك، أي العثمانين، فانهم بالعكس يفتخرون بمحافظتهم على غيرية رعاياهم لهم!..»

ويظهر الكواكبي تلك المفارقة.. فلقد أخذ نفر من الأتراك العثمانيين يقلدون الأوربيين «يتفرنسون ويتألمنون!» على حين ظلوا على «شديد بغضهم للعرب» حتى لقد جعلوا من اهانة العروبة والعرب حكما وأمثالا في لغتهم التركية!.

يحصي الكواكبي تلك «الأدلة اللغوية» على العداء «التركي - العربي»، ثم يعقب بأن العرب قد بادلوهم عداء بعداء.. لكن الرجل يتحفظ فينبه على أن منطلق العرب في العداء للأتراك، ليس عرقيا، فهم يحترمون «أحرار الترك» الملتهبين غيرة تقتضي احترام مزيتهم![1]... فالعداء إنما هو لأولئك الذين تسلطوا بالاستبداد على الأمة العربية، وخيل إليهم الوهم امكانية «تتريك» هذه الأمة العريقة والقومية المتميزة، حتى لقد تشبهوا بالأوربيين، مفتخرين بذلك، وغايروا العرب، مفتخرين بذلك أيضاً.. فاستحقوا من العرب أن يبادلوهم عداء بعداء!..

أما الأمر الذي انصرف إليه الأفغاني، كي يحققه، ورآه ممكنا، بعد أن عجز عن اقناع السلطان العثماني بتعريب الدولة.... وهو انقاذ الولايات العثمانية غير الأوربية، أي الولايات العربية، فلقد كان، بكلمات أخرى، وفي الممارسة والتطبيق، ما سعى إليه هذا التيار التجديدي من إقامة الخلافة العربية على انقاض خلافة آل عثمان، ومن بناء الدولة العربية التي تصبح مركز

(١) (الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي) ص ٣٢٣، ٣٢٥، ٣٣١.

جذب للأمة العربية ، والتي تبدأ مسيرة هذه الأمة نحو امتلاك أمرها بيدها كي تعود إلى قيادة المنطقة والتصدي لمد الاستعمار .

ولقد كان الخطر الداخلي ـ القومي ـ الأعظم الذي هدد تسلط الأتراك العثمانيين على الأمة العربية ، في القرن التاسع عشر ، هو الانجاز الذي صنعته مصر ، تحت حكم محمد علي ، عندما حققت ، بأسلوب العصر ووسائله ، وحدة مصر والسودان وشواطىء البحر الأحمر العربية مع المشرق العربي والحجاز . فكادت الدولة العربية الكبرى أن تنقذ وتستخلص الأمة العربية من تسلط العثمانيين ، وأوشكت ـ وهذا هام جدا ـ أن تجدد شباب المنطقة ، وتسد بالعصرية والنهضة تلك الثغرات التي أتاحها العثمانيون وحرسها الغرب كي يتسلل منها استعماره إلى بلادنا .

ولقد ظل انجاز مصر شبحا يقضّ مضاجع السلطان العثماني حتى بعد أن نجح ، متحالفا مع الغرب الاستعماري ، في ازالة هذا الخطر عن سلطته بتنفيذ معاهدة لندن سنة ١٨٤٠م . .

ومن هنا فلقد كان الحديث عن دور مصر القيادي في المنطقة ، وعن مكانها الرائد بالنسبة لجاراتها ، وعن أن حكومتها الوطنية العصرية هي المؤهلة ، ذاتياً وباتفاق جيرانها ، لكي تكون المركز للكيان العربي الذي يضم الولايات والأقاليم من حولها . . كان هذا الحديث حديثاً قومياً عربياً يعني البعث والإحياء لذلك الخطر الذي يخشاه العثمانيون . . ولقد كان الأفغاني ، وكذلك الكواكبي ، في مقدمة أصحاب هذا الحديث ! . .

فالتيار التجديدي الذي قاده الأفغاني كان عقلانيا ومستنيرا . . ومن ثم فان بذوره الفكرية كانت وثيقة الصلة بأكثر البيئات العربية تقدما وتحضرا يومئذ ، وهي مصر ، كما أن هذه البيئة وتربتها كانت أكثر المواطن صلاحا لاستنبات هذه البذور ونموها ومن هنا كان مكان مصر الخاص والرائد في فكر الأفغاني وتجربته . . فهو قد تحدث عن تجربة نهضتها في ظل حكم محمد علي حديثاً ينم عن عبقرية في رصد الأبعاد الحقيقية لتطور المجتمعات ، حتى لقد

اعتبر محمد علي نابغة الدهر وأعجوبته ، بل نابغة العصور والاجيال ، الذي « حمل تحت عمامته دماغا فعالا ، وعقلا جوالا ، وبصرا نافذا ، وفكرا ثاقبا ، ودأبا صائبا ، » . . أما مصر عنده فهي : « أهم مواقع الشرق ، وروح الممالك الاسلامية ، وباب الحرمين الشريفين . . » وهي ، عنده ، « أحب بلاد الله إليّ ، وقضيتها أهم قضايا المسألة الشرقية ، وهي مفتاحها . . ولقد كان المتأمل في سيرها ـ قبل التدخل الاستعماري فيها ـ يحكم حكما عاما لم يكن بعيدا من الواقع : **إن عاصمتها لا بد أن تصير ، في وقت قريب أو بعيد ، كرسي مدنية لأعظم الممالك الشرقية ، بل كان هذا الأمر أمرا مقررا في نفوس جيرانها من سكان البلاد المتاخمة لها ، وهو أملهم الفرد كلما ألم بهم خطب أو عرض خطر . .** »[1]

ولقد أنشأ الأفغاني ، بمصر ، في سبعينات القرن التاسع عشر التيار الشعبي في المعارضة والتنوير ، وأقام (الحزب الوطني الحر) كي يحول دون الاستعمار الأوربي والتهام مصر ، فلما سارت الأحداث سيرتها ، واحتل الانجليز مصر ، أقام (جمعية العروة الوثقى) السرية التي كان تحرير مصر من أهم وأول أسباب قيامها ، ومن أكبر المهام التي ناضلت في سبيلها . . وعن هذه الحقيقة يعبر الأفغاني بقوله : « ان كشف ـ (اجلاء) ـ الانكليز عن مصر هو غلق لكل بلية مهيأة في المسألة الشرقية » . . ثم يمضي فيقسم قائلا : « وعزة الحق ! ان ما كتبته عن حق مصر ، وما استنهضت من الهمم ، وما حذرت به من سوء المصير ، لو تلي على الأموات لتحركت أرواحهم ، ولرفرفت على أجداثهم ، ولأحدثت لأعدائهم أحلاما مزعجة ، ومراء مريعة ! . . كاد أن لا يخلو سطر من (العروة الوثقى) إلا وفيه ذكر مصر ، ولا براهين وأدلة على ظلم الانكليز إلا ويتمثل في مصر ، ولا خوف من شر مستطير . . إلا وتراه في التهاون في أمر مصر ، وذلك لأن جرح مصر كان ولم يزل له في جسم الأمة الاسلامية والعرب عموماً نغولا ـ (فسادا) ـ وبعروقها اتصالاً ! »[2] .

(١) (الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني) ٢٣٦ ، ٤٦٦ ، ٤٨٧ ، ٢٤٠ ، ٤٦٧ .
(٢) المصدر السابق ص ٢٤١ .

ولقد ظلت للأفغاني ـ حتى أواخر حياته ، وحتى بعد أن مكن الانجليز لأقدامهم في مصر ظلت له آمال في قيادة مصر للنهضة العربية ، حتى لقد أتهم ، وهو بالآستانة ، بالاتفاق مع الخديوي عباس حلمي الثاني للعمل على اقامة خلافة عربية ، من حول الخديوي ، تستنقذ الولايات العربية من السلطنة العثمانية ـ وهو مشروع محمد علي القديم ـ ولما اضطر الرجل للدفاع عن موقفه ودفع الاتهام عن نفسه ، لم يتخل عن إيمانه بأن هذا هو دور مصر ومكانها ، فقد علق نجاح هذا المشروع على تحررها من الاستعمار الانجليزي ، وعلى اجتماع صفات القيادة التي تمتلكها مصر ، فيمن يقود هذه الخلافة وتعقد له بيعتها ، وهي الصفات التي حددها بأنها « همة محمد علي ، ومضاء ابراهيم باشا ، وسخاء الخديوي إسماعيل[1] » . . . فإذا اجتمعت تلك الصفات « للخليفة » قامت الخلافة العربية التي تضم مصر والمشرق ، لأن « سوريا الجغرافية ـ (الشام الكبير) ـ لمن حكم مصر بمنزلة اللازم والملزوم ، وهي مفتاح العراق[2] » كما قال جمال الدين .

وهذا الهدف الذي فكر فيه الأفغاني ، هدف الخلافة العربية التي تتخذ مصر مكاناً لها ، قالوا أن الكواكبي قد سعى اليه بعد هجرته من حلب إلى مصر ، وأنه قد نسق جهوده في سبيله مع طموحات الخديوي عباس . .[3] أما قبل هذه الهجرة فإن فكرة الكواكبي عن الخلافة في عصره يحددها فكر (جمعية أم القرى) المدون بسجل مذاكرات مؤتمرها ، المنشورة بكتاب (أم القرى) . . وهو فكر حاسم في إدانة السلطنة العثمانية ، والدعوة إلى استقلال العرب عنها ، وإلى إقامة « **خلافة عربية** »في الحجاز حيث البيئة العربية التي لم تفسدها انحرافات الدولة العثمانية عن نهج الإسلام وأخلاقيات العروبة . . على أن تقتصر الفعالية السياسية والسلطان السياسي لهذه الخلافة على إقليم الحجاز فقط ، وأن تكون لها هيئة استشارية تمثل الشعوب الإسلامية ، عربية وغير

---

(١) المصدر السابق ص ٢٤٧ .

(٢) المصدر السابق . ص ٧٢ ، ٧٣.

(٣) (الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي) ص ٣٠.

عربية . . فهي رمز للخلافة العربية الكبرى ، وبـديل عن خـلافة العثمـانيين ، يسقط اغتصابهم لهذا المنصب ، ومنارة تغري العرب ، مستقبلاً ، بتحـويلها من حكـومة شبيهـة بدولـة الفاتيكـان إلى سلطة حقيقية تـوحد العـرب تحت سلطان خليفـة عـربي واحـد . . . إنها دعـوة لتحقيق الاستقـلال للولايـات العـربيـة العثمـانية ، ولاتـاحة فـرصة زمنيـة تحكم فيهـا هـذه الـولايـات وتنهض في ظـل الاستقلال ، مع وجـود « الخلافـة النموذج والـرمز » لعلهـا تكون مصـدر جذب وإغراء يجمع العرب ثانية ، وبعد دور الاستقلال ، إلى هذا الطريق ! . . . ومن الطريف أن الكواكبي قد جعل هذه الخلافة العربية « جمهورية » ، لأنه قد جعل اختيـار الخليفة من اختصـاص الهيئـة الشـوريـة ، فهي التي تنتخبـه كـل ثـلاثـة أعوام ![1].

أما الأفغاني ، فإنه بعد استقرار الاحتلال الانجليزي في مصر ـ وقبل ولاية الخديوي عباس الثاني ، صاحب الطموحات الوطنية والمساعي التي تعدت حدود مصـر ـ نراه يسعى ، عمليـا ، لاقامـة الخلافـة العربيـة في شبه الجـزيرة (نجـد والقـطيف واليمن)، حيث كانت هـذه المنطقـة لا تزال بعيـدة عن نفوذ الغـرب الاستعماري ، وبمعزل عن السيطرة الكاملة لـلأتراك العثمـانيين . . ولقـد غادر الأفغاني أوربا سنة ١٨٨٦م، إلى هذه المنطقة ساعياً لتحقيق هـذا الهدف ، ولكن استدعاء الشاه الإيراني ناصر الدين (١٨٣١ ـ ١٨٩٦ م) له صرفه عن استكمال مسعـاه[2] وبعد سنوات رأينا الإمـام محمد عبـده يؤيد هـذا المشروع ، نـظريـاً وفكـرياً ، عنـدمـا يتحـدث إلى المستشـرق « بلنت » الـذي كـان يسعى في هـذا السبيل . . ولكنه يرفضه عمليا ، لأنه سيؤدي إلى قيام صراع بـين العرب وبـين الاتراك لن يستفيد منه إلا الغرب الاستعماري ، وبعبارتـه « أن العرب في نجـد أهـل لهـذا الاستقـلال ، ولكن التـرك لا يمكنـونهم منـه ، وعنـدهـم من القـوة العسكـرية المنـظمة مـا ليس عند العـرب ، فإذا شعـروا بـذلـك أو رأوا بـوادره قاتلوهـم ، حتى إذا وهنت قوة الفريقين وثبت دول اوربة الواقفة لهما بـالمرصـاد ،

---

(١) المصدر السابق . ص ٣٦٤ ـ ٣٦٩ .

(٢) (الأعمال الكاملة للامام محمد عبده) ج ١ ص ٧٣٥ .

فاستولوا على الفريقين أو على اضعفهما ، وهذان الشعبان هما أقوى شعوب الاسلام ، فتكون العاقبة إضعاف الاسلام وقطع الطريق على حياته »![1] . .
فكأنه كان يقرأ صفحة الغيب التي ظهرت بعد ما يزيد على عشر سنوات من وفاته ، خلال أحداث « الثورة » العربية ، ومعاهدة « سيكس ـ بيكو » وما حدث من الغرب الاستعماري للمشرق العربي! . .

ثم رأينا الأفغاني يسعى لتحقيق « حرية اليمن واستقلالها ، تمهيداً لاستقلال البلاد العربية » عن السلطنة العثمانية ، فيؤيد منهج صحيفة (البيان) التي أصدرها محمد باشا المخزومي (١٨٦٨ ـ ١٩٣٠ م) لهذا الغرض سنة ١٨٩٣ م وهي التي اتهمت من العثمانيين بهذه التهمة ، وألغيت لهذه الأسباب . .[2]

ونحن عندما نقرأ في الآثار الفكرية لأعلام هذا التيار التجديدي ما كتبوه عن العرب والحضارة العربية والتراث العربي وعبقرية الأمة العربية ، نضع يدنا على الحقيقة التي تقول : إن إيمان هذا التيار بالعروبة ، والقومية العربية ، والخلافة العربية ـ (التي ترمز للوحدة العربية) ـ لم يكن انطلاقاً من ضرورات عصرية وسياسية مقطوعة الصلة بماضي هذه الأمة العريق ، وإنما كان اجتهاداً للعصر ، يستجيب لضروراته ، وفي ذات الوقت مدعوماً بالصفحات المشرقة في تراث هذه الأمة وحضاراتها . .

فحتى الاسلام ، وهو دين الانسانية ، عرباً وغير عرب ، نرى محمد عبده يقول عنه أنه : دين عربي ، وأن الحضارة العربية المزدهرة قد جعلت ـ يوم ازدهرت ـ العلم عربياً كذلك . . فامتلك العرب : الدين ، والعلم ، واللغة . . وجميعها كان عربياً . . !

وكتابات الأفغاني تفيض بالحديث عن عبقرية العرب وسبقهم في العلوم والفنون . . « فلقد وصل جهابذتهم في كل فن إلى الغاية منه » . . فالجبر وضعه

---

(١) (الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني) ص ٧٦ .
(٢) (الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني) ص ٧٦ .

أبو السمح (قبل أكثر من ألف عام) والجاذبية - قبل اسحق نيوتن Newton (١٦٤٢ - ١٧٢٧ م) - وضعها أبو بكر بن بشرون ، في القرن الثالث الهجري ، وسمّاها : « قوة حاسة قابضة، منعكسة إلى المركز، الأرض ! » . . وهو الذي اكتشف، أيضا، « التحليل والتركيب » وسماه « الحل والعقد »، قبل « لافوازيه » Lavoisier (١٧٤٣ - ١٧٩٤ م) . . وكذلك اكتشف الفوسفور واستحضره ، واستحضر الأوكسجين من حجر المغنيسيا . . . وجابر بن حيان (٢٠٠ هـ ٨١٥ م) هو الذي اكتشف حامض الآزوت ، وأبو بكر الرازي (٢٤٦ - ٣٢٩ هـ ٨٦٠ - ٩٤٠ م) هو مكتشف حامض الكبريت . . وهكذا كانوا الأساتذة السباقين في مختلف الميادين ![1].

وحتى عندما يكون الحديث عن الاصلاح الديني للاسلام ، والمتدينون به عرب وغير عرب . . . وبصدد التخطيط لنهضة الشرق دينياً ، نجد أعلام هذا التيار ينيطون بالعرب القيادة والريادة في هذا الميدان ، ففي رأي الكواكبي أن **« العرب هم الوسيلة الوحيدة لجمع الكلمة الدينية ، بل الكلمة الشرقية . العرب أنسب الأقوام لأن يكونوا مرجعاً في الدين وقدوة للمسلمين ، حيث كان بقية الأمم قد اتبعوا هديهم ابتداء ، فلا يأنفوا عن أتباعهم أخيراً . . »**[2].

ومن الأمور التي تؤكد وعي هذا التيار التجديدي بالطابع القومي والمعنى القومي عند استخدام أعلامه لمصطلح « العرب » أنهم قد تحدثوا عن الأمة العربية بأعتبارها « قوماً » يتدين أهله بأكثر من دين ، ويتمذهبون بأكثر من مذهب . . ولقد سبقت اشارتنا إلى آراء الأفغاني عن أن العرب أمة قبل كل دين ومذهب ، وعن كون اللغة العربية جامعة تجمع العرب جميعاً ، وأنها قد غدت بالنسبة للعرب غير المسلمين جامعة من أفخر الجوامع التي تجمعهم بالعرب المسلمين ، منذ أن تعربوا حتى الآن . . ولقد تحدث الكواكبي أيضاً عن العرب غير المسلمين « الناطقين بالضاد » فدعاهم إلى الحذر من شراك الغرب

---

(١) (الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني) ص ٢١٢ - ٢١٤ .
(٢) (الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي) ص ٣٥٨ .

الاستعماري الذي يريد جرهم بحبل الدين الذي يزعم أنه رباط بينه وبينهم ، لأن « هذا الغرب مادي ، لا دين له غير الكسب ، فما تظاهره مع بعضنا بالإخاء الديني إلا مخادعة وكذبا ! . . » ثم إنه يدعو إلى دولة قومية ، وليس إلى دولة دينية إسلامية ، فهو ، كغيره من أعلام هذا التيار ، وكما سبق وأشرنا إلى مذهبه ، ينكر وجود سلطة دينية أو كهنوتية في الإسلام ، ويدعو ـ كما قال الشيخ رشيد رضا ـ إلى فصل السلطتين . . والدولة القومية التي دعا إليها تحدث عنها بصدد كشفه لأصابع الاستعمار الانجليزي والفرنسي في الفتنة الطائفية التي نشبت بين الدروز والموارنة سنة ١٨٦٠ م ، فأشار على العرب جميعاً ، مسلمين وغير مسلمين ، باختيار طريق « الاتحاد الوطني دون الديني ، والوفاق الجنسي ـ (القومي) ـ دون المذهبي » كما فعلت أمم أوربية وأمريكية سبقتنا على هذا الطريق . . ونادى قومه جميعاً : « **تعالوا ، ندبر شأننا ، نتفاهم بالفصحاء ، ونتراحم بالاخاء ، ونتواسى في الضراء ، ونتساوى في السراء ندبر حياتنا الدنيا ، ونجعل الأديان تحكم في الأخرى فقط** . . نجتمع على كلمة سواء ، ألا وهي : فلتحيا الأمة ، فليحيا الوطن ، فلنحيا طلقاء اعزاء ! »[١] .

هكذا فكر اعلام هذا التيار التجديدي ، على جبهة العروبة ، بمصر والمشرق العربي . . أما في المغرب ، فلقد صنعوا انجازاً قومياً عربياً ، كان تحقيقه أغرب من الخيال وأقرب الى المحال ! . .

كانت فرنسا قد شرعت في احتلال الجزائر سنة ١٨٣٠ م وأخذت في تثبيت استعمارها لها بعد القضاء على المقاومة الجزائرية سنة ١٨٤٨ م . . لكنه لم يكن احتلالاً كغيره من أشكال الاحتلال . . . ولم يكن استعماراً كالذي شهدته أو تشهده كثير من البلاد في آسيا وأفريقيا . . فهو لم يقف عند اغتصاب المستعمر « للدولة » و« الإدارة » و« الحرية » و« الأرض » و« الثروة » التي كانت للجزائريين على أرض وطنهم ، وإنما ذهب المستعمر الفرنسي فأراد سحق الهوية القومية للشعب ، وإلغاء عروبتهم ، لأنها رمز مغايرتهم للفرنسيين ، وهو قد أراد

---

(١) المصدر السابق ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ .

أن يكونوا فـرنسيين ، حتى يكـون وطنهم ، ليس مجرد مستعمـرة فرنسيـة ، وإنما الامتـداد الافـريقي للوطن الفـرنسي عبر البحـر المتـوسط !. . كـما ذهب هـذا المستعمر ، أيضاً إلى مسخ الاسلام ، حتى يزيل طابعه القـومي العربي في البيئة العـربية الجـزائريـة ، وينزع منـه عوامـل المقاومـة ، فيتحـول من شـوكـة بحلق الاستعمار الى قيد يثقل خطو المناضلين في سبيل الحرية والإستقلال . .

وإذا شئنـا كلمات تحـدد هـدف الاستعمـار هـذا ، ومن ثم تحـدد المهمـة القومية العربية التي نهض بهـا هذا التيـار التجديـدي بالمغـرب ، عندمـا تصدى لمقاومة هذا الهدف الاستعماري ، وجدنا في كلمات مفكري الاستعمار الفرنسي الكثير . . فالكاتب الصهيوني مـاكس نوردو (١٨٤٩ - ١٩٢٣ م) يقـول : «إن شمـال أفريقيـا سيكون مهجـراً ومستوطنـاً للشعوب الأوربيـة . . وأما سكـانـه الأصليـون فسيـدفعـون نحـو الجنـوب ، إلى الصحـراء الكبـرى ، إلى أن يفنـوا هناك !» والمفكر الفـرنسي الاستعماري سـايسيمون دي يقـول عن الجزائـر يوم احتلالها : « إن هذه المملكة الجزائرية ستصبح بلداً جديداً ، يتدفق اليه الفائض من السكان ومن نشاط أبناء فرنسا!»[١].

وحتى يتحقق هذا الاستعمار الاستيطاني للمستعمرين الفرنسيين بـالجزائـر العـربية كـان السعي الخبيث والعنيف لسحق قوميـة الجزائـريين العـربيـة ونـزع هويتهم المتميزة ، وهي : العروبة ، والاسلام ، طالما كان هـذا الاسلام محـافظاً على عروبتهم ومغـايرتهم للفـرنسيين . . فسعـوا إلى « فرنسـة » الجزائـر لغويـاً ، بـاحلال الفـرنسيـة محـل العـربيـة ، وكتبـوا بـأحـد التقـاريـر التي وضعت سنـة ١٨٤٨ م : « إن الجزائر لن تصبح فرنسية إلاّ عندما ، تصبح لغتنا الفرنسيـة لغة قـومية فيهـا . والعمل الجبـار الذي يتحتم علينـا انجازه هـو السعي وراء جعـل الفرنسية اللغة الدارجة بين الأهالي إلى أن تقوم مقام العربية ، وهذا هـو السبيل لاستمالتهم الينا ، وتمثيلهم بنا ، وإدماجهم فينا ، وجعلهم فرنسيـين ![٢]» ولقد

(١) د . محمد عمارة (الأمة العربية وقضية التوحيد) ص ٩٤ ، ٩٥ . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦ م .
(٢) المرجع السابق . ص ٩٦ ، ٩٧.

صنع الفرنسيون كل ما خطر ببال مستعمر استيطاني غاشم لتحقيق هذه الأهداف . . فأغلقوا ، يوم احتلوا البلاد ، أكثر من ألف مدرسة . وبعد قرن وربع القرن من احتلالهم - (سنة ١٩٥٤ م عندما أعلنت الثورة المسلحة ضدهم) - كانت نسبة الأمية في الجزائر ٩١٪ وغير الأميين كانت لغتهم الفرنسية ، وكانوا سجناء في فكر العدو ولغته ، فهم بالمقياس القومي أميون ! . . أما الذين كانوا يقرأون العربية فلم يزد تعدادهم عن ٢٠٠,٠٠٠ تعلمت أغلبيتهم الساحقة في المدارس التي أقامها التيار القومي العربي لحركة التجديد والاصلاح ، كي يقاوم بها أهداف الاستعمار ! . .

ولقد أتى على الإستعمار الفرنسي ، بالجزائر ، حين من الدهر خيل إليه أنه قد نجح في سحق الهوية القومية للجزائر العربية ، فرجال الدين الرسميون قد أصبحوا جواسيس لادارته ، وشيوخ الطرق الصوفية يشيعون بين المريدين أن قوته وهيمنته هي مظهر القدرة الإلّهية والإرادة الربانية ! . . واللغة العربية قد غدت من المحرمات ! . . والطابع العربي للاسلام أصبح محظوراً ! ونفر غير قليل من الجزائريين يندمجون في فرنسا الأم ! حتى لقد أعلن الكاردينال « لافيجري » في احتفالهم بمرور قرن على بدء احتلالهم لها : « إن عهد الهلال في الجزائر قد غبر ، وأن عهد الصليب قد بدأ ، وأنه سيستمر إلى الأبد . . وأن علينا أن نجعل أرض الجزائر مهداً لدولة مسيحية مضاءة أرجاؤ هنا بنور مدنية منبع وحيها الانجيل »![1] . . وبالطبع فإن الكاردينال كان يكذب على المسيحية وعلى الإنجيل ، فلو كان الأمر أمر مسيحية ففيم كان العداء للعروبة ، وفي العرب مسيحيون لغتهم العربية ؟! . . إن العداء لعروبة الجزائر ، وللاسلام إذا كان سنداً للعروبة ومظهراً للتمايز القومي عن المستعمر ، يجعل المعركة وطنية وقومية ، ويخرج الدين من إطارها ، اللهم الا إذا كان - كما حدث بالفعل - وسيلة قهر وأداة استعمار ! . .

وفي مواجهة هذا المخطط الذي عرف طريقه للممارسة والتطبيق ، اختلج

(١) د . محمود قاسم (الإمام ابن باديس) ص ١١ . طبعة دار المعارف . القاهرة .

ضمير الجزائر العربية المسلمة فأفرز الجناح المغربي لتيار التجديد العقلاني القومي المستنير الذي تمثل في الشيخ عبد الحميد بن باديس، ورهطه (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين).

وعندما كان الاستعمار الفرنسي يحتفل بمرور قرن على استعماره للجزائر، ويذيع كلمات الكاردينال « لافيجري » وأمثاله كتب ابن باديس: « إن الجزائر بلد عربي .. ومن ذا الذي يفكر في إنكار هذه الحقيقة ؟! وهي أرض اسلامية أصيلة، وذلك حق أيضاً ! ومهما يكن من إرادة امبريالية، في الماضي والحاضر، ومهما يكن من قوة حرابها، فإن هذه الظاهرة التاريخية صادقة تمام الصدق »(١).

وفي مواجهة المثقفين الجزائريين الذين اقتادتهم ثقافتهم الفرنسية إلى حظيرة القومية الفرنسية ـ أو هكذا ظنوا ـ فاندمجوا في « فرنسا الأم » وكتب ممثلهم فرحات عباس سنة ١٩٣٧ م منكراً وجود « وطن جزائري » .. في مواجهة هؤلاء كتب ابن باديس مؤكداً على وجود هذا الوطن، وعلى تميزه القومي عن فرنسا، بل ومؤكداً أن هذه الحقيقة الموضوعية لا تؤثر فيها الإرادة الانسانية أي تأثير ! « .. إن هذه الأمة الجزائرية ليست هي فرنسا ولا يمكن أن تكون فرنسا، ولا تستطيع أن تصير فرنسا، ولو أرادت !... بل هي أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد، في لغتها، وفي أخلاقها، وفي عنصرها، وفي دينها، ولا تريد أن تندمج .. ولها وطن محدود معين هو الوطن الجزائري بحدوده الحالية المعروفة »(٢).

وكما ابصر الاستعمار الفرنسي أن سبيله إلى تحويل الجزائر العربية إلى جزء من فرنسا هو سحق قوميتها عن طريق احلال لغته محل عربيتها .. أبصر ابن باديس أن اللغة العربية هي الخيط الذي يشد الجزائر الى ماضيها العربي، وهي السبيل الى جزائر المستقبل العربية، والمستقلة .. فكتب يقول: « إننا نعتصم

(١) المرجع السابق ص ١٣.
(٢) (مسلمون ثوار) ص ٢٥٣، ٢٥٤.

بـالحق ، ونعتصم بالتـواضـع عنـدمـا نقـول : إننـا شعب خـالـد ، ككثـير من الشعوب ، ولكننا ننصف التاريخ إذا قلنا : إننا سبقناها ، بهدايتنا ، وسبقنا هذه الأمم في نشر الحق أيام كانت في ظلمات الجهل ، **ذلك مـا كنا فيـه وما سنعـود إليه** ، وإنما علينا أن نعرف تاريخنا ، ومن عـرف تاريخـه جديـر بأن يتخـذ لنفسه منزلة لائقة في هذا الوجود ، **ولا رابـطة تربط مـاضينا المجيـد بحاضـرنا الأعـز والمستقبـل السعيد إلا هـذا الحبل المتين : اللغة العـربيـة ، لغـة الـدين ، لغـة الجنس ، لغة القومية ، لغة الوطنية المحروسة ، إنها وحدها الـرابطة بيننـا وبين مـاضينا وأجـدادنا الغـرّ الميامـين ، تربط أرواحهم بـأرواحنا . . وهي وحـدها اللسان الذي نعتز به ، وهي الترجمان عما في القلب من عقائد وما في العقـل من أفكار وما في النفس من آلام وآمال ! . . »**[1].

فما قرأناه للأفغاني عن دور اللغة ، كرباط للأمة ، وأثرهـا في جمع شتـات القـومية التي تصـارع أعداءهـا كي تتوحـد بعد الشتـات ، نجده هنـا عنـد ابن باديس . . الذي كتبه وبشر به ، ثم وضعه موضع التـطبيق يوم أنشـأت (جمعية العلماء) ١٧٠ مدرسة يتعلم فيها الجزائريون العربية ، بعد أن حرمت فيها عدا هذه المدارس وذلك غير « الكتاتيب » التي طورتهـا حتى اقتربت بهـا من المدارس الابتـدائية . . ويـوم نجحت هـذه الجمعية في جمـع كلمـة التيـارات السيـاسيـة الجـزائريـة سنة (١٩٣٨ م) عـلى المطالبـة باللغـة العـربيـة ، فكتبـوا للحكـومـة الفرنسية : « إن مسـألة اللغـة العربيـة والتعليم الديني بالقطر الجـزائري ليست مسألة حزب خاص أو جمعية معينة ، بـل هي مسألـة الأمة جمعـاء . . تختلف في كل شيء وتتفق فيها »[2]! . . ويـوم نجحت بقيادة ابن بـاديس في إعداد الجيـل الذي أحيا الوطن الجزائـري في نفوس ابنـائه ، ومهـد الطريق لجيـل آت لينتزع هذا الوطن ، بـالثورة من قبضـة الاستعمار! . . حتى لقـد كتب الفرنسيـون عن هذا الجهد التجديدي القـومي فقالـوا : « إن مجددي فكـرة الوطن الجـزائري هم هؤلاء الـذين أسسوا جمعيـة العلماء . . . لقد ربـطوا محاولتهـم لتجـديد الاسـلام

---

(١) المرجع السابق ص ٢٦١ .

(٢) المرجع السابق . ص ٢٦٠ ، ٢٦١ .

وللقضاء على الطرق الصوفية بمحاولة تجديد الوطن الجزائري . . **وهم ينتظرون أن يتقدم رجال آخرون لاستعمال السلاح الذي يصقلونه الآن بأيديهم ويعدونه !**»[1].

نعم . . لقد أصبحت العروبة والقومية العربية ، على يد ابن باديس و(جمعية العلماء)، طوق نجاة الجزائر من هاوية السحق القومي . . والسلاح الذي حقق به هذا التيار التجديدي نصراً خيل للكثيرين أن تحقيقه قد غدا أحد المستحيلات !. .

هكذا ، وعلى هذا النحو واجه التيار التجديدي العقلاني المستنير ذلك التحدي القومي سواء ذلك الذي أراد أصحابه تتريك العرب كي يصبحوا أتراكاً مسلمين ، أو فرنستهم حتى يصبحوا مسلمين فرنسيين. . !

ومع الديمقراطية . . ضد الاستبداد :

وكان الانفراد بالسلطة والاستبداد بأمر الأمة واحداً من التحديات التي طبعت الحياة السياسية لعصورنا الوسطى ، « المملوكية ـ العثمانية » على وجه الخصوص . . فحديث القرآن الكريم والسنّة النبوية الشريفة عن الشورى لم يتجسد في مؤسسات نيابية دستورية كما هو الغاية منه ، وكلمات الفقهاء المسلمين عن « أهل الحل والعقد » لم تتعد صفحات مصادر الفقه الاسلامي. . ولقد أثمر هذا الاستبداد ، الذي طال عليه الأمد ، سمات سلبية طبعت شخصية الأمة ، وجعلت جماهيرها تقاوم الاستبداد ، عندما عجزت عن تحديه بالفعل الايجابي ، باللامبالاة ، وإدارة الظهر لأمور الحياة العامة ، وهي مقاومة من نوع : أضعف درجات الإيمان الضعيف!. .

حدث ذلك في أمة لها في الشورى تراث نظري. . ولها في اختيار الخلفاء وبعض اشكال الشورى القريبة من النظامية تراث عملي . . ثم أن أوربا ، بعد الثورة الفرنسية ، أخذت تطور تراثها اليوناني القديم في الديمقراطية حتى وصلت إلى جعل السلطة التشريعية والرقابية للمجالس النيابية المنتخبة من عامة

(١) المرجع السابق ص ٢٢٥ ، ٢٥٦ .

الناس . . فنظر التيار التجديدي ، بسلفيته ، إلى تراثه ، وبعقلانيته واستنارته إلى الحضارة الأوربية ، فوجد أن إحلال سلطة الشعب محل سلطة الفرد ، من خلال المجالس النيابية المنتخبة ،هو التصدي لذلك التحدي المتخلف من بقايا العصور الوسطى . . فليس التقدم المادي الكمي هو ما ينقص الشرق ، فلقد حققت مصر منه الكثير على عهد محمد علي واسماعيل ، لكن سلطة الفرد ظلت تبدد عائد هذا التقدم فيما لا يفيد ، وتحرمه من طاقات الأمة الخلاقة المبدعة ، وتحجب مشورة الأمة البناءة عن أن تدعم اخلاص الحاكم وقدراته . . بل لقد ظلت سلطة الفرد ، وما سمي بنمط حكم « الإستبداد الشرقي »! ثغرة حرص الغرب الاستعماري على بقائها غير مسدودة ، حتى تظل فرصته سانحة لاغتصاب استقلال البلاد ، بدليل هجمته على الثورة العرابية عندما نهضت لتسد هذه الثغرة بمجلس النواب والدستور؟!.

ولقد كان الحاكم الفرد يتذرع بقصور الشعب وعجزه عن ممارسة حريته والقبض على ناصية مصيره ، وكان ذلك هو منطق الخديوي توفيق (١٨٥٢ ـ ١٨٩٢ م) لكن الأفغاني حدثه بأن في الشعب الأكفاء كما أن فيه الخاملين ، وكما تكون نظرة الحاكم للأمة وتقديره لها تكون نظرتها إليه وتقديرها له ! . . « إن شعب مصر ، كسائر الشعوب ، لا يخلو من وجود الخامل والجاهل بين أفراده ، ولكنه غير محروم من وجود العالم والعاقل . فبالنظر الذي تنظرون به ـ يا سمو الأمير ـ إلى الشعب المصري وأفراده ينظرون به اليكم!». . ثم يمضي الأفغاني ناصحاً الخديوي « بالاسراع في إشراك الأمة في حكم البلاد ، عن طريق الشورى ، بالأمر بإجراء انتخاب نواب عن الأمة تسن القوانين وتنفذ الأحكام . . ». . ويحدد الأفغاني أن الحكم النيابي الذي يريده ليس « شكلاً » بلا مضمون ، وأن المجلس النيابي إن لم يكن نابعاً من الأمة ، منتخباً بإرادتها الحرة المختارة ، فلن يوتي الثمرة المرجوة منه ، وتحديده هذا يأتي في حديثه عن وضع مصر فيقول : « إن حكم مصر بأهلها إنما اعني به : ـ **الاشتراك الأهلي بالحكم الدستوري الصحيح** . . ذلك أن القوة النيابية لأي أمة كانت لا يمكن أن تحوز المعنى الحقيقي إلا إذا كانت من نفس الأمة ، وأي مجلس نيابي يأمر

بتشكيله ملك أو أمير أو قوة أجنبية ، فاعلموا أن حياة تلك القوة النيابية الموهومة موقوفة على إرادة من أحدثها (١) . .

ولقد أفاض الكواكبي في تحليل ظاهرة الاستبداد ، والبحث عن أسبابها الحقيقية ، ووصف علاج الأمة من أمراضها . . فذكر أن الحكماء أجمعوا ، بعد البحث الطويل العميق ، على أن الاستبداد ، وانفلات سلطة الفرد من حدود القانون وقيود الدستور « هو المنشأ الأصلي لكل شقاء بني حواء ! »(٢) . . ونفى ما يزعمه البعض من أن علة أمراض الشرق وأسبابها هي « فقد التمسك بالدين » ، لأن العلة عنده هي « فقد الحرية السياسية » ، بل لقد رأى « أن التهاون في الدين ناشيء من الاستبداد ؟ . . »(٣) . . وكشف عن سر ما شاع ويشيع دائماً من إلقاء تبعة التخلف والانحطاط على « التهاون في أمور الدين » ، وقال ان تلك سمة من سمات « الأمم المنحطة » ، يظن نفر من بنيها أن التدين ، بمعنى كثرة العبادة والنسك ، سيثمر صلاح الحال ، على حين أن هذا الجانب من جوانب الدين لن يزعج الاستبداد ولن يقض مضاجع المستبدين ، بل ربما أعانهم هذا الجانب من الدين على إحكام قبضة استبدادهم ، ومن ثم ابقاء الأمة في انحطاطها إلى ما شاء الله . . يقول الكواكبي : « . . والأمر الغريب أن كل الأمم المنحطة ، من جميع الأديان ، تحصر بلية انحطاطها السياسي في تهاونها بأمور دينها ، ولا ترجو تحسين حالتها الاجتماعية إلا بالتمسك بعروة دينها تمسكا مكينا ، ويريدون بالدين العبادة . ولنعم الاعتقاد لو كان يفيد شيئاً ، ولكنه لا يفيد ابداً . . ذلك أن الدين بذر جيد لا شبهة فيه ، فإذا صادف مغرساً طيباً نبت ونما ، وإن صادف أرضاً قاحلة مات وفات ، أو أرضاً مغراقاً هاف ولم يثمر . وما هي أرض الدين ؟! أرض الدين هي تلك الأمة التي أعمى الاستبداد بصرها وبصيرتها ، وأفسد اخلاقها ودينها ، حتى صارت لا تعرف للدين معنى غير العبادة والنسك ، اللذين زيادتهما عن حدهما المشروع أضر على الأمة من نقصهما ، كما هو مشاهد في المتنسكين ! » . . (٤)

(١) (الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني) ص ٤٧٣ ، ٤٧٧ .
(٢) (الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي) ص ٢٥٩ ، ٢٦٠ .
(٣) المصدر السابق . ص ١٨٤ .
(٤) المصدر السابق . ص ١٨٧ .

وبعد أن يكشف الكواكبي ان الاستبداد هو علة انحطاط الشرق ، يضع أيدينا على ركائزه ودعائمه التي تحكم من قبضته على رقاب الأمة وتضمن له قوة واستمرارا . . فهو ليس شهوة شخصية فقط ، ولا غفلة جماهيرية فحسب ، وإنما هناك ركائز يعين كشفها المجاهدين في سبيل الحرية على اقتلاعها . . فالارهاب ركيزة للاستبداد . . والقوة المسلحة ـ وخاصة إذا كانت مملوكية أو مقطوعة الصلة ، قومياً ، بالأمة ـ ركيزة ثانية . . والقوة المالية وأصحابها ركيزة ثالثة . . ورجال الدين الذين ربطوا أنفسهم بنظام المستبد ركيزة رابعة . . والقوة الأجنبية التي تناصر المستبد ركيزة خامسة . . والعادة والألفة التي تجعل الناس يستنيمون للاستبداد ركيزة سادسة ! . . كل هذه ركائز للاستبداد يستند إليها . . وبعبارة الكواكبي : « . . ان الاستبداد محفوف بأنواع القوات التي منها : قوة الارهاب ، وقوة الجند ، لا سيما إذا كان الجند غريب الجنس ، وقوة المال ، وقوة الألفة على القسوة ، وقوة رجال الدين ، وقوة أهل الثروات ، وقوة الأنصار من الأجانب ! » . . (١)

وبعد أن يصور الكواكبي واقع الاستبداد الشرقي ، ويكشف ركائزه وأسبابه ، ودوره في انحطاط الأمة ، يحدث العرب عن ماضيهم وتراثهم ، فيظهر لهم مدى التناقض بين حياتهم الأولى وميراث أجدادهم الأقدمين وبين انحطاطهم في درك الاستبداد الذي يعيشون فيه تحت نير آل عثمان . . « فالعرب أعرق الأمم في أصول الشورى في الشؤون العمومية . . والاسلامية مؤسسة على أصول الادارة الديمقراطية ، أي العمومية » . . ومن ثم ، وبعد هذه المقارنة ، « فان سبب الفتور ـ (الانحطاط) ـ هو تحول نوع السياسة من نيابية اشتراكية ، أي ديمقراطية تماما . . إلى سلطة شبه مطلقة ! »(٢) . . تلك هي المفارقة ، وذلك هو سبب الفتور ! . .

وإذا كان في ركون العرب إلى الاستبداد ، واستنامتهم له ما يناقض سيرة سلفهم الصالح ، وما يخالف تعاليم دينهم الحنيف ، فان فيه أيضاً ما أصبح

(١) المصدر السابق . ص ٢٢٥ .
(٢) المصدر السابق ص ٣٥٧ ، ١٤٧ ، ٢٥٠ .

شاذا عن الحياة الحرة والنظم الديمقراطية التي دفعت بالنهضة الأوربية إلى الأمام . . فالحضارة الأوربية قد أطلقت لأممها « حرية الخطابة والتأليف والمطبوعات ـ مستثنية القذف فقط ـ ورأت ان تحمل مضرة الفوضى في ذلك خير من التحديد ،لأنه لا ضامن للحكام أن يجعلوا الشعرة من التقييد سلسلة من حديد ، يخنقون بها عدوتهم الطبيعية : الحرية ! »[1] . . وهذه الأمم خصصت منها جماعات بأسم (مجالس نواب) وظيفتها السيطرة والاحتساب على الادارة العمومية السياسية . . فما لنا لا نفعل مثلهم ، وقرآننا الكريم يحثنا على ذلك فيقول لنا : ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون[2] ﴾ . . . »[3]

وهذا المجلس النيابي ، النابع من الأمة ، كما قال الأفغاني ، هو ما سماه تراثنا في الفقه الاسلامي بأهل الحل والعقد ، كما قال الامام محمد عبده ، الذي ذهب إلى القول بعصمة هذه الهيئة الدستورية فيما تقرر إذا هي أجمعت رأيها في القرار[4] ، لأنها ممثلة الأمة ، والامة لها ، في الفكر الاسلامي ، العصمة فيما تجمع عليه ، إذ « لا تجتمع أمتي على ضلالة » كما قال الرسول ، عليه الصلاة والسلام . . [5]

ولم تكن الحرية السياسية ، في نظر هذا التيار التجديدي ، انفلاتا من مصالح الأمة ، بل التزاما بها ، ولا كانت تخففا من الأعباء بل كانت إمعاناً في حمل المزيد من الأعباء القومية . . كانت تحريرا للذات من قيود الاستبداد ، وذلك حتى تزداد عافيتها فتستطيع حمل المزيد من اعباء الأمة ومسؤ وليات الوطن . . وبعبارات الكواكبي « فإن الانسان الحر : مالك لنفسه ، ومملوك لقومه تماماً »[6] . . ونحن إذا قسنا حياة الحرية بواقع الاستبداد ، ووضعنا في

(١) المصدر السابق . ص ١٨١ .
(٢) آل عمران : ١٠٤ .
(٣) المصدر السابق ص ١٤٦ .
(٤) (الأعمال الكاملة للامام محمد عبده) ج ٥ ص ٢٣٨ .
(٥) رواه بن ماجة .
(٦) (الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي) ص ٢١٥ .

الاعتبار الثمن الغالي والضريبة العالية التي يدفعها الانسان في سبيل الحرية ، وجدنا الحرية ، مع ثمنها الغالي ، أنفع ، بل و « أرخص » ، من الاستكانة للاستبداد ، وما يصحبه من توهم أننا قد آثرنا السلامة واقتصدنا في التضحيات ! . . فخسائر الانسان ، فردا وأمة ، في ظل الاستبداد لا تقاس بما يقدم في سبيل الحرية من تضحيات ، وتعقبها ثمرات تستعصي على العد والوزن والقياس ، ذلك « **أن الهرب من الموت موت ! وطلب الحياة حياة ! . . وان الخوف من التعب تعب ! والاقدام على التعب راحة ! . . وان الحرية هي شجرة الخلد ، وسقياها قطرات من الدم المسفوح ! والعبودية هي شجرة الزقوم ، وسقياها أنهر من الآم المخاليق المخانيق** » كما يقول الشيخ عبد الرحمن الكواكبي .[1] .

هكذا واجه هذا التيار التجديدي تحدي الاستبداد بالسلطة والتفرد بأمر الأمة . . وهو التحدي الذي تجسد في تراث العصور الوسطى وواقع الدولة العثمانية فأدانه ، وحاكمه إلى تراث العرب الأول في الحرية ، وفكر الاسلامية الأولى في الشورى والديمقراطية ، ثم نظر في أسرار تفوق الخصم الجديد ، أوروبا الاستعمارية ، فوجد الحرية والديمقراطية أحد أسرار هذا التفوق ، فدعا الأمة إلى استلهام تراثها في الحرية والشورى ، والاسترشاد بتجربة أوربا في الديمقراطية ، تصديا لتحدي الاستبداد ، وأخذاً بأسباب الانعتاق من قفص الاستعباد العثماني والاستعمار الأوربي على السواء! . .

وبالثورة الوطنية . . ضد الاستعمار :

كأنما كان الأفغاني ، رائد هذا التيار التجددي ، على موعد مع تلك العاصفة التي اجتاحت بها أوربا أقطار العرب وديار الاسلام ، عاصفة الاستعمار الحديث فقبل ثماني سنوات من ميلاده بدأ احتلال فرنسا للجزائر سنة ١٨٣٠ م . . وفي نفس عام مولده (١٨٣٨ م) احتلت انجلترا عدن . . وبعد ثلاثة أعوام من ذلك التاريخ نجحت انجلترا ، متعاونة مع السلطان

(١) المصدر السابق . ص ٢٠٦ .

العثماني ، في إرغام مصر على التراجع إلى داخل حدودها الاقليمية سنة ١٨٤١م . . وفي سنة ١٨٦٠ م فجر الاستعمار الانجليزي والفرنسي الاحداث الطائفية في الشام . . وفي سنة ١٨٦٨م انتصر التيار الممالىء للانجليز في الدولة الأفغانية ، وهو التيار الذي حاربه جمال الدين . . وحول هذه السنوات وفيها كان الزحف الاستعماري دائماً وحثيثا على كل من ايران ، ومصر ، وتونس ، وليبيا ، والسودان وقبل ذلك كانت الهند قد سقطت في شراك الانجليز ! . . . وتكرس ذلك عندما هزموا ثورتها سنة ١٨٥٧م .

وأمام هذه العاصفة انهارت قلاع ، وخارت عزائم ، وتسرب اليأس إلى كثير من النفوس ومن ثم فلقد كانت المهمة الأولى لهذا التيار الذي قاده الأفغاني ، على هذه الجبهة ، هي زرع الأمل ، وتأكيد حتميه النصر ، شحذا للعزائم وتصاعدا بالامكانيات الأولية حتى تصل إلى اعصار وطني يوقف العاصفة الاستعمارية ، ثم يقتلع ركائزها من الجذور ! . . .

ولذلك وجدنا الأفغاني يؤذّن في الأرجاء : « لقد أوشك فجر الشرق أن ينبثق ، فقد أدلهمت فيه ظلمات الخطوب ، وليس بعد هذا الضيق إلا الفرج ! . . ان هذا الشرق ، وهذا الشرقي لا يلبث طويلا حتى يهب من رقاده ، ويمزق ما تقنع وتسربل به هو وأبناؤه من لباس الخوف والذل ، فيأخذ في إعداد عدة الأمة الطالبة لاستقلالها المستنكرة لاستعبادها ! »(١) . .

ولقد كان للاستعمار الانجليزي نصيب الأسد في تلك الهجمة التي قامت بها أوربا ضد العرب والمسلمين ، فهم ـ احتلال أو نفوذ ـ في الهند وايران والأفغان والعراق وعدن ومصر والسودان ، ومن خلال السلطان على السلطنة العثمانية يتداخلون في أغلب أرجاء عالم العروبة والاسلام . . ولهذا كان تركيز الأفغاني ضدهم ، وعداؤه الشديد لهم ، بل ومحاولته الاستفادة من التناقضات القائمة في السياسة الدولية لعرقلة مساعيهم في السيطرة على بلاد الاسلام . . فهو يقطع بأنه « لا توجد نفس تشعر بوجود الحكومة الانجليزية على سطح

---

(١)(الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني) ص ٢٣ ، ٢٤٣ .

الأرض إلا وقد مسها منهم شيء من الضر ! . . » ثم يتساءل عن شخصية الاستعماري الانجليزي ؟ ! فإذا باجابته ترسم له صورة تشبه « الكاركاتير » اللاذع والعنيف . . . . يتساءل : « من هو الانكليزي ؟ ! » ثم يجيب : « انه ضعيف يسطو على حقوق الأقوياء ! . . صوت عال ، وشبح بال ! . . » ولقد صار الانجليز للأمم كالدودة الوحيدة ، على ضعفها ، تفسد الصحة وتدمر البنية ؟ ! . . وعندما يصدر مجلة (العروة الوثقى) نجد التصدي لهزيمة الاستعمار الانجليزي في طليعة الأهداف التي تحددت في مناهجها ، فهي تستهدف « انهاض الدول الاسلامية من ضعفها ، وتنبيهها للقيام على شؤونها ، **ويدخل في هذا تنكيس دولة بريطانيا في الاقطار الشرقية ، وتقليص ظلها عن رؤوس الطوائف الإسلامية ! . . »**[1]

ولقد وضع الأفغاني ، انطلاقا من عقيدة الجهاد الاسلامية ، مهمة التصدي للاستعمار الانجليزي في اطار الواجبات والفروض الدينية ، فضلا عن الفرائض الوطنية . . ونبه الناس على أن تخاذل السلطة والسلطان العثماني عن قيادتهم في هذا السبيل لن يغير من وجوب ذلك وفرضيته ، لأن الشريعة قائمة دائمة لا تحتاج في القيام إلى أمر من السلطان . . فتحرير الوطن واجب ، وهو على المسلم فرض دين وفرض وطنية ، وعلى غير المسلم فرض وطنية ومن ثم فهو فرض على الجميع « فكلنا نعلم أن جميع المسلمين وعموم الوطنيين يرون من فروض ذمتهم : السعي في معاكسة سير الانكليز ، واقامة الموانع في طريقهم بقدر الطاقة والامكان ، قياما بما يوجبه الدين والوطن . ولا يحتاجون في الانبعاث لهذا العمل الشريف إلى أمر سلطاني ، فان الشريعة الإلهية والنواميس الطبيعية في كل ملة وكل قطر من أقطار الأرض تطالب كل شخص بصيانة وطنه والذود عن حوزته ، وتبيح الموت دونه ، بل توجبه في مدافعة الباغين عليه ! . . . »[2]

ثم يلتفت الأفغاني إلى قومه ، فيتساءل تساؤل المنكر والمستنكر استنامتهم عن

---

(١) المصدر السابق . ص ٢٤ ، ٣٦٩ ، ٢٦ .
(٢) المصدر السابق . ص ٥٠١ .

مجاهدة الاستعمار ، وهم من هم ، وتراثهم شاهد على مجدهم التليد ، وهذه هي خطط الاستعمار وأطماعه تستفزهم للانتفاض : « أنرضى ونحن المؤمنون ، وقد كانت لنا الكلمة العليا ، ان تضرب علينا الذلة والمسكنة ؟ ! وأن يستبد في ديارنا وأموالنا من لا يذهب مذهبنا ، ولا يرد مشربنا ، ولا يحترم شريعتنا ، ولا يرقب فينا إلاًّ ولا ذمة ؟ ! بل كل همه أن يسوق علينا جيوش الفناء حتى يخلي منا أوطاننا ، ويستخلف فيها ، بعدنا ، أبناء جلدته والجالية من أمته ؟ !(1) . .

ومنذ البداية يحدد الأفغاني أن التصدي للاستعمار ، المسلح بالقوة ، انما يكون بالثورة، فالحرية والاستقلال أعز من أن تحصل عليها الأمم بغير سبيل الثورة على الاستعمار « وإذا صح أن من الأشياء ما ليس يوهب ، فأهم هذه الاشياء : الحرية والاستقلال . . فهاتان النعمتان إنما حصلت وتحصل عليهما الأمم أخذا بقوة واقتدار ، يجبل - (يخلط) - التراب منها بدماء أبناء الأمة الأمناء ، أولي النفوس الأبية والهمم العالية »(2) . . وهو يكتب في (العروة الوثقى) ، داعيا المصريين إلى الثورة على الاحتلال الانجليزي ، وموجها حديثه إلى الفلاحين المصريين على وجه الخصوص ، وطالبا منهم الامتناع عن الاعتراف بالحكومة الاستعمارية ، وحجب الأموال والضرائب عن جهازها . . ثم يفند مزاعم المستسلمين الذين يصفون هذه الأعمال الثورية بوصف « الفتنة » ! فيقول : « ان على المصريين ان يقتدوا بالأفغانيين - (في حربهم للانجليز) - لينقذوا بلادهم من أيدي اعدائهم الأجانب . . وليس من الفتنة ان ندعوهم إلى طلب الحقوق والدفاع عن الدين والوطن ، كما يظن بعض المتطفلين على موائد السياسة !. . وإنما نادي على صاحب البيت ان يدافع عن حريمه وماله وشرفه ، **وأن يخرج مخالب عدوه من أحشائه !** ، وهي سنّة جرى عليها دعاة الحق في كل أمة . . **فعلى المصريين عموما ، وعلى الفلاحين خصوصا أن يجمعوا أمرهم على أن يمنعوا الحكومة (الانكليزية) كل ما تطلب منهم ، وأن يرفعوا أصواتهم**

(1) المصدر السابق . ص ٣٥٦ .

(2) المصدر السابق . ص ٤٧٨ .

بنداء واحد قائلين : لا نطيع إلا حاكما وطنيا . . فان فعلوا هذا وجدوا لهم من الدول أنصاراً ، بل ومن الجنس الانجليزي نفسه ! »[1] . .

وأهداف هذه الثورة الوطنية ، التي نادى بها الأفغاني لم تكن تقف عند تحقيق مظاهر الاستقلال وأشكاله ، ذلك أن الرجل كان يدرك جيدا المضمون الاقتصادي والهدف المادي من وراء إعلام الاستعمار وجيوشه ، بل لقد أعلن صراحه « **ان مصدر الشقاء ومنبع البلاء في الشرق وممالكه إنما كان من الامتيازات الأجنبية !** » . .[2] . . وفي هذا الاطار تأتي معركته الكبرى والعنيفة والشهيرة ضد الشاه الايراني ناصر الدين ، عندما فرط في اقتصاديات الأمة للشركات الإنجليزية تنهب ثرواتها بالامتيازات . . ونحن عندما نقرأ الرسالة الشهيرة التي وجهها الأفغاني إلى المجتهد الشيرازي (١٨١٤ - ١٨٩٥م) رأس علماء الشيعة ، سنة ١٨٩١م يحرضه فيها ضد الشاه ، نضع يدنا على وعي الأفغاني الكامل بهذا البعد الأساسي من أبعاد العملية الاستعمارية . . يقول فيها « ان الشاه قد باع الأعظم من البلاد الايرانية ومنافعها : المعادن ، والسبل الموصلة إليها ، والطرق الجامعة بينها وبين تخوم البلاد ، والخانات التي تبنى على جوانب تلك المسالك الشاسعة التي تتشعب فروعها إلى جميع أرجاء المملكة ، وما يحيط بها من البساتين والحقول ، نهر كارون والفنادق التي تنشأ على ضفتيه إلى المنبع ، وما يستتبعها من الجنائن والمروج ، والجادة من الأهواز إلى طهران ، وما على أطرافها من العمران والفنادق والبساتين والحقول ، والتنباك وما يتبعه من المراكز ومحلات الحرث وبيوت المستحفظين والحاملين والبائعين أنّى وجدت وحيث نبتت! . وحكر العنب للخمور ، وما يستلزمه من الحوانيت والمعامل والمصانع في جميع أقطار البلاد ! . . والصابون والشمع والسكر ، ولوازمها من المعامل ! والبنك ! وما أدراك بالبنك ؟ ! وهو اعطاء الأهالي كلية بيد عدو الاسلام ، واسترقاقه لهم ، واستملاكه اياهم ، وتسليمهم له بالرياسة

---

(١) (العروة الوثقى) ص ٤٥٣ ، ٤٥٤ ، طبعة القاهرة سنة ١٩٢٧م

(٢) (الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني) ص ٢٠٠ .

والسلطان !(1) . . . . ثم ان الخائن البليد أراد أن يرضي العامة بواهي برهانه فقال : ان هذه معاهدات زمانية ومقاولات وقتية ، لا تطول مدتها أزيد من مائة سنة ! . . يا لله من هذا البرهان الذي سوله خرق الخائنين ؟ ! . . ان هذا المجرم قد عرض اقطاع البلاد على الدول ببيع المزاد! . . انه يبيع ممالك الاسلام ، ودور محمد وآله ، عليهم السلام ، للأجانب . . وهو لا يبيعها إلا بقيمة زهيدة ودراهم بخسة معدودة ؟ ! . . »(2)

على هذا النحو أبصر الأفغاني المضمون الاقتصادي للاستعمار ، ومعنى الامتيازات الأجنبية التي تحصل عليها شركاته في البلاد الخاضعة لنفوذه ، وكيف أنها اقطاع تلك البلاد لهذه الشركات ، ومكان المصارف والبنوك وسيطرتها المالية الحاكمة في عملية النهب الاستعماري . . ولقد استطاع برسالته هذه ان يحرك غضب المجتهد الشيرازي ضد موقف الشاه ناصر الدين ، فصدرت فتواه الشهيرة التي جعلت الشعب يقاطع الشركات الاستعمارية ، حتى أفلست واضطرت إلى الرحيل عن البلاد ! . .

لقد كان الأفغاني عنيفا في تصديه للهجمة الاستعمارية ، لأن هذه الهجمة كانت عنيفة وكاسحة . . ولقد كان الموقف من الاستعمار معيارا يحدد به علاقاته بالأفراد والجماعات والحكومات . . فهو يؤ يد الدولة أو الحكومة أو الجماعة إذا كان في التأييد ما يدعم موقف العرب والمسلمين في تصديهم للاستعمار ، أما التهاون في هذه المهمة المقدسة ، بالتفريط في حق الوطن أو فتح الثغرات للعدو كي ينفذ إليه ، أو التهاون مع العدو ، فانها جميعا خيانة وطنية في نظر جمال الدين . . . . « فلسنا نعني بالخائن من يبيع بلاده بالنقد ، ويسلمها للعدو بثمن بخس أو بغير بخس (وكل ثمن تباع به البلاد فهو بخس!). **بل خائن الوطن : من يكون سببا في خطوة يخطوها العدو في أرض الوطن ، بل من يدع قدما لعدو تستقر على تراب الوطن وهو قادر على زلزلتها !** » . . (3)

---

(1) الاشارة إلى حظر السيطرة الاقتصادية للبنك الذي أنشأته انجلترا بايران « البنك الشاهنشاهي ».
(2) مجلة (المورد) العراقية ص ٣١٧ ، ٣١٨ العدد الأول ، المجلد السابع سنة ١٩٧٨م .
(3) (الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني) ص ٥٠٢ .

وإذا كنا نقف ، عادة ، ونحن نرصد أعلام الفكر في هذا التيار التجديدي عند عدد محدود ، اتخذنا من الأفغاني ومحمد عبده ، والكواكبي ، وابن باديس النموذج لجماعتهم . . فان عداء التيار للاستعمار ، وتصديه لتحدياته ، قد ضم جميع حركات التحرر الوطني والثورات الوطنية التي شبت بالوطن العربي ، وبلاد الاسلام منذ الثورة العرابية سنة ١٨٨١م ، وحتى خمسينات القرن العشرين ، ففي تلك الحقبة ، وبكل بلاد المنطقة كانت كتابات الأفغاني وكلماته ، وكانت الأعداد الثمانية عشر التي أصدرها من (العروة الوثقى) من ابرز المكونات الفكرية والسياسية التي ألهمت القيادات الوطنية العداء والتصدي للاستعمار .

وعلى هذا الدرب كان نضال الكواكبي ضد الاستعمار العثماني في المشرق العربي . منذ أن شب في حلب ، وحتى استشهاده في القاهرة .

وعلى هذا الدرب أيضاً كان نضال ابن باديس ضد الاستعمار الفرنسي في الجزائر ، عندما صنع الجيل الذي وضع الجزائر على درب العروبة ، فمهد الطريق للجيل الذي انتزعها ، بالثورة ، من براثن الاستعمار .

بقي أن نقول : أن عداء هذا التيار التجديدي للاستعمار لم تشبه شائبة أي تعصب ديني ضد مسيحية الغرب ، التي يتدين بها المستعمرون . . . فالافغاني الذي يذهب في العداء للاستعمار إلى الحد الذي رأينا ، هو الذي يتحدث عن أن دين الله ، في اليهودية والمسيحية والاسلام ، واحد ، وأن الاختلاف والشقاق إنما جاء من تجار الأديان ![1] . . والامام محمد عبده هو الذي تفيض كتاباته بالحديث عن وجوب التعاون بين المسلمين وبين مخالفيهم في الدين فيما لا يضر المسلمين[2] . . والامام ابن باديس يحدد أن النهضة التي تقودها (جمعية العلماء) انما تعادي : المستعمرين والدجالين - (الطرق الصوفية) ، والخائنين لوطنهم ، من الذين يندمجون في أمة الاستعمار ويتخلون

---

(١) المصدر السابق . ص ٢٩٠ - ٢٩٦ .

(٢) (الأعمال الكاملة للامام محمد عبده) ج ١ ص . ٧١٠ - ٧١٥ .

عن قوميتهم . . وهي فيما عدا هؤلاء الأعداء الثلاثة : برد وسلام على الجميع ، نصارى كانوا أم يهوداً أم مجوسا ! . . ان هذه النهضة « سلام على البشرية ، لا يخشاها النصراني لنصرانيته ، ولا اليهودي ليهوديته ، ولا المجوسي لمجوسيته ، ولكن يجب ، والله ، أن يخشاها الظالم لظلمه ، والدجال لدجله ، والخائن لخيانته ! »[1].

هكذا واجه هذا التيار التجديدي تحدي الاستعمار الأوربي الذي زحف على أقطار العروبة وبلاد الاسلام . .

وحضارة : جديدة . . ومتميزة :

ومع هذه الهجمة الاستعمارية الحديثة ، وضح مرة أخرى ذلك الهدف الاستعماري الأوربي القديم . . ذلك الهدف الذي تجلّى في كل موجات الغزو التي تعرض لها الشرق العربي خلال هذا الصراع التاريخي الطويل . . فالغرب يريد أن يحرز النصر على الجبهة الحضارية ، باحتواء العرب حضاريا ، حتى يختم دورات هذا الصراع بانتصار حاسم ونهائي ، ومن ثم فهو ، وقد عاد مسلحا هذه المرة بالثورة الصناعية وثمارها العديدة من أدوات القوة المتنوعة ، وبالحضارة الأوربية المتألقة والمتفردة على خريطة الكوكب الذي يسكنه الانسان ، يريد أن لا تظل حضارته هذه حضارة جاليته الأوربية ومستوطنيه فقط في مستعمراته العربية ، وذلك كي لا تتكرر قصته القديمة يوم زالت حضارته ، بزوال الدولة الاستعمارية القديمة ، اغريقية وبطلمية وبيزنطية ، وسواء أكانت السبل هي القهر بالمسخ القومي والسحق للهوية الحضارية ، كما حاول الفرنسيون بالجزائر ، أو بالإغراء كما صنعوا هم من خلال مدارس التبشير بغيرها ، وكما صنع الانجليز في مستعمراتهم ، فإن الهدف واحد ومحدد ، وهو أن ينسلخ العرب عن هويتهم الحضارية المتميزة ، فيصبحون غربا ، وتتم عملية الاحتواء التي تكرس النصر للغرب في هذا الصراع الحضاري الطويل . . وفي حديث الكاتب والسياسي الاستعماري الفرنسي جابرييل هانوتو عن هذا الصراع الحضاري بين

---

(١) (مسلمون ثوار) ص ٢٧٢ ، ٢٧٣ .

الحضارة الأوربية ، التي يسميها « المدنية الآرية المسيحية » ، وبين الحضارة العربية الاسلامية التي تشد العرب ، كما يقول إلى « الماضي الآسيوي » ، يتجلى فرح المستعمرين بما لاح لهم من نجاح هذا المخطط في بعض أقطار الشمال الافريقي - تونس - وهو النجاح الذي تحدث عنه هانوتو بقوله : « يوجد الآن بلد وأرض تنفلت شيئاً فشيئاً من مكة ومن الماضي الآسيوي؟! »[1] .

وحتى لا يحقق الاستعمار هذا الهدف الأكبر ، القديم والجديد ، كانت دعوة التيار التجديدي السلفي العقلاني المستنير إلى تجديد الحضارة العربية الاسلامية ، تجديدها وليس التخلي عنها ، ولا استبدال الحضارة الأوربية بها . . ففي الوقت الذي تصدى فيه هذا التيار للتحديات التي مثلت قيود العصور الوسطى على حركة الأمة ويقظتها ونهضتها . . وتصدى للغزوة الاستعمارية الأوربية ، كاحتلال ونهب استعماري ، تصدى كذلك لدعاة احلال حضارة الغرب محل حضارتنا العربية الاسلامية ، التي لم تكن صورتها يومئذ تغري بالاستلهام أو تبعث على الاحترام ! . .

ولقد انطلق هذا التيار في دعوته لتجديد حضارتنا المتميزة من عدة منطلقات يجمعها ويربطها خيط واحد . .

١ - فنحن أمة عريقة ، ولحضارتنا مزاج متميز وطابع خاص - كما اشرنا إلى ذلك في فصل سابق من فصول هذا الكتاب - وتميز هذه الحضارة بالموقف المتوازن ، الذي يوازن بين المتناقضات ، وتمثيلها « للضمير » في مواجهة حضارات تميل عادة إلى طرف واحد من طرفي الظاهرة . . يعطي حضارتنا ميزة ، ويعصمها من مخاطر وأخطار يشكو منها الآخرون . .

٢ - إن للمزاج الحضاري المتميز علاقة عضوية بتكوين الأمة ، ومقومات هذا التكوين ، وإذا كانت الأمة ، كما هو حال أمتنا ، ذات عراقة حضارية وتراث غني ودور بارز في تاريخ الانسانية وصراعاتها الحضارية ، فليس من السهل تجريدها من ثوبها الحضاري ، والقذف بها تحت عباءة الآخرين ! . . بل

(١) الاسلام والرد على منتقديه ، ص ٢٧ .

قد يستحيل ذلك حتى لو أراد نفر من بنيها ، مخلصين كانوا أم مخادعين ! . . وبعبارات ابن باديس عن « الغيرية الحضارية » للجزائر عن فرنسا : « ان هذه الأمة الجزائرية ليست هي فرنسا ، ولا يمكن أن تكون فرنسا ، ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت ! . . » .

٣ ـ إن الدعوة إلى « حضارة عربية اسلامية متميزة » لا يعني تقديس الماضي ، ولا العودة إليه كي نعيش في نظمه وقوالبه ، بل ولا الأخذ بجميع أصوله . . وإنما الذي تعنيه هذه الدعوة هي الأخذ « ببعض الأصول الثابتة » ، التي تمثل القسمات المميزة للشخصية الحضارية العربية الاسلامية . . وهذه الأصول التي تحمل صلاحيات معاصرة ، وتمثل قوة دفع وطاقة تحريك للأمة نحو التقدم ، إنما تمثل ، بما لها من قداسة في نفوس الأمة ، مناخا ملائما يسرِّع بحركة الأمة كي تنخرط في عملية التجديد واليقظة والتطور ، على عكس حالها إذا ما دعيت إلى نمط جديد وغريب ليس لأصوله في ضميرها قداسة أو احترام . . ففارق بين أن تقتنع صفوة مستنيرة بنمط حضاري معين ، فتنخرط في العمل لسيادته وتسويده ، وبين أن تدخل الأمة عصر تجديدها وتجددها مسوقة بقيم وأفكار ومواريث لها في نفوسها وضمائرها هالات المقدسات . . فنطاق التجديد ، في الحالة الأولى ، محدود ، ومن السهل على الاعداء أن يقتلعوه ، أما في الحالة الثانية ، فإن السعي فيه سيكون سريعا وحثيثا ، ونطاق تأثيره وانتشاره سيكون عاما وشاملا ، واقتلاع الأعداء لآثاره سيكون مستحيلا . .

اذن ، فالمطلوب هو البدء من بعض أصول الماضي ، الصالحة ، ـ أي « الثوابت » ـ والتي استلهمها الأوربيون عندما استعانوا بتراثنا في نهضتهم ، مع وعينا بأنها هي المدخل والسبيل الذي يعين على التجديد والتحديث والتطوير . . وبعبارة الأفغاني في المنهاج الذي تحدد (للعروة الوثقى) « **فإن الظهور في مظهر القوة ، لدفع الكوارث ، إنما يلزم له التمسك ببعض الأصول التي كان عليها آباء الشرقيين وأسلافهم ، وهي ما تمسكت به أعز دولة أوربية . .** »[1] .

---

(١) (الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني) ص ٥٣٣ .

وهـذه الأصول ، كـما يقـول محمـد عبـده ، هي التي ستجعـل الأرض ، انسانياً وشعبيا ، ممهدة للاصلاح . . فالناس سيصغون للمؤذن ، ويلبون نـداءه لأنه يؤذن فيهم من داخل سور مدينتهم ، كما يقال ، وليس من خـارج السور ! . . ولدعوته هذه إلى التجديد والاصلاح في قلوبهم وعقولهم قواعد ومقدمات لها عندهم احترام شديد . . وبعبارته : « فهذه سبيل لمريد الاصلاح في المسلمين لا مندوحة عنها ، **فإن اتيانهم من طرق الأدب والحكمة العاريـة عن صبغة الـدين يحوجه إلى انشاء بناء جديد ، ليس عنـده من مواده شيء ، ولا يسهـل عليه أن يجد من عماله أحدا . وإذا كان الدين كافلا بتهذيب الأخلاق وصـلاح الأعمال وحمل النفوس عـلى طلب السعادة من أبـوابها ، ولأهله من الثقـة فيه مـا بيّناه ، وهو حاضر لديهم ، والعناء في إرجاعهم إليـه أخف من إحداث مـا لا إلمام لهم به ، فلم العدول عنه إلى غيره ؟! . . »**[1] .

والتمسك ببعض الاصول الحضارية ، وسلوك سبيـل الاسلام والاستعـانة بـه في تحريـك الأمـة الى التجـديـد الحضـاري ، لا يعني ، في رأي أعـلام هـذا التيار ، الرجوع للعيش في الماضي ، فلقد عابوا على السلفية التقليدية المحافـظة ذلـك ، كما سبق وأوردنـا نقد محمـد عبده لمـوقفهـا من العلم والعقـل والمـدنيـة الحـديثة . . وهـو لا يعني الاكتفاء بـالدين والتـراث الديني والعلوم الشـرعية في النهضة والاصلاح ، ذلك أن الاصلاح الديني شيء ، والاصلاح المدني والتجدد الحضاري شيء آخر ـ وإن لم يكن بينهما انفصال ـ والاستعانة بـالدين في تحـريك الأمـة إلى التجدد الحضـاري ، مستعينة ببعض الأصـول الثابتـة في حضارتهـا لا يعني أن التجـدد الحضاري هـو ذات الاصلاح الـديني . . وبعبارة الامـام محمد عبده : « لو رزق الله المسلمين حاكما يعرف دينه ويأخـذهم بأحكـامه ، **لـرأيتهم قد نهضوا ، والقرآن الكريم في احدى اليدين ، ومـا قرر الأولـون وما اكتشف الآخرون في اليد الأخرى ، ذلك لآخرتهم ، وهذا لدنياهم ، ولساروا يزاحمون الأوربييـن فيـزحمـونهم !**[2] . . فلكـل مكـان ، والعـلاقـات لا تعني طمس

---

(١) (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) ج ٣ ص ٢٣١ .

(٢) المصدر السابق ج ٣ ص ٢٥١ ، ٢٥٣ .

الفروق ، أو تحويل الوجهة من الأمام إلى الخلف ، أو جعل الوسائل غايات . .

٤ ـ وكما خالف هذا التيار السلفية غير العقلانية وغير المستنيرة ، تلك التي وقفت عند ظواهر النصوص ، سواء أكانت نصوص العصر الأول ، أو العصور « المملوكية ـ العثمانية » . .

اختلف كذلك وخالف التيار الذي انبهر بحضارة الغرب ، فدعا إلى أن نبدأ من حيث انتهى الغرب ، وأن نسلك نفس الوسائل والوسائط التي سلكها إلى ذات الأهداف والغايات التي استهدفها . . والأفغاني يوجه الانتقاد إلى هذا التيار ، فيقول في منهاج (العروة الوثقى) : « . . انه لا ضرورة ، في ايجاد المنعة ، إلى اجتماع الوسائط وسلوك المسالك التي جمعها وسلكها بعض الدول الغربية الأخرى ، **ولا ملجىء للشرقي في بدايته أن يقف موقف الأوربي في نهايته** ، بل ليس له أن يطلب ذلك ، وفيما مضى أصدق شاهد على أن من طلبه فقد أوقر نفسه وأمته وقرأ اعجزها وأعوزها ! » . . (١).

والأفغاني يرى في هذا التيار الغربي ، أو « المستغرب » ، الذي فقد ابناؤه الثقة بالذات والأصالة والأمل في بناء حضاري متميز ، والذين استحكمت منهم « عقدة الأوربي » ، يرى فيهم خطرا يفتح للاستعمار في حياتنا ثغرات ، فيقول : « إن أشد وطأة على الشرق ، وأدعى إلى تهجم أولي المطامع من الغربيين ، وتذليل الصعاب لهم ، وتثبيت أقدامهم ، هم أولئك الناشئة ، الذين بمجرد تعلمهم لغة القوم والتأدب بأسفل آدابهم ، يعتقدون أن كل الكمالات إنما هو فيما تعلمونه من اللسان ، على بسائطه ، وفيما رأوه من بهرج مظاهر الحالات ، وقراءة سير وسير من قطع مراحل من الغربيين في سبيل الأخذ في ترقية أمته ، بدون أن يسبروا من ذلك غورا ، أو يفهموا لتدرجهم معنى ويعتقد الناشىء الشرقي أن كل الرذائل ودواعي الحطة ومقاومات التقدم إنما هي في قومه ، فيجري مع تيار غريب من امتهان كل عادة شرقية ، ومن كل مشروع

(١) (الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني) ص ٥٣٣ .

وطني تتصدى له فئة من قومه أو أهل بلده ، ويأنف من أي عمل ما لم يشارك فيه الأجنبي ! »[1] .

فالاعتراض هنا ليس على « سبرغور » أسرار التقدم الغربي ، للاستفادة والتمثل الطبيعي ، فمن قبل صنع العرب ذلك ، يوم أخذوا ، من موقع الواثق والقادر ، عن الفرس والهنود واليونان كي يصنعوا الذاتي والجديد والمتميز . . . وإنما الاعتراض على « تقليد المنبهر » ، الذي أفقده « الانبهار » الثقة بالذات والقوم والتراث والتاريخ ! . .

وينبه الأفغاني إلى أن مثل هذا النهج ، وهو نهج الضعفاء ، سيجعل هؤلاء الضعفاء يتخذون من « نهايات الغرب » « بدايات لنهضتهم » وفي ذلك خطر عظيم . . فمسيرة الغرب من نقطة بدئه في الحضارة والصناعة حتى الموقع الذي بلغه الآن قد أكسبته مراناً وقوة وجعلته عملاقا في الدروب والمجالات التي تطور فيها ، فإذا تعلقنا ، ونحن الضعاف ، بنهاياته وثمراته ، كنا أقصر منه قامة ، وأضعف منه بنية ، وأعجز منه في المباراة ، ومن هنا يأتي خطر الضم والالحاق ، إن لم يكن في الشكل والاحتلال العسكري ، ففي الاقتصاد والأسواق ! . . وعلى سبيل المثال ، فإن التعلق « بسلع » الغرب الصناعي وأدواته ، ستجعلنا نغيّر « شكل » حياتنا بمصنوعات ليست من انتاجنا ، الأمر الذي سيدمر حرفنا بدلا من تطويرها ، كما صنع الغرب مع حرفه في البدايات ، كما أن بلادنا ستقف عند انتاج المواد الخام ، التي تصدرها رخيصة للغرب الصناعي ، ثم تستوردها مصنوعات غالية الثمن بعد وقت قصير . . كل ذلك لأننا نبدأ ، بداية « الضعيف المقلد » ، من حيث انتهى الغرب القوي ، ولا نسلك السبيل الطبيعي للتطور ، سبيل من يحذق ويتقن علوم الحضارة قبل حذقه للأسماء والاستخدامات الخاصة بالسلع والأدوات التي أثمرتها هذه الحضارة في بيئة أخرى ومناخ غريب ! .

وعلى هذه القضية الهامة يضرب الأفغاني المثل بما صنعه العثمانيون من

(١) المصدر السابق . ص ١٩٠

تنظيمات واصلاحات أخذوها عن الغـرب ، وبما صنعتـه مصر محمـد علي عنـدما نقلت أشكالا وأدوات ووسائل ، فبدأت من حيث انتهى الأوربيـون . . والمثل الـذي يـضربـه خاص بـالتعليم . . يقول : « لقـد شيد العثمـانيـون عـددا من المـدارس على النمط الجـديد ، وبعثـوا بطوائف من شبـانهم إلى البـلاد الغـربيـة ليحملوا إليهم مـا يحتاجـون من العلوم والمعارف والآداب ، **وكـل مـا يسمـونـه « تمدنا » . وهو في الحقيقة تمـدن للبلاد التي نشأ فيها عـلى نظام الـطبيعة وسـير الاجتماع الانساني !** . . فهل انتفع المصريون والعثمانيون بما قدموا لأنفسهم من ذلـك ، وقد مضت عليهم أزمـان غير قصيـرة ؟ ! . . . نعم ، ربمـا وجـد بينهم أفراد يتشدقون بألفاظ الحرية والوطنية والجنسية - (القـومية) - ومـا شاكلهـا . . وسموا أنفسهم زعماء الحرية . . **ومنهم آخرون قلبوا أوضاع المباني والمسـاكن ، وبدلوا هيئات المآكل والملابس والفرش والآنية ، وسائر المـاعون ، وتنـافسوا في تطبيقها على أجود ما يكون منها في الممالك الأجنبية ، وعدوها من مفاخرهم . . فنفوا بذلك ثروتهم إلى غير بلادهم ! . . وأماتوا أرباب الصنائع من قومهم . . وهـذا جـدع لأنف الأمـة ، يشـوِّه وجههـا ، ويحط بشـأنها ! . . لقـد علمتنـا التجارب أن المقلدين من كل أمة ، المنتحلين اطوار غيرها ، يكونون فيها منافذ لتطرق الأعداء إليها . . وطلائع لجيوش الغـالبين وأربـاب الغارات ، يمهـدون لهم السبيل ، ويفتحون الأبواب ، ثم يثبتون أقدامهم !** . . »[1] .

فالتمدن : نبت طبيعي ، ونمو طبيعي ، وليس نقلا وتقليـدا يحسب المقلد الضعيف أنه باقتناء ثمراته قد بلغ منه الغاية والمراد . .وهو إن سلك هذا السبيل دمر امكانياته الضعيفة ، وربط واقعه بعجلة الأقوياء ، ربط تبعية واستغلال . . وبذلك يصبح التقليد والمقلدون ثغرات لنفوذ الأعداء « وطلائع لجيوش الغـالبين وأرباب الغارات ! » . .

فـلا سلفية الحـالمين بـالعـودة إلى العصـور الخـالية ، وصب المجتمـع في قوالبها ، سواء منها قوالب العصر الأول أو عصور الانحطاط . . ولا قسـر الأمة

---

(١) المصدر السابق ص ١٩٥ - ١٩٧ .

العربية ، ذات الحضارة المتميزة ، على ارتداء عباءة الحضارة الأوربية ، وبعبارة الامام محمد عبده : « لقد خالفت بدعوتي رأي الفئتين اللتين يتركب منهما جسم الأمة : طلاب علوم الدين ومن على شاكلتهم ، وطلاب فنون العصر ومن هو في ناحيتهم ! »[1] لأن في تقليد الغرب ، فضلا عن شوائبه وعيوبه ، فيه ما هو أخطر وأعظم . . . فيه تحقيق الحلم القديم لأعداء الشرق ، قدامى ومحدثين ، وعلى امتداد القرون والحلقات والموجات في هذا الصراع الحضاري القديم . . حلمهم في حسم هذا الصراع لصالحهم ، باحتواء الشرق العربي حضاريا . . وأيضا ففي العودة إلى القديم ، والجمود عند صياغاته الفكرية ما فتح ويفتح للغرب الاستعماري تلك الثغرة التي استعمر منها البلاد ، وحاول ويحاول احتواءها حضاريا ! . .

وما دام القانون الذي حكم صراعات هذه الأمة ضد أعدائها قائما وفاعلا ، فلا سبيل إلى استكانتها ، ولا أمل في اندامجها وتبعيتها لهؤلاء الأعداء . . وتلك هي مهمة التجديد ، الذي يبعث في الأمة روح المقاومة للخطر ، ويصقل لها أمضى أسلحتها ، ويستنهض فيها القسمات الأصلية والثابتة والصالحة للعطاء . . وذلك كي تنهض فتصارع خصومها ، وتقهر ما يفرضون عليها من تحديات . .

وهذا ما صنعه ، أو على الأقل وضع أسسه التيار السلفي العقلاني المستنير ، الذي كان أبرز تيارات التجديد في حركة اليقظة العربية في العصر الحديث .

---

(١) (الأعمال الكاملة للامام محمد عبده) ج ٢ ص ٣١٨ .

والخلاصة في كلمات

والآن . . وبعد هذه الرحلة التي صحبنا فيها امتنا العربية على درب تطورها الحضاري ، وفي مسيرتها عبر التاريخ . . وبعد أن رأينا :

* كيف اندفعت بالفتوحات الكبرى ، ذات الطابع التحرري والتحريري ، لتجابه وتقهر التحدي الذي ضيَّق عليها الخناق ، حتى لقد كاد أن يحتويها ويزهق منها الأنفاس . . فحررت أرضها ، وفتحت في ثمانين عاما أكثر مما فتح الرومان في ثمانية قرون ! . . وتولت زمام قيادة الشرق عندما عجز عن ذلك الفرس الساسانيون .

* وكيف صاغت ، مبكراً ، سمات شخصيتها القومية ، وقدمت ، منذ قرون ، تلك الصياغات الفكرية لقومية عربية ، على أسس حضارية غير عرقية . . فجابهت بها تيارات التعصب الشعوبية والعصبية العربية الجاهلية . .

* وكيف صاغت فلسفتها ، التي جاءت ثمرة لابداع تيارها العقلاني . . ، وجابهت بها خصومها الفكريين الذين نازلوها وتحدوا عقيدتها بمنطق أرسطو وفلسفة اليونان . .

* وكيف أفرزت مؤسسات الفروسية العربية الاسلامية . . فجابهت بها وهزمت أعجب وأعنف وأطول موجات الغزو التي شهدتها العصور الوسطى . . تلك التي عرفت بحرب الصليب . .

* وأخيراً . . كيف انتفضت مستيقظة في عصرها الحديث ، متسلحة بالتجديد ، والعقلانية ، والاستنارة ، والأصالة . . كي تدفع الخطر « القديم - الجديد » . . خطر الجمود الذي يفتح للعدو الثغرات . . وخطر الذوبان في الحضارة الغربية ، الذي يريد أن ينهي ذلك الصراع الحضاري التاريخي لصالح أعداء هذه الأمة التقليديين .

بعد أن صحبنا أمتنا على هذا الدرب الذي واجهت من فوقه تلك التحديات . . لا نعتقد أن خلاصة لتلك الرحلة تستدعي اكثر من كلمات ، هي ذات القانون الذي حكم صراع هذه الأمة ضد أعدائها ، عبر التاريخ الطويل لهذا الصراع . .

إنه صراع قديم . . وطويل . . وعنيف . . ولا يمكن لعين الباحث أن تخطىء طابعه الحضاري . . وفي كل المنعطفات الخطرة التي تصاعدت فيها التحديات أمام هذه الأمة ، كانت ، دائما وابدا ، تستجمع امكانياتها ، وتحشد قواها ، وتجدد ذاتها ، وسرعان ما تتقدم لمجابهة التحدي بخير وبأقوى ما في ترسانة أسلحتها وقدراتها ، وبما تكتشفه وتحذقه من أسرار تفوق الأعداء .

فأمام الصراع الطويل والقاسي ، وتجاه التحدي . . كان التجديد مع الأصالة . . هو طوق النجاة لهذه الأمة التي صارعت من الأعداء وصرعت من الخصوم أكثر مما حدث لأمة أخرى طوال تاريخ الانسانية الطويل . . وهذا هو سر بقائها ، دون الكثير من أعدائها ! . . وسر استعصائها على الذوبان في الأعداء ، الذين ذاب الأكثرون منهم فيها ! . . وسر احتفاظها حتى اليوم ، بامكانيات العودة مرة أخرى إلى الساحة الانسانية : أمة كبرى ، ذات حضارة متميزة ، وامكانيات حقيقية وغنية للاسهام الحضاري خارج الحدود ! . .

تلك هي الخلاصة . . خلاصة قصة : العرب . . والتحدي ! . .

المصادر

القرآن الكريم .

كتب السنة التسعة :

(البخاري ، ومسلم ، والترمذي ، والنسائي ، وأبو داود ، والدارمي ، وابن ماجة ، وابن حنبل ، والموطأ)

آدم متز :

(الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري) ترجمة : د . محمد عبد الهادي أبو ريدة . طبعة بيروت سنة ١٩٦٧ م .

ابن أبي الحديد :

(شرح نهج البلاغة) طبعة القاهرة سنة ١٩٥٩ م .

ابن الأثير :

(الكامل في التاريخ) .

(التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية) طبعة القاهرة سنة ١٩٦٣ م .

ابن اياس :

(بدائع الزهور) طبعة بولاق .

ابن باديس :
(كتاب آثار ابن باديس) اعداد وتصنيف عمار طالبي . طبعة الجزائر سنة ١٩٦٨ م .

ابن تغري بردى :
(النجوم الزاهرة) طبعة القاهرة .

ابن خلدون :
(المقدمة) طبعة القاهرة سنة ١٣٢٢ هـ .

ابن رشد :
(تهافت التهافت) طبعة القاهرة سنة ١٩٠٣ م .
(فصل المقال) دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة طبعة القاهرة سنة ١٩٧٢م .

ابن عبد ربه :
(العقد الفريد) طبعة لجنة التأليف والترجمة . القاهرة سنة ١٩٧١ م .

ابن عبد الوهاب :
(مجموعة التوحيد) طبعة المكتبة السلفية . القاهرة .

ابن عساكر :
(تهذيب تاريخ ابن عساكر) طبعة دمشق .

ابن منظور :
(لسان العرب) طبعة القاهرة .

ابن النديم :
(الفهرست) طبعة ليبزج سنة ١٨٧١ م .

ابو شامة :
(الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية) طبعة القاهرة سنة ١٢٨٧ هـ .

أبو يوسف :
(كتاب الخراج) طبعة القاهرة سنة ١٣٥٢ هـ .
أحمد مختار عمر (دكتور) :
(تاريخ اللغة العربية في مصر) طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠ م .
ارنولد (سير توماس) و(الدعوة إلى الاسلام) ترجمة :
د . حسن ابراهيم حسن ، د . عبد المجيد عابدين ، اسماعيل النحراوي . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠ م .
أسامة بن منقذ :
(الاعتبار) تحقيق : فيليب حتي . طبعة برنستون سنة ١٩٣٠ م .
الأصفهاني :
(الأغاني) طبعة دار الشعب . القاهرة .
الأفغاني (جمال الدين) :
(الأعمال الكاملة) دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨ م .
(العروة الوثقى) « مجموعة » طبعة القاهرة سنة ١٩٢٧م .
مجلة (المورد) العراقية - العدد الأول - المجلد السابع سنة ١٩٧٨م .
أوليري :
(مسالك الثقافة الاغريقية إلى العرب) ترجمة : د . تمام حسان . طبعة الانجلو . القاهرة .
البيضاوي :
(تفسير البيضاوي) طبعة القاهرة سنة ١٩٢٦ م .
التهانوي :
(كشاف اصطلاحات الفنون) طبعة القاهرة ، سنة ١٩٦٣ .
الجاحظ :
(الحيوان) تحقيق : عبد السلام هارون . طبعة القاهرة الثانية .

(البيان والتبيين) طبعة بيروت سنة ١٩٦٨ م .
(رسائل الجاحظ) تحقيق : عبد السلام هارون . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤ م .

جب : (دراسات في حضارة الاسلام) ترجمة : د . احسان عباس ، د. محمد نجم ، د . محمود زايد. طبعة بيروت سنة ١٩٦٤ م .

الجبرتي :
(عجائب الآثار) طبعة القاهرة سنة ١٩٥٨ م .

جيوم :
(الفلسفة وعلم الكلام) منشور ضمن مجموعة عنوانها (تراث الاسلام) ترجمة : جرجس فتح الله . طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م .

حاجي خليفة :
(كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون) طبعة استانبول سنة ١٩٤١ م .

حتي (فيليب) :
(تاريخ العرب) طبعة بيروت سنة ١٩٥٣ م .

خشيم (علي فهمي ـ دكتور) :
(الجبائيان : أبو علي وأبو هاشم) طبعة ليبيا سنة ١٩٦٨ م .

خير الدين التونسي :
(أقوم المسالك) ـ المقدمة ـ تحقيق : د . المنصف الشنوفي . طبعة تونس سنة ١٩٧٢ م .

الدجاني : (أحمد صدقي ـ دكتور) :
(الحركة السنوسية) طبعة بيروت سنة ١٩٦٧ م .

الدجيلي (عبد الصاحب) :
(الشعوبية) طبعة النجف سنة ١٩٦٠ م .

الزركلي (خير الـدين) :
(الأعلام) طبعة بيروت ، الثالثة .

الصادق المهدي :
(يسألونك عن المهدية) طبعة القاهرة سنة ١٩٧٥ م .

الطبري :
(التاريخ) طبعة دار المعارف . القاهرة .

الطهطاوي (رفاعة) :
(الأعمال الكاملة) دراسـة وتحقيق: د . محمد عمـارة . طبعة بيـروت سنة ١٩٧٣ م .

عبد الجبار بن أحمد (قاضي القضاة) :
(المغني في أبواب التوحيد والعدل) طبعة القاهرة .
(فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) تحقيق : فـؤاد سيد . طبعة تـونس سنة ١٩٧٢ م .

عبد الكريم الخطيب :
(الدعوة الوهابية) طبعة القاهرة سنة ١٩٧٤ م .

عبد المجيد عابدين (دكتور) :
(البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب) للمقريزي ـ الملحق ـ طبعة القاهرة سنة ١٩٦١ م .

الغزالي (أبو حامد) :
(الاقتصاد في الاعتقاد) طبعة صبيح ـ القاهرة .
(احياء علوم الدين) طبعة دار الشعب ـ القاهرة .
(تهافت الفلاسفة) طبعة القاهرة سنة ١٩٠٣ م .

القرطبي :
(الجامع لأحكام القرآن) طبعة دار الكتب المصرية .

الكواكبي (عبد الرحمن) :
(الأعمال الكاملة) دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٥ م .

لوثروب ستودارد :
(حاضر العالم الاسلامي) ترجمة : عجاج نويهض . . وتعليقات : شكيب ارسلان . طبعة بيروت سنة ١٩٧١ م .

الماوردي (أبو الحسن) :
(أدب الدنيا والدين) تحقيق : مصطفى السقا . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٣ م .
((أدب القاضي) تحقيق : محمد هلال السرحان . طبعة بغداد سنة ١٩٧١ م .

المبرد :
(الكامل) ـ باب الخوارج ـ طبعة دمشق سنة ١٩٧٢ م .

مجمع اللغة العربية (القاهرة) :
(معجم ألفاظ القرآن الكريم) طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠ م .

محمد ابراهيم أبو سليم (دكتور) :
(الحركة الفكرية في المهدية) طبعة الخرطوم سنة ١٩٧٠ م .

محمد حميد الله الحيدر آبادي :
(مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة) ، طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦م .

محمد عبده (الاستاذ الامام) :
(الأعمال الكاملة) دراسة وتحقيق :د . محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م .

محمد عمارة (دكتور) :

(فجر اليقظة القومية) طبعة القاهرة سنة ١٩٧٥ م .

(العروبة في العصر الحديث) طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨ م .

(الأمة العربية وقضية التوحيد) طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦ م .

(نظرة جديدة إلى التراث) طبعة بيروت سنة ١٩٧٤ م .

(الخلافة ونشأة الأحزاب الاسلامية) طبعة بيروت سنة ١٩٧٧ م .

(مسلمون ثوار) طبعة بيروت سنة ١٩٧٤ م .

(معارك العرب ضد الغزاة) طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م .

(المادية والمثالية في فلسفة ابن رشد) طبعة القاهرة سنة ١٩٧١ م .

(بناء المساجد وبناء الأهرامات) دراسة في مجلة (قضايا عربية) بيروت - أغسطس ، سبتمبر سنة ١٩٧٧ م .

محمد فؤاد شكري (دكتور) :

(مصر والسودان) طبعة القاهرة سنة ١٩٦٣ م .

محمد فؤاد عبد الباقي :

(المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم) طبعة دار الشعب القاهرة .

محمود قاسم (دكتور) :

(الامام ابن باديس) طبعة دار المعارف - القاهرة .

مختار المصري (باشا) :

(التوفيقات الالهامية) طبعة بولاق .

المسعودي :

(مروج الذهب) طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦ م .

المقريزي :

(الخطط) طبعة دار التحرير . القاهرة .

(السلوك) طبعة دار الكتب المصرية .

مكرم عبيد (باشا) :
مجلة (الهلال) ابريل سنة ١٩٣٩ م .

مكسيموس مونروند :
(تاريخ الحروب المقدسة في الشرق) ترجمة : مكسيموس مظلوم . طبعة القدس سنة ١٨٦٥ م .

المنجي الشملي :
(خير الدين باشا) طبعة تونس سنة ١٩٧٣ م .

المهدي (محمد أحمد) :
(منشورات المهدية) تحقيق : د . محمد ابراهيم أبو سليم . طبعة بيروت سنة ١٩٦٩ م .

النويري :
(نهاية الأرب) طبعة دار الكتب المصرية .

هانوتو (جبرييل) :
(الاسلام والرد على منتقديه) - مقالات منشورة ضمن هذا الكتاب - طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨ م .

ونسنك (أ . ي) :
(المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي) طبعة ليدن (١٩٣٦ - ١٩٦٩ م) .

للمؤلف

أ ـ تأليف :

١ ـ **القومية العربية ومؤامرات أمريكا ضد وحدة العرب**. طبعة أولى، وثانية : القاهرة . دار الفكر سنة ١٩٥٨ م .

٢ ـ **فجر اليقظة القومية** . طبعة أولى : دار الكاتب العربي . القاهرة سنة ١٩٦٧ م . طبعة ثانية : دار القاهرة للثقافة العربية . القاهرة ١٩٧٥ م . طبعة ثالثة : دار الوحدة . بيروت سنة ١٩٨١ م . طبعة رابعة : دار الوحدة . بيروت ١٩٨٤ م .

٣ ـ **العروبة في العصر الحديث** . طبعة أولى : دار الكاتب العربي . القاهرة سنة ١٩٦٧ م . طبعة ثانية : دار الوحدة . بيروت سنة ١٩٨١م . طبعة ثالثة : دار الوحدة . بيروت سنة ١٩٨٤ م .

٤ ـ **الأمة العربية وقضية الوحدة**. طبعة أولى : الدار المصرية للتأليف والترجمة . القاهرة سنة ١٩٦٦ م . طبعة ثانية : دار الوحدة . بيروت سنة ١٩٨١ طبعة ثالثة : دار الوحدة . بيروت سنة ١٩٨٤ م .

٥ ـ **إسرائيل . . هل هي سامية ؟** طبعة أولى : دار الكاتب العربي . القاهرة سنة ١٩٦٧ م .

٦ ـ **مسلمون ثوار** . طبعة أولى : دار الهلال سنة ١٩٧١ م . طبعة ثانية : بيروت . المؤسسة العربية للدراسات والنشر سنة ١٩٧٤ م . طبعة ثالثة بيروت . المؤسسة العربية سنة ١٩٧٩ م .

٧ ـ **عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين** . طبعة أولى : دار الهلال . القاهرة سنة ١٩٧٨ م . طبعة ثانية : بيروت . المؤسسة العربية للدراسات والنشر سنة ١٩٧٩ م . طبعة ثالثة : دار الوحدة . بيروت ١٩٨٥ م .

٨ ـ **الاسلام والوحدة الوطنية** . طبعة أولى . القاهرة سنة ١٩٧٩ م .طبعة ثانية : بيروت . المؤسسة العربية للدراسات والنشر سنة ١٩٧٩ م .

٩ ـ **قاسم أمين وتحرير المرأة** : طبعة أولى : القاهرة . دار الهلال سنة ١٩٨٠ م . طبعة ثانية : بيروت . المؤسسة العربية للدراسات والنشر سنة ١٩٨٠ م . طبعة ثالثة : دار الوحدة . بيروت سنة ١٩٨٥ م .

١٠ ـ **محمد عبده . مجدد الاسلام** . طبعة أولى : دار الهلال . القاهرة سنة ١٩٨٠ م . طبعة ثانية : المؤسسة العربية . بيروت سنة ١٩٨١ م . طبعة ثالثة : دار الوحدة بيروت سنة ١٩٨٥ م .

١١ ـ **جمال الدين الأفغاني ، موقظ الشرق وفيلسوف الاسلام** : طبعة أولى : بيروت . دار الوحدة سنة ١٩٨٤ م . (ودار المستقبل العربي . القاهرة سنة ١٩٨٤ م) .

١٢ ـ **عبد الرحمن الكواكبي ، شهيد الحرية ومجدد الاسلام** . طبعة أولى : بيروت . دار الوحدة سنة ١٩٨٤ م . (ودار المستقبل العربي . القاهرة سنة ١٩٨٤ م) .

١٣ ـ **علي مبارك ، مؤرخ المجتمع ومهندس العمران** : طبعة أولى : بيروت . دار الوحدة سنة ١٩٨٤ (ودار المستقبل العربي . القاهرة سنة ١٩٨٤) .

١٤ ـ **رفاعة الطهطاوي ، رائد التنوير في العصر الحديث** . طبعة أولى :

بيروت . دار الوحدة سنة ١٩٨٤ م . (ودار المستقبل العربي القاهرة سنة ١٩٨٤) .

١٥ ـ **المعتزلة ومشكلة الحرية الانسانية** . طبعة أولى : بيروت . المؤسسة العربية للدراسات والنشر سنة ١٩٧٢ م .

١٦ ـ **الخلافة ونشأة الأحزاب الاسلامية** . طبعة أولى : بيروت . المؤسسة العربية سنة ١٩٧٧ م . طبعة ثانية : بيروت . المؤسسة العربية سنة ١٩٧٩ م . [ضمن مجلد « الاسلام وفلسفة الحكم »] . طبعة ثالثة : القاهرة . دار الهلال سنة ١٩٨٣ م .

١٧ ـ **المعتزلة وأصول الحكم** . طبعة أولى : بيروت المؤسسة العربية سنة ١٩٧٧ م . طبعة ثانية : بيروت المؤسسة العربية سنة ١٩٧٩ م [ضمن مجموعة « الاسلام وفلسفة الحكم »] . طبعة ثالثة : القاهرة . دار الهلال سنة ١٩٨٤ م .

١٨ ـ **المعتزلة والثورة** . طبعة أولى : بيروت . المؤسسة العربية سنة ١٩٧٧ م . طبعة ثانية : بيروت المؤسسة العربية سنة ١٩٧٩ م . [ضمن مجموعة « الاسلام وفلسفة الحكم »] . طبعة ثالثة : القاهرة . دار الهلال سنة ١٩٨٤ م .

١٩ ـ **نظرة جديدة إلى التراث** . طبعة أولى . المؤسسة العربية سنة ١٩٧٤ م . طبعة ثانية : بيروت . المؤسسة العربية سنة ١٩٧٩ م .

٢٠ ـ **عندما أصبحت مصر عربية** . طبعة أولى : بيروت . المؤسسة العربية ١٩٧٤ م .

٢١ ـ **الجامعة الاسلامية والفكرة القومية عند مصطفى كامل** . طبعة أولى : بيروت . المؤسسة العربية سنة ١٩٧٦ م .

٢٢ ـ **معارك العرب ضد الغزاة** . طبعة أولى : بيروت . المؤسسة العربية سنة ١٩٧٢ م . طبعة ثانية : بيروت . المؤسسة العربية سنة ١٩٧٥ م .

٢٣ ـ **محمد عبده ، سيرته وأعماله** . طبعة أولى : بيروت . دار القدس سنة ١٩٧٨م .

٢٤ ـ **المادية والمثالية في فلسفة ابن رشد** : طبعة أولى : القاهرة . دار المعارف سنة ١٩٧١ م .

٢٥ ـ **العرب والتحدي** . طبعة أولى : الكويت ١٩٨٠ م . طبعة ثانية : بيروت . المؤسسة العربية سنة ١٩٨٢ م . طبعة ثالثة : القاهرة . دار الهلال سنة ١٩٨٢ م . طبعة رابعة ـ مزيدة ـ دار قتيبة ـ دمشق سنة ١٩٨٦ م .

٢٦ ـ **الفكر الاجتماعي لعلي بن أبي طالب** . طبعة أولى القاهرة . دار الثقافة الجديدة سنة ١٩٧٧م .

٢٧ ـ **العدل الاجتماعي لعمر بن الخطاب** . طبعة أولى القاهرة . دار الثقافة الجديدة سنة ١٩٧٨ م .

٢٨ ـ **نظرية الخلافة الاسلامية** . طبعة أولى القاهرة . دار الثقافة الجديدة سنة ١٩٨٠م.

٢٩ ـ **الاسلام والثورة** . طبعة أولى : القاهرة . دار الثقافة الجديدة سنة ١٩٧٩ م . طبعة ثانية : بيروت . المؤسسة العربية سنة ١٩٨٠م .

٣٠ ـ **الاسلام والسلطة الدينية** . طبعة أولى : القاهرة . دار الثقافة الجديدة سنة ١٩٧٩ م . طبعة ثانية : بيروت . المؤسسة العربية سنة ١٩٨٠ م .

٣١ ـ **الاسلام والحرب الدينية** . طبعة أولى : بيروت . دار الوحدة سنة ١٩٨٢ م .

٣٢ ـ **ثورة الزنج** . طبعة أولى : بيروت . دار الوحدة سنة ١٩٨٠ م [سبقتها طبعة شعبية في طرابلس ـ ليبيا] .

٣٣ ـ **التراث في ضوء العقل** . طبعة أولى : بيروت دار الوحدة سنة ١٩٨٠ م .

طبعة ثانية : دار الوحدة . بيروت سنة ١٩٨٤ م .

٣٤ ـ **الاسلام وقضايا العصر** . طبعة أولى : بيروت . دار الوحدة سنة ١٩٨٠ م . طبعة ثانية : دار الوحدة . بيروت سنة ١٩٨٤ م .

٣٥ ـ **الاسلام والعروبة والعلمانية** . طبعة أولى : بيروت . دار الوحدة سنة ١٩٨١ م . طبعة ثانية : دار الوحدة . بيروت سنة ١٩٨٤م .

٣٦ ـ **دراسات في الوعي بالتاريخ** . طبعة أولى : بيروت . دار الوحدة سنة ١٩٨١ م . طبعة ثانية : دار الوحدة . بيروت سنة ١٩٨٤ م .

٣٧ ـ **الاسلام وأصول الحكم ـ دراسة ووثائق ـ** طبعة أولى : بيروت . المؤسسة العربية سنة ١٩٧٢ م . طبعة ثانية : دار الهلال . القاهرة سنة ١٩٨٥ م .

٣٨ ـ **تيارات الفكر الاسلامي** . طبعة أولى : القاهرة . دار الهلال سنة ١٩٨٢ م . طبعة ثانية : القاهرة . دار المستقبل العربي سنة ١٩٨٤ م . طبعة ثالثة : دار الوحدة . بيروت سنة ١٩٨٥ م .

٣٩ ـ **تيارات اليقظة الاسلامية الحديثة** . طبعة أولى : القاهرة . دار الهلال سنة ١٩٨٢ م .

٤٠ ـ **الصحوة الاسلامية والتحدي الحضاري** . طبعة أولى : القاهرة . دار المستقبل العربي سنة ١٩٨٥ م .

٤١ ـ **الفريضة الغائبة ، عرض وحوار وتقييم** . طبعة أولى : القاهرة . دار ثابت سنة ١٩٨٢ م . طبعة ثانية : بيروت . دار الوحدة سنة ١٩٨٣ م .

٤٢ ـ **الفكر القائد للثورة الايرانية** . طبعة أولى : القاهرة دار ثابت سنة ١٩٨٢ م .

٤٣ ـ **الاسلام بين العلمانية والسلطة الدينية** . طبعة أولى : القاهرة . دار ثابت سنة ١٩٨٢ م .

٤٤ ـ **ماذا يعني الاستقلال الحضاري لأمتنا العربية الاسلامية ؟** . طبعة أولى :

القاهرة . دار ثابت سنة ١٩٨٣ م .
٤٥ ـ جمال الدين الأفغاني المفترى عليه . طبعة أولى : القاهرة . دار الشروق سنة ١٩٨٤ م .
٤٦ ـ الاسلام والمستقبل . طبعة أولى : القاهرة . دار الشروق سنة ١٩٨٥م .
٤٧ ـ العلمانية ونهضتنا الحديثة . طبعة أولى : دار الشروق . القاهرة سنة ١٩٨٦م .
٤٨ ـ الاسلام وحقوق الانسان . طبعة أولى . الكويت ـ عالم المعرفة ـ سنة ١٩٨٥م .
٤٩ ـ ظاهرة القومية في الحضارة العربية . طبعة أولى : الكويت سنة ١٩٨٣م .
٥٠ ـ الاستقلال الحضاري . طبعة أولى ـ مزيدة ـ دار الوحدة . بيروت سنة ١٩٨٦م.
٥١ ـ الدين والدولة . طبعة أولى . الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٦ م .
٥٢ ـ أبو الأعلى المودودي والصحوة الاسلامية . طبعة أولى . دار الوحدة . بيروت سنة ١٩٨٦ م .

ب ـ دراسة وتحقيق :
٥٣ ـ الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني . طبعة أولى : القاهرة . دار الكاتب العربي سنة ١٩٦٧ م . طبعة ثانية : بيروت . المؤسسة العربية سنة ١٩٧٩ م . [أربعة أجزاء ـ صدر منها اثنان] .
٥٤ ـ الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي . طبعة أولى : القاهرة . الهيئة العامة للتأليف والنشر سنة ١٩٧٠ م . طبعة ثانية : بيروت . المؤسسة العربية سنة ١٩٧٥ م . [طبعة ثالثة : تحت الطبع] .

٥٥ ـ **الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي** . طبعة أولى : بيروت . المؤسسة العربية سنة ١٩٧٣م . [ج ١ - ج٥] .

٥٦ ـ **الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده** . طبعة أولى : بيروت المؤسسة العربية سنة ١٩٧٢ م . طبعة ثانية : بيروت . المؤسسة العربية سنة ١٩٧٩م . [ج ١ - ج ٦] . [طبعة ثالثة : تحت الطبع] .

٥٧ ـ **الأعمال الكاملة لقاسم أمين** . طبعة أولى : بيروت . المؤسسة العربية سنة ١٩٧٦ م . [طبعة ثانية : تحت الطبع].

٥٨ ـ **الأعمال الكاملة لعلي مبارك** . طبعة أولى : بيروت . المؤسسة العربية سنة ١٩٧٩ م . [عشر مجلدات ـ صدر منها أربعة].

٥٩ ـ **رسائل العدل والتوحيد** . طبعة أولى : القاهرة . دار الهلال سنة ١٩٧١ م . [ج ١ ، ج ٢] [طبعة ثانية : تحت الطبع] .

٦٠ ـ **فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال ـ لابن رشد** ـ طبعة أولى : القاهرة . دار المعارف سنة ١٩٧٢م . طبعة ثانية بيروت . المؤسسة العربية سنة ١٩٨٢م . طبعة ثالثة . دار المعارف سنة ١٩٨٥م .

٦١ ـ **الاسلام والمرأة في رأي الإمام محمد عبده** . طبعة أولى : القاهرة . دار القاهرة سنة ١٩٧٥ م . طبعة ثانية : القاهرة . دار الهلال سنة ١٩٧٩ م . طبعة ثالثة : بيروت . المؤسسة العربية سنة ١٩٨٠ م . طبعة رابعة . دار المستقبل العربي . القاهرة سنة ١٩٨٥ م .

٦٢ ـ **رسالة التوحيد ـ للإمام محمد عبده** . طبعة أولى : القاهرة . دار الهلال سنة ١٩٨٠ م . طبعة ثانية : بيروت . المؤسسة العربية سنة ١٩٨١ م .

٦٣ ـ **كتاب التوفيقات الالهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الافرنكية والقبطية** [ج ١ ، ٢] . طبعة أولى : بيروت . المؤسسة العربية سنة ١٩٨٠م .

٦٤ ـ نقض كتاب الاسلام وأصول الحكم . للشيخ محمد الخضر حسين . (تحت الطبع) .

ج ـ بالاشتراك مع آخرين :

٦٥ ـ القرآن : نظرة عصرية جديدة . طبعة أولى : بيروت . المؤسسة العربية سنة ١٩٧٢م .

٦٦ ـ محمد : نظرة عصرية جديدة . طبعة أولى : بيروت . المؤسسة العربية سنة ١٩٧٢ م .

٦٧ ـ عمر : نظرة عصرية جديدة . طبعة أولى : بيروت . المؤسسة العربية سنة ١٩٧٣م .

٦٨ ـ علي : نظرة عصرية جديدة . طبعة أولى : بيروت . المؤسسة العربية سنة ١٩٧٤م .

فهرس المحتويات

التمهيد ٥
الفصل الأول : بالفتوحات واجهوا محاولات الاحتواء ٢١
الفصل الثاني : الشخصية القومية تواجه العصبيّة والتعصّب ٤٧
الفصل الثالث : بالعقل انتصرت العروبة ، وانتشر الإسلام ٧١
الفصل الرابع : الفروسية العربية تواجه الفرسان الصليبيين ١١١
الفصل الخامس : العرب يستيقظون ويواجهون :
التخلف العثماني والتقدم الأوروبي.............. ١٣٧
١ ـ الوهابية : الإسلام العربي ، والخلافة العربية ١٤٤
٢ ـ السنوسية والتحديات الثلاثة ١٥١
٣ ـ المهدية : الشعب يقاوم بالأسطورة ١٦٣
٤ ـ النهضة المصرية . والاستقلال الحضاري ١٨٠
٥ ـ وتيار : فلنبدأ من حيث انتهت أوروبا في التمدن المدني ١٩٤
ـ رفاعة رافع الطهطاوي ١٩٤
ـ خير الدين التونسي ٢٠٧
٦ ـ وتيار : السلفية .. العقلانية .. المستنيرة ٢١٨
ـ أبرز الأعلام ٢٢٤
ـ في مواجهة : فكرية العصور الوسطى ٢٣٠
ـ وفي مواجهة : السلطة الدينية ٢٤٨
ـ ومع العروبة .. ضد التيار اللاقومي ٢٥١

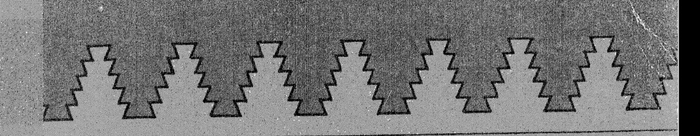
ـ ومع الديمقراطية . . ضد الاستبداد ٢٧٢
ـ وبالثورة الوطنية . . ضد الاستعمار ٢٧٧
ـ وحضارة : جديدة . . ومتميزة ٢٨٤
والخلاصة في كلمات ٢٩٣
المصادر ٢٩٥
للمؤلف ٣٠٣
فهرس المحتويات ٣١٣

رقم الايداع ٩٦٦٧/١٩٩٠
الترقيم الدولى × ـ ٠٠٧٩ ـ ٠٩ ـ ٩٧٧

مطابع الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسنى ـ هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ ـ ٣٩٣٤٨١٤
بيروت: ص ب ٨٠٦٤ ـ هاتف ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣

الغلاف للفنان حلمى التونى



العرب والتحدي

تاريخ هذه الأمة هو سلسلة من التحديات ؟ ! ..

- فبالفتوحات الإسلامية أزاح الشرق موجة السيطرة « الإغريقية ـ الرومانية » ، التى بدأها الإسكندر الأكبر ، قبل الميلاد ! ..
- ولقد جاء الصليبيون لاستعادة الشرق ، مرة أخرى ! .. فاقتلعتهم دول الفروسية الإسلامية ، بعد قرنين من الزمان ! ..
- ومنذ مائتى عام جاء نابليون ليعيد أحلام الإسكندر من جديد ! ...

وإذا كان الوعى بالتاريخ هو واحد من أمضى أسلحة الأمم فى الصراعات.. وفى الصمود .. وفى النهوض .. فإن الرسالة التى ينهض بها هذا الكتاب هى الكشف عن القوانين التى حكمت صراع أمتنا مع الأعداء الذين فرضوا عليها هذه التحديات عبر تاريخها الطويل.. لا لمجرد الوعى بتاريخ هذا الصراع .. وإنما ـ أيضاً ـ للاستعانة به على مواجهة التحديات التى نواجهها فى الواقع الذى نعيش فيه ! ..